المركز القومى للترجمة

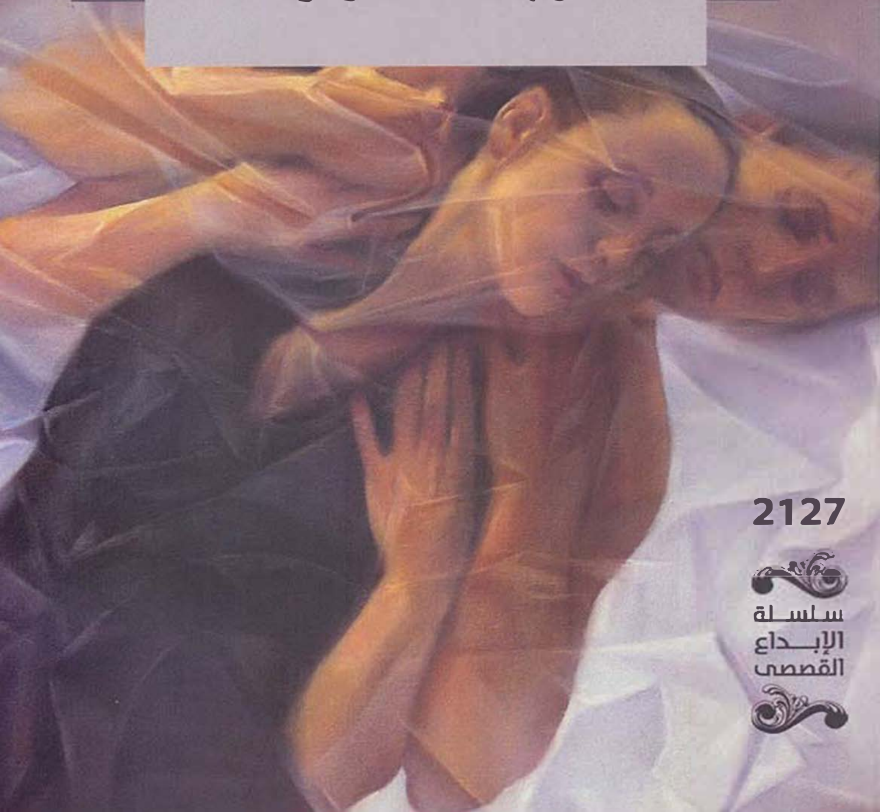
نيكوس كازانتزاكيس

أليكسيس زوربا

سيرته وحياته

ترجمة: خالد رءوف

المشروع القومى للترجمة



2127

سلسلة الإبداع القصصى

أليكسيس زوربا

سيرته وحياته

تأليف : نيكوس كازانتزاكيس

ترجمها عن اليونانية : خالد رءوف

2013

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2127
- أليكسيس زوربا: سيرته وحياته
- نيكوس كازانتزاكيس
- خالد رءوف
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

ΒΙΟΣ ΚΑΙ ΠΟΔΙΤΕΙΑ ΤΟΥ ΑΛΕΞΠ ΖΟΡΜΠΑ

ΝΙΚΟΥ ΚΑΖΑΝΤΖΑΚΗ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كازانتزاكيس، نيكوس

أليكسيس زوربا: سيرته وحياته؛ تأليف: نيكوس كازانتزاكيس؛

ترجمها عن اليونانية: خالد رءوف

ط ١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٥٢٨ ص، ٢٠ سم

(أ) رءوف، خالد (مترجم)

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١٢/٣٦٥١
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-704-963-4)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

كلمة المترجم

أليكسيس زوربا ليس شخصية من وحى خيال الكاتب بشكل كامل، بل إنّه شخصية واقعية، تناولها - بشكل فنى بارع - الأديب الكبير متعدد المواهب، الفيلسوف الشاعر الروحانى نيكوس كازانتزاكيس. وزوربا اليونانى - كما هو معروف لدينا - بفضل الفيلم السينمائى البديع للمخرج يانيس كاكويانيس، والذى جسد فيه أنتونى كوين بمهارة دور اليونانى الأشهر: (زوربا)، بالإضافة إلى ترجمات عربية سابقة للرواية.

أزعم بأن هذه قد تكون المرة الأولى التى تُترجَم فيها هذه الرواية عن اللغة اليونانية (الأصلية)، وهو أمر يجبرنا أن نخوض فى حديث طويل حول الترجمة عبر لغات وسيطة، كما حدث فيما سبق فى بعض الترجمات للرواية نفسها إلى العربية عبر لغات وسيطة، ومنها الفرنسية والإنجليزية - لست بصدد محاكمة الترجمات السابقة بالطبع - إنّما الترجمة عن اللغة الأصلية فى تقديرى تضمن لنا الابتعاد عن الخوض فى مثل هذه الهواجس.

الترجمة يجب أن تقدم صورة طبق الأصل من أفكار الكاتب وما يريد إيصاله إلى القارئ، ودور المترجم هو الوسيط الذى يقوم بنقل تلك الأفكار من اللغة الأصلية إلى اللغة المنقول إليها بأكبر قدر ممكن من الأمانة، بلا حذلقة أو فذلكة غير مطلوبتين. ولست من المؤمنين بما يسمى بوجهة نظر المترجم فى النص المراد ترجمته وتوصيله إلى القارئ - بالطبع لا بد أن يكون واعيًا وقادرًا على فهم نوع النص الذى يترجمه ونقده - إنّما أعنى ما يشاع أو ما كان يشاع قبلاً عن أنه يجب أن يظهر فى الترجمة لون يميز المترجم ووجهة نظره ! إذا كان يجب أن يكون للمترجم وجهة نظر فلن تكون سوى مدى قدرته و جودته فى إيصال أفكار الكاتب وأهدافه فقط ولا غير. أردت فقط أن أنوه عن هذا لما قد يجده القارئ من اختلاف فى هذه الترجمة التى هى عن اللغة الأصلية، وربما سوف يلاحظ القارئ الذى تناول ترجمات سابقة للرواية أن بهذه الترجمة تفاصيل أكثر، وتناولاً أوسع وأعمق أحيانًا، والفضل فى هذا يعود إلى النسخة الأصلية من الرواية اليونانية.

لقد أمضيت وقتًا ممتعًا فى معايشة أليكسيس زوربا وصديقه كازانتزاكيس أثناء ترجمة هذا العمل الخالد، آملاً أن يعيش القارئ المتعة ذاتها أو ما يفوقها.

خالد رءوف

مقدمة المؤلف

لطالما كانت لدى رغبة شديدة فى أن أكتب سيرة أليكسيس زوربا وحياته، هذا العامل العجوز الذى أحببته كثيراً.

من أعظم الأشياء التى ساعدتنى فى مشوار حياتى وخففت على وطأتها كانت الرحلات والأحلام. أما البشـر الذين هم على قيد الحيـاة أو من وافتهم المنية، فقليل منهم من ساعدنى فى معركتى مع الحياة. لكن، إذا أردت أن أفصّل أياً من الأشخاص هؤلاء ترك أثراً فى روحى، ربما اخترت منهم ثلاثة أو أربعة أشخاص هم: هوميروس وبرجسون ونيتشه وزوربا.

هوميروس بالنسبة إلىّ عينٌ صافية مضيئة - مثل قرص الشمس تماماً - يضفى أشعته بكرم على كل الأشياء، وبرجسون كان يخفف عنى بعض الأمور الفلسفية والصراعات الروحية المعقدة التى كانت تعذبنى فى سنى شبابى الأولى، ونيتشه كان يثرى رُوحى بصراعات حديدية وعلمنى أن أحول التعاسة ومرارة الحزن والشك إلى فخر أما زوربا فقد علمنى أن أحب الحياة وألاّ أخاف الموت.

لو كان مفروضًا علينا فى العالم أن نختار مرشدًا روحيا كما يسميه الهنود، أو قسًا حكيمًا عجوزًا كما يسميه الرهبان فى جبل أثوس، فمن المؤكد أننى كنت سأختار زوربا.

هذا الرجل لديه كل ما يحتاجه أى شخص مثقف كى ينجو: العين البرية التى ترصد غذاءها بحدة الإبداع، البساطة المتجددة كل صباح بأن يرى كل شىء لأول مرة ويمنح العناصر اليومية الأبدية عذرية خاصة، والهواء والبحر والنور والمرأة والخبز ويقين الكف وطزاجة القلب والشجاعة فى أن يسخر من ذاته وروحه، كأن لديه قوة أخرى أقوى وأرقى من الروح، وأخيراً، ضحك صاخب يأتى من نبع عميق أعمق من أحشاء الإنسان، وضحك ينفجر فى صدر زوربا العجوز فى اللحظات الحرجة؛ فيشفى ويحرر كل الآلام؛ كما كان يفجر ويستطيع أن يهدم بل وكان يهدم كل عائق: الأخلاق والدين والوطن: هذه الأشياء التى كان الإنسان الجبان يمارسها بدأب كى يعبر درب حياته الآمنة كالأعرج.

عندما أفكر وأقارن بين نوع الغذاء الذى كانت تمنحه لى الكتب والمعلمون كل هذه السنوات؛ كى تشبع روح شرهة، وبين عقل الوحوش الذى كان زوربا يغذينى به فى هذه الشهور القليلة، يصعب علىَّ أن أسيطر على غضبى وحزنى. راحت حياتى هباء محض صدفة؛ فقد تجاوبت مع مرشدى الروحى ببطء شديد؛ ففى ذلك الوقت كان كل ما هو قابل للإنقاذ فى روحى غير ذى أهمية.

فلم يحدث ثمة تغير شامل وجذرى ولم يحدث التجدد ولا التوهج. كان الوقت متأخراً لهذا. وهكذا؛ وبكل أسف، بدلاً من أن يصبح زوربا معياراً منتظماً للحياة، انحطَّ وصار نموذجاً أدبيًا صار موضوعًا ألطخ به الحبر على الأوراق.

تلك الهبة؛ أن تصنع من الحياة فنًا وتصبح فى العادة لبعض الأرواح شيئًا بغيضاً. حيث إنه بهذا الشكل لا تجد الرغبة مخرجًا، فتهرب من الصدر وترتاح الروح، لن تعود تشعر بالألم، ولا بشعور الجسد وهو يدفع الجسد، وتتدخل مباشرة فى الحياة والفعل، ولن تسعد بالتباهى بلهفة الإحساس بالماء والهواء يتدفق وينساب من بين الأصابع.

لكنها تفخر وتتباهى؛ تظن أنها تأتى بعمل سامٍ، فى تلك اللحظة الزائلة التى لا تعوض - الزمن الأبدى الوحيد الذى له جسد ودماء - تظن أنها تحوِّله إلى الأبدية. وهكذا انحدر زوربا؛ هذا الكائن المليئة عظامه وجسده بالحيوية والحياة وتحول إلى حبر على ورق. دون أن أريد، على العكس بالطبع كنت أريد العكس تماماً وكانت أسطورة زوربا تتحجر وتتحول إلى كريستال فى داخلى. بدأت فى أحشائى تحولها وتفاعلها السرى، وفى البداية كانت موسيقى متوترة ونشوة ملتهبة ومزعجة، وكأنما جسم غريب دخل فى دمائى وراح جسدى يحاربه ليروضه ثم يقهره ويتخلص منه بامتصاصه. وحول هذه النواة بدأت الكلمات تنهمر، وتحيط هذا الجسم الغريب وتطعمه كالجنين. راحت الذكريات الباهتة تثبت، والبهجة والحزن الغارقان يطفوان، وتحولت الحياة إلى أثير أكثر خفة، وصار زوربا مجرد قصة.

لم يكن واضحًا لدى الشكل الذى كنت أريد أن أعطيه لقصة زوربا: رواية أو أغنية أو حكاية خيالية من حكايات التراث، أو أقص بشكل مباشر تلك الحورات التى كنا نتبادلها على أحد شواطئ جزيرة كريت حيث عشنا سويًا، ونظن أننا كنا نحفر بحثًا عن الفحم. كنا نعلم أنا وهو أن عملية البحث وهذا المشروع كان محض أكذوبة، رمادًا ننثره فى عيون الناس؛ كنا نتعجل غروب الشمس، ومغادرة العمال، كى نجلس سويًا على الرمال نتناول طعامًا قرويًا ونحتسى النبيذ الكريتى اللاذع ونبدأ فى الحوار.

فى أغلب الأحيان لم أكن أتكلم؛ ماذا عساه أن يقول إنسان «مثقف» إلى تنين؟ كنت أستمع إليه يحكى لى عن قريته فى جبال الأوليمب، عن الثلوج والذئاب والباعة المتجولين والقديسة صوفيا، والمناجم والحجارة البيضاء والنساء والرب والوطن والموت، وفجأة وعندما كان يصيبه الملل وكانت الكلمات لا تتسع لروحه؛ كان يقفز واقفًا ويهم بالرقص فوق حصى الشاطئ الغليظ.

عجوز نحيل مستوى القوام برأس مائل إلى الخلف، بعينين مستديرتين تشبهان عَيْنَىْ طائر وكان يرقص ويصرخ ويضرب الأرض بقدمية المتقشفتين على ماء البحر فينثر ماءه على وجهى.

لو كنت قد استمعت إلى صوته – لا ليس صوته، إلى صرخته – لكانت اكتسبت حياتى قيمة وكنت سأعيش بجسدى ودمى وعظامى ما أحاول أن أتأمله من أفكار وفلسفات أؤلفها وأكتبها وأنثرها على الأوراق.

لكن لم تكن لدى الجرأة - كنت أرى زوربا فى منتصف الليل يرقص ويصهل ويصيح - بأن أنهض وأخرج من قوقعة التعود والهدوء المريحة وأخرج معه إلى رحلات بعيدة، وكنت أقف متجمداً مرتعشاً.

شعرت بالخجل مرات عديدة فى حياتى وعندما كنت أقبض على روحى متلبسة بعدم الجرأة أن تفعل كل ماهو جنون عظيم - جوهر الحياة - عندما كان ينادينى ولكننى لم أخجل من روحى قط مثلما كنت أخجل أمام زوربا.

ذات صباح، عند الفجر، افترقنا وذهبت أنا مرة أخرى إلى خارج البلاد تحت تأثير مرض فاوستى مزمن اسمه التعلم؛ أما هو فقد ذهب نحو الشمال واستقر فى أحد جبال صربيا، حيث اكتشف - كما يقول - منجماً للأحجار الكريمة هناك، فأقام الورش وجمع العمال والمعدات وراح يفجر الصخور ويفتح فى الأرض طرقًا وأنفاقًا. بنى بيتًا وتزوج العجوز من أرملة شابة جميلة كانت تدعى ليوبا وأنجب منها طفلاً.

فى أحد الأيام فى برلين، تلقيت منه برقية تقول: «وجدت حجارة خضراء رائعة الجمال، تعال على الفور. زوربا».

كانت فى ألمانيا مجاعة فى ذلك الوقت. انهارت قيمة المارك الألمانى ووصلت إلى الحضيض، حتى لو كنت تريد أن تشترى شيئًا تافهًا لابد أن تحمل ملايين الماركات معك فى أكياس؛ ولو ذهبت إلى المطعم كى تأكل، ستحمل معك كمية هائلة من الأوراق المالية ملفوفة فى كيس

وسادة، ووقت دفع الحساب كنت تفرغه على الطاولة كي تدفع؛ وجاء الوقت الذى كنت تحتاج فيه مئات الملايين من الفرنكات كي تبتاع طابع بريد.

الجوع والبرد وسترات مثقوبة وأحذية مهترئة وحتى خدود الألمان الحمراء صارت صفراء شاحبة. الهواء بارد مثلج فى الخريف؛ وكان الناس يسقطون فى الشوارع مع أوراق الأشجار، وكانوا يعطون للأطفال قطعًا من المطاط كي يمضغوها، فيتحايلون بذلك على الجوع ولا يبكى الأطفال، وكان أفراد الشرطة يصطفون على جسور الأنهار حتى لا تنتحر الأمهات غرقًا فى النهر وهن يحملن أطفالهن الرضع بين أيديهن بحثًا عن النجاة من هذا الوضع البائس.

كان الجليد يسقط فى الشتاء وفى الغرفة التى بجوارى كان يسكن مدرسٌ للأدب الصينى، ولكى يتدفأ؛ كان يمسك بفرشاة فى وضع غير مريح كما يفعل أهل الشرق الأقصى؛ ويحاول أن ينسخ كتاب الأغانى الصينية القديمة أو بعض أحكام كونفوشيوس وكان سن الفرشاة مع كوعه وقلبه تشكّل مثلث الحكيم.

وبعد دقائق قليلة، كان يقول لى بسعادة: سيبدأ العرق يتساقط من إبطى وهكذا أتدفأ.

فى هذه الأيام المريرة تلقيت برقية زوربا. فى البداية غضبت. الملايين من البشر ينهارون ويركعون لأنهم لا يملكون كسرة خبز كى

يستجمعوا أرواحهم بين عظامهم؛ وهاهى البرقية تدعونى لأن أنتقل آلاف الأميال كى أرى كم هو جميل الحجر الأخضر! اللعنة على الجمال، قلت، لأنه بلا قلب ولا يشعر بآلام البشر.

لكننى ارتعدت فجأة؛ هــدأ غضبى وبدأت أشعــر منزعجًا كيــف أن صيحة زوربا اللاإنسانية تلقى صــدى وتتــواءم مع صرخة أخرى لا إنسانية بداخلى.

طير برى بداخلى أخذ ينفض جناحيه بقوة كى يرحل.

لكننى لم أرحل؛ لم أجرؤ مرة أخرى ولم أركب القطار ولم أستجب للصيحة الإلهية الوحشية بداخلى ولم أرتكب هذا الفعل الشجاع الأحمق. استجبت لصوت المنطق البارد المعتدل الإنسانى، وأخذت القلم وكتبت لزوربا أشرح له...

وقد أجابنى قائلاً:

«معذرة يا سيدى، فأنت مثقف، وكان يمكنك أيها المسكين أن ترى حجرًا أخضرَ جميلاً لمرة فى حياتك ولكنك لم تره، وبحق الرب كنت أجلس أحيانًا وأنا فى العمل أفكر: هل هناك جحيم حقًا؟ لكن بالأمس عندما تلقيت خطابك وقلت: بالتأكيد؛ لابد أن يكون هناك جحيم لبعض المثقفين أمثالك»!

بدأت الذكريات تتدافع بسرعة وحان وقت ترتيبها. لنتناول حياة زوربا وسيرته من البداية. حتى أن أكثر الأحداث والمواقف تفاهة بدأت

تلمع فى ذهنى بوضوح فى هذه اللحظة، مثل أسماك ملونة تسبح بسرعة فى بحر صافٍ.

لم يمت شيءٌ منه بداخلى، كل ما لمسه زوربا صار خالدًا، لكن فى تلك الأيام كان هناك شيءٌ يزعجنى: قد مر عامان دون أن أتلقى خطابًا منه، لا بد أنه قد بلغ الثمانين من عمره، ربما هو فى خطر وبالتأكيد حياته فى خطر، وإلاَّ، لن أستطيع تفسير الحاجة المفاجئة التى سيطرت على وبدأت تلح بأن أكتب كل ما يتعلق به ويخصه والحاجة بأن أتذكر كل ما قال وكل ما فعل، وأن أدوِّن كل هذه الأشياء والذكريات على الأوراق، حتى لا ترحل. وكأننى أريد أن أصنع تعويذة لأطرد الموت؛ موته. لست بصدد صنع كتاب؛ بل نصب تذكارى.

أرى الآن هناك تفاصيل النصب التذكارى وحفل التأبين، وحلوى التأبين المرشوشة بالسكر مكتوبًا عليها بالقرفة واللوز: أليكسيس زوربا. أنظر إلى الاسم وفجأة ينتفض بحر كريت اللازوردى ويغمر عقلى: كلمات وضحكات ورقص وسُكْر وقلق وحوارات هادئة عند الغروب وعينان مستديرتان مثبتتان فوقى برفق ومودة وكأنهما ترحبان بى كل لحظة، وكأنهما تودعاننى كل لحظة إلى الأبد.

وكما هو الحال عندما ننظر إلى طبق الحلوى فى حفلات التأبين؛ تبقى الذكريات معلقة فى قلوبنا كالخفافيش تمامًا. ودون قصد تعرقلت منذ اللحظة الأولى بشبح زوربا وشبح آخر محبب إلى قلبى ظهر خلفه،

ظهر دون إنذار، امرأة عجوز مهترئة عليها كل أنواع الطلاء والحلى وآلاف القبل من آلاف العشاق وكنا قد قابلناها أنا وزوربا على أحد الشواطئ الرملية فى جزيرة كريت، عند الخليج الليبى...

بالطبع إن قلب الإنسان خندق ملىء بالدماء، وعندما يفتح تجرى كل الأشباح الحزينة لتشرب منه كى تستمد الحياة وهذه الأشباح التى تتزايد حولنا شيئًا فشيئًا حتى يظلم الهواء تجرى لتشرب دماء قلوبنا؛ لأنها تعرف أن ليس ثمة وسيلة أخرى. وأمام الجميع فى المقدمة يأتى زوربا بخطواته الواسعة وينحى كل الأشباح جانبًا؛ لأنه يعرف أن: هذا التأبين اليوم يحدث من أجله.

فلنعطه إذن دماءنا ليحيا .

لنفعل ما نستطيع كى تمتد حياة هذا الإنسان الرائع ،

الأكول ، السكير ، المحب للعمل ، زير النساء وأشياء أخرى كثيرة .

أكثر الأرواح اتساعاً ، أكثر الأجساد يقيناً ،

أكثر الصرخات حرية

عرفت فى حياتى .

نيكوس كازانتزاكيس

تعرفت إليه لأول مرة فى بيرايوس. كنت قد نزلت إلى الميناء كى أستقل المركب إلى جزيرة كريت ومع اقتراب بزوغ الفجر وكانت السماء تمطر، ورياح شرقية شديدة تهب حتى أن دفقات من ماء البحر كانت تصل إلى المقهى الصغير والأبواب الزجاجية كانت مغلقة وكانت رائحة الهواء مزيجًا من رائحة عفن بشرية و نبات الميرمية والجو كان باردًا خارج المقهى الذى غطى زجاجه بخارٌ من أنفاس زبائنه وخمسة أو ستة من البحارة الساهرين مرتدين قمصانًا بنية ثقيلة مصنوعة من شَعر الماعز ويحتسون القهوة والميرمية وينظرون إلى البحر من خلف النوافذ الزجاجية المغبشة.

الأسماك التى أصيبت بالدوار من فرط ضربات العاصفة، وجدت ملاذًا فى أعماق المياه الهادئة منتظرةً أن يحل الهدوء فى العالم العلوى؛ والصيادون بدورهم محشورون فى المقاهى ينتظرون متى تزول الغضبة الإلهية ومن ثم يزول الخوف عن الأسماك فتصعد إلى وجه الماء لأجل الطعام، وأسماك موسى والترس وأسماك الخنزير تعود من جولاتها الليلية لتنام. بدأ الفجر يطلع.

فُتح الباب الزجاجي؛ شخص قصير القامة متين البنية من عمال الميناء؛ كان حاسر الرأس، حافي القدمين، ملطخًا بالطين.

- يا قسطنطين.

صاح بحار عجوز مرتديًا سترة هندية ضيقة من قماش غليظ: كيف حالك يا بني؟

- كيف يكون حالي؟ أجاب حانقًا.

صباح الخير أيها المقهى! صباح الخير في المقهى! مساء الخير في البيت! هكذا هي حياتي. أما العمل، يوك[1]!

ضحك البعض، والبعض الآخر هزوا رؤوسهم متفقين معه، وأخذوا في ندب الحظ مطلقين العنان للعناتهم.

- ما الدنيا إلا سجن مؤبد.

قال ذو الشاربين، الذي - فيما يبدو - درس فلسفة مسرح القراقوز وراح يردد عباراته عن اقتناع: ماهي إلا سجنٌ مؤبد عليها اللعنة.

ضوء أخضر مائل إلى الزرقة ناعم غمر الزجاج المتسخ ودخل إلى المقهى وتعلق على الأيادي والأنوف والجباه وقفز على المدفأة وبدت الزجاجات مشتعلة والمصابيح الكهربية فقدت دورها؛ حتى أن صاحب المقهى الذي بدا ثملاً من فرط السهر مد يده وأطفأها.

---

(١) يوك: تعني لا بالتركية، وغالبًا ما يستخدمها سكان اليونان. (المترجم)

لحظة من الصمت. ارتفعت كل العيون وأخذت تنظر نحو اليوم الملطخ بالطين فى الخارج.

سُمع صوت الأمواج وهى تتحطّمُ ملتحمًا مع صوت قرقرة النارجيلات داخل المقهى. تنهد البحار العجوز، وقال بصوت مرتفع:

– يا أصحاب، تُرى ماذا يجرى مع القبطان ليمونى؟ ليمُد له الرب يد العون!

ونظر بغضب نحو البحر وقال بعد أن أطلق بصقةً: يا مفرق الرجال عن نسائهم وذويهم! أخذ يهمهم وهو يعض على شاربه الرمادى.

كنت جالسًا فى إحدى زوايا المقهى وشعرت بالبرد وطلبت كوبًا آخر من شراب الميرمية وكنت أقاوم الإحساس بالنعاس والتعب والحزن الذى يتسلل إلى النفس فى البكور، وكنت أنظر من النوافذ المغبشة نحو الميناء الذى بدأ يستيقظ، وأبواق المراكب بدأت تجلجل وتختلط بأصوات الحمالين وأصحاب القوارب.

وفيما كنت سارحًا فى النظر وشبكة مغزولة من البحر والمطر والهواء والهجرة أحكمت خيوطها الكثيفة حول قلبى.

ثَبَّتُ عينى فى مواجهة المقدمة السوداء للمركب الكبير الذى ما يزال مغمورًا بالمياه وكان المطر يهطل، وكنت أرى خيوط المطر تصل السماء بالوحل.

وبينما كنت أنظر إلى الباخرة السوداء وإلى الظلال والمطر، شيئًا فشيئًا، بدأت تتشكل ملامح وجه حزنى، وبدأت الذكريات تطفو وتستقر

عليّ في هذا الهواء الرطب، وكأنه مصنوع من المطر والاشتياق. متى؟ في العام الماضي؟ في حياة أخرى؟ بالأمس؟ متى؟ عندما جئت إلى ذات الميناء كي أودعه وأذكر المطر والبرد في ذاك الصباح أيضًا، وقلبي كان مثقلاً بالأحزان.

الفراق البطيء عن الأحباب هو كحبة الدواء المريرة؛ فالأفضل أن تنفصل عنهم بشكل سريع وبحدة وتعود مرة أخرى إلى البيئة الطبيعية للإنسان وإلى العزلة.

لكن في هذا الفجر المطير ولم يكن باستطاعتي أن أنفصل عن صديقي. (شعرت فيما بعد وللأسف متأخرًا جدًا لماذا؟) كنت قد صعدت معه إلى المركب وجلست في مقصورته بين الأمتعة المبعثرة وكنت أنظر إليه ببطء متفحصًا إياه وعندما كان يشرد بعيدًا وكأني أسجل قسماته الواحدة تلو الأخرى ولون عينيه الأخضر المائل إلى الزرقة ووجهه الممتلئ المفعم بحيوية فتية وتعبيرات وجهه الفخورة الأنيقة ناهيك عن يديه الأرستقراطيتينِ بأصابعهما الطويلة.

ذات مرة انتبه إلى على حين غرة وأنا أتمعن في قسماته بدقة؛ التفت إلى بتعبير وجهه الساخر الذي يلجأ إليه عندما يريد أن يخفي تأثره الشديد واكتشفني؛ لكنه فهم. ولكي يتفادى ورطة حزن الفراق سألني بابتسامة ساخرة:

- إلى متىَ؟

- ماذا تقصد بإلى متى؟

- إلى متى ستظل تأكل الأوراق وتلطخ نفسك بالأحبار؟ تعال معى إلى هناك فى القوقاز آلاف من بني شعبنا يتعرضون للخطر؛ هيا بنا لننقذهم.

ضحك كمن أراد أن يهزأ من نيته النبيلة.

- من الممكن بالطبع ألا ننقذهم، أضاف، لكننا سننقذ أنفسنا فى محاولتنا لإنقاذهم. أليس كذلك؟ نصائح كهذه لا تُسدى إلى يا سيدى؟ «السبيل الوحيد كى تنقذ نفسك هو أن تناضل من أجل إنقاذ الآخرين...» هيا يا معلم يا من تجيد إلقاء المواعظ... هيا معى!

لم أستجب. « أيها الشرق المقدس الذى شهد ميلاد الآلهة، أيتها الجبال الشامخة النبيلة، إن صرخة بروميثوس لا تزال مسمّرةً على صخورك.. إن شعبنا لا يزال مسمّراً على نفس الصخور ويصرخ ومعرضاً للخطر؛ لا يزال يصرخ ويتوسل لأحد أبناء قومه أن يأتى لإنقاذه.

وأنا أستمع غير مبالٍ، كأنّ الألم حلم عابر، وكأن الحياة مسرحية تراجيدية مثيرة، وإنّه من الفوضوية والهمجية والسذاجة أن تثب من مقاعد المتفرجين إلى خشبة المسرح متدخلاً فى المشهد.

هبَّ صديقى واقفًا دون أن ينتظر ردًا منى وانطلقتْ صفارة المركب للمرة الثالثة ومد إلىّ يده:

- إلى اللقاء يا قارض الأوراق! قالها هازئًا كى يخفى تأثره.

كان يعرف أنه من الخزى ألا يتحكم المرء فى قلبه ومشاعره. دموع كلام رقيق وإشارات مرتبكة وحميمية زائدة شعبية ورفع الكلفة كانت تبدو له من القبائح التى لا تليق بمقام الرجال. لم يدر بيننا - وإن كان كل منا يحب الآخر - حوار رقيق أبداً، وكنا نلعب ونتصارع كالوحوش وكان هو الأنيق المتحضر الساخر؛ وكنت أنا البربرى، وكان متحفظاً متماسكاً يُعبِّر عن كل ما فى روحه من أحاسيس بدماثة ودائمًا بابتسامة؛ وكنت أنا فظًا؛ أعبر عمّا بداخلى بضحكة همجية غير متجانسة.

كنت أعبر عن اضطرابى مموهًا بكلام قاسٍ، لكنى كنت أخجل، لا لم يكن خجلاً؛ كنت لا أستطيع أن أفعل غير هذا.

شددت على يده مصافحًا وأمسكت بها ولم أتركها. نظر إلى متسائلاً.

- أهو تأثر؟ أشار إلى بإيماءة وهو يبتسم.

- نعم، أجبت بهدوء.

- لماذا؟ ماذا قلنا؟ ألم نتفق؟ ماذا يقول اليابانيون الذين أنت مولع بهم؟ فوندوشين!

رباطة جأش ولامبالاة والوجه قناع مبتسم ثابت. أما ما يحدث خلف القناع، فهو من شأننا نحن فقط.

- نعم، أجبت ثانية، محاولاً ألا أشكل جملة طويلة - فلم أكن واثقًا من مقدرتى على التحكم فى عدم ارتعاش صوتى.

دق ناقوس السفينة طارداً الزوار من مقصورةٍ تلو الأخرى وكان المطر خفيفًا وامتلأ الهواء بكلمات الوداع المنفعلة، والقسم على الوعود وبالصداقة الأبدية، والطلبات اللاهثة فى آخر لحظة... أحضان أم لابنها وزوجة لزوجها وصديق لصديق كما لو كان هذا آخر لقاء بينهم؛ وكأن هذا الفراق الصغير يذكرهم بالفراق الأكبر. وسمع صوت ناقوس السفينة ناعمًا فى أرجاء السفينة فى هذا الهواء الرطب كأجراس جنائزية.

مالَ صديقى إلىّ:

– اسمع، قال بصوت خفيض، ألديك إحساس بالتشاؤم؟

– نعم، أجبت.

– هل تؤمن بهذه الخرافات؟

– لا، أجبت مؤكداً.

– إذن؟

ليس هناك إذن؛ لم أكن أؤمن بها، لكننى كنت خائفًا.

وضع صديقى يده اليسرى برفق على ركبتى، كما كان يعتاد فى أكثر اللحظات مودة، وعندما كنا نتحاور وكنت أدفعه كى يتخذ قراراً ما بينما كان هو يقاوم لكنه فى النهاية كان يقبل ويقول وهو يلمس ركبتى: «سأفعل هذا من أجل الصداقة والمودة التى بيننا...».

مرة أو ثلاث مرات رمشت عيناه ونظر إلى ثانية وفهم أننى حزين جداً وتردد فى استخدام أسلحتنا المحببة لدينا والضحك والمزاح...

- حسنًا، قال. أعطنى يدك؛ لو أن أحداً منا وجد فى خطر مميت...

توقف، وكأنه شعر بالخجل. فنحن الذين كنا نسخر لسنوات من الأوهام الروحية ونحقر من الروحانيات والروحانيين والنباتيين ومستحضرى الأرواح...

- حسنًا؟ سألت، محاولاً أن أتنبّأ.

- دعنا نأخذ الأمر هكذا، كأنه لعبة وقال فى تعجل كى يتفادَى الجملة الخطيرة التى أربكته: لو أن أحداً منا وجد فى خطر مميت، عليه أن يتأمل ويركز فى الآخر بقوة حتى يحذره أينما كان... اتفقنا...؟

حاول أن يضحك، لكنّ شفتيه كما لو قد تجمدتا ولم تتحركا قط.

- اتفقنا، قلت.

خشى صديقى ألا يكون ارتباكه قد بدا واضحاً فأضاف على عجالة:

- أنا لا أؤمن بالطبع بهذا الهراء المسمى بتوارد الخواطر...

- لا يهم، تمتمتُ قائلاً؛ وليكن...

- حسنًا إذن، وليكن؛ لا يهم. متفقان؟

- متفقان، أجبت مرة أخرى.

تلك كانت آخر كلماتنا وشد كل منا على يد الآخر وتشابكت أصابعنا بشوق وانفصلت أيدينا بشكل مفاجئ، وغادرت بسرعة دون أن ألتفت إلى الوراء كما لو كنت مطارداً. حاولت أن ألتفت إلى الوراء لأرى صديقى للمرة الأخيرة ولكننى تماسكت. «لا تلتفت إلى الوراء»! قلت لنفسى: كفى!»

كم هى خرقاء هوجاء هذه الروح البشرية ملطخة بالطين فظة وفوضوية لا ترى أى شىء بوضوح ولا تستطيع حتى أن تتنبأ إن كانت تتنبأ بالأصل وكم سيكون هذا الفراق مختلفًا!

ازداد الضوء، امتزج الصباحان، كنت أرى وجه صديقى الحبيب أكثر وضوحًا الآن، كان واقفًا مبتلاً تحت المطر ثابتًا فى هواء الميناء. فُتحت البوابة الزجاجية للمقهى، فدخل صوت البحر هادراً، ودخل بحار منفرج الساقين قصير القامة له شاربانِ متدليانِ، وتعالت الأصوات فرحة مرحبة:

- يا مرحبًا بالقبطان ليمونى!

انزويت فى الركن الذى كنت أقبع فيه وحاولت ترتيب أشلاء روحى؛ لكن وجه صديقى كان قد ذاب فى المطر وضاع.

القبطان ليمونى أخرج مسبحته وبدأ يداعب حباتها فى هدوء وتجهم وصمت.

كافحت كي لا أرى ولا أسمع وكي أتمسك بالرؤية التي كانت تتلاشى من أمامي وكي أعيش مرة أخرى الغضب الذى كان يتملكني حينها ولا وليس الغضب ولكن الخزى وعندما نعتني صديقي «مداعبا» بقارض الأوراق، وكان على حق! فأنا الذى كنت أعشق الحياة وكم كان قدر تورطي واختلاطي بالأوراق والأحبار! وإن صديقي في يوم الفراق ذاك، ساعدني كي أرى الأشياء أكثر وضوحًا. وسعدت لهذا؛ فقد صرت أعرف مسميً لمعاناتي، وربما كنت أستطيع أن أقهرها بشكل أسهل، وكأنها لم تعد مبعثرة وبلا جسد أو هلامية؛ كأنها شكلت أو تشكلت في هيئة جسد وكان باستطاعتي الآن أن أقاتلها.

حديث صديقي القاسي وجد صدىً وشق طريقًا بداخلي، ومنذها وأنا أبحث عن سبب كي أترك أوراقي وألقي بنفسي في الفعل المسمى بالحياة وكنت أشعر بالخزى والاشمئزاز من حمل هذا المخلوق البائس فوق رأسي، وقبل شهر وجدت الفرصة؛ استأجرت على أحد شواطئ جزيرة كريت في اتجاه البحر الليبي، منجم فحم مهجوراً وقررت الهبوط إلى كريت كي أعيش بين الناس البسطاء والعمال والقرويين، بعيداً عن هرطقات أهل الأوراق والكتب.

تجهّزتُ للرحيل وكنت في غاية الحماس، وكأن لرحلتي هذه معنىً خفيًا غامضًا؛ كنت قد عزمتُ في قرارة نفسي أن أغير أسلوب حياتي. «ياروحي، قلت، كنت ترين الظل وتشبعين؛ الآن سأذهب بك إلى الغذاء الحقيقي».

كنت على أتم الاستعداد؛ فى عشية الرحيل، وأنا أبحث فى أوراقى، وجدت مخطوطًا غير منته ٍ وأمسكت به بين يدى وتصفحته فى تردد. منذ عامين وهناك ارتباك ما فى أحشائى ورغبة عارمة وبذرة ما؛ وكأن بوذا بداخلى يأكل أحشائى بلا انقطاع ويتغذى على ويتكون ويكبر ويركلنى وأخذ يدفع صدرى كى يخرج. والآن لم تعد لدى المقدرة أن أتخلى عنه. فقد فات الأوان للقيام بإجهاض روحى كهذا.

فى لحظة، فيما كنت أمسك هذا المخطوط غير المنتهى بين يدى وأنا ما زلت متردداً وتراءت لى ابتسامة صديقى فى الهواء، كلها سخرية ورقة. «سآخذه! قلت بإصرار شديد: لن أخاف وسآخذه معى، لا تبتسم!» غلفته بعناية، وكأننى ألف رضيعًا، أخذته.

تناهى صوت القبطان ليمونى الأجش الغليظ عاليًا، و أصغيت بانتباهٍ؛ كان يتحدث عن عفاريت الماء التى تخرج من بطن العاصفة وتتسلّق صوارى مركبه وتلعقها.

– قال، نعم هى طرية ولزجة، إذا حاولت أن تمسك به احترقت يداك، كنت قد دهنت شاربى فكان يسطع فى الظلام كالشيطان. غمر الماء مركبى المحمل بالفحم فتبلل الفحم وثقل المركب وأخذ يميل على أحد جانبيه لكن الرب وضع يده فى الأمر فأرسل لنا صاعقة حطمت مصاريع الحاويات فملأ الفحم البحر و خفت حمولة المركب مما أدى إلى تعديل مساره، ونجوت ومرت بسلام وهذا ما حدث.

أخرجت من جيبى طبعة صغيرة الحجم من كتاب دانتى رفيق سفرى وأشعلت غليونى وأسندت ظهرى إلى الجدار وشعرت بارتياح، للحظة قرع ناقوس رغبتى؛ من أين أمسك بتلك الأبيات الخالدة؟ من قار جهنم المشتعل؟ أم من ألسنة اللهيب المطهر؟ أم أقفز إلى طابق أمل البشرية النبيل؟ بوسعى أن أختار ما أشاء. وأنا أمسك بكتاب دانتى غمرتنى سعادة جمة بالحرية، فالأبيات التى كنت أختارها فى ذلك الصباح الباكر سوف تضبط إيقاع يومى كله.

انحنيت فوق هذه الرؤية الكثيفة كى أتخذ قراراً، إلا أننى لم أتمكن وفجأة أصابنى القلق ورفعت رأسى ولا أدرى كيف شعرت وكأن ثقبان قد فتحا فى قمة رأسى ونظرت خلفى نحو الباب الزجاجى ومرت بذهنى أمنية كالبرق: «سأرى صديقى مرة أخرى.» كنت مستعداً أن أستقبل المعجزة. لكن يبدو أننى خُدعت؛ عجوز فى الخامسة والستين تقريباً، طويل، نحيل، بعينين جاحظتين ألصق وجهه فى زجاج النافذة وكان ينظر إلى وكان يحمل حزمة ما تحت إبطه.

كل ما أثارنى فيه كانت عيناه المتقدتان الساخرتان الحزينتان والقلقتان كما الآن. هكذا بدتا لى.

عندما تلاقت نظراتنا، وكأنه تأكد أننى أنا من يبحث عنه، ومد يده على عجل وفتح الباب ومر بين الطاولات بخطوات سريعة ومرنة وجاء ووقف أمامى.

– رحلة؟ سألنى. إلى أين بمشيئة الله؟

– إلى جزيرة كريت. لماذا تسأل؟

– لِمَ لا تصحبنى معك؟

نظرت إليه بإمعان وكان خداه غائرين وفك سميك وعظام وجهه بارزة وشعر رمادى مجعد وعيناه متقدتان.

– لماذا؟ وماذا أفعل بك؟

رفع كتفيه.

– لماذا! لماذا! قال باشمئزاز. لا يفعل المرء شيئًا دون لماذا؟ هكذا ومن أجل مزاجه. خذنى ولنقل وبكل برود، يمكننى أن أعد أنواعًا من الحساء!...

ضحكت. أعجبنى كلامه وأساليبه الحادة وكلامه الصريح وأعجبنى الحساء. لابأس وفكرت قليلاً، سأصطحبه معى هذا العجوز المهلهل إلى الشاطئ البعيد الوعر وأنواع من الحساء وضحك وحوارات... كان يبدو عليه أنه كثير السفر، سندباد بحرى؛ لقد أعجبنى.

– فيمَ تفكر؟ قال وهو يهز رأسه الضخم. أتزن قراراتك وكلامك على الميزان؟ آه؛ يبدو أنك تزن كل شىء بدقة شديدة، هيا يا صاحبى، اتخذ قرارك سريعًا ولتذهب الموازين إلى الجحيم!

كان يقف فوق رأسى هذا الفحل النحيل، كنت أشبّ رافعًا رأسى حتى أحدثه وأغلقت الكتاب على دانتى.

- اجلس، قلت له، أتشرب كوبًا من المريمية؟

جلس؛ وضع الحزمة التى كانت تحت إبطه بحرص على الكرسى المجاور.

- مريمية؟ أومأ بازدراء. تعال إلى هنا أيها النادل؛ أحضر لى شراب الروم!

شرب الروم رشفة رشفة؛ كان يضع القدح على فمه كثيراً كى يستمتع به، ثم يترك السائل يتدفق ببطء فى جوفه حتى يدفئ أعماقه. قلت فى نفسى «ياله من شهوانى نواق...»

- ما هو عملك؟ سألته.

- كل الأعمال؛ اليدوية، والقدمية، والرأسية - كل الأعمال... هه؛ أية أعمال، ليس بوسعى أن أختار.

- أين كنت تعمل مؤخراً؟

- فى أحد المناجم. لك أن تعلم أننى عامل منجم جيد وأفهم فى المعادن ولدى مقدرة فى العثور على العروق وأعرف كيف أشق الأنفاق وأنزل إلى الآبار ولا أخاف وأعمل بجد وكنت رئيساً للعمال ولم تكن لدى شكاوى. لولا أنّ الشيطان عليه اللعنة هز ذيله فى ليلة السبت الماضى،

تمكّن منى الشراب وكنت فى مزاج عال، وجدت أمامى صاحب العمل الذى كان قد جاء إلى مقر العمل للتفتيش فأوسعته ضرباً.

– لكن لماذا؟ ماذا فعل لك؟

– لى أنا؟ لا شىء!، كما أقول لك! ذلك اليوم رأيته لأول مرة. وزع علينا سجائر المسكين.

– حسنًا، إذن؟

– أوه، لماذا تسأل؟ هذا ما خطر ببالى أن أفعله يا أخى! كمن يطلب هجاءً صحيحًا من مؤخرة زوجة الطحان. حسنًا إذن، مؤخرة زوجة الطحان هى عقل الإنسان.

كنت قد قرأت تعريفات عديدة لعقل الإنسان. لكن هذا التعريف بدا لى مدهشًا، وأعجبنى. حدقت فى وجه رفيقى الذى كان ممتلئًا بالتجاعيد والثقوب، كمن تأثر كثيراً بعوامل التعرية والمطر. وجه آخر وبعد سنوات قليلة أعطانى نفس انطباع الوجه المحفور المعذب مثل الخشب المشغول: وجه بانايت إستراتى[٢].

– وماذا تحمل فى حزمتك هذه؟ طعام؟ ثياب؟ أم أدوات عمل؟

رفع رفيقى كتفيه ضاحكًا.

---

(٢) بانايت إستراتى: كاتب يونانى كبير، عاش مغموراً، وهو من جزيرة كفالونيا. (المترجم)

– يبدو أنك شخص حكيم وحساس، قال، معذرة.

راح يمسد على الحزمة بأصابعه الطويلة؛ برهافة.

– قال: لا إنه سانتورى؛

– سانتورى! أتعزف على آلة السانتورى؟

– عندما يضيق بى الحال، أدور على المقاهى و أعزف على السانتورى وأغنى أيضًا بعض الأغانى المقدونية القديمة، ثم أخلع قبعتى؛ هذه القلنسوة وأجمع فيها بعض العملات المعدنية.

– ما اسمك؟

– ألكسيس زوربا. ينادوننى أحيانًا بالتلغراف؛ لأننى سريع ولأننى عجوز طويل ورأسى مسطح. ليقولوا ما يشاؤون، وأحيانًا ينادوننى بالتسالى حيث كنت أبيع ذات مرة البذور المحمصة ويطلقون علىَّ أيضًا عفن الزرع الفطرى؛ حيث إننى أينما أذهب أقلبها رأسًا على عقب ولدى ألقاب كثيرة ولكن دعنا من هذا لوقت لاحق...

– وكيف تعلمت السانتورى؟

– عندما كنت فى العشرين من عمرى وفى قريتى هناك عند سفح جبل الأوليمب وسمعت لأول مرة آلة السانتورى وفُتنت بها ولم أستطع أن أتناول شيئًا لثلاثة أيام. ماذا بك يا بنى؟ سألنى أبى (رحم الله روحه) «أريد أن أتعلم العزف على السانتورى – ألا تخجل من نفسك؟ أغجرى أنت؟

تريد أن تعزف على الآلات الموسيقية؟! - أنا أريد أن أتعلم العزف على السانتورى!...» كنت قد ادخرت مبلغًا صغيراً كى أتزوج عندما يحين الوقت. يا لها من أيام، كنت صبيًا مجنونًا وكانت دمائى تغلى وكنت أريد الزواج، يا للحماقة! دفعت كل ما أملك وابتعت سانتورى. هذا هو الذى تراه الآن ورحلت معه وذهبت إلى سالونيكى وعثرت على شخص تركى محترف يُدعى رتيب أفندى وكان يُدرّس العزف على السانتورى وألقيت بنفسى عند قدميه وقال لى. «ماذا تريد يا بن الروم؟. قلت «أريد أن أتعلم العزف على السانتورى» فقال، ولماذا تلقى بنفسك عند قدمى لأن ليس لدى ما أدفعه لك!

- وهل أنت فعلاً مغرم بالعزف على السانتورى؟ قلت نعم. قال، حسنًا وأنا لا أريد منك مالاً!» بقيت معه عامًا وتعلمت. ليقدس الله عظامه - فلابد أنه قد مات وإذا كان الرب يفتح أبواب جناته للكلاب؛ فليفتحها لرتيب أفندى ومنذ أن تعلمت العزف على السانتورى وصرت إنسانًا آخر. عندما أشعر بالحزن أو تضيق الدنيا فى عينىّ؛ أعزف على السانتورى كى أخفف من وطأة الحزن أو الظروف وعندما أعزف على السانتورى لا أسمع أحداً عندما يوجه إلى الحديث، حتى وإن سمعت، لا أستطيع التكلم وأريد أن أتكلم ولكن لا أستطيع.

- لكن لماذا يا زوربا؟

- إيييه، إنه الولع!

فُتح باب المقهى؛ ودخل صوت البحر وكانت الأقدام والأيادى ترتعش وعدلت من جلستى فى زاوية المقهى ولففت معطفى جيداً وشعرت بشىء من الرضا المفاجئ. «قلت لنفسى إلى أين أنت ذاهب؟ فكرت جيداً؛ ألست على ما يرام هنا وفلتدم سنيناً هذه اللحظة».

نظرت إلى المسافر الغريب الذى أمامى؛ عيناه كانتا مثبتتين فوقى، وكانتا صغيرتين مستديرتين شديدتى السواد وبياضهما تخللته عروق حمراء وكنت أشعر بهما تخترقاننى وكان الرجل يتفحصنى بنهم.

- قلت: إذن، ثم ماذا؟

هز زوربا كتفيه النحيفتين.

دعك من هذا وقال، هلا أعطيتنى سيجارة..

أخرج من جيب صدريته حجراً وفتيلا وأغلق عينيه باستمتاع وهو يشعل سيجارته.

- هل تزوجت؟

بشر أنا أليس كذلك؟ إنسان، تعنى مجنون؛ وقعت أنا أيضًا فى نفس الحفرة التى وقع فيها من سبقونى، سقطت فى المنحدر. صرت رب أسرة، بنيت بيتًا؛ أنجبت طفلاً. عذابات لا تنتهى. لكن بارك الرب فى السانتورى.

- هل كنت تعزف فى البيت كى تُذهب الهموم؟.

- آآه، يبدو أنك لا تعـرف أية آلة مـوسيقيـة. عـمّ تثرثر؟ فى البيت لا يوجد سـوى الهمـوم، امرأة وأولاد ومـاذا سنأكل وكيف سنوفر الملابس وما هو مصيرنا؟ الجحيم بعينه، والسانتورى يبغى قلبًا وقالت لى زوجتى كلمـة فـائضـة بلا مـعنى، بـأى قلب سـأعـزف على السـانتـورى؟ إذا كـان الأطفـال ينوحـون جـائعـينَ من حـولك فليس هناك من سـبب كـى تعـزف السانتورى ولكى تعزف على السـانتورى فلابد أن تتـأمل السانتـورى فقط وأن تكون له قلبًا وقالبًا فهمت؟

تأكـدت أن زوربـا هو الشـخص الذى كنت أبحث عنه منذ زمن ولم أجده؛ فله قلب حى وصـوت دافئ وروح بدائيـة عظيمـة النقاء، ولم يقطع بعد حبلها السُرى عن أمها التى هى الأرض.

مـا الفن، حب الجمـال البراءة الرغبـة، وهـذا العـامل البسـيط شرح لى معنى هذه الأشياء بأكثر الكلمـات إنسانية.

نظرت إلى يديه اللتـين لديهمـا القـدرة على العمل بالمعول والعزف على السـانتـورى - صـلبتـين ومشـققتين ومشـوهتـين وعصـبيتـين - بعناية ورهافـة كـأنهمـا يعـريان امـرأة نزعتـا الغطاء وأخـرجتـا آلة السـانتـورى القديمـة وأوتارهـا كثيـرة مزينة بـالبرونز والعـاج وعلى أطرافـها خـصـلات حريرية وراحت تلك الأصـابع الغليظة تداعبه ببطء وحنان كمـا لو كـانت تداعب امرأة، ثم لفتها ثانية، وكأنها تغطى جسد الحبيبة كى لا يبرد.

- هذا هو! همهم بحنان وهو يضعه مرة أخرى على المقعد.

أخذ البحارة يقرعون كؤوسهم فى سعادة وضج المقهى بالضحك. ربت أحدهم على ظهر القبطان ليمونى قائلاً...

- قل لنا الحقيقة، ألم تكن ترتعد من الخوف! يعلم الله كم من الشموع أشعلت للقديس نيقولا من أجلك!

قطب القبطان ليمونى حاجبيه الأشعثين.

- أقسم لكم بالبحر يا رفاق، عندما رأيت الموت أمامى، لم أفكر قط لا فى العذراء مريم ولا فى القديس نيقولا! بل استدرت نحو جزيرة سلامينا وتذكرت زوجتى وصحت: «آه يا كاترينا، كم كنت أود أن أكون معك فى الفراش الآن!»

ضج البحارة بالضحك ثانيةً؛ وضحك معهم القبطان ليمونى.

- هه، ياله من وحش برى! قال: ملك الموت يقف فوق رأسه شاهرا سيفه فى وجهه وقلب الرجل معلق هناك مشغول بهذا الشيء! عليه اللعنة، ياله من صفيق قليل الحياء!

صفق بيديه، منادياً النادل: قدم مشروباً للجميع!

كان زوربا قد رمى أذنيه يتصنت بإمعان، والتفت إلى البحارة ثم إلى.

ماذا؟ أين؟ ماذا يقول هذا الرجل؟

وكأنه فهم فجأة ما يجرى، هب فجأة.

- مرحى! صاح معجبًا وهؤلاء البحارة يدركون السر؛ هذا لأنهم يكافحون الموت ليلَ نهار، وقال ملوحًا بيده الكبيرة فى الهواء:

صحيح، قال؛ كل شيخ وله طريقة. لنعد لأمرنا: هل أجلس أم أرحل؛ عليك أن تتخذ قرارًا.

- زوربا، قلت وتماسكت بصعوبة حتى لا أقبض على يده، زوربا، اتفقنا؛ ستأتى معى، عندى منجم فى كريت، سترأس أنت العمال، فى الليل سننبطح سويًا على الرمال - ليس عندى لا امرأة ولا ولد - سنأكل ونشرب معًا، ثم بعد ذلك ستعزف على السانتورى.

- إذا كان لدى مزاج، أتسمعنى؟ إذا كان مزاجى رائقًا فقط. يمكننى أن أعمل لديك كالعبد! لكن العزف على السانتورى هو شىء آخر، فالسانتورى وحش يريد حرية. إذا كان مزاجى رائقًا سأعزف بل وسأغنى، وسأرقص زيبكيكو[٣] وخاسابيكو[٤] وبندوزالى[٥] ولكن لابد وبلا أى تفاوض أن يكون مزاجى رائقًا واتفاق واضح وصريح؛ إذا أرغمتنى فستخسرنى ولابد أن تعرف ذلك جيدًا فأنا إنسان.

- إنسان؟ ماذا تقصد بهذا؟

(٣) زيبكيكو: رقصة شعبية يونانية، أصولها من آسيا الصغرى. (المترجم)
(٤) خاسابيكو: رقصة شعبية يونانية، وهى رقصة الجزارين. (المترجم)
(٥) بندوزالى: رقصة شعبية كريتية. (المترجم)

- بمعنى، حر.

- ناديت على النادل، أحضر كأسًا أخرى من الروم!

- كأسين من الروم! ستشرب وعدك اتفاقنا، لا يجوز أن نقرع كأس الروم مع كوب الميرمية؛ ستشرب وعدك كأس روم. حتى يُوثَّق عهدنا.

قرعنا كأسينا؛ بدا نور الصباح واضحًا. انطلقت صافرة المركب. جاء البحار الذى كان قد أخذ أمتعتى إلى المركب و أشار إلىّ؛ ربت على كتف زوربا.

- هيا بنا؛ وبسم الرب!

- وبسم الشيطان! أضاف زوربا بهدوء.

مال وأخذ السانتورى تحت إبطه؛ فتح الباب وخرج قبلى.

البحر، خريف لطيف، الضوء الذى غسل الجزر، مطر خفيف كالحجاب كسا عرى اليونان الخالدة وقلت متأملاً: طوبى لمن تتاح له فرصة الإبحار فى بحر إيجة ولو مرة قبل مماته.

هذا العالم ملىء بالمتع: نساء وفاكهة وأفكار؛ لكن أن تشق هذا البحر فى فصل خريف لطيف كهذا متمتمًا اسم كل جزيرة تمر بها، أظن أن ليس هناك متعة تغوص بقلب الإنسان فى الجنة وليس فى أى مكان آخر يمكن أن تعبر بهذا الصفاء والهدوء من الواقع إلى الحلم؛ فالحدود تتلاشى تقريبًا وصوارى أكثر السفن قدمًا تنبت أغصانا وعنبًا؛ حقيقة، هنا فى اليونان، المعجزة هى نبتة الحاجة بالتأكيد.

توقف المطر إزاء الظهيرة وبرزت الشمس دافئة رقيقة مغسولة نقية ومنعشة وراحت تدلل أحباءها الماء واليابس بأشعتها.

كنت أقف فى مقدمة السفينة غارقًا فى نشوة المعجزة التى وصلت حد السماء المتحدة مع البحر. على متن السفينة يونانيون مكارون. عيونهم خاطفة وعقولهم حادة وشجار بين الباعة المتجولين وأصواتهم وضجيجهم كالأسطوانة المشروخة ونساء فاضلات شرسات وشر،

بؤس قروى رتيب وشىء يوحى إليك بالرغبة فى أن تمسك المركب من كلا جانبيه وتفرغه فى البحر وتبعثر محتوياته جيداً، كى تسقط منه كل الكائنات التى لوثته - البشر، الجرذان والحشرات - ثم تضعه ثانية فوق الأمواج فارغًا مغسولاً نظيفًا.

إلا أنه أحيانًا ما يصيبنى إحساس بالشفقة، شفقة بوذية وباردة، كأنها ناتجة عن تأملات ميتافيزيقية معقدة. شفقة ليست تجاه البشر فقط لكن تجاه العالم الذى يكافح بأسره والعالم الذى يصرخ ويبكى ويأمل ولا يرى أن هذا كله مجرد تخيلات للعدم وشفقة على اليونانيين والسفينة والبحر وعلىّ أنا وعلى عمل المنجم وعلى مخطوط «بوذا» وعلى كل تعقيدات الضوء والظل، والتى فى لحظة يمكن أن تفسد الهواء وتلوثه.

نظرت إلى زوربا الذى شحب وجهه من البحر وقد جثم عابسًا فوق طوق من الحبال الملفوفة فى مقدمة السفينة يشم ليمونه ويصيغ السمع لركاب بينهم نقاش سياسى حاد حول الملك، وسياسى آخر يُدعى فنيزيلوس. راح يهز رأسه ويبصق.

- أفكار قديمة! تمتم باحتقار؛ ألا يستحون!

- ماذا تعنى بأفكار قديمة يا زوربا؟

- كل هذا الهراء: مملكات وديمقراطيات وبرلمانيون وكلها أقنعة زائفة!

في عقل زوربا وكل ماهو معاصر كان ينتهي به الأمر سريعًا فيصبح قديمًا، فقد تجاوز كل هذه الأشياء وبالطبع في قرارة نفسه البرق والسفينة والقطارات والأخلاق والمبادئ السائدة والوطن والدين، كل هذه الأشياء كانت تبدو له أفكارًا قديمة، فقد كانت روحه تمضي بسرعة أكبر بكثير من سرعة هذا العالم.

الحبال فوق الصواري كانت تصدر صريرًا بينما الشواطئ ترقص، اصفرت وجوه النساء وصارت كالعملة النحاسية وصرن كما لو سلمن أسلحتهن – زينتهن وأمشاطهن ومشابك شعورهن – شحبت شفاههن وازرقت أظافرهن. العجائز الشمطاوات بدأن يفقدن حليهن وزينتهن المستعارة وسقط منهن الريش والشرائط، الرموش والحواجب والشامات المزيفة، كرات القماش التي يملأن بها صدورهن – هكذا كما تراهن وقد بدوْنَ على وشك التقيؤ وتشعر بالقرف منهن وبشفقة كبيرة عليهن.

أخذ لون زوربا في الاصفرار والاخضرار، وانطفأ بريق عينه. ولم تعد عيناه تتراقصان إلا عند الغروب وبرقت عيناه قليلاً؛ رفع يده و أشار إلى دولفينين كبيرين كانا يتقافزان بالقرب من السفينة.

– دلافينَ! صاح فرحًا.

حينها كانت المرة الأولى التي لاحظت فيها أن نصف سبابته اليسرى مبتورة.

– صحت سائلاً: ماذا أصاب إصبعك يا زوربا؟

- لا شىء أجاب، و بدا عليه الضيق لأننى لم أبتهج لرؤية الدلافين.

- هل كان حادث آلة؟ سألته مصراً.

- عن أى آلةٍ تتحدث؟ لقد قطعته بنفسى!

- قطعته أنت؟ لماذا؟

- وكيف ستفهم يا سيدى! قال وهو يرفع كتفيه. قلت لك أننى مررت بكل أنواع الحرف وذات مرة كنت أعمل خزافًا وأحببت هذه الحرفة بجنون. هل تعرف ماذا يعنى أن تأخذ كتلة من الطين وتصنع منها ما تشاء؟ تُدير العجلة فررررر! ويدور الطين، وأنت فوقها كالمجذوب تقول: سأصنع إبريقًا، سأصنع طبقًا، سأصنع مصباحًا، سأصنع شيطانًا! هذا يعنى أن تكون إنسانًا أقول لك: حرية!

كان قد نسى البحر ولم يعد يعض على الليمونة وصفت عيناه مرة أخرى.

- حسنًا؟ سألت؛ والإصبع؟

- كان يعوقنى وأنا أعمل على عجلة الخزف؛ دائمًا ما كان يتلف تصميماتى. أمسكت بالفأس...

- هل تألمت؟

- كيف لم أتألم، بالطبع، أنا لست جماداً، أنا إنسان، تألمت. لكنه كان يعوقنى فى عملى قلت لك؛ لذا قطعته!

بدأت الشمس فى الغروب، هدأ البحر قليلاً وتفرقت السحب. سطع نجم المساء فى السماء كالجرس ونظرت إلى البحر ونظرت إلى السماء وسقطت فى ورطة فكرية... أهكذا يمكن للمرء أن يعشق، تأتى بالفأس وتتألم وتقطع... لكننى واريت تأثرى.

– لم تحسن لا التفكير ولا الصنع يا زوربا! قلت ضاحكًا. تذكرنى بذلك الناسك كما تذكر السير التراثية، أنه رأى امرأة فأثارته وأخذ الفأس وقطع....

– ابلع لسانك يا رجل! قاطعنى زوربا بعد أن خمن ما سوف أقوله. يقطع ماذا يا رجل! فليذهب إلى الجحيم! هذا العضو المبارك لا يمثل عائقًا أبدًا..

– كيف! ألححت؛ بل يمثل عقبة، وعقبة كبيرة طبعًا.

– فى ماذا؟

– يمثل عقبة فى دخولك الجنة.

نظر إلى زوربا بطرف عينه ساخرًا.

– لكنه يا أحمق هو مفتاح الجنة ذاته!

رفع رأسه، نظر إلى جيدًا وكأنه أراد أن يتفحص ما يدور فى رأسى من أفكار عن الحياة ما بعد الموت والجنات والممالك والنساء

والكهنة؛ لكن على ما يبدو أنه لم يستطع أن يستوعب الكثير فهز رأسه الكبير الأشيب كمن يبدو عليه التفكير العميق الحذر.

- قال: البائسون لا يدخلون الجنة، ثم صمت.

استلقيت فى مقصورتى وأخذت كتاباً وكان بوذا ما زال يسيطر على تفكيرى؛ قرأت «الحوار بين بوذا والراعى» الذى كان فى السنوات الأخيرة يملأ صدرى بالصفاء والأمان.

«الراعى: شويت طعامى، وحلبت نعاجى؛ أوصدت كوخى وأشعلت نارى؛ أمطرى كما شئت أيتها السماء!

بوذا: لست فى خاجة إلى الطعام ولا الحليب؛ الرياح هى كوخى، أطفأت نارى؛ أمطرى كما شئت أيتها السماء!

الراعى: لدى ثيران ولدى حقول ورثتها عن أجدادى وثور يلقّح أبقارى؛ أمطرى كما شئت أيتها السماء!

بوذا: ليس لدى ثيران؛ ولا حقول ولا أملك شيئًا ولا أخشى شيئًا؛ وأنت أيتها السماء، أمطرى كما شئت!

الراعى: لدى راعية غنم مطيعة وزوجتى مخلصة أستمتع باللهو معها فى الليل؛ أيتها السماء، أمطرى كما شئت!

بوذا: لدى روح مطيعة وحرة؛ سنوات أدربها وأعلمها أن تلهو معى؛ أما أنت أيتها السماء، فأمطرى كما شئت!»

ظل هذان الصوتان يتحدثان وبينما غرقت فى النوم واشتدت قوة الريح ثانية وكانت الأمواج تتكسر على نافذة المقصورة الزجاجية وكنت كالدخان أتأرجح بين النعاس واليقظة، وصارت الأمواج عاصفة قوية، غرقت الحقول والعجول والأبقار والثور، وهدمت الرياح سقف الكوخ وأطفأت ناره، وأطلقت المرأة صرخة مدوية ثم سقطت ميتة، والراعى أخذ ينوح ويصرخ ولم أستمع إلى ما كان يقول، وأنا كنت أنزلق بعمق أكثر فى النوم كسمكة فى البحر.

عندما استيقظت قرب الشروق وكانت الجزيرة الكبيرة البهية على يميننا وجبالها الشاهقة الشامخة الصخرية تبتسم من وراء ضبابها بحنو فى الصباح المشمس ومن حولنا البحر يغلى لآلئ زرقاء.

كان زوربا متدثرًا ببطانية سميكة وينظر بنهم إلى جزيرة كريت. كانت عيناه تقفزان من جبل إلى حقل ثم راح يضحك عاليًا كمن اكتشف شيئًا، وكأن كل هذه اليابسة مكانًا مألوفًا لديه، ويسعد بفكرة أن قدمه ستطأ هذه الأرض ثانية.

اقتربت منه وربت على كتفه.

– هذه ليست المرة الأولى التى تأتى فيها إلى كريت بالتأكيد يا زوربا! قلت؛ إنك تنظر إليها كرفيقة قديمة.

تثاءب زوربا فى ملل؛ لم تكن لديه رغبة فى الحديث.

ضحكت.

– أ أنت منزعج من الحديث يا زوربا؟

– أجاب لست منزعجًا أيُّها الرئيس، لكن لدى صعوبة ما فى التحدث.

– صعوبة؟

لم يجب مباشرة. ألقى نظرة ساهمة بطيئة على شاطئ الجزيرة؛ كان قد نام على سطح السفينة، و خصل شعره الرمادى كانت تقطر ندى على كل تجاويف وجهه العميقة وعلى خديه وذقنه ورقبته حتى أنها كانت تلمع حيث كانت أشعة الشمس تسقط عليها.

وفى النهاية تحركت شفتاه الغليظتان المتهدلتان كشفتى الجدىّ.

اعذرنى! فأنا أجد صعوبة فى أن أفتح فمى لأتحدث صباحًا، اعذرنى.

صمت وراحت عيناه المستديرتان تحدقان فى جزيرة كريت.

دق جرس قهوة الصباح والإفطار. أخذ الناس يخرجون من مقصوراتهم شاحبين متجهمين؛ نساء بشعور شعثاء أخذن يتنقلن من

طاولة لأخرى فى تثاقل، وتفوح منهن رائحة القىء والكولونيا وعيونهن تشع خوفًا وغباء.

جلس زوربا أمامى على الطاولة وأخذ يحسو قهوته فى نهم وابتهاج. دهن الخبز بالزبدة والعسل وراح يأكل وبدأ وجهه فى الإشراق، وملامحه فى الاتضاح وكنت أراقبه وهو يخرج من شرنقة النوم والصمت بهدوء، وبدأ اللمعان يعود إلى عينيه مرة أخرى.

أشعل سيجارة، أخذ نفسًا عميقًا باستمتاع، كان الدخان يخرج من فتحات أنفه أزرقًا وثنى رجله اليمنى وجلس عليها؛ بدت عليه الراحة فى هذه الجلسة الشرقية والآن يستطيع أن يتحدث. وراح يتكلم.

– هل هذه هى أول مرة آتى فيها إلى كريت؟ بدأ كلامه، شرد بعينيه نصف المغمضتين بعيدًا من نافذة السفينة نحو جبل بسيلوريتى(*). لا، ليست هى المرة الأولى. فى عام ١٨٩٦، كنت فى ريعان الشباب والفتوة وكان لون شعرى ولحيتى أسود فاحمًا وأسنانى كانت اثنتين وثلاثين سنًا، وكنت حينما أشرب ألتهم كل المقبلات فى الصحن وفجأة هاجت الأمور واندلعت الثورة فى كريت.

كنت حينها بائعًا متجولاً أجول على القرى فى مقدونيا وكنت أبيع الخردوات، وبدلاً من المال كنت أقايضها بالجبن والصوف والزبد والأرانب والذرة كنت أبيعها فيما بعد وأضاعف أرباحى بهذا الشكل، وفى الليل كنت أعرف فى أى بيت سأقضى ليلتى، ففى كل قرية كانت هناك أرملة حنون،

ليباركها الرب! كنت أعطيها بكرة خيط أو مشطًا أو وشاحًا على روح المرحوم ثم أنام معها دون أن يكلفنى الأمر كثيراً.

كانت الحياة رخيصة بسيطة ورائعة يا سيدى ولكن الشيطان الذى جعل كريت تحمل البندقية مرة أخرى. «اللعنة على قدرى، قلت؛ ألا يمكن لكريت أن تتركنا ساكنين؟» تركت بكرات الخيطان والأرامل وحملت بندقية ولحقت بالثوار فى كريت.

صمت زوربا. كنا نعبر فى خليج رملى هادئ، وكانت الأمواج تنبسط عليه وتترك خلفها رغوتها حول رماله وتبعثرت السحب والشمس ساطعة، وكانت كريت المتوحشة تبتسم فى سكينة.

نظر إلى زوربا بطرف عينه ساخراً.

- بربك يا سيدى، تظن الآن أنى سأخبرك كم من رؤوس الأتراك قطعت، وكم أذنا جمعت وحفظت فى جرات الكحول؛ فقد اعتادوا على هذا فى كريت...

لا تنتظر منى أن أفعل هذا، فلا أحب هذه الأشياء وأخجل منها. ما هذا السعار؟! أتأمل الأمر الآن بعد أن أصبحت أكثر خبرة وتعقلاً، ماهذا الجنون المسعور الذى يدفع المرء أن يهجم على آخر لم يفعل له شىء ويعضه؟ ويقطع له أنفه وأذنه وأن يشق بطنه ويصرخ مناجيًا الرب كى يساعده وماذا يعنى هذا، أهذا ما يرجوه من الرب؟ أن يقطع أشلاء الناس ويشق بطونهم؛ لكن كما ترى، كانت الدماء تغلى آنذاك ولم يكن

لدي عقل كي أزن الأمور! العقل والرأى الراجح يتطلبان هدوءً من نوع خاص تفرضه الثقافة والخبرة العمرية وعندما تكون أدرداً بلا أسنان يسهل عليك قول: «عيب يا أولاد، لا تعضوا ولا تفعلوا هذا وذاك!» لكن عندما تكون أسنانك كاملة... إن المرء فى شبابه كائن متوحش ووحش برى يأكل لحوم البشر!

هز رأسه.

– نعم، إذا لم يأكل بشراً، يأكل الطيور والدجاج والخنازير، لا يظل جائعًا على الدوام، بل إنه لا يشبع أبداً، أضاف وهو يسحق عقب سيجارته فى طبق فنجان القهوة. ما رأيك أيها الحكيم المتحذلق؟

لكن، ودون أن ينتظر أى رد منى:

– ما قولك؟ قال وهو ينظر إلى نظرة متأملة متفحصة.

كما أرى وأستطيع أن أقول أن معاليك لم تجع أبداً فى حياتك ولم تقتل ولم تسرق ولم تزنِ ماذا تعرف إذن عن الحياة؟ عقل يافع لم ينضج وجسد لم يرَ الشمس... غمغم باشمئزاز واضح.

شعرت بالخزى من يدى الناعمتين، ومن وجهى الشاحب وحياتى البعيدة عن الشمس.

قال زوربا متنهداً: وليكن، وهو يسحب قبضته من على المنضدة وكأنه يمسك بإسفنجة ويمحو ما قاله؛ وليكن. لكنى أريد أن أسألك شيئًا وحيداً؛ فلابد أنك قرأت تلالاً من الكتب ويجب أن تعرف...

– قل يا زوربا، ماذا؟

– هنا، هنا يا سيدى، تحدث معجزة.. معجزة عجيبة، احتار فيها عقلى. كل هذه الأعمال الدموية التى ارتكبناها نحن الثوار من ذبح وقتل وسرقة، وأتت بالأمير يورغيوس إلى كريت، أتت لنا بالحرية!

نظر إلى مبهوتًا بعينين جاحظتين.

– وتمتم قائلاً: يا له من لغز، لغز كبير! إذن لكى نحظى بالحرية لابد من ارتكاب كل هذه الجرائم المخزية: كى أروى لك كمًّ الجرائم البشعة التى ارتكبناها، سيقف شعر جسدك متصلبًا. ورغم ذلك، ماذا كانت النتيجة: الحرية! هذا بدلاً من أن يرسل علينا الرب بصاعقة تحرقنا، يمنحنا الحرية! لم أعد أفهم شيئًا!

ظل ينظر إلى كمن ينتظر جواباً. كان واضحًا أن هذا اللغز يحيره ويعذبه كثيراً دون أن يستطيع أن يجد له حلاً.

سألنى بانفعال. هل تفهم أنت؟ هل لديك سبب لهذا؟

وماذا أفهم؟ إمّا أن ليس هناك ما نسميه بالإله، أو أن هذا الإله يحب الجرائم والأفعال المخزية، أو أن القتل والأعمال الدموية المشينة شىء ضرورى فى طريق نضال البشر من أجل الحرية...

لكن كنت أحاول جاهداً أن أجد تفسيراً آخر لزوربا:

– كيف أن من الروث والقذارة يمكن أن تنبت زهرة؟ تخيل يا زوربا أن الروث هو الإنسان وأن الزهرة هى الحرية.

- قال زوربا وهو يضرب على المنضدة بقبضته. والبذرة؟ كى تنبت الزهرة نحتاج إلى البذرة، من الذى وضع بذرة كهذه فى أحشائنا القذرة؟ ولمَ هذه البذرة لا تطرح زهرة عبر الخير والشرف؟ لماذا تحتاج إلى دم وقذارة؟

هززت رأسى. قلت.

- لا أعرف،

- ومن يعرف؟

- لا أحد.

- قال زوربا بيأس وهو ينظر حوله بتوحش، إذن، ماذا أفعل بالمراكب والآلات والياقات البيضاء المنشاة؟

اثنان أو ثلاثة من المسافرين الصعاليك كانوا يجلسون إلى منضدة مجاورة يحتسون القهوة وقد بدأوا يستفيقون وشعروا بأن هناك شجارًا من نوع ما فأخذوا ينصتون.

شعر زوربا بالاشمئزاز منهم، وخفض صوته.

- قال، لندع هذا الأمر برمته يذهب إلى الجحيم، لكنى عندما أفكر مليًا فى الأمر وتأتينى رغبة شديدة فى أن أحطم كل ما أجد أمامى، مقعدًا أو مصباحًا أو أن أضرب رأسى فى الجدار، ثم بعد ذلك ماذا، سأظل لا أفهم شيئًا على الإطلاق! ناهيك عن أنّى سأدفع كل ما أملك

لأجل العقاقير والطبيب الذى سيضمد لى رأسى المجروح. وإن كان هناك إله، فسحقًا! لابد أنه ينظر إلى من السماء وينفجر ضاحكًا.

حرك يده فجأة وبعنف كأنه يهش ذبابة ألحت فى مضايقته.

- قال متململاً: على أية حال! ما أردت أن أقوله لك هو التالى: عندما وصلت السفينة الملكية مزينة بالأعلام ودوّت طلقات المدافع ووطئت قدما الأمير أرض كريت... أرأيت من قبل شعبًا كاملاً يهتف فى آن واحد، لأنه رأى حريته؟ لا؟ مسكين أنت يا سيدى فإنك لم تعش شيئًا فى حياتك بائسًا تعيش وبائسًا ستموت. أنا، حتى وإن عشت ألف ألف سنة وإن أصبحت كومة عظام حية، ما رأيته فى ذلك اليوم لن أنساه أبداً. وإن كان كل منا يتخيل جنة السموات على نوقه - إذن، فهكذا لابد أن تكون الجنة! - «فأنا أدعو الرب أن تكون الجنة هى كريت مليئة بأشجار الآس والأعلام؛ وأن تظل قروناً هذه اللحظة التى تطأ فيها قدم الأمير يورغيوس أرض كريت... لا أبغى شيئًا آخر»!

صمت زوربا مجدداً. برم شاربه، وشرب كوباً من الماء المثلج دفعة واحدة.

- ماذا حدث يا زوربا فى كريت؟ تحدث!

- قال زوربا منزعجًا مرة أخرى. أهو حديث لمجرد الكلام؟ يا صاح، أقول لك أن هذا العالم لغز وأن الإنسان هو كائن متضخم التوحش. وحش كبير وإله كبير. أحد السفاحين من الثوار وكان قد أتى معى من

مقدونيا، كان يدعى يورغيوس ويلقب بيورغيوس الكبير، قد ارتكب الفظائع المروعة، خنزير قذر، كان فى هذا الوقت يبكى، «لماذا تبكى يا كبير؟» قلت له والدموع تنحدر أنهاراً من عينى. «لماذا تبكى يا خنزير؟» لكنه رمى نفسه فى أحضانى وأخذ يقبلنى باكيًا كطفل صغير. ثم إذا بهذا البخيل يخرج صرة نقوده، ويعطى للأطفال جنيهات ذهبية كان قد اغتنمها من الجنود الأتراك الذين قتلهم ومن البيوت التى نهبها، كان يلقى بها حفنات فى الهواء. فهمت الآن يا سيدى؟ هذه هى الحرية!

قمت وصعدت إلى سطح السفينة لتلفحنى نسمات الهواء النقى.

هذه هى الحرية، تأملت المقولة. أن يكون لديك الشغف أن تجمع الجنيهات الذهبية، وفجأة تنتصر على هذا الولع والشهوة وتبعثر كل ما تملك فى الهواء!

أن تتخلص من شهوة ما، وتدخل طيعًا فى رحاب شهوة أخرى أكثر نبلاً... لكن أليس هذا شكلاً من أشكال العبودية؟ أن تضحى بنفسك من أجل فكرة، من أجل شعب أو من أجل الرب؟ أم ربما كلما كان السيد يقبع فى مستوى أعلى يمتد بدوره حبل العبودية أكثر، حينها نقفز ونلعب فى مكان أكثر اتساعًا، ونموت دون أن نصل إلى طرفه الآخر، أهذا ما نسميه الحرية؟

وصلنا بعد الظهر إلى شاطئنا الرملى؛ رمال بيضاء ناعمة وأشجار نبات الدفلى ما زالت مزهرة، وأشجار الخروب والتين، ونحو اليمين بقليل

كان هناك مرتفع ترابى عارٍ من الأشجار، كان يشبه وجه امرأة ممددة؛ وتحت ذقنها وفوق عنقها، كانت تجرى عروق الفحم البنية الداكنة.

رياح ما بعد المطر بدأت تهب، سحب خفيفة وسريعة لطفت وظللت الأرض أثناء عبورها؛ لكنها كانت تصعد نحو السماء غاضبة. كانت هذه السحب تغطى الشمس تارة وتزول عنها تارة أخرى مما كان يلقى بالضوء والظل بالتناوب على وجه الأرض الذى بدا كوجه حى مضطرب.

توقفت على الرمال للحظة أتطلع حولى وكانت ثمة وحدة مهيبة تتمدد أمامى، مريرة لكن ساحرة، تمامًا كالصحراء. وإذا بأغنية بوذية كبوق القيامة تحيا من تحت التراب وتعانق أحشائى: «متى إذن، سأنزوى إلى وحدتى - وحيداً، بلا رفيق، فى صحبة الحقيقة المقدسة بأن كل شىء هو محض حلم؟ متى بملابسى البالية هذه - بلا رغبات - سأنزوى إلى الجبل؟ متى سأرى جسدى هذا المليء بالأمراض وذنوب وعجز وموت حراً مبتهجًا و بلا خوف؟ متى سأنزوى إلى الغابة؟ متى؟ متى؟

اقترب زوربا حاملاً السانتورى تحت إبطه.

- ها هو المنجم! قلت كى أدارى تأثرى ومددت يدى مشيراً نحو المرتفع المشابه لوجه المرأة.

لكن زوربا قطّب حاجبيه دون أن يلتفت:

قال: فيما بعد ياسيدي، دع الأرض تتوقف أولاً فإنها ما زالت تتحرك، اللعنة ما زالت تتحرك كسطح السفينة. ولنذهب سريعًا إلى القرية! قال وهو يهم بخُطًى واسعة.

جرى قرويان صغيران ذوا بشرة سمراء نحونا وحملا الحقائب. ضابط الجمارك الغليظ ذو العينين الزرقاوين كان يدخن النرجيلة فى كوخ خشبى حقير كان يتخذ منه مقراً لمصلحة الجمارك. ونظر إلينا بطرف عينيه ثم ألقى نظرة أخرى متفحصة نحو الحقائب، تحرك قليلاً فوق مقعده وهم بالوقوف لكنه تململ. ثم رفع ببطء خرطوم النارجيلة قائلاً بصوت شبه ناعس:

– مرحبًا بكم!

مال نحونا واحدٌ من الصبية بعينيه اللتين كانتا بسواد الزيتون:

– يونانى حقير، كسول، إنه ليس من سكان كريت! قال بسخرية وهو يغمز بإحدى عينيه:

– أليس أهل كريت كسالى أيضًا؟ قلت.

– بلى... إنهم كسالى أيضًا... أجاب الصبى الكريتى، لكن بشكل آخر...

– هل القرية بعيدة؟

– كلا، إنها على بعد طلقة بندقية من هنا! ها هى، خلف البساتين، عند الوادى. إنها قرية طيبة يا سيدى؛ فيها من كل خيرات الرب: خروب،

أوراق الخردل الطيبة(*)، زيت ونبيذ. وعلى مسافة ليست ببعيدة وعلى الرمال ينمو فيها الخيار فى وقت مبكر جداً بالنسبة لجزيرة كريت. إن الرياح الإفريقية تهبّ عليها فى شهر أبريل فتساعد على نضوجها السريع؛ يمكنك أن تسمع صريرها إذا نمت فى البستان ليلاً.

كان زوربا يسير أمامنا ويتعثر فى طريقه إذ ما زال مترنحاً من أثر رحلتنا البحرية.

– الهمة يا زوربا، لا تخشَ شيئًا فقد نجونا!

كنا نسير بسرعة وكان الطين مخلوطًا بالرمال والأصداف؛ وكانت تتناثر بعض الأعشاب البحرية؛ أعشاب البردى وبعض النباتات السامة. جعلت الرطوبة الحر خانقًا وازدادت السحب فى الانخفاض فأصبح الهواء ثقيلاً.

مررنا على شجرة تين ضخمة؛ ذات جذع مزدوج ازدادت تجاويفها عمقًا مع الزمن. توقف أحد الصبية ومط ذقنه مشيراً إلى الشجرة العجوز.

– ظل شجرة التين «السيدة النبيلة»! قال.

توقفت بدورى لبرهة وفى أرض كريت هذه، كل حجر، وكل شجرة لها تاريخ مأساوى.

– السيدة النبيلة؟ لماذا؟

- فى زمن جدى، كانت هناك سيدة نبيلة عشقت راعياً ولكن والدها لم يكن راضياً؛ ظلت الفتاة تبكى وتتلوى ألمًا، لكن أباها لم يبالِ! إلى أن جاءت ليلة واختفى العاشقان. ظلوا يبحثون عنهما يوماً، يومين، ثلاثة، أسبوعًا؛ لا أثر لهما! كانت حرارة الصيف على أشدها، وكانت هناك رائحة كريهة، تتبعوا أثر الرائحة الكريهة فوجدوا جثتيهما متعفنتين تحت شجرة التين هذه وهما فى وضع احتضان. أفهمت؟ عثروا عليهما من الرائحة العفنة! أوف! أوف! قال الصبى وراح فى ضحك عميق.

وصل إلى أسماعنا أصوات من القرية؛ نباح الكلاب، ثرثرة نساء بأصواتهن العالية، صياح الديكة تعلن عن تغير الطقس.. كان للهواء رائحة العرق الذى يغلى فى المراجل.

- ها هى القرية! صرخ الصَّبِيَّانِ وانطلقا مهرولَيْنِ.

عندما استدرنا حول الهضبة الرملية بدت لنا القرية الصغيرة معلقة فوق الوادى والبيوت المبنية بالطوب الجيرى بأسطحها مصطفة إلى جانب بعضها البعض، حتى أن نوافذها المفتوحة داكنة اللون كانت تبدو كأنها جماجم مطلية باللون الأبيض ومحشورة بين الأحجار.

- قلت له بعد أن لحقت به، انتبه يا زوربا، لابد أن تحسن التصرف فنحن ندخل القرية الآن ويجب ألاّ يكتشفوا أمرنا يا زوربا! لابد أن نتصرف كأننا رجلا أعمال جديان وأنا صاحب العمل وأنت رئيس العمال ولك أن تعلم أن أهل كريت لا يمزحون؛ فما أن تقع عيونهم عليك

حتى يلتقطوا عيوبك ويطلقوا عليك ألقابًا لا يمكن أن تتخلص منها فيما بعد؛ فتجرى بعد ذلك كالكلب الذى رُبط فى ذيله إناءٌ من الصفيح.

أمسك زوربا بشاربه وراح يفكر بعمق.

– قال بعد تفكير؛ أتدرى يا سيدى، إذا كان هنا ثمّة أرملة فلا تخف؛ أما إذا لم يكن...

فى هذه اللحظة، وعلى مدخل القرية جرت نحونا شحاذة مهلهلة الملبس، مدت يدها نحونا. كانت ذات بشرة سمراء، متسخة وعلى وجهها شارب خفيف خشن.

– نادت على زوربا، يا بن العم، يا بن العم، ألديك روح؟

توقف زوربا:

– أجاب زوربا بجدية، نعم.

– إذن أعطنى خمسة دراخمات!

أخرج زوربا حافظة جلدية من صدريته.

– قال، خذى! وكانت شفتاه المغلقتان تعلوهما ابتسامة.

التفت وقال:

– أرى هنا رخصًا شديدًا؛ فالروح بخمسة دراخمات.

هبت الكلاب قادمة نحونا، وجاء الأطفال خلفنا مهللين، أخذت الكلاب فى النباح، وكان بعضها يصدر أصواتًا كمكائن السيارات، بينما أخرى تمرٌّ بجانبنا ناظرةً إلينا نظرات متفحصة.

وصلنا إلى الساحة فى مركز القرية: شجرتا حور ذاتا جذعين ضخمين لهما لون أبيض، حولهما بعض المقاعد وفى المقابل لافتة باهتة عريضة: «مقهى وجزار الحشمة».

– سأل زوربا. لماذا تضحك يا سيدى؟

وقبل أن أشرع فى الإجابة حتى خرج من باب المقهى خمسة أو ستة رجال عمالقة الحجم بسراويل زرقاء داكنة عليها أحزمة حمراء.

– مرحبًا بأبناء العم! هتفوا. استريحوا لتشربوا كأسًا من العرق، كأسًا ساخنة من العرق طازجة ومن مرجل التقطير مباشرة.

نقر زوربا لسانه فى سقف فمه:

التفت إلى غامزًا، «ما رأيك يا سيدى؟» «ألا نشرب كأسًا من العرق؟»

شربنا، فاحترقت أحشاؤنا. أحضر لنا صاحب المقهى الجزار كرسيين، وكان عجوزًا صلبًا سريع الحركة.

سألته عن منزل.

– اذهبا إلى مدام أورتانس، صاح أحدهم.

- قلت مندهشاً. فرنسية؟

- بل من الجحيم. لا نعرف من أين هى. عاشت حياتها تطوف البلاد، ولمّا أصابها العجز الآن، قررت الإقامة هنا وفتحت منزلاً.

- هى تبيع الحلوى أيضاً! صاحِ أحد الأطفال.

- وتضع المساحيق على وجهها وتتزين! صاح آخر. تضع وشاحاً حول عنقها؛ ولديها ببغاء...

- سأل زوربا؟ أهى أرملة؟

لكن أحداً لم يجب.

- أهى أرملة؟ صاح ثانية بشوق.

أمسك صاحب المقهى بلحيته الكثيفة:

- كم شعرة فى لحيتى يا بن العم؟ كم؟ إذن هى أرملة لعدد شعر لحيتى من الرجال. أفهمت الآن؟

- أجاب زوربا وهو يمط شفتيه، فهمت.

- يمكن أن تجعلك أرملَ؛ عليك أن تنتبه يا بن العم! صاح عجوزٌ مرح فانفجر الجميع ضاحكين.

وضع صاحب المقهى أمامنا كئوساً أُخرَ من العرق وقطعاً من خبز الشعير والجبن وحبة من الكمثرى.

دعـوا الضـيوف فى سـلام. ما شـأنكم والمدام؟ سـوف ينـامـان فى بيتى.

– قال عجوزٌ آخر: سأستضيفهما أنا يا كوندومانوليو! فليس لدى أطفال، وفى منزلى الكبير متسع لأستضيفهما.

– معذرة ياعم أغنوستى، صاح صاحب المقهى منحنيًا على أذن العجوز، أنا قلت أولاً.

– خذ أنت واحدًا، قال العم أغنوستى؛ وسآخذ أنا العجوز الآخر.

– قال زوربا وقد استوحشت عيناه. أىّ عجوز؟

– نحن لا نفترق، قلتُ مشيرًا إلى زوربا بألاّ ينزعج؛ نحن لا نفترق. سنذهب إلى مدام أورتانس.

– مرحبًا! مرحبًا!

امرأة بدينة قصيرة، بشعر أشقر كتانى، لها شامة على ذقنها، برزت من تحت أشجار الحور تتمايل بساقيها المقوستين، تفتح يديها مرحبةً وكانت ترتدى وشاحًا مخمليًا أحمر اللون حول عنقها وكان خداها المرمريان مطليين بمسحوق بنفسجى اللون وخصلة من الشعر تتهادى بمرح على جبهتها وهكذا كانت شبيهة بالعجوز سارة برنار فى مسرحية "النسر الصغير" لروستان.

– مرحبًا مدام أورتانس! أجبت وهممت أن أقبل يدها مأخوذًا بمزاجها الرائق وروحها المرحة.

برقت الحياة أمامي كالأسطورة، أو كالمسرحية الهزلية الشكسبيرية «العاصفة» مثلاً. وكأننا رسونا للتو مبتلّينِ بعد أن نجونا من غرق حتمي ونبحث في شاطئ ونحيي بشكل رسمي كل الكائنات الحية لهذا المكان ومدام أورتانس بدت كأنها ملكة الجزيرة، فصيلة من الكائنات البحرية ذوات الشوارب، ناعمة كسبع البحر في ملمسها، كانت قد لفظها البحر منذ آلاف السنين على رمال هذه الجزيرة، نصف متسخة مغبرة ومرحة. خلفها جمع من الرؤوس المتسخة المشعرة المرحة، هذا هو الشعب الذي كان ينظر إليها بفخر واحتقار.

وزوربا الأمير المتنكر راح يحدق فيها بإعجاب بعينين جاحظتين، كأنها رفيقة قديمة، فرقاطة عجوز وكانت لها صولاتها وجولاتها الحربية في بحار بعيدة انتصرت وهزمت وجرحت، انهارت أبواب مقصوراتها وتحطمت صواريها ومُزقت أشرعتها، والآن وهي مليئة بالثقوب التي تسدّها بالمساحيق وتقهقرت نحو هذا الشاطئ تنتظر. بالتأكيد ستنتظر زوربا والقبطان ذا الألف جرح وندبة، وكنت أشعر بالسعادة لرؤية هذين الممثلين المسرحيين يتلذذان باللقاء أخيرًا بعد طول انتظار وفي هذا المكان المصمم بالألوان الكثيفة في جزيرة كريت.

– سريران، مدام أورتانس! قلت وأنا أنحني أمام ممثلة الحب العجوز هذه. سريران بلا براغيث...

- براغيث! لا، لا يوجد لدينا براغيث! أجابتنى وهى ترمقنى بنظرة معاتبة متكبرة أرستقراطية بعض الشىء.

- إلى هناك! صاحت العجوز التى لا تزال منزعجة، لا يوجد لدينا براغيث.

- ازداد عناد الممثلة المسرحية، فراحت تدوس على الحصى بقدميها الغليظتين اللتين كانت تغطيهما بجوارب زرقاء.

كانت تنتعل زوجًا من الأحذية القديمة المهترئة، عليهما ربطة حريرية منمقة.

- اللعنة، أيتها النجمة الكبيرة! هيا بنا، صرخت مرة أخرى.

تقدمت أمامنا مدام أورتانس بكبرياء لتفتح لنا الطريق. كانت تفوح منها رائحة المساحيق والصابون الرخيص.

كان زوربا يسير خلفها يأكلها بعينيه.

- قال لى غامزًا، انظر إليها، إنها تسير مثل البطة، ياللملعونة! انظر كيف تهز ردفيها، بلاف! بلوف! مثل نعجة لها إلية سمينة مليئة بالشحم!...

سقطت قطرتان أو ثلاث قطرات كبيرة من المطر وأظلمت السماء.

بدأت شذرات بـرق تلمع على الجبـل، البنات الصغـيرات هرعن فى عجل، وقـد غطـين رؤوسـهن بغطـاء مصنـوع من شعر الماعـز، كن قد خرجن لرعى عنزات وخـراف بيوتهن. والنساء أخـذن فى إيقاد نـار المسـاء.

عض زوربا على شاربه فى عصـبية وأخذ ينظـر بشـهوانية إلى ردفى المدام.

– ممم! تمتم للحظة متنهداً؛ اللعنة على تلك الحياة، فهى لا تنتهى ولا تنتهى مفاجآتها!

فندق مدام أورتانس كان عبارة عن صف متلاصق من الاستراحات الصيفية القديمة جداً. أول حجرة كانت الحانوت التى تبيع فيه الحلوى والسجائر والفول السودانى وفتيل المصابيح ولوحات الحروف الأبجدية والبخور. الحجرات الأخرى كانت استراحات للنوم؛ وخلف الفناء كان المطبخ والمغسلة وحظيرة الدجاج والأرانب، وحول المنطقة زرعت عيدان القصب وأشجار التين الشوكى. كل هذه المجموعة المركبة من الأشياء كانت له رائحة البحر، الروث ورائحة بول نفاذة. من حين لآخر، كانت تمر مدام أورتانس لتغير من رائحة الهواء فتشعر كأن أحداً سكب دلو الحلاق أمامك.

أعدت الأسرة، فاستلقينا فى نوم عميق. لا أذكر إن كنت رأيت أى أحلام وعندما استيقظت كنت أشعر بنشاط وخفة وسعادة وكأنى خرجت تواً من البحر.

كان يوم أحد، العمال سيأتون غداً من قرى مجاورة كى يبدأوا العمل فى المنجم؛ فكان لدى من الوقت ما يجعلنى أخرج فى جولة وأرى إلى أى شاطئ قذف بى القدر وما إن بدا الشروق حتى انطلقت إلى الخارج،

عبرت البساتين وكنت أتمشى على حافة الشاطئ وتعرفت بشكل سريع على ماء وهواء وتراب المكان ورحت أجمع وأشم بعض الحشائش البرية ففاحت من يديّ رائحة زيتون ناضج وميرمية ونعناع.

صعدت إلى مرتفع ورحت أنظر حولي ومكان صارم ووعر من حجر الصوان والأشجار الداكنة أرض جيرية صلبة مما يجعلك تشعر أن ليس هناك ثمة معول يستطيع أن ينقر أو يحفر هنا؛ وفجأة ترى أزهار السوسن الرقيقة تخرج من هذه الأرض الصلبة وتلمع تحت ضوء الشمس وبعيداً نحو الجنوب، جزيرة رملية منخفضة كانت تبرق احمراراً ورديًا تحت أشعة الشمس الأولى.

نحو الداخل من جهة الشاطئ، أشجار زيتون وخروب وتين وقليل من أشجار الكروم فى خنادق صغيرة بعيداً عن هبوب الرياح بين تلّين صغيرين وأشجار الليمون وأشجار المشملة، وبالقرب من الشاطئ البساتين.

بقيت لوقت طويل أستمتع بتموجات هذه الأرض؛ على اختلاف مناطقها من الحجر وأشجار الخروب الخضراء الداكنة وأوراق الزيتون الفضية، كأنها تمتد أمامك متموجة مثل جلد النمر ونحو الجنوب يتهادى بريق تموجات البحر الغاضب الشاسع الهادر الذى يلتهم بعضاً من جزيرة كريت فى طريقه إلى سواحل إفريقيا.

وكان منظر جزيرة كريت البديع يبدو لى كقطعة نثر قوية: مشغولة بعناية، قليلة الإسهاب، خالية من الجزالة والثراء اللفظى الفائض،

قوية ومتماسكة وتعبر عن المضمون ببساطة وخالية من الحذلقة والألاعيب المخادعة ولا تلجأ إلى المجازات الكثيرة؛ تعبرعماً تريد برجولة وصرامة. لكن بين هذه السطور الحادة كنت تستطيع أن تلمس فى هذا المشهد الكريتى حساسية ورهافة غير متوقعة وكنت تشم رائحة أشجار الليمون والبرتقال حين لا تهب الريح، وبعيداً عن البحر الشاسع كان يتدفق نهر الشعر الذى لا ينضب.

- قلت مدمدماً، كريت، كريت... - وراحت دقات قلبى تدق بسرعة.

هبطت من المرتفع، رحت أسير على حافة الشاطئ، سمعت أصوات البنات تثرثر وتقهقه من القرية، بالأوشحة البيضاء حول أعناقهن، وأحذيتهن الصفراء، وتنوراتهن مرفوعة قليلاً، كن فى طريقهن نحو الدير الواقع على الشاطئ للقداس.

توقفت فى مقابلتهن حتى تلتقطنى أعينهن، فقطعت ضحكاتهن فجأة. فما أن يرين رجلاً غريبًا حتى يعلو وجوههن تعبير فظ وعصبى، اكتسين بالشحوب من رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن، تسمرت أصابع أيديهن وتشابكت مذعورة نحو صدورهن المزررة بإحكام.

الدماء العتيقة التى تجرى فى عروقهن تذكرت وارتعدت؛ فجزيرة كريت على اتساع وطول شواطئها التى تطل على الساحل الإفريقى، منذ قرون طويلة وهى ترى القراصنة يخطفون الخراف والنساء والأطفال ويربطونهم بالأحزمة الحمراء ويلقون بهم فى زنازين السفن ثم يبيعونهم

فى الجزائر والأسكندرية وبيروت. منذ قرون عديدة على هذا الشاطئ تمتد خصلات البكاء والنواح ويسمع هدير أصدائه فى أرجائه. شاهدت الفتيات ينطلقن نحو جانب الطريق فى عصبية ملتصقات ببعضهن، كمن أراد أن يصنع جسرًا منيعًا فى محاولة دفاع يائسة. تحركات واثقة كانت ضرورية وحتمية قبل قرون وتعود اليوم بلا سبب، متتبعة إيقاع احتياج زمن غابر.

وبينما كانت الفتيات يعبرنَ من أمامى، ابتعدت بهدوء مبتسمًا. وعلى الفور شعرن أن هذا الشىء الذى كن يرتعدن منه منذ قرون قد ولى، وكأنهن قد استيقظن فجأة فى زمننا الآمن، وارتسمت على وجوههن الارتياح وتلاشى التحفظ الكثيف وبأصوات سريعة أخذن فى إلقاء تحية الصباح بأصوات مشرقة زاهية. فى نفس اللحظة أجراس الدير البعيد راحت تدق بسعادة ومرح فامتلأ الهواء بالبهجة.

أشرقت الشمس، كانت السماء صافية. وقفت بين الصخور. حشرت نفسى مثل طير فى تجويف، نظرت إلى البحر بسعادة، شعرت بشىء من القوة والانتعاش والطاعة فى جسدى؛ وكان عقلى يتبع الموجة فحسب، صار موجة طيعة، بلا مقاومة راح يتبع إيقاع البحر الراقص.

شيئًا فشيئًا بدأ قلبى يثور، أصوات مظلمة صعدت من أحشائى؛ كنت أعرف من ينادينى؛ ما إن أختلى للحظة مع روحى إلا وهدرت هذه الأصوات العالقة برغبات غامضة، نابعة من آمال متهورة متشوقة وغير متزنة تصيح وتتوسل سائلة عن النجاة.

فتحت بسرعة كتاب دانتى رفيق ترحالى وكى لا أسمع تلك الأصوات؛ كى أطرد ذلك الشبح الشرير من رأسى. رحت أتصفح وأقرأ بيتًا من هنا وفقرة من هناك، كنت أتذكر النشيد بأكمله، يصعد الملعونون الصفحات الحجرية؛ الأرواح المعلقة تكافح كى تتسلق الجبل العالى الوعر؛ وفى الأعلى الأرواح الهانئة المباركة تنعم بالسير بين الحدائق الزمردية، مثل يراع سراج الليل المتقدة. ورحت أصعد وأهبط درجات بيت القدر ذى الثلاثة طوابق، كنت أطوف حرًا فى الجحيم، فى المطهر وفى الجنة، كما لو كنت فى بيتى. كنت أتألم وأترقب وأنا أسبح فى بحر أبيات الشعر البديعة هذه.

أغلقت دانتى، ورحت أنظر بعيدًا نحو أفق البحر وطائر نورس لمس ببطنه الموجة وترك جسده مستمتعًا بشهوة الانتعاش وطفل أسمر اللون حافى القدمين ظهر على الشاطئ يغنى مقاطع عشق كريتية؛ أظنه كان يفهم ما فيها من آلام حيث إن صوته قد بدأ يتحشرج أثناء غنائه.

تمامًا كما كانت تُغنى أشعار دانتى فى وطنه ولسنوات طويلة بل ولقرون، وكما أن أغانى العشق تعدُّ الأولاد للحب، كانت أيضًا الأشعار الفلورنسية الملتهبة تعدُّ المراهقين الإيطاليين إلى معركة الكفاح من أجل الخلاص. ولمّا كان الجميع يتناولون الشعر شيئًا فشيئًا إذا بهم فى تناولهم يحولون العبودية إلى حرية.

سمعت صوت ضحكات خلفى. انحدرتُ فجأة من أعالى دانتى، التفت نحو زوربا الذى يقف خلفى، وكان كل وجهه يضحك.

– صـاح زوربا. ماذا يجرى يا سيدى؟ أبحث عنـك منذ سـاعات بـلا جـدوى!

وكما رآنى صامتًا وساكنًا:

– أصبحنا فى الظهر، صاح؛ الدجاجة على النار تغلى وستذوب من فرط الغليان! أفهمت؟

– نعم فهمت، لكن لست جائعًا.

– ليس جائعًا! قال زوربا وهو يضرب يده على فخذه. لكنك لم تأكل شيئًا منذ الصباح؛ وللجسد روح وله عليك حق، ولابد لك أن ترأف به. أعطه شيئًا يأكله، فإن جسدك كحمارتك إن لم تطعمها ستتخلى عنك فى منتصف الطريق.

منذ سنوات عديدة وأنا أزدرى متع الجسد، وكنت آكل فى الخفاء إن كان فى استطاعتى، وكنت أفعل هذا كما لو كنت أرتكب فعلاً مشينًا؛ لكن الآن حتى لا يصيح زوربا ويتذمر:

– حسنًا؛ سآتى.

سلكنا طريقنا نحو القرية. الساعات التى أمضيتها بين الصخور مرت كالبرق مثل ساعات العشق. كنت مازلت أشعر بأنفاس دانتى الفلورنسية الملتهبة.

– سأل زوربا بعد شىء من التردد. أكنت تفكر فى الفحم؟

- أجبت ضاحكًا . أىّ نعم، وهل أفكر فى شىء آخر؟ غدًا نبدأ العمل، ولابد أن أقوم ببعض الحسابات.

رمقنى زوربا بنظرة من طرف عينيه، أدركت أنه يتفحصنى ويزن كلماتى، فلم يكن يعرف هل يصدقنى أم لا؟

- سألنى بحذر وهو يسير. وبماذا خرجت بعد كل هذه الحسابات؟

- إننا لابد أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم يوميًا حتى نغطى التكاليف.

نظر إلى زوربا ثانيةً بشىء من القلق؛ ثم بعد قليل:

- ولماذا ذهبت إلى البحر، قال، كى تجرى الحسابات؟ التمس لى العذر يا سيدى إذا كنت أسأل، فأنا لا أفهم. أنا عندما أجرى الحسابات وأصارع الأرقام، أود أن أحشر نفسى فى حفرة فى باطن الأرض، تحت ضوء شاحب ولا أرى شيئًا .

أما إذا رفعت عينى كى أرى البحر أو شجرة أو امرأة، حتى ولو كانت عجوزًا يا صاح، تذهب الأرقام والحسابات إلى الجحيم. تطير الأرقام وتصنع أجنحة وتطير عليها اللعنة!

- قلت كى أمازحه. لماذا يا زوربا؟ العيب فيك.

فليس لديك القوة أن تستجمع قواك العقلية وتجبرها على التركيز.

- لا أدرى يا سيدى، ربما، لكن هناك بعض الأشياء يا سيدى ولا حتى سليمان الحكيم... اسمع، كنت أمر يومًا فى إحدى القرى الصغيرة. وكان رجلا عجوزًا جدًا يغرس بذور شجرة لوز. «يا جد، قلت له، أ شجرة لوز تزرع؟» فالتفت نحوى العجوز قائلاً: «يا بنى، أنا أعيش كما لو أنى خالد! - فأجبته قائلاً، وأنا أعيش كأنى سأموت فى أية لحظة.» من منا على حق يا سيدى؟ نظر إلىَّ وارتسمت على وجهه ملامح النصر:

- قالَ. ما الذى تستطيع قوله الآن؟

صمتُّ. تتشابه الطرق فى وعورتها وانحدارها والغاية واحدة وهى الوصول إلى القمة. أن تعيش حياتك كما لو أنك خالد أى ليس هناك موت أبدًا أو أن تعيش وفى ذهنك دائمًا أن الموت يمكن أن يحدث فى أية لحظة، ربما يكون الشيئان شيئًا واحدًا بالفعل؛ لكن عندما سألنى زوربا، لم أكن أعرف الإجابة.

- إذن؟ سأل زوربا بسخرية. ثم قال، لا تجهد نفسك يا سيدى، فلن تجد إجابة؛ لنغير الموضوع، حيث إننى الآن أتأمل الطعام، الدجاجة والأرز المرشوش بالقرفة؛ والبخار يتصاعد من رأسى مثل جرة الأرز. لنأكل أولاً، لنملأ معدتنا أولاً. لكل حادث حديث. بالترتيب إذن، الآن وقت الأرز؛ إذن فعلينا به أولاً لنركز فيه وغداً علينا بالفحم. كل شىء على حدة لا نريد أن نترك أعمالنا فى المنتصف - أفهمت؟

دخلنا القرية. كانت النسوة يجلسن على عتبات البيوت يثرثرن، أما الشيوخ فكانوا يتكئون على عصيّهم فى صمت. تحت شجرة رمان مثمرة كانت عجوز تفلى رأس حفيدها من القمل.

أمام المقهى كان يقف رجل عجوز ذو قامة منتصبة، عيناه شبه مغطاة من ارتخاء جفنه الأعلى بسبب تقدم السن، وترتسم على وجهه ملامح حادة مركزة، أنف معقوف، ويبدو على هيئته النبل. كان مفروانتونيس شيخ القرية الذى استأجر لنا منجم الفحم. كان قد مر بالأمس على نزل مدام أورتانس كى يأخذنا إلى بيته.

– إنه عيب كبير أن تقيموا فى النزل كما لو أنكم غرباء ولا تعرفون أحداً فى القرية.

كان جاداً رزيناً ويزن كلماته جيداً، تماماً مثل الوجهاء والأعيان. لمّا رفضنا تصنع الإهانة لكنه لم يُلح.

– قد قمت بواجبى، قال وانصرف.

بعد قليل أرسل لنا رأسين من الجبن، وسلة من الرمان، وصندوق من الزبيب والتين المجفف، وجرة من العرق.

– هذه تحية من القبطان مافروانتونيس، هذا شىء بسيط مع كثير من المودة، قال لنا خادمه وهو يفرغ الحمولة من على ظهر حماره.

حييْنَا شيخ القرية صاحب المقام الرفيع بفائض كلمات من الود والمحبة.

– أطال الله فى عمريكما! قال الخادم وهو يضع يده على صدره شاكرًا.

ولم يتحدث مرة أخرى.

– إنه قليل الكلام، تمتم زوربا؛ شخص حاد.

– قلت؛ شخص فخور، يعجبنى.

وصلنا فى النهاية؛ كانت فتحتى أنف زوربا ترتعشان فى سعادة. مدام أورتانس رحبت بنا مهللة بصيحة لحظة دخولنا، وهرعت إلى الداخل.

أعد زوربا المائدة تحت عريشة بلا أوراق. قطع الخبز لشرائح كبيرة، أحضر النبيذ، وضع الأطباق والملاعق والأشواك. التفت نحوى ونظر إلى بمكرٍ مشيرًا نحو المائدة: فقد أعد المائدة لثلاثة أفراد!

– همس لى فى أذنى. أفهمت ياسيدى:

– أجبت؛ فهمت، فهمت، أيها العجوز اللعين!

– الدجاجة المسنة لها حساء لذيذ، قال وهو يلعق شفتيه قائلاً: فأنا أعرف شيئًا عن هذه الأمور.

كان يروح ويجىء بخفة وعيناه متقدتان شررًا وراح يدندن أغانى حب قديمة.

- قال. هذه هي الحياة يا سيدى؛ الحياة دجاجة، ها أنا الآن أتصرف كما لو أن الموت سيأتينى فى هذه اللحظة؛ وكم أنا متعجل كى لا أموت قبل أن ألتهم الدجاجة.

- تفضلوا إلى المائدة! أعلنت مدام أورتانس.

رفعت القدر وجاءت لتضعه أمامنا.

لكنها توقفت مندهشة؛ فقد انتبهت إلى أن المائدة معدة لثلاثة أفراد. احمرّت وجنتاها من السعادة؛ نظرت إلى زوربا، وأخذت عيناها الزرقاوان اللاذعتان ترتعشان.

- همس لى زوربا: إن لباسها الداخلى يحترق.

ثم التفت بأدب جم نحو المدام: جنية البحر الجميلة، قال، نحن بحارة تحطمت سفينتهم ولفظنا البحر إلى مملكتك؛ هل ننعم بجلوسك معنا إلى مائدة الطعام؛ يا حوريتى الفاتنة!

وكنجمة غناء فتحت العجوز ذراعيها على اتساعهما ثم أغلقتهما كما لو أرادت أن تعانقنا سويًا، تمايلت قليلاً فلامست زوربا بخفة ورشاقة ثم لمستنى أنا بعد ذلك، ثم جرت إلى غرفتها تخرخر كالقطة؛ بعد قليل وصلت مزقزقة تتمايل من البهجة مرتدية أفضل ثيابها: فستان مخملى أخضر براق، مزدان بشرائط صفراء بالية؛ بقى الصدر مفتوحا بكرم، ثبتت على شق صدرها وردة منفوشة من القماش. حملت فى يدها قفص الببغاء وعلقته فى العريشة.

أجلسناها فى المنتصف؛ زوربا على اليمين، وأنا على اليسار.

رحنا نلتهم الطعام بنهم. لوقت ليس بالقصير لم ننطق بكلمة؛ أطعمنا حمارتنا بشىء من التعجل ورويناها نبيذاً فسرعان ما استحال الطعام دمًا فثبتت أحشاؤنا، و بدا الوجود جميلاً، والمرأة التى بجوارنا أخذت تزداد شبابًا واختفت تجاعيدها، والببغاء الذى كان فى قفصه أمامنا، بلونيه الأخضر و الأصفر صار يراقبنا، كان يبدو لنا كأنه إنسان صغير مسحور أو أن روحه هى روح المغنية العجوز، بنفس فستانها الأخضر. وفوق رؤوسنا عريشة العنب التى ألقت فوقنا فجأة عناقيد كبيرة من العنب الأسود.

ضم زوربا ذراعيه كأنه يعانق العالم بأسره.

– ماذا جرى يا سيدى؟ صاح منفعلاً. نشرب كأسًا من النبيذ والعالم يضيع. يا رجل، ما هى الحياة؟ بالله عليك، أعناقيد عنب هذه التى تتدلى فوق رؤوسنا؟ أهى ملائكة؟ لم أعد أميز الأشياء. أم أنها لا شىء ولا يوجد إلا الـ لا شىء، ولا دجاجة ولا جنية، ولا حتى كريت؟ قل لى يا سيدى، تكلم قبل أن أُجّن!

بدأ زوربا ينتعش؛ انتهى من الدجاجة، وصار ينظر الآن إلى مدام أورتانس بشهوانية. كانت نظراته تفيض عليها، تصعد وتهبط، تثقب صدرها المنفوخ وتتفحصه كأنها أيادى. كانت عينا سيدتنا متقدة وكانت تحب النبيذ الذى احتست منه الكثير. وقد أعادها شيطان النبيذ إلى

الأيام الخوالى، صارت رقيقة مرهفة الحس ثانيةً، متسعة الصدر، نهضت وأغلقت الباب الخارجى حتى لا يراها القرويون - «الإنسان البدائى» كما كانت تسميهم، - أشعلت سيجارة و راحت تخرج الدخان حلقات من أرنبة أنفها الفرنسية.

فى لحظات كهذه كل أبواب المرأة تكون مفتوحة وكل حراسها نائمون والحديث الطيب هو سلاح قاهر كالذهب أو العشق.

أشعلت غليونى وقلت الحديث الطيب:

- إنك تذكريننى يا سيدتى، أطال الله فى عمرك، بسارة برنار... فى شبابها. نفس الأناقة والنيافة والنبل ونفس الجمال أيضًا الذى لم أكن أنتظر أن أراه فى هذا المكان الموحش. فأىّ شكسبير أرسل بكِ إلى هنا بين المتوحشين؟

- شكسبير؟ قالت وهى تفتح عينيها الشاحبتين: أىّ شكسبير؟

وراح ذهنها يتحسس ما قد رأت وشاهدت فى المسارح، راح يتسكع على مقاهى سانتان ومن باريس بدأت وحتى بيروت والأسكندرية وصالة كبيرة وثريات ومقاعد مخملية ونساء ورجال، ظهور عارية وعطور وزهور، وفجأة فُتح الستار وظهر زنجى هائل...

- أىّ شكسبير؟ قالت ثانيةً، وهى سعيدة أنها تذكرت أخيراً: هذا الذى يسمونه "عطيل"!

- أىّ شكسبير يا سيدتى أوقع بك فى هذا الشاطئ الموحش؟

نظرت حولها والأبواب موصدة والببغاء نائم والأرانب تمارس الجنس وكنا وحدنا. وراحت تفتح قلبها لنا، كما تفتح صندوق قديم ملىء بالبهارات ورسائل غرامية اصفرت أوراقها وفساتين قديمة....

كانت لغتها اليونانية ركيكة وكانت تخلط المقاطع، فتخلط معانى الكلمات أحيانًا لكن بفضل النبيذ كنا نفهمها، وأحيانًا كنا نكتم ضحكاتنا بالكاد - كنا قد ثملنا بالطبع - فكنا نلجأ للانفجار بكاءً.

- حسنًا (هذا ما قصته علينا الحورية العجوز فى فنائها المعطر).
حسنًا، آآه! أنا هذه المرأة التى أمامكم كنت فنانة مشهورة - نار على علم - لا، لم أكن أظهر فى الحانات والمقاهى وكانت ملابسى الداخلية حريرية بدانتيل حقيقى... لكنه العشق....

تنهدت بعمق وأخرجت سيجارة أخرى فأشعلها لها زوربا.

- عشقت أميرال بحرى «لفظت الكلمة مختلطة الحروف لكننا فهمنا». كانت كريت فى حالة فورة «كانت تقصد ثورة» والأساطيل رست فى ميناء سودا. وبعد أيام قليلة رسوت هنا أنا أيضًا. يا للعظمة!، كان يجب أن تشاهدا «الأميرالات الأربعة»، الإنجليزى، الفرنسى، الإيطالى، والروسى؛ كانت تزدان ستراتهم بالذهب، أحذيتهم جلدية لامعة والريش على رؤوسهم مثل الديكة، لكنها ديكة كبيرة يتراوح وزنها بين ثمانين ومائة كيلو جرام كل منهم؛ فُتنت بهم. ماذا أقول عن لحاهم! مجعدة حريرية؛

سوداء وشقراء ورمادية وبنية، تفوح منهم العطور! لكل كانت له رائحة خاصة به، هكذا كنت أميز بينهم فى الليل؛ كانت رائحة الإنجليزى كولونيا والفرنسى فيوليت والروسى مسك والإيطالى كانت تفوح منه رائحة خليط من المسك والعنبر. يالها من لحى! يا للمسيح والعذراء! يالها من لحى!

«كنا نجتمع نحن الخمسة على متن إحدى السفن فى كثير من الأحيان»

وكنا نتحدث عن الثورة، كلهم كانوا بسترات مفتوحة، وأنا بقميصى الحريرى الملتصق على جلدى لأنهم كانوا يسكبون على الشامبانيا. كنا فى الصيف كما ترى. حسنًا، كنا نتحدث عن الثورة بجدية، وكنت أنا أمسك بلحاهم متوسلة إليهم ألا يقصفون الكريتيين الصغار بالقنابل. كنا نراهم فوق الصخور بالمنظار بالقرب من خانيا[٦] الكثير من الصغار مثل النمل، بسراويل زرقاء وأحذية صفراء طويلة؟ ولا يتوقفون عن الصياح بالحرية وهم يرفعون الأعلام....

تحرك حاجز عيدان الخيرزان المحيط بالفناء، فتوقفت محاربة البحر العجوز عن الكلام مرتعدة؛ بين العيدان كانت هناك عيون خبيثة تشع. علم الأولاد أن هناك حفلة من نوع ما فراحوا يتلصصون.

---

(٦) خانيا: أحد أقاليم جزيرة كريت الشهيرة. (المترجم)

حاولت النجمة أن تنهض لكنها لم تستطع؛ فقد أكلت وشربت كثيراً، فجلست تتصبب عرقًا وأمسك زوربا بحجر فهرول الأولاد وهم يصيحون.

– قال زوربا وهو يسحب مقعده بالقرب منها. أكملى يا حوريتى، أكملى يا جوهرتى!

– حسنا، كنت أقول للإيطالى، حيث كنا قد رفعنا الكلفة بيننا؛ أمسكت بلحيته وقلت: «عزيزى كانافارو، كانافارو يا صغيرى، لا تفعل بوم بوم!، بوم، بوم لا!، لا!»

كم من المرات أنقذت الكريتيين الصغار من الموت! كم من المرات كانت المدافع جاهزة للضرب وأنا أمسك بلحية الربان ولا أتركه أن يفعل بوم! لكن من هو مدين لى؟ فهل رأيتم أى وسام مُنح لى؟...

غضبت مدام أورتانس من جراء جحود الناس، ضربت بقبضتها اللينة الممتلئة على المنضدة. فمد زوربا يديه الخبيرتين على ركبتيها المنفرجتين متظاهراً بشدة التأثر وصاح:

– يا بوبولينا(٧) الرائعة، كم أنت عظيمة، لا بوم بوم!

– قالت العجوز ضاحكة؛ ارفع يديك عنى! ماذا تظننى؟

ورمقته بنظرة رقيقة.

---

(٧) بوبولينا: إحدى بطلات النضال اليونانيات فى القرن التاسع عشر. (المترجم)

– قال العجوز الفاسق المكار، هناك رب فى السماء، لا تنزعجى يا بوبولينا! هناك رب؛ ونحن هنا لا تنزعجى أبداً.

رفعت العجوز عينيها الزرقاوين نحو السماء، ثم نظرت إلى الببغاء الأخضر فى قفصه وقالت:

– كانافارو، كانافارو يا صغيرى، كانت تموء بشىء من العشق.

تعرف الببغاء على صوتها. فتح عينيه، فأمسك بسلك القفص وراح يصيح بصوت بشرى مبحوح مثل شخص يغرق:

– كانافارو! كانافارو!

– أنا هنا! صاح زوربا وهو يمد يده ثانية على هاتين الركبتين واسعتى الخبرة، كما لو أعلن عليهما احتلالاً.

النجمة العجوز تحركت فى مقعدها متلملة وفتحت فمها المجعد:

– لقد حاربت أنا أيضًا، صدراً لصدر بكل بسالة. لكن جاءت الأيام السيئة؛ وتحررت كريت، جاءت الأوامر للأساطيل أن ترحل. «ماذا سيحدث لى – صرخت وأنا أمسك الأربع لحى. أين ستتركوننى؟ فقد اعتدتُ على الأبهة و الفخامة، على الشامبانيا ولحم الدجاج، اعتدت على السفن، اعتدت على البحارة الشباب الذين كانوا يقدمون لى التحية الرسمية، على المدافع تتطلع إلى، كم كانت رائعة، ممددة وممتلئة مثل الرجال، ماذا سيحل بى، أربع مرات أرملة يا أحبائى الأميرالات؟

وهم راحوا يضحكون - آآه، يا لهم من رجال! ملأوا جعبتي بجنيهات إنجليزية وليرات إيطالية وروبلات روسية وفرنكات فرنسية وكنت أملأ جواربي وصدري وأحذيتي وكنت أصرخ من البكاء في آخر ليلة. وعندما أشفقوا على ملأوا حوض الحمام بالشامبانيا ووضعوني فيه - كان لدينا الشجاعة كما ترى - وبعدها كانوا يضعون الكؤوس والأكواب في الداخل ويشربون الشامبانيا، ولما ثملوا أطفأوا الأنوار! يا لها من أيام جميلة...

في الصباح كنت أشم كل الروائح مجتمعة المسك والعنبر والكولونيا والبنفسج أو تأتيني رائحة كل منهم تباعًا ورائحة كل القوى العظمى الأربع.

- إنجلترا وروسيا وفرنسا وإيطاليا - كنت أمسك بها كلها، هنا، في صدري وأتلاعب بها، هكذا!

وفتحت مدام أورتانس ذراعيها المكتنزين وراحت تحركهما لأعلى وأسفل كأنها تلاعب رضيعًا على ركبتيها.

- نعم، هكذا، هكذا! وعند الصباح كانت المدافع تنطلق، أقسم بشرفي، أن المدافع كانت تضرب، وأحضروا لي مركبًا باثني عشر مجدافًا تحملني إلى خانيا(*)...

التقطت منديلها وراحت تبكي بلا عزاء.

– صاح زوربا وهو متأثر بشدة، عزيزتى بوبولينا، أغلقى عينيك... أغلقى عينيك يا جوهرتى؛ أنا هنا كانافارو!

– ارفع يدك عنى، قلت لك! أشاحت سيدتنا بدلال. ألا ترى نفسك! أين هى الكتفيات الذهبية والقبعات العسكرية المثلثة الشكل واللحى المعطرة؟ آآه! آآه!

ضغطت على يد زوربا بلطف وبدأت فى البكاء ثانيةً.

بدأت برودة الطقس تظهر. صمتنا. البحر بعيداً عند عيدان الخيزران كان يتنهد بهدوء ورقة. الهواء جنح للسكون، أشرقت الشمس. ومر زوج من الغربان السمينة فوق رؤوسنا، وصوت أجنحتهما كان مثل شق قماش من الحرير – أو القميص الحريرى للفنانة – دعنا نقول!

وحل نور الغسق مثل غبار ذهبى مرشوش على الفناء. خصلات شعر مدام أورتانس بدت متوهجة كالجمر وهى تتمايل مع هواء المساء، كما لو أرادت أن تهرب وأن تلحق النيران فى الرؤوس الأخرى وصدرها نصف المكشوف وركبتاها المنفرجتان العجوزتان وتجاعيد رقبتها وحذاؤها القديم، كل هذا امتلأ بالذهب.

حوريتنا العجوز اقشعرت. كانت عيناها الحمراوان نصف مغمضتين من البكاء والنبيذ، وراحت تنظر إلىّ تارة وإلى زوربا تارة أخرى، الذى تدلت شفتاه الجافتان وتعلقت عيناه بصدرها بشهوانية. كانت تنظر إلينا بتساؤل – كان الظلام قد حل – بينما كانت تحاول أن تميز من منا يكون كانافارو.

- قال لها زوربا بحماس واضعًا يديه على ركبتيها: عزيزتى بوبولينا، لا يوجد رب ولا يوجد شيطان ولكن لا تنزعجى. ارفعى رأسك، ضعى يدك على خدك وغنى، وليذهب الموت إلى الجحيم!

كان زوربا مشتعلاً، ووضع يده على المغنية وكان يتكلم لاهثًا وقد جحظت عيناه وبالتأكيد لم يكن يرى أمامه العجوز الملونة، لم يكن يرى سوى أنثى، فقد كان يفضل كلمة أنثى على كلمة المرأة. ذابت كل الفروق وتاهت القسمات والملامح والسنون والجمال والقبح وكل هذه باتت تفاصيل موازية غير هامة؛ فخلف كل امرأة كان يقف وجه افروديتى منتصبًا ومقدسًا ومليئًا بالأسرار.

من خلال هذا الوجه كان يرى زوربا ومن هذا الوجه كان يتحدث ولهذا الوجه كان يشتاق، ومدام أورتانس كانت مجرد قناع عابر؛ وزوربا كان ينزعه كى يقبل الفم الخالد.

- ارفعى رقبتك البيضاء كالجليد يا عزيزتى وبدأ فى التحدث ثانية بصوته اللاهث: ارفعى رقبتك البيضاء كالجليد، ودعى الغناء يتدفق!

رفعت العجوز يدها المكتنزة الهرمة المتشققة من فرط العمل على حوض الغسيل وأسبلت عينيها؛ وأطلقت صوتًا متوحشًا حزينًا وشرعت فى غناء مقطوعتها المحببة القديمة، وهى تنظر بنصف عين مسبلة نحو زوربا - فقد بات واضحًا أنها قد حسمت اختيارها:

فى نهر حياتى المنجرف

بماذا تريد أن أجيبك

وهب زوربا ليحضر السانتورى من الداخل، جلس على الأرض عاقداً رجليه، نزع غطاءه ووضعه على ركبتيه، ومد يديه.

- آآه! آآخ! صاح؛ خذى سكينا واذبحينى يا بوبولينا!

بدأ الليل يرخى ستائره على السماء وبدأ نجم الليل يسبح، اختلط صوت السانتورى بصوت مدام أورتانس التى اكتظت أحشاؤها بالأرز والدجاج اللوز المحمص والنبيذ ومالت برأسها على كتف زوربا وتنهدت، وراحت تفرك نفسها ببطء على ظهره النحيل، ثم تثاءبت وتنهدت مجدداً.

غمز لى زوربا بعينه وقال بصوت خفيض:

- لقد اشتعل سروالها الداخلى يا سيدى؛ انصرف!

بزغ الفجر، فتحت عينى فوجدت زوربا يجلس مثنى السَّاقينِ على طرف السرير فى مقابلتى يدخن فى تأمل عميق.

كان يثبت عينيه المستديرتين نحو النافذة التى أمامه، حتى أن عينيه أخذتا لونًا أبيضَ مثل نور الصباح وكانت عيناه منتفختين وعنقه الطويل النحيل بدا أطول بشكل شاذ أشبه بعنق الخروف.

كنت قد انسحبت مبكرًا من الحفلة ليلة أمس وتركته وحيداً مع الحورية العجوز.

– إنى ذاهب، قلت، استمتع بوقتك يا زوربا؛ ليمنحك الله القوة!

– مع السلامة يا سيدى وقال زوربا؛ دعنا نتولَ الأمر نحن.

يبدو أنهم قد تولوا زمام أمرهم بالفعل، لأننى سمعت أصواتًا أشبه بالخرير والهديل المكتوم، وبدا لى فى لحظة كما لو أن الغرفة المجاورة قد اهتزت؛ ثم غرقت فى النوم ثانيةً بعدها. غير أنى عند منتصف الليل شعرت بزوربا يدخل إلى الحجرة حافيًا ويلقى بنفسه على الفراش بهدوء وحرص حتى لا يوقظنى.

والآن، عند الفجر أراه يحدق هناك نحو الضوء وقبل أن يستيقظ تمامًا؛ كان غارقًا فى ابتهاج عميق ولم تغادر بعد أجنحة النوم ذهنه. بهدوء وسلبية وكان يترك نفسه فى نهر بطىء معتم من العسل؛ كان العالم يتدفق مع المياة والطين والأفكار والبشر نحو بحر بعيد، وكان زوربا يتدفق معه بلا أية مقاومة، ودون أن يسأل، كان سعيداً.

بدأت القرية فى الاستيقاظ – صوت جلبة مختلطة من أصوات الديكة والخنازير والحمير والناس. ودِدتُ لو أهب من الفراش صائحًا: «يا زوربا، اليوم يوم عمل!» لكنى كنت أشعر أنا أيضًا بسعادة ما فى أن أبقى هكذا صامتًا، ساكنًا، مسلمًا نفسى إلى أشعة الصباح الوردية المترددة. الحياة كلها تكمن فى هذه اللحظة السحرية وتبدو خفيفة كالريشة، وبدا أن الأرض خفيفة كرفرفة جناحى نعامة – مثل سحابة تتشكل وتتغير مع نفثات الريح.

شعرت بالغيرة عندما شاهدت زوربا يدخن، فمددت يدى لأتناول غليونى. نظرت إلى الغليون بتأثر فقد أهداه لى صديقى ذو العينين الخضراوين الرماديتين والأصابع النحيلة النبيلة ومرت سنوات طويلة وكنا فى الغربة، وفى ظهيرة أحد الأيام؛ حيث كان قد أنهى دراسته وسيسافر فى الليلة نفسها إلى اليونان. «دعك من هذه السيجارة – قال لى – تشعلها ثم ترميها؛ تمامًا مثل عاهرات الشارع وهذا خزى يا رجل. تزوج من هذا الغليون؛ فهو مثل المرأة المخلصة؛ كلما عدت إلى البيت تجدها دومًا فى انتظارك مستكينة. وتذكرْنى فى كل مرة تشعله وتجد حلقات دخانه تتصاعد فى الهواء!»

كنا فى الظهيرة، فى طريق خروجنا من متحف برلين، وقد ذهب ليودع «المحارب» المحبب لديه ولوحة رمبرانت وبخوذته البرونزية ولونه الشاحب وخديه الضامرين وملامحه الدالة على عزيمة قوية، وعينيه الحزينتين. «إذا حققت فى حياتى أى شىء يدل على الرجولة والشجاعة - همهم وهو ينظر إلى المحارب الصامد - فسأكون مديناً به لهذا الرجل...»

خرجنا، كنا نتكئ على عمود فى فناء المتحف؛ كان أمامنا تمثال نحاسى يميل لونه إلى السواد! إمرأة أمازونية تمتطى حصاناً عارياً بسمو لا يوصف؛ طائر رمادى صغير حط للحظة على رأس الأمازونية، هز ذيله بسرعة وزقزق مرتين أو ثلاث بسخرية، وطار بعيداً.

اقشعر بدنى؛ نظرت إلى صديقى: سألته؛ «هل سمعت الطائر؟ كأنه قال لنا شيئاً ورحل. - أجاب صديقى وهو يبتسم. طير هو فليغرد، طير هو فدعه يتكلم!»

كيف جاءتنى فى هذا الصباح وعلى هذا الشاطئ الكريتى البعيد هذه اللحظة وغمرت روحى بالمرارة!

حشوت غليونى بالتبغ وأشعلته.

كل الأشياء لها معنى خفى فى هذه الدنيا، رحت أتأمل. كل الأشياء، كل البشر والحيوانات والأشجار والنجوم ومثل الطلاسم الهيروغليفية، والويل والسعادة للذى يبدأ فى فك هؤه الطلاسم والتنبؤ بها وتفسير

معانيها ونطقها... عندما تراها لا تفهمها؛ تظن أنها مجرد بشر، حيوانات، أشجار ونجوم؛ إلا أنك بعد سنوات، وعندما يكون الوقت دائماً متأخراً، تبدأ فى فهم معانيها.

المحارب ذو الخوذة البرونزية، صديقى المتكئ على العامود تلك الظهيرة الشاحبة، الطائر الذي حدثنا مرفرفًا بجناحيه، وحتى بيت الشعر التراثى الجنائزى لأرتميس(٨)، أتأمل كل هذا اليوم فربما لها معنى ومغزى ضمنى خفى؛ لكن ما هو؟

كنت أتابع حلقات الدخان تتصاعد من غليونى، وتدور فى الضوء الشاحب وتتلاعب درجات اللون الأزرق وتتداخل تعقيداته فى بطء فيصبح هواءً. وروحى تتعقد وتتداخل معه، تتلاعب وتتراقص، وتصعد نفحة أخرى من الدخان فتختفى ثانيةً. مر وقت طويل، وأنا أعيش داخل جسدى لكن دون أى وساطة للمنطق، بحقيقة مطلقة، فى البداية، بداية العالم واختفائه. رحت أغوص ثانية ولكن الآن دون أى كلمات مراوغة وبلا أى حيل أكروباتية بهلوانية كالتى يمارسها العقل، لدى بوذا، هذا الدخان هو أصل تعاليمه وهذه الأشكال التى يتجدد تشكيلها على التوالى هى الحياة التى تنتهى، هادئة وساكنة وهانئة إلى النيرفانا الزرقاء.... لم أحاول التأمل أو التفكير بعمق ولم أسعَ لأجد شيئًا ولم يكن لدى أدنى شك؛ فكنت أعيش اليقين.

---

(٨) أرتميس: من ربات الأساطير الإغريقية، ربة الجبال والغابات والصيد. (المترجم)

تنهدت ببطء، وأعادتنى التنهيدة إلى اللحظة الراهنة، نظرت حولى فرأيت الحجرة البائسة، مرآة صغيرة معلقة بجوارى على الحائط وسقطت عليها أشعة الشمس فكانت تلقى بشذراتها فى المكان؛ وأمامى على الفراش يجلس زوربا يدخن موليًا ظهره لى.

وفجأة قفزت إلى ذهنى كل مغامراته الكوميدية والتراجيدية، يوم الأمس، بواقى عطر بنفسج متبخر - كولونيا ومسك وعنبر ووببغاء وروح بشرية أصبحت ببغاء يضرب بأجنحته القفص الحديدى ويصرخ؛ والبارجة الوحيدة التى بقيت من أسطول كامل تحكى عن المعارك البحرية القديمة...

سمع زوربا صوت تنهيدتى، هز رأسه والتفت نحوى:

- قال متمتمًا: لم نحسن التصرف، لم نحسن التصرف يا سيدى، لقد رأتنا المرأة البائسة ونحن نضحك! والطريقة التى غادرتَنا بها دون أن تغازلها بكلمة رقيقة وكأنها امرأة فى الألف من عمرها، يا للخزى! هذا ليس أدبًا يا سيدى، لا يمكن للبشر أن يتصرفوا بهذا الشكل، لا، معذرة يا سيدى! فهى امرأة، أجل وكائن ضعيف ويميل إلى الحزن والتذمر ومن حسن الحظ أنى بقيت بجوارها لمواساتها.

- قلت ضاحكًا: ماذا؟ ماذا تقصد يا زوربا؟ بمنطقك هذا تعتقد أن كل امرأة لا يوجد فى ذهنها شىء آخر سوى هذا الشىء.

- لا، لا يوجد شىء آخر فى رأسها، يا سيدى. اسمع منى أنا الذى عاش وجاب وفعل وحدث له ما لم يخطر ببالك وشكلت من كل هذا،

دعنى أقول، نظرية. المرأة لا يدور بذهنها شىء آخر، إنه شىء مريض، أقول لك تميل إلى الحزن والتذمر والشكوى وإذا لم تقل لها أنك تحبها وأنك تريدها وتبدأ فى البكاء. فمن الممكن ألاّ تريدك على الإطلاق، بل وأن تصيبها بالاشمئزاز، يمكن أن ترفض؛ هذا شىء آخر. من الممكن. لكنها تريد دومًا أن يرغبها كل من يراها وهذا ما أرادت المسكينة، لذا، افعل خيرًا وأسدِ لها هذه الخدمة!

كانت لدى جدة، لابد أنها كانت فى الثمانين من عمرها وكانت حياة هذه العجوز حكاية فى حد ذاتها. لكن دعنا منها الآن، فهى قصة أخرى.... كانت فى الثمانين آنذاك كما قلت، وفى البيت المقابل كانت هناك فتاة جميلة، طازجة كالماء المثلج، وكان اسمها كريسالو. فى ليلة كل سبت كنا نحن أشقياء القرية والقرى المجاورة نحتسى الخمر حتى نصبح فى مزاج رائق وكنا نضع عود ريحان خلف الأذن، أحد أبناء عمومتى كان يمسك بالتامبورا(٩) ونشرع فى الغناء بكل حماس ومرح وعواطف جياشة، كنا نصيح كالثيران. كلنا كان يرغبها، وكنا نذهب نحو بيتها قطيعًا، لتختار هى.

حسنًا، أتصدقنى يا سيدى؟ سر محيّر هى المرأة، ولديها جرح لا يضمد أبدًا. كل الجروح تلتئم، إلا هذا فلا يلتئم أبدًا، وكى لا أطيل عليك. ماذا،حتى وإن كان عمرها ثمانين عامًا؟ هذا الجرح لا يلتئم.

---

(٩) تامبورا: قيثارة محلية. (المترجم)

كل ليلة سبت إذن كانت العجوز تسحب فراشها بالقرب من النافذة، وتمسك بمرآة صغيرة، وتبدأ فى تمشيط ما تبقى فى رأسها من شعر وتفرقه من المنتصف. كانت تختلس النظر إلينا حتى لا نراها؛ وعندما كان أحد منا يقترب كانت تلملم نفسها وتتصنع النوم فى وداعة العذراء. لكنها لم تكن نائمة! كانت تنتظر الأغنية. عمرها ثمانون عامًا! أفهمت الآن سر المرأة يا سيدى؟ لدى الآن رغبة فى البكاء. فقد كنت شابًا طائشًا لا يفهم وكنت أضحك. ذات يوم تشاجرنا لأنها نهرتنى عن ملاحقة الفتيات، فأثارت غضبى، عندئذ صارحتها فاضحًا كل شىء: لماذا تدعكين شفتيك بأوراق الجوز كل سبت وتمشطين شعرك وتفرقينه من المنتصف؟ أتعتقدين أننا نغنى من أجلك؟ نحن نريد ونغنى من أجل كريستالو؛ وأنت كالجائع الذى يحلم بالخبز!»

لك أن تصدق يا سيدى: حينها وفى هذا اليوم فهمت معنى كلمة امرأة. دمعتان ناريتان سقطتا من عين جدتى. تقوقعت مثل الكلب وأخذ فكها يرتعش. «كلنا نريد كريستالو، صحت وأنا أقترب منها كى تسمعنى بوضوح؛ كريستالو!» إن الشباب شىء متوحش، غير إنسانى، لا تفهم. رفعت جدتى ذراعيها النحيلين نحو السماء: «عليك لعناتى من صميم قلبى!» صرخت. ومنذها بدأت صحة جدتى البائسة فى التدهور. ذبلت وبعد شهرين ماتت. لمحتها وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ نفخت كالسلحفاة ومدت ذراعها لتمسكنى: «أنت قتلتنى، أنت قتلتنى يا ألكسيس الملعون! عليك لعنتى لتُصب بما أُصبت به!»

ضحك زوربا.

- قال وهو يداعب شاربيه. يبدو أن لعنة فافو(١٠) العجوز تحققت! فقد تخطيت الستين على ما أظن، لكنى لم أتعقل أبداً؛ سأظل أحمل مرآة صغيرة فى جيبى وألاحق كل أنواع الإناث.

ضحك ثانيةً؛ ألقى بسيجارته من كوة الحائط وتمدد.

- لدى عيوب كثيرة، قال، لكن هذا العيب سيقتلنى!

قفز من فوق الفراش:

- دعنا من كل هذا؛ لقد تحدثنا كثيراً. اليوم، عمل!

ارتدى ملابسه على عجل وانتعل حذاءة الثقيل، وذهب إلى الفناء.

حنيت رأسى ورحت أفكر فى كلمات زوربا، وفجأة صعدت إلى مخيلتى مدينة جليدية، وكنت أنا أتابع فى معرض لرودان(١١) تمثالاً من البرونز على شكل يد، «يد الرب». كانت نصف مغلقة، وفى الكف كان هناك رجلٌ وامرأة يتعانقان فى نشوة جنونية.

اقتربت منى فتاة ووقفت بجانبى؛ وراحت تنظر إلى التمثال هى أيضًا بتوتر شديد إلى هذا العناق الخالد. كانت نحيلة القوام أنيقة

---

(١٠) اسم الجدّة. (المترجم)

(١١) رودان: نحات فرنسى شهير، توفى فى أوائل القرن العشرين. (المترجم)

المظهر لها شعر أشقر كثيف، ذقن قوى وشفتان حادتان رقيقتان وتبدو عليها الصرامة والعزم ورغم أنى دائمًا ما أكره أن أدعو أحدًا للحديث، لا أدرى أى يد دفعتنى لألتفت و أحدّثها:

– سألتها . فيمَ تفكرين؟

– أجابت بإصرار. إذا كان بوسع المرء أن يهرب!

– وإلى أين يذهب؟ فيد الرب فى كل مكان. لا يوجد ثمة خلاص. ألا تأسفين على هذا؟

– لا. فربما يكون الحب هو أقوى سعادة على وجه الأرض. ربما . لكن الآن وأنا أرى هذه اليد البرونزية، كم أود أن أهرب.

– أتفضلين الحرية؟

– نعم.

– وإذا كنا لا نصبح أحرارًا إلا عندما نطيع يد الرب؟ إذا كانت كلمة «رب» ليس لها هذا المعنى العشوائى الذى يعطيه لها الغالبية؟

نظرت إلى بقلق. كان لون عينيها رماديًا كلون المعدن، وشفتاها جافتين حزينتين.

– لا أفهم، قالت وابتعدت منزعجة.

اختفت. ومنذ ذلك الحين لم تخطر على بالى؛ لكنّها على ما يبدو كانت تعيش فى أعماقى وتتغذى على مخابئ سرية فى صدرى،

والآن فى هذا الشاطئ الموحش، كيف خرجت من أعماقى وظهرت لى شاحبة شاكية.

لم أحسن التصرف، كان زوربا محقًا. اليد البرونزية كانت باعثًا جيداً، الكلمات الأولى مريحة ومبشرة، أو، إذا كنا نشعر بنفس الشىء دون أن نستشعر فيه غرابة أو خزيًا لكُنّا تعانقنا بهدوء شيئًا فشيئًا واتحدنا بيد الرب. لكنّى وثبتُ فجأة من الأرض إلى السماء، فخافت المرأة ورحلت.

صاح الديك العجوز فى فناء مدام أورتانس؛ ودخل النهار أبيضَ ناصعًا من النافذة؛ قفزت من الفراش.

بدأ العمال يصلون وسُمعت أصوات فئوسهم وعتلاتهم ومعاولهم. سمعت صوت زوربا يعطى الأوامر؛ فقد بدأ العمل بالفعل، وكنت ترى فيه رجلاً يعرف كيف يصدر الأوامر ويحب تحمل المسئولية.

مددت رأسى من النافذة ورأيته يقف طويلاً ضخم الجثة بين حوالى ثلاثين من عمال المناجم السمر يرتدون السراويل المحلية؛ كانت يده تمتد بحرص وكلماته قليلة ومباشرة؛ وإذا به فجأة يمسك شابًا من قفاه كان يتمتم متلكئًا.

– صاح به: هل قلت شيئًا؟ تكلم بصوت عال! لا أحب التمتمة. العمل يبغى الهمة والإرادة، إذا لم يكن لديك من هذه الأشياء فاذهب إلى المقهى!

ظهرت فى هذه اللحظة مدام أورتانس بشعر أشعث ووجه منتفخ، بلا مكياج وكانت ترتدى لباسًا واسعًا قذرًا وتسحب تحتها خفين طويلين مهترئين. سعلت سعالاً خشنًا أشبه بصوت الحمار يليق بمغنية عجوز؛ توقفت ونظرت بفخر نحو زوربا؛ كانت عيناها مغبشة وسعلت مجدداً حتى يراها ومرت وهى تتمايل وتهز ردفيها بجواره وكانت على وشك أن تلامسه بردائه ذى الأكمام الواسعة ولكنه لم يلتفت لينظر إليها وأخذ كل عامل قطعة من خبز الشعير الجاف وحفنة من الزيتون.

- هيا يا رجال، ارسموا شارة الصليب؛ بسم الرب!

ومضى أمام مجموعة العمال فى صف بخطوات واسعة سالكًا أقصر طريق نحو الجبل.

لن أحكى هنا عن العمل فى المنجم؛ فهذا يتطلب الصبر، وأنا لا أملكه. كنا قد وضعنا دعامات من الخيزران والجريد وصنعنا كوخًا بالقرب من البحر؛ كان زوربا يستيقظ فجراً، يأخذ معوله ونذهب مع العمال، كان يفتح نفقًا ويتركه، وعندما يجد طبقة تشىٍ بأن هناك عرق فحم لامعًا وكان يرقص من الفرح؛ وعندما كانت تختفى هذه الطبقة، كان يعقد كفيه ويدفعهما نحو السماء كمن يلقى اللعنات على الحظ العاثر.

كان يعمل بكل حماس وجدية؛ حتى إنه لم يعد يستشيرنى فى شىء. منذ الأيام الأولى انتقلت كل التفاصيل والمسئولية من يدى إلى يده. كان هو صاحب القرار والمنفذ له؛ كانت مهمتى قد انحصرت فى تسديد

نفقات أخطائه ودون أن أستشعر أى تذمر فى هذا؛ حيث إننى كنت أشعر جيداً أن هذه الشهور هى الأسعد فى حياتى؛ عندما كنت أدفع الفواتير وأسدد النفقات كنت أشعر أننى أشترى سعادتى بثمن بخس.

كان جدى لأمى فى إحدى قرى كريت يأخذ كل ليلة مصباحه ويدور فى القرية كى يرى إذا كان هناك غريب قد حل بها وكان يأخذه إلى بيته ويضيفه بسخاء فيفرط فى تقديم الطعام والشراب له وكان يجلس بعدها فى مكان الضيافة ويشعل غليونه ثم ينظر إلى ضيفه - حانت ساعة الحساب - كان يقول له بحرص: «تكلم! - ماذا أقول ياسيد ماسترو يورغى؟ - من أنت؟ من أين أتيت، أى من القرى والبلدان رأت عينك؛ كل شىء، أريد أن تقول لى كل شىء، هيا تكلم!»

ويبدأ الضيف فى سرد قصص حقيقية ومختلقة عديدة، وجدى كان يجلس هادئًا على مقعده ويدخن غليونه ويستمع إلى الضيف ويسافر معه. وعندما كان الضيف يعجبه كان يقول له:«ستمكث معنا يوم غد أيضاً، لن تغادر. فلديك الكثير لتحكى.»

جدى لم يغادر قريته قط؛ بل ولم يذهب قط إلى القلعة الكبيرة فى رثيمنوس[١٢]. «لماذا أذهب؟ كان يقول؛ من هنا يمر أهل رثيمنوس وأهل القلعة باركهم الرب، رثيمنوس والقلعة يأتيان إلى بيتى، فلماذا أذهب أنا إلى هناك؟»

---

(١٢) رثيمنوس: أحد أقاليم كريت المركزية. (المترجم)

وها أنا هنا على شاطئ جزيرة كريت أواصل عادة جدى المهووسة. فكأنى عثرت على ضيف بعد أن بحثت عنه بمصباحى، ولا أدعه يغادر ورغم أنه يكلفنى ثمنًا أبهظ من مجرد عشاء ولكنه يستحق. أنتظره كل ليلة حتى ينتهى من عمله، أجلسه أمامى، نتناول الطعام، وتأتى ساعة الحساب، أقول له: «تحدث!» أدخن غليونى وأستمع إليه؛ لقد طاف كل بقاع الأرض هذا الضيف وكما طاف بروح الإنسان أيضًا ولا أشبع أبدًا من الاستماع إليه. «قل يا زوربا، تحدث!»

وتنفتح مقدونيا بأكملها أمامى وتنفرد فى هذا المكان الصغير الذى يفصل بينى وبين زوربا، بجبالها وأنهارها ومياهها وثوارها و أبطالها متمرديها و نسائها ورجالها الأشداء.... وجبل أثوس المقدس(١٣) ذى الواحد وعشرين ديرًا وأبراجه وترساناته، والذكور المقيمين فيه ذوى المؤخرات السمينة. ينفض زوربا ياقته وهو ينهى حديثه عن الرهبان، ويقول وهو ينفجر فى الضحك «ليحرسك الرب يا سيدى من مؤخرات البغال ومن مقدمات الرهبان!»

يطوف بى زوربا كل ليلة فى اليونان وبلغاريا وفى إسطنبول، كنت أغلق عينىّ وأرى. فقد طاف بكل البلقان أنحاء البلقان المضطرب المعذب، ولاحظ بعينيه الضيقتين كل شىء بسرعة ومهارة صقر. كانت عيناه

(١٣) جبل أثوس المقدس: ويسمى أيضًا بالقمة المقدسة. يسكنه النساك والرهبان، لما به من أديرة كثيرة يذهب. إليه المسيحيون للعزلة والتعبد. (المترجم)

تجحظ بين حين وآخر على أشياء ربما اعتدنا عليها ونمررها غير مبالين، إلا أنها تنتصب أمام زوربا كألغاز محيرة مرعبة. فقد يرى امرأة تسير ثم تقف من الخوف: «ما هذا اللغز العجيب؟ يتساءل. ما هي المرأة؟ ولماذا تثير جنوننا دومًا؟ ما هذا الشيء؟ ألا تجيبينني؟»

وتجحظ عيناه أيضًا عندما يتطلع باندهاش إلى شخص، أو شجرة نابتة، كوب من الماء المثلج. إن زوربا يرى كل شيء، كل يوم، لأول مرة.

عندما جلسنا بالأمس خارج الكوخ وشرب كأسًا من النبيذ، التفت ونظر إلى مرعوبًا:

- ما هو الماء الأحمر يا سيدى - ألا أخبرتنى؟

جذع مهمل ينبت أغصانًا وتتدلى منه بعض الثمار التافهة اللاذعة، يمر الوقت، تحمصها الشمس، ثم تصبح حلوة كالعسل، ونسميها بعد ذلك كرومًا؛ ندوس عليها بأقدامنا، نأخذ عصيرها، نضعه فى براميل ونغلقها، نتركها تتعتق، نفتحها فى احتفالات القديس يورغيوس السكير فى شهر أكتوبر، ونجد فيها نبيذًا! ما هذه المعجزة؟ وعندما تشرب هذا العصير الأحمر، وتتفتح الروح، لا يسعها الجسد، فتدعو الرب برجولة لجولة مبارزة. ما هذا يا سيدى، ألا أخبرتنى؟

كنت أشعر وأنا أنصت إلى حديث زوربا أن العالم يستعيد عذريته. كل الأشياء اليومية والقديمة تستعيد بريقها الذى كانت عليه عندما خلقها الرب. الماء والمرأة والنجم والخبز، كل هذه الأشياء كانت تعود إلى نبعها السرى البدائى، وكانت تبدأ عجلة الخلق فى الدوران من جديد.

لهذا، كل ليلة وأنا مستلقٍ على حصى الشاطئ، كنت أنتظر زوربا متشوقًا، وكنت أراه يأتى بخطواته الواسعة المشدودة ملطخًا بالطين والفحم، كنت أراه يسير مثل فأر ضخم يخترق الأرض، ومن بعيد كنت أفهم كيف سار العمل اليوم، من شكل انتصاب جسده وهو يسير إذا ما كان رأسه مرفوعًا أم مُنَكَّسًا، ومن الطريقة التى كان يحرك بها ذراعيه.

فى البداية كنت أذهب معه وأتابع العمال وكنت أحاول أن أنتهج سلوكًا آخر أو أن أهتم قليلاً بالأشياء اليدوية فى العمل، وأن أعرف أو أن أتفاعل مع الجمع البشرى الذى وقع تحت يدى، وأن أحاول تجريب تلك السعادة التى ليس لها علاقة بالكلمات والكتب ولكن بالبشر الأحياء أنفسهم. كنت أصمم خططًا رومانسية، من قبيل: إذا سار العمل فى المنجم بشكل جيد وسننظم مجتمعًا من نوع خاص، ويصير كل المتاع مشاعًا للجميع، الكل يعمل معًا ويأكل من نفس الطعام ويلبس من نفس الملابس، مثل الإخوة. كنت أنسج فى مخيلتى مجتمعًا جديدًا، خميرة لتعايش جديد بين البشر...

لكنى لم أتخذ قرارًا بعد فى أن أفصح عن خططى إلى زوربا. كنت أراه ينظر إلىَّ وهو يتجول بين العمال وأسأل، ثم أتدخل وأنحاز دائمًا إلى صف العامل، وكان زوربا يزم شفتيه ويقول:

سيدى، ألا تذهب فى جولة بعيدًا؟ فالشمس دافئة والجو رائع، اذهب!

كنت أصر في الأيام الأولى، أبقى ولا أغادر. كنت أسأل، وأتحاور، كنت أعلم تاريخ كل عامل: كم من الأولاد يربون، كم من الأخوات عليهم أن يُزوجوا، كم من العجائز والمعاقين يرعون، كنت أعرف همومهم وأمراضهم وعذاباتهم.

– لا تنبش فى تاريخهم يا سيدى. يقول زوربا عابسًا: سيتألم قلبك، ستحبهم أكثر من اللازم وأكثر من المطلوب، والذى من الممكن أن يضر بمصلحة العمل، ولن يهم ماذا يفعلون سوف تسامحهم... عندها الويل لنا، سيذهب العمل إلى الجحيم، لابد أن تعلم هذا. صاحب العمل الصارم يخاف منه العمال ويحترمونه فيعملون بجد، وصاحب العمل الرقيق يركبه العمال ويتكاسلون عن العمل. أفهمت؟

وفى ليلة أخرى، عندما انتهى من عمله، ألقى بمعوله خارج الكوخ بامتعاض وغضب.

– يا سيدى، من فضلك يا سيدى، لا تتدخل؛ فأنا أبنى وأنت بكلامك تهدم كل ما أبنيه. ماذا كنت تقول اليوم؟ اشتراكية وهراء! هل أنت صاحب عمل رأس مالى؟ أو واعظ؟ عليك أن تختار.

لكن كيف لى أن أختار! فقد كان الشوق الساذج أن أوحد بين الشيئين يأكلنى، أن أجد التركيبة المُثلى لمؤاخاة هذا التضاد المميت، وأربح بالحياة الدنيا وبملكوت السماء فى آن واحد. منذ سنوات، منذ صغرى حيث ما زلت تلميذًا فى المدرسة، نظمت مع أصدقائى جمعية

سرية «اتحاد الأخوّة» هكذا سميناها، وأقسمنا، ونحن فى غرفتى وأوصدنا الباب، أن نهب حياتنا للكفاح ضد الظلم.

كانت دموع غزيرة تنهمر من أعيننا، فى اللحظة التى كانت أيادينا فيها على قلوبنا لحظة إلقاء القسم.

نشوة طفولية، لكن لا، الويل للإنسان الذى يسمع ولا يبكى! عندما أرى كيف آلت الأمور بـ«اتحاد الأخوّة» فيها أطباء تافهون، ومحامون صغار، وتجار حقراء، وسياسيون انتهازيون، وصحفيون مأجورون. ينقبض قلبى كلما فكرت فيهم - يبدو أن المناخ فى هذا العالم قاس جداً، فالبذور الطيبة تخنقها الأشواك و النباتات الشيطانية؛ فلا تنمو. ولكن على الرغم من هذا وحسبما أرى أننى ما زلت - حمداً للرب - قادراً وجاهزاً للقيام بحملات دون كيخوتية.

كل يوم أحد، كنا نتأنّق عريسين، نحلق ذقنينا، ونرتدى قميصًا أبيضَ نظيفًا ونذهب إلى مدام أورتانس. كانت تطبخ لنا دجاجة فى كل يوم أحد، كنا نجلس نحن الثلاثة، نأكل و نشرب، ويمد زوربا يديه الطويلتين على صدر السيدة السخى ويسيطر عليه ويداعبه كأحد ممتلكاته الخاصة، وعندما يحل الليل كنا نعود إلى مكاننا على الشاطئ، كانت الحياة تبدو حسنة النية وكأنها متعاطفة معنا، وبسيطة، وطيبة، ومضيافة، مثل مدام أورتانس.

فى أحد أيام الآحاد تلك، فى طريق عودتنا من وليمة الطعام والشراب، قررت أن أفتح فمى وأأتمن زوربا على خططى. كان يسمعنى

بفم مفتوح وصبر، بين الحين والآخر كان يهز رأسه بغضب؛ فقد استفاق من سكرته فور أن بدأت حديثى، وصفا ذهنه، وعندما فرغت من الحديث نتف شعرتين من شاربه بغضب.

- قال، التمس لى العذر يا سيدى، لكن أعتقد أن عقلك صغير جداً. كم عمرك؟

- خمس وثلاثون.

- قال، إذن فلن يكبر أو ينضج عقلك أبداً. ثم انفجر ضاحكاً.

غضبت وأصابنى العناد.

- لماذا؟ ألا تؤمن بالإنسان؟

- لا تغضب يا سيدى. لا، أنا لا أؤمن بشىء. فلو كنت أؤمن بالإنسان، كنت سأؤمن بالرب، وبالتالى بالشيطان؛ وهذا صخب فى حد ذاته. تختلط الأمور كثيراً يا سيدى، وهذا يولد عندى تعقيدات كثيرة.

صمت. نزع قلنسوته وراح يشد شاربه مجدداً كأنه أراد أن ينتفه من جذوره؛ أراد أن يقول شيئاً، لكنه تردد. أخذ ينظر إلى بطرف عينيه، ثم اتخذ قراراً.

- صاح وهو يضرب بعصاه على الصخور. الإنسان كائن متوحش! وحش كبير. لا يمكن أن يعرفه نبل سيادتكم، فأنت جاءك كل شىء بسهولة، لكن اسألنى أنا؛ إنه وحش، أقول لك! عندما تسىء إليه يحترمك ويخشاك، وعندما تحسن إليه يفقأ عينيك.

لابد أن تحتفظ بمسافة بينك وبين الناس يا سيدى! لا تدعهم يتجرؤون عليك، لا تقل لهم أننا كلنا متساوون، وأن لنا نفس الحقوق؛ لأنهم سيدوسون على حقوقك مباشرة وسيخطفون خبزك ويتركونك تموت جوعًا. احتفظ لنفسك بمسافة بينك وبين الناس يا سيدى، فأنا لا أتمنى لك سوى الخير!

- قلت غاضبًا. ألا تؤمن بأى شىء؟

- لا، لا أؤمن بشىء - كم مرة يجب أن أقولها لك؟ أنا لا أؤمن بشىء ولا بأحد، أنا لا أؤمن سوى بزوربا. ليس لأن زوربا هو الأفضل، أبدًا، على الإطلاق! إنه وحش هو أيضًا ولكنى أؤمن بزوربا؛ لأنه هو الوحيد الذى تحت سيطرتى، هو الوحيد الذى أعرفه، كل الأخرين هم أشباح. فأنا أرى بعينيه، أسمع بأذنيه، أهضم طعامى فى أحشائه. كل الآخرين أشباح أقول لك. وعندما أموت أنا، ستموت كل الأشياء. وكل العالم الزوربىّ سيختفى!

- قلت ساخرًا. يا صاح! يالها من أنانية!

- ماذا أفعل يا سيدى؟ هكذا هو الأمر، فاصولياء أكلت، عن الفاصولياء أتحدث. أنا زوربا، وأتكلم اللغة الزوربية.

لم أنطق بكلمة. نزلت علىّ كلمات زوربا كالسياط. كنت معجبًا به وبقوته وبقدرته على الاشمئزاز من الجنس البشرى، وفى نفس الوقت لديه الرغبة فى أن يعيش الحياة و يكافح معهم. أما أنا، إما أن أكون راهبًا أو سأزين البشر بجناحات مزيفة، لكى أتحملهم.

التفت زوربا ونظر إلى؛ لمحت ابتسامة عريضة على وجهه تحت ضوء القمر، حتى أن ابتسامته وصلت حد أذنيه.

- قال زوربا بعد أن توقف. كنت أداعبك يا سيدى؛

كنا قد وصلنا إلى الكوخ.

لم أجب؛ كان عقلى متفقًا مع زوربا، لكن قلبى كان يقاوم الفكرة؛ كان قلبى يريد أن ينطلق بعيداً عن الوحش وأن يفتح طريقًا جديداً.

- قلت؛ لا أشعر بالنعاس هذه الليلة يا زوربا، اذهب أنت للنوم.

كانت النجوم ترتعش فى السماء متلألئة، والبحر يتنهد فى هدوء ويلعق القواقع؛ حشرة الليل أضاءت مصباح العشق الفوسفورى تحت بطنها؛ وكان الندى يقطر من شعر الليل.

استلقيت على الشاطئ، وغرقت فى الهدوء ودون أن أحاول التفكير في شىء بعينه؛ اتحدت مع الليل والبحر، كانت روحى كحشرة الليل التى أضاءت مصباحها الفوسفورى، وجلست تنتظر على الرمل الأسود الندىّ.

أخذت النجوم تسير فى مدارها، والساعات تمر، وعندما نهضت، كان قد حفر بداخلى دون أن أعى الدين المضاعف الذى يجب أن أقدمه على هذا الشاطئ:

أن أتخلص من بوذا، أن أنزع عن الكلمات أقنعتها ومعانيها المزيفة وأن ألقى عن كاهلى تلك الهموم الثقيلة؛ وأن أبدأ الآن فى هذه اللحظة، وهنا؛ من هذا المكان، أن أتواصل مع البشر بصفاء ذهن ودفء.

قلت، ربما؛ لم يفت الأوان بعد.

إذا كنتم أصحاب العمل، قال، عليكم أن تذهبوا إلى بيت العم أناغنوستى شيخ القرية لتتناولوا شيئًا من الطعام. سيأتى المطهر اليوم ليخصى الخنازير وزوجة العم أناغنوستى سوف تطهو لكم خصى الخنازير اللذيذة اليوم، قال، وسيكون من الجميل أيضًا أن تباركوا لحفيده مينا، فاليوم عيده[١٤].

أن تدخل بيتًا قرويًا فى كريت هو دافع من أكبر دوافع البهجة؛ فكل شىء حولك يبدو عتيقًا أبويًا: مدفأة الخشب، المصباح المعلق بجوار المدفأة وجرار من الزيت والخيرات، وإلى يسار المدخل ترى تجويفًا فى الحائط يُوضع فيها إبريق من الماء العذب المثلج عليه غطاء فخارى محكم مغطى بأوراق النباتات السميكة. تتدلى معلقة فى عوارض السقف ثمار الرمان والسفرجل والعديد من الأعشاب ذوات الروائح الزكية - ميرمية ونعناع والزعتر والفلفل الأحمر. فى العمق تجد ثلاث أو أربع درجات، وعندما تصعد على المصطبة المرتفعة تجد أريكة قروية كبيرة

(١٤) يوم عيد الحفيد: هو عيد لاسم، ففى اليونان لكل اسم يوم عيد فى السنة، وغالبًا ما يكون عيد القديس الذى يحمل ذات الاسم. (المترجم)

وفوقها الأيقـــونات المقــدسة أمـــامـها مـصبـاح زيتى مشتـعـل والبيت يبدو خـاويًا؛ فـهـو يـحتـوى على أشـيـاء قليلة فـالأشيـاء الضـرورية للإنسـان هى بالفعل قليلة.

كان الطقس رائعًا، فشمس الشتـاء منحته الدفء والاعتدال وجلسنا خـارج المنزل فـى الفناء الأمـامى تحت شـجـرة زيتـون مثـمـرة. ومن بين أوراقـهـا الفضـيـة كنا نستطيع أن نـرى البـحـر وكـان هـادئًا ورائقًا يشع بريقًا. كانت تمر سـحب قليلة من فوقنا تغطى الشمس وتعريها؛ فكنت تشعر بأن الكون يتنفس تارة حزنًا وأخرى فرحًا.

عند الجـانب الآخر من الفناء وكـانت هناك حظيـرة صـغيـرة وكنا نسـمع منهـا الخنزير المخـصى يئن ألمًا بشكل يصم آذاننا؛ ومن المدفـأة القروية كانت تأتينا رائحة خصاه التى تشوى على الخشب والجمر.

رحنا نتـجـاذب الحـديث المزمن حـول الزرع والحـصـاد والكروم والأمطار وكانت أصواتنا أقرب إلى الصياح لأن العجوز رفيع المقام كان يعانى من ثقل فى السمع وكان الحوار مع العم أناغنوستى لطيفًا وكانت حيـاته هـادئة مـثل شـجـرة فى حقل بلا ريـاح. ولدَ ونشـأ وترعـرع وتزوج؛ أنجب أبناءً ومن ثم أحفادًا؛ مات منهم الكثيرون ولكن بذرة العائلة نجت وتم تأمين سلالتها.

تذكـر العـجـوز الكريتى زمن الأتراك، وراح يتـذكـر كلمـات أبيـه؛ والمعـجـزات التى كـانت تحـدث آنذاك، حـيث كـان الناس يـخـشـون الرب ويؤمنـــون بـه.

– وها أنا ذا، انظرا إلىّ، أنا العم أناغنوستى العجوز كانت ولادتى معجزة. سأروى لكما كى تندهشا وتقولا «الرحمة من الرب!» وتذهبا إلى دير مريم العذراء وتوقدا شمعة لها.

رسم شارة الصليب على صدره وبدأ يروى بهدوء شديد وبصوت رقيق:

– فى قريتنا آنذاك، كانت تعيش امرأة تركية ثرية – اللعنة عليها – لتحترق عظامها! لكنها حبلت الملعونه وجاء وقت مخاضها ووضعها ووضعوها على الفراش وراحت تخور كالبقرة ثلاثة أيام وليال. لكن الجنين أبى أن يخرج.

إحدى صديقاتها – عليها اللعنة – أحرق الرب عظامها هى الأخرى! – راحت تسدى إليها النصيحة: «ظافر هانم، لمَ لا تتوسلين بالأم مريم؟» هكذا كان يسمى الأتراك العذراء، قدستها روح الرب! أ أتوسل بهذه؟ استنكرت الشمطاء! كيف وأنا سأموت!» لكن الألم كان غير محتمل ومر يوم آخر بليلته ولم تضع مولودها. ماذا تفعل؟ فلم تعد تحتمل الألم، فإذا بها تطلق صرخة: «يا أمنا مريم! يا أمنا مريم!» راحت تصرخ وتصرخ، لكن الألم لم يتوقف، ولا المولود خرج. «يبدو أنها لم تسمع، ربما لا تفهم اللغة التركية؛ نادى عليها وتوسلى إليها بلغة الروم!» – وأطلقت الملعونة صرخة. «يا عذراء الروم!» – لكن الألم يزداد. «يجب أن تتوسلى إليها كما ينبغى يا ظافر هانم، قالت ثانية صديقتها؛ يجب أن تناديها كما

ينبغى كى تأتى.» عندئذ تأكدت هذه البهيمة الكافرة كارهة المسيح أنها فى خطر، أطلقت صرخة ندائها الأخيرة: «يا سيدتى مريم العذراء!» فانزلق المولود من بطنها على الفور مثل ثعبان البحر.

«حدث ذلك فى يوم أحد؛ وانظروا للمصادفة: فى الأحد الذى يليه، أتت أمى آلام المخاض وكانت المسكينة تتألم بشدة وراحت تصرخ وتتضرع إلى العذراء مريم: «يا سيدتى مريم العذراء، يامريم العذراء!» لكن آلامها لم تخف ولم تلد وكان أبى يجلس على الأرض فى منتصف الفناء دون أكل أو شراب من فرط تألمه وقلقه وكأنه كان غاضبًا من العذراء مريم نفسها. مرة واحدة نادتها ظافر هانم الكافرة فهرعت إليها تحررها من آلامها؛ واليوم هو رابع يوم لأمى كى تلد فلم يحتمل أبى؛ أخذ عصاه وهمَّ نحو دير القديسة مريم الشهيدة، فلتنقذنا! وصل إلى هناك ودخل إلى الكنيسة ودون أن يرسم شارة الصليب، لهذا الحد كان غاضبًا، وصد باب الكنيسة خلفه وتوقف أمام أيقونتها: «أيتها القديسة، ناداها: زوجتى ماروليا، إنك تعرفينها جيدًا فهى تحضر لك الزيت وتوقد القناديل لك كل ليلة سبت، زوجتى ماروليا تتألم من المخاض ثلاثة أيام الآن وهى تتضرع لك - ألا تسمعينها؟ هل أصابكِ الصمم فلا تسمعينها؟ نعم فلو كانت تدعى ظافر هانم أو أى تركية كافرة فاسقة لسمعتِها وهرعتِ إليها كى تخلصيها ولكن زوجتى ماروليا المسيحية، لا تسمعينها! لو لم تكونى مريم العذراء لرأيت ماذا يمكننى أن أفعل بعصاى هذه!»

«قال، ودون أن ينحنى للأيقونة، أدار ظهره كى يرحل. لكن كم أنت عظيم أيها الرب! فى نفس اللحظة، صدر صريرًا من الأيقونة كما لو أنها شُرخَت وهكذا يحدث إن لم يكن لديك علم بهذا، تُحدث الأيقونات صريرًا عندما تحدث المعجزات. فهم أبى والتفت، وخر نادمًا، رسم شارة الصليب على صدره: «الرحمة، الرحمة أيتها القديسة مريم، قال نادمًا متضرعًا: كل ما قلته بيننا هو ماء وملح، فليبقَ بيننا!»

«لم يكد يصل إلى القرية حتى وصلته البشرى السارة: «أطال الله عمره يا قسطنطين، لقد أنجبت زوجتك، جاءتك بصبى.» كنت أنا؛ هذا العجوز أناغنوستى الذى ترونه أمامكم. وقد ولدت بشىء من ثقل فى السمع. فقد سب أبى العذراء وقال أنها صمّاء. «فهكذا قالت العذراء؛ سأعطيه إذن صبيًا أصم، كى تفكر قبل أن تنطق كفرًا!»

رسم العم أناغنوستى شارة الصليب على صدره.

– الحمد والمجد للرب! فقد كان من الممكن أن تجعلنى أعمى أو أبله أو أحدب، فليحفظنا الرب فقد كان من الممكن أن تجعلنى فتاة وأنحنى وأسجد لقداستها!

ملأ الكؤوس:

– لتحفظنا قداستها! قال ورفع كأسه الممتلئ.

– يا عم أناغنوستى، لتعش مائة عام فوق ما عشته، ولترَ أحفاد أحفادك!

أنزل العم أناغنوستى كأسه بعد أن شربه جرعة واحدة ومسح شاربيه:

- لا يا بنىّ، كفانى! فلدى أحفادى وهذا يكفينى! لابد ألاّ يطلب المرء الكثير من الدنيا! لقد حانت ساعتى؛ شِخت يا فتية، لقد كبر سنى حتى وإن كانت لدى الرغبة لم تعد لدى القدرة أن أبذر مزيداً من الأطفال. ماذا عساى أن أفعل بمزيد من العمر:

ملأ الكؤوس مرة أخرى، أخرج من حزامه وقدم لنا الجوز والتين المجفف الملفوف فى ورق الغار.

- لقد وزعت كل ما أملك على أولادى. قد حل علينا الفقر، لكنى لا أهتم؛ فالرب لديه المزيد!

- صاح زوربا فى أذن العجوز: الرب لديه المزيد يا عم أناغنوستى، لديه الرب، ونحن لا، فهو لا يعطينا، ياله من بخيل!

لكن العجوز قطب حاجبيه.

- لا تتذمر يا بن العم، ولا تسخر من الرب، قال بحدة. لا تتذمر؛ فالرب ينتظر منا أيضاً يا بن العم!

غير أن السيدة أناغنوستى العجوز دخلت صامتة، طيعة وأحضرت الطعام وإبريقًا من النبيذ فى طبق من الفخار وكانت خصى الخنزير المشوية فى صحن برونزى عريض. وضعت كل شىء على المائدة وظلت واقفة شابكة يديها، وعيناها تنظران إلى الأرض.

كنت أشعر بشيء من التقزز لأجرب هذا النوع من المقبلات، لكنى كنت أستحى الرفض. نظر إلىّ زوربا بطرف عينيه وابتسم.

– قال مؤكداً ألاّ أتقزز. هذا ألذ طعم لحم يمكن أن تتذوقه يا سيدى.

العم أناغنوستى العجوز ابتسم.

– حقًا، قال، إنه يقول الحقيقة، جرب لترى بنفسك، إنها تنوب فى فمك مثل الزبد! عندما مر الأمير يورغيوس – باركه الرب – وزار أحد أديرتنا، أعد الرهبان مائدة تليق بالملوك وقدموا اللحم للجميع؛ لكن قدموا للأمير إناءً من الحساء وأمسك الأمير بالملعقة وراح يقلب الحساء: «فاصولياء؟ سأل مندهشًا. – كل، يا فخامة الأمير، قال له كبير الرهبان، كُلْ، ثم بعدها نتحدث.»

«جرب الأمير تناول ملعقة، فأخرى فثالثة، فشرب الحساء كله، ثم لعق شفتيه. «يا له من حساء شهى، قال. يا لها من فاصولياء لذيذة وطرية!، لم تكن فاصولياء يا فخامة الأمير وقال له كبير الرهبان ضاحكًا؛ لقد خصينا ديوك الأقليم كله!»

ضحك العجوز أناغنوستى وغرس شوكته فى قطعة من خصى الخنزير.

– إنه طعام الأمراء! قال؛ افتح فمك.

فتحت فمى فحشر فيه لقمة. ملأ الكؤوس مرة أخرى، شربنا نخب حفيده، فتلألأت عينا العجوز أناغنوستى.

– ماذا تريد أن يصبح حفيدك عليه عندما يكبر؟ سألت العم أناغنوستى العجوز. قل لنا كى ندعو له.

– ماذا يمكننى أن أتمنى يا بنى، أريد فقط أن يسلك طريقًا مستقيمًا، أن يصبح إنسانًا طيبًا ورب أسرة وأن يتزوج وينجب أطفالاً وأحفاداً، وأن يشبهنى ابنٌ من أبنائه. يراه العجائز ويقولون: «انظر ما أشبهه بالعم أناغنوستى العجوز! قدس الله روحه؛ كان إنسانًا طيبًا»

نادى على زوجته دون أن يلتفت أو ينظر إليها: ماروليا أحضرى لنا مزيداً من النبيذ، املئى لنا الإبريقَ ثانية.

فى هذه اللحظة، سمعنا طرقًا قويًا ودفع الخنزير باب الحظيرة الصغيرة واندفع نحو فناء المنزل وأخذ يروح ويجىء ذهابًا وإيابًا يشخر ويئن من الألم أمام الثلاثة الجالسين يأكلون خصيتيه.

– قال زوربًا مشفقًا عليه. يتألم المسكين...

– بالطبع يتألم، قال العجوز الكريتى ضاحكًا! فإذا فعلوا بك نفس الشىء ألن تتألم؟

اهتز زوربا على مقعده.

– دمدم زوربا مرتعداً من الفكرة. قُطع لسانك أيها العجوز الأطرش!

راح الخنزير يتمشى أمامنا ذهابًا وإيابًا ناظرًا إلينا بشراسة.

– قال العجوز أناغنوستى، أكاد أقسم أنه يعرف أننا نأكل خصيتيه! فقد أضفى عليه النبيذ شيئًا من النشوة.

لكننا كنا نأكل فى هدوء وسعادة خصيتيه اللذيذتين كآكلى لحوم البشر، ونشرب النبيذ المعتق الداكن اللون وننظر إلى البحر من بين أغصان أشجار الزيتون الفضية، البحر الذى صار وردى اللون من أثر شمس الغروب.

عندما حل الليل، غادرنا بيت العجوز شيخ القرية، كان زوربا منتشيًا، وأراد أن يتكلم. وبدأ:

– ماذا كنا نقول قبل البارحة يا سيدى؟ نعم، تريد تنوير الشعب فتفتح له عيونه! أليس هذا كلامك، يكفيك إذن أن تذهب لتنوير العجوز أناغنوستى وفتح عينيه! ألم تر كيف كانت زوجته تقف منتصبة أمامه مطأطأة الرأس وتنتظر الأوامر؟ اذهب إليه إذن؛ كى تشرح له أن للمرأة نفس حقوق الرجل تمامًا. وإنه من القسوة أن تأكل قطعة من الخنزير الذى يئن أمامك حيًا وأنه من البله أن تستلذ وتستمتع بذلك، كما أنه من البله أن تشكر الرب الذى لديه كل شىء وأنت تتضور جوعًا! ماذا سيجنى العجوز أناغنوستى من كل حورات التنوير والهراء هذه؟ ستزعجه إزعاجًا عظيمًا. وماذا ستكسب السيدة أناغنوستى؟ سيبدآنِ

فقط فى الشجار وستريد الدجاجة أن تصبح ديكًا، وستبدأ خلافات عائلية لن تنتهى وسيشرعون فى نتف ريش بعضهم البعض... دع الناس على حالهم يا معلم ولا تفتح لهم أعينهم؛ لأنك لو فتحتها لهم فماذا سيرون؟ لا شىء سوى تعاستهم عارية!

دعهم، ودع عيونهم مغمضة كى يحلموا!

سكت برهة، حك رأسه،ثم تأمل.

- إلا إذا، قال ثم سكت... إلا إذا....

- ماذا؟ إلا إذا ماذا...!

- إلا إذا، عندما تفتح لهم أعينهم، تستطيع أن تُريهم عالمًا أفضل... هل لديك واحدٌ؟

لم تكن لدى إجابة وكنت أعرف جيداً ما الذى لابد من هدمه؛ لكن لم يكن لدى علم بما الذى يجب أن يُبنى فوق الأطلال. لا أحد يعرف بالتأكيد، وفكرت مليًا؛ فالشىء القديم هو معروف وملموس؛ أما الشىء القادم المستقبلى فهو لم يحدث بعد، وغير ملموس وسائل لا يُمسك، مصنوع من نفس المادة الخام التى تُصنع منها الأحلام وهو سحابة تضربها الرياح - العشق والخيال والحظ، الرب - يخف وزنها وقوامها ويثقل أيضًا وتتحول... وأعظم الأنبياء على وجه الأرض لا يستطيع أن يمنح البشر سوى شعارٍ، وكلما كان الشعار فضفاضًا وغامضًا مبهمًا، كلما كان النبى أعظم.

نظر إليَّ زوربا بسخرية وابتسم، فاستشاط غضبى.

– نعم لدىَّ. أجبت بعناد.

– ألديك حقًا؟ إذن فقل لى!

– لا، لا أستطيع أن أقول لك؛ فلن تفهم.

– إذن فليس لديك شىءً!

قال زوربا وهو يهز رأسه الغليظ: لا تظننى أبلهَ يا سيدى؛ كذب عليك من قال لك أنى أبله. أنا أمىٌّ مثل العم أناغنوستى العجوز ولكننى لست غبيًا، لا! فإذا لم أفهم أنا، كيف سيفهم هذا الرجل البسيط وزوجته البلهاء؟ بل كيف سيفهم كل من هم على شاكلتهم فى هذا العالم؟ أستريهم ظلامًا جديدًا؟ دعهم فى عالمهم القديم، فهم معتادون عليه. قد أبلو بلاءً حسنًا حتى الآن، ألا ترى؟ إنهم يعيشون، بل يعيشون على ما يرام، لديهم أولاد وأحفاد، أصابهم الرب بالصمم وأعماهم، وهم يصيحون: «شكرًا للرب!». تعايشوا تمامًا مع بؤسهم، دعك منهم إذن والتزم الصمت.

صمت. مررنا بجوار بستان الأرملة، وتوقف زوربا لبرهة، وتنهد، لكنه لم يتكلم. ربما قد هطل شىء من المطر فقد كان للهواء رائحة طين رطب. ظهرت نجوم الليل الأولى، القمر الجديد كان يبتسم برفق ورقة، كان لون ضوئه أخضر باهتًا، كانت السماء تفيض حلاوة ووداعة.

«رحت أفكر، فهذا الرجل لم يرتَدْ المدارس، ولكن عقله لم يفسد. رأى وخاض تجارب عديدة، فتفتح عقله واتسع صدره وقلبه، دون أن

يخسر نبله وفراسته البدائية. كل الأمور المعقدة، المستعصية بالنسبة لنا، يحلها هو بضربة سيف، مثل ابن بلاده الإسكندر الأكبر وقليلاً ما يخطئ هذا الرجل، لأنه يقف بثقل جسمه كله على قدميه ويغوص بهما في التراب. الأفارقة البدائيون يعبدون الثعبان، لأنه يلامس بكل جسده الأرض، لذلك فلا بد وأنه يعرف كل أسرارها ويعرفها ببطنه وبذيله وبلحمه وبرأسه. يلامس يحتك، يتحد مع الأم. هكذا هو زوربا. أما نحن المتعلمين المثقفين فلسنا سوى طيور حمقاء فارغة العقول تحلق في الهواء.»

تكاثرت النجوم في السماء وكانت على كثرتها متوحشة متغطرسة قاسية وبلا أية رحمة نحو الإنسان.

توقفنا عن الكلام وكلانا كان ينظر إلى السماء في رعب وشعرنا بأن هناك نجوماً جديدة تأتي بكثافة وتنتشر وتشتعل كاللهيب.

وصلنا إلى كوخنا؛ لم تكن لدى رغبة في تناول أي طعام، جلست على صخرة على مقربة من البحر. أشعل زوربا النار وأكل شيئًا وفكر في أن يأتي إليّ ولكنه غير رأيه وتمدد على فراشه ونام.

كان البحر ثقيلاً، هادئًا لا يتحرك؛ والأرض تحت وابل النجوم الغاضبة؛ صمتت هي أيضًا وآثرت السكون. لم يُسمع ولا حتى صوت نباح كلب، ولا نواح طير ليلي في هذا الصمت العميق. ساد صمت مخادع غادر خطير ومزيج من آلاف الصيحات البعيدة أو من الأعماق البعيدة في دواخلنا والتي لا تُسمع. لم أكن أميز سوى صوت همهمة تدفق دمائي وهو يضرب في أوردة عنقي.

«ترنيمة النمر» قلت فى نفسى مرتعداً.

فى بلاد الهند، عندما يحل الليل ويرتلون ترنيمة بطيئة وحزينة وأغنية برية بطيئة، مثل تثاؤب وحش برى، إنها ترنيمة النمر.

قلب الرجل يفيض ويرتعد من الرعب.

وكلما تأملت الترنيمة المرعبة، فاض قلبى؛ واستيقظت أذناى، فيستحيل الصمت صراخًا وترتعش روحى، وكأنها تكونت أو اتحدت مع هذه الترنيمة، وهى تطلب الخروج من الجسد كى تصغى.

انحنيت على البحر، ملأت راحتى من مائه وبللت جبينى ورقبتى؛ انتعشت. كنت أسمع ثمة صيحات مرعبة مهددة ومقتضبة تتردد فى أعماقى - كان النمر بداخلى يصرخ. وفجأة سمعت صوتًا واضحًا تمامًا: «بوذا! بوذا!» فهببت واقفاً.

سرت بسرعة بمحاذاة الشاطئ، كأنى كنت أريد الهروب ومنذ وقت طويل؛ عندما أكون وحيداً فى الليل، وفى الصمت العميق وأسمع صوته وفى البداية يكون الصوت حزينًا ومتلهفًا ومثل النادب، وشيئًا فشيئًا يصير غاضبًا، موبخًا، آمراً، ثم يختلج صدرى، كجنينٍ حان أوان خروجه.

لابد أنه منتصف الليل وتجمعت السحابات السود فى السماء، قطرات كبيرة من المطر سقطت على راحة يدى ولكن ذهنى كان شريداً فى أجواء أخرى؛ غائصًا فى أجواء مشتعلة وحتى أنى كنت أشعر بعروق رقبتى تشتعل.

«حانت اللحظة وسرت فى جسدى قشعريرة عارمة. أخذتنى العجلة البوذية وحانت لحظة التحرر من هذا الثقل الإلهى الخارق».

عدت بسرعة إلى الكوخ وأشعلت المصباح. عندما سقط الضوء على وجه زوربا تحجرت عيناه ثم فتحهما، نظر إلىَّ وأنا منكبٌ على الأوراق أشرع فى كتابة شىء، تمتم بشىء لم أسمعه، واستدار نحو الحائط وغط فى النوم.

كنت أكتب على عجل بلا توقف، وكنت متعجلاً. كان بوذا متأهبًا جاهزًا بداخلى، وكنت أراه يخرج من أحشائى مثل شريطة زرقاء مليئة بالحروف. كان هذا الشريط ينفرد أمامى بسرعة شديدة، وكانت يدى تجرى بسرعة أيضًا محاولة أن تواكب نفس السرعة، ورحت أكتب وأكتب، كل شىء كان سهلاً، كل شىء كان يحدث ببساطة؛ لم أكن أكتب، بل كنت أنسخ. كل الأشياء بدت واضحة أمامى، كل الأشياء، وكأنها مكونة من خليط من الشفقة، والنكران والهواء، قصور بوذا، ونساء الحرملك والعربة الذهبية والمواجهات الثلاث الرهيبة: مع العجوز والمريض والميت، الهروب والزهد والتحرر، وصرخة النجاة. أزهرت الأرض ورودًا صفراء، الملوك والصعاليك يرتدون عباءات صفراء، والأحجار والأخشاب والأجساد صارت أكثر خفة. الأرواح صارت هواءً وبخارًا، وكان البخار يختفى وتعبت أصابعى ولم تكن لدىَّ رغبة ولا مقدرة على التوقف. كانت الرؤية تمر من أمامى واضحة وسريعة تكاد تهرب منى، ولابد أن ألحق بها.

في الصباح وجدني زوربا نائمًا ورأسي منكبًا على مخطوطاتي.

كانت الشمس قد أشرقت بقوة عندما استيقظت؛ شعرت بأن يدي اليمنى مخدرة جراء الكتابة ليلة أمس حتى أنني لم أستطع ضم أصابعي وجرفتني العاصفة البوذية وأغرقتني وتركتني خاويًا واهنًا.

انحنيت لألملم مخطوطاتي التي تبعثرت على الأرض ولم تكن لدي لا الرغبة ولا القوة كي ألقي عليها ولو نظرة؛ وكأن كل هذا الإلهام العنيف كان محض حلم، ولم أشأ أن أراه يهان حبيسًا بين الكلمات.

السماء كانت تمطر اليوم مطرًا لطيفًا ناعمًا وكان زوربا قد أشعل لي الموقد قبل أن يرحل هذا الصباح فقضيت يومي كله عاقدًا رجلي أمام النار ممددًا يداي فوقهما، ثابتًا دون طعام ومستمعًا إلى صوت حبات المطر الأولى لهذا الفصل.

لم أكن أفكر في شيء. كان عقلي يسترخي كأنه ملفوف مثل حيوان الخلد في الطين الرطب.

كنت أسمع أصوات تحركات وضربات وهمهمات تنبعث من الأرض، والمطر يسقط فتنضج البذور.

كنت أشعر أن الأرض والسماء يتحدان ويتزاوجان مثل رجل وامرأة وينجبان أطفالاً؛ وكنت أسمع البحر الممتد أمامى يهدر فيلعق رمال الشاطئ مثل وحش يمد لسانه للنبع ليشرب.

كنت سعيداً، وكنت أعلم ذلك. إنّما حين يعيش المرء السعادة يجد دائمًا صعوبة أن يشعر بها ويدركها؛ إلا عندما تمر تلك اللحظات وينظر إلى الخلف، عندئذ فقط يدركها - وأحيانًا بدهشة مفرطة يتساءل - كم كنت سعيدًا. أما أنا، على هذا الشاطئ الكريتى، كنت أعيش سعيداً، كنت أشعر بهذا وكنت أدرك مدى سعادتى تمامًا.

البحر هائل مديد ويصل حتى الشواطئ الإفريقية. بين الحين والآخر تهب علينا رياح جنوبية ساخنة تأتى من على الرمال الملتهبة. البحر له فى الصباح رائحة البطيخ، فى الظهيرة يهمس بخارًا، وترتفع أمواجه الصغيرة مثل أثداء عذراوات لم تنضج بعد، وفى الليل يتنهد فتتباين ألوانه بين الوردى والبنفسجى والنبيذى والأزرق الداكن.

عند الغسق، كنت أملأ راحتى بالرمال الشقراء لاهيًا ثم أتركها تنزلق ساخنة طرية من بين أصابعى، وكأن راحتى ساعة رملية، تنفرط منها الحياة كالرمال وتنتثر؛ تضيع. تضيع وأنا أنظر إلى البحر، وأسمع زوربا، وأشعر بأن الدماء تنبض سعيدة فى عروقى.

ذات يوم أذكر أنى كنت مع ابنة أخى الصغيرة ألكا، كان عمرها أربع سنوات وكنا نتسكع فى ليلة رأس السنة ونشاهد واجهة أحد محال

لعب الأطفال، التفتت نحوى وقالت: «عمى التنين (هكذا كانت تنادينى)، عمى التنين ومن فرط سعادتى نبتت لى قرون فى رأسى!» أفزعتنى. إنها لمعجزة إذن هذه الحياة، كيف تمتزج أرواحنا عندما نغوص داخلنا ونعود إلى جذورنا ونصبح شيئًا واحدًا! لأنى تذكرت على الفور تمثالا لبوذا منحوتًا من خشب الأبنوس، شاهدته فى أحد المتاحف فى بلد بعيد. بوذا الذى تحرر وغمرته السعادة العليا بعد سبع سنوات من العذاب والمعاناة، وكانت أوردة جبهته قد انتفخت من اليمين واليسار ومن فرط السعادة، فنفرت خارج جلده مثل قرنين ملتويين من الفولاذ.

توقف المطر الخفيف عند آخر الغسق، وصفت صفحة السماء. شعرت بالجوع وسررتُ لأجل ذلك، حيث الآن هو موعد وصول زوربا، سيشعل الموقد ويبدأ فى طقوس الطبخ والحوار اليومية.

- يا لها من قصة أبدية أخرى! كان زوربا يقول دائمًا وهو يضع القدر على النار: ليست المرأة فقط قصة أبدية، بل هو الطعام أيضًا.

لأول مرة على هذا الشاطئ أشعر ببهجة الطعام وفى المساء عندما يوقد زوربا النار بين حجرين ويبدأ عملية الطبخ، ثم نبدأ بعد ذلك فى الأكل والشراب وتشتعل بيننا الحوارات. كنت أشعر أن الطعام هو طقس روحى، وأن اللحم والخبز والنبيذ هى الخامات الأولى التى منها تتكون الروح.

بعد أن ينتهى من عمله مساءً كان زوربا فى مزاج غير رائق، وقبل أن يتناول شيئًا من الطعام أو الشراب، تخرج منه الكلمات ثقيلة

متململة وبصعوبة بالغة؛ حتى إيماءاته كانت مرهقة وفظة ولكن ما أن يضع الفحم فى الآلة على حد قوله، كل أجزاء جسده تستعيد حياتها من جديد، وتبدأ الآلة فى العمل بهمة ونشاط وكانت عيناه تستعيدان بريقهما، وذاكرته تشتعل، وتخرج أجنحة من قدميه وتبدآن فى الرقص.

- قال لى ذات مرة: قل لى ماذا تفعل بالطعام الذى تأكله؟ قل لى؛ لأقل لك من أنت. البعض يصنع منه روثًا ودهونًا على أجسادهم، والبعض الآخر عملاً ومرحًا، والبقية الأخرى من البشر، كما أسمعهم يقولون، يحولونه إلى الرب والكلمات وأشياء من هذا القبيل؛ أنا يا سيدى لست من أفضل الناس ولا أسوأهم؛ أنا أقف فى منتصف الطريق، ما آكله أحوله إلى عمل ومرح!

نظر إلى فى مكر.

- بربك يا سيدى، أظن أنك تناضل من أجل أن تجعل طعامك إلهًا؛ لكنك أبدًا لا تُسعَف فى هذا، وتتعذب. أصابك نفس ما أصاب الغراب.

- وما الذى أصاب الغراب؟

- الغراب هذا يا سيدى كان يسير فى البداية بوقار واحترام كما يسير غراب فعلاً؛ لكنه فى يوم نمت إلى ذهنه أن يسير بفخر ودلع مثل الطاووس؛ لكن البائس لم ينجح أبدًا فى هذا ونسى مشيته تمامًا، ضاعت منه، والآن؛ صارت له مشية عرجاء.

رفعت رأسي؛ سمعت خطوات زوربا قادمًا من المنجم؛ بعد قليل رأيته يمشي حانقًا متذمرًا وذراعاه يتدليان ويتحركان بلا مبالاة وكأنه فقد السيطرة عليهما.

- مساء الخير يا سيدى! قال على مضض.

- مرحبًا، كيف سار العمل اليوم يا زوربا؟

لم يجب.

- سأشعل النار. قال: وسأطبخ شيئًا.

أخذ بين أحضانه الأخشاب من ركن الغرفة وخرج، وبحرفية عالية أشعل النار، ووضع فوقها القدر الفخارى، ووضع فيه الماء والبصل، والطماطم والأرز وبدأ فى الطهى. بينما كنت أعد المائدة الصغيرة، وأقطع الخبز شرائح كبيرة، وأملأ زجاجة النبيذ من الدِّن الذى أهداه لنا العم أناغنوستى فى الأيام الأولى لنا هنا.

كان زوربا يجلس على الأرض أمام القدر، ويحدق بثبات فى النار وهو صامت تمامًا.

- هل لديك أولاد يا زوربا؟ سألته فجأة.

التفت نحوى:

- لماذا تسأل؟ لدى ابنة.

– متزوجة؟

ضحك زوربا.

– لماذا تضحك يا زوربا؟

– وهل هذا يحتاج إلى سؤال يا سيدى؟ أحمقاء هى حتى لا تتزوج؟ كنت أعمل فى منجم معادن فى خالقينونا، وفى أحد الأيام تلقيت خطاباً من أخى يوانيس. لقد نسيت حقا أن أخبرك أن لدىّ أخًا، رب أسرة، رزينًا ومتدينًا ومرابيًا وإنسانًا منافقًا وعموداً من أعمدة المجتمع، يعمل بقالاً فى سالونيكى. «أخى أليكسى قال فى خطابه: قد انحرفت ابنتك فروسو، ولطخت اسمنا النظيف فى الوحل؛ كان لديها عشيق وأنجبت منه ابنًا، لقد ضاع شرف العائلة! سأذهب إلى القرية لأذبحها».

– وماذا فعلت يا زوربا؟

رفع زوربا كتفيه:

«أووف! نساء!» قلت، ومزقت خطابه.

حرك الطعام فى القدر وألقى فيه قليلاً من الملح، ثم ضحك.

– لكن انتظر حتى ترى ما هو مضحك أكثر، بعد حوالى شهر تلقيت خطاباً من أخى الأحمق:

«أخى الحبيب أليكسى، كيف حالك وصحتك؟... هكذا بدأ خطابه! وقال، لقد عاد لنا شرفنا وتم تطهير شرف العائلة، يمكنك الآن أن ترفع جبهتك إلى عنان السماء، لقد تزوج العشيق المذكور فروسو!»

التفت نحوى زوربا وكانت عيناه تقدحان مثل بريق سيجارته. رفع كتفيه ثانية:

- أوف! رجال! قال بامتعاض.

وبعد قليل قال:

- ماذا تتوقع من النساء؟ أن تحمل وتضع أطفالاً من أول رجل متاح. وماذا تنتظر من الرجال؟ أن يسقطوا فى الفخ. أضف أنت التوابل يا سيدى!

أنزل القدر من على النار، جلسنا واضعين ساقًا على أخرى، وأكلنا.

راح زوربا فى تأمل عميق. كان هناك شىء ما يشغل تفكيره تمامًا. كان ينظر إلىَّ، يفتح فمه ثم يغلقه ثانية.

تحت ضوء المصباح كنت أرى عينيه حزينتين ومتوترتين بوضوح.

لم أعد أحتمل.

- زوربا، هناك شىء تريد أن تخبرنى به؛ قله! فيبدو أنك فى حالة مخاض ولابد لك من أن تضع!

صمت زوربا؛ التقط حجراً من على الأرض، ورمى به بقوة من الباب المفتوح.

- دعك من الحجارة، وتكلم!

فرد زوربا عنقه المتجعد.

– هل تثق بى يا سيدى؟ سألنى زوربا متوترًا ونظر إلى فى عينى مباشرة.

– نعم يا زوربا، أجبته. فى أى شىء تفعله وأعتقد أنه من الصعب أن تخطئ؛ حتى وإن أردت، من الصعب أن يخيب ظنك. فأنت كالأسد، أو كالذئب؛ وهذه الوحوش لا تتصرف أبدًا كالخراف والحمير ولا تضل طريقها أبدًا ولا تتحول عن مسار طبيعتها؛ هكذا أنت يا زوربا: من قمة رأسك حتى أخمص قدميك.

– لكنى بحق الشيطان لا أعرف إلى أين أنا ذاهب؟

– تقدم واذهب فى طريقك!

لمعت عينا زوربا

– الآن أستطيع أن أتحدث معك، حسنا؛ لدى منذ بضعة أيام خطة كبيرة، فكرة مجنونة تدور فى عقلى ولابد من تطبيقها.

– عمّ تتساءل؟ لهذا جئنا إلى هنا: لنطبق الأفكار.

شد زوربا عنقه، نظر إلى بسعادة،

– تكلم جيدًا يا سيدى! صاح زوربا. ألم نأت إلى هنا من أجل الفحم؟

- الفحم كان مجرد سبب أو محرك؛ هكذا، حتى لا يفضح الناس أمرنا. وحتى يعتقد الناس أننا رجال أعمال جادين، وكى لا يرجمونا بالحجارة...

كان زوربا ساهمًا وفمه نصف مفتوح وهو يكافح أن يفهم ما يجرى، لكنه لم يجرؤ أن يصدق كل هذه السعادة. لكنه فجأة فهم المعنى؛ وانطلق نحوى وأمسك بى من كتفى؛

- هل ترقص؟ سألنى بلهفة؛ هل ترقص؟

- لا.

- لا؟!

علق يده فى الهواء مندهشاً.

- حسنًا، بعد قليل؛ سأرقص أنا إذن يا سيدى. قف هناك على بعد منى حتى لا أصطدم بك. ه-اى! ه- اى!

وإذا به يقفز فى الهواء وينطلق خارج الكوخ، خلع نعليه وسترته وصديريته ورفع بنطاله حتى ركبتيه، وبدأ يرقص. كان وجهه مازال مسوداً ملطخًا بالفحم؛ وكانت عيناه تبرق بياضًا.

ألقى بنفسه فى الرقص، وراح يصفق بكلتا يديه ويقفز ويدور فى الهواء، يجثو على الأرض بركبتيه وصار يقفز جالسًا. وفجأة راح يقفز عاليًا فى الهواء ثانيةً وكأنه مصرٌ على تحدى قانون الجاذبية، أن يصنع أجنحة ويطير.

إنّك لتشعر أنّ في داخل هذا الجسد العجوز المتآكل روحًا تحارب كي تأخذه يقفز وينزلق معها، كالنجم الذي يهوي في الظلمات ولكن الروح ترج الجسد وتهزه وتنثره في الهواء، فيسقط ولا يقوى على المكوث طويلاً في الهواء، وإذ بالروح تقذفه ثانية في الهواء بلا رحمة وهذه المرة أعلى بقليل، فيما كان يعاود سقوطه لاهثًا.

قطب زوربا حاجبيه، وبدت على وجهه جدية مقلقة؛ لم تعد حركاته تتسم بالقوة؛ جز على أسنانه وكأنه يكافح من أجل أن يصل بالرقص إلى المستحيل.

- زوربا، زوربا، صرخت؛ كفي!

كنت أخشى على جسده العجوز من أن يتفتت في الهواء.

لكن أنى له أن يسمع الأصوات الأرضية؛ فقد صارت أحشاؤه مثل الطير.

كنت أتابع بخوف طفيف هذا الرقص المتوحش الميئوس منه. عندما كنت صغيراً كان لي خيال تجريدي فكنت أقص على رفاقي قصصًا متوحشة، وكنت أصدقها.

- كيف مات جدك؟ كان رفاقي في المدرسة الابتدائية يسألونني.

وكنت مباشرة أنسج لهم أساطير، كنت أؤلف الحكايات وكلما تضخمت مني الأسطورة كنت أصدقها:

– جدى كان يرتدى حذاءً بلاستيكيًا. وفى يوم من الأيام وعندما نبتت لحيته البيضاء وقفز من على سطح منزله؛ لكنه فور أن لمس الأرض، إذا به يتكوم مثل ثوب من القماش ويصعد أعلى من المنزل – أعلى فأعلى، أعلى فأعلى، حتى غاب عند السحاب. وهكذا مات جدى.

منذ أن نسجت هذه الأسطورة وكلما ذهبت إلى كنيسة القديس مينا الصغيرة وكنت أرى الأيقونة الصغيرة المنحوتة للمسيح، كنت أمد يدى وأقول لرفاقى الصغار:

– هو ذا جدى بحذائه البلاستيكى!

وهذه الليلة، بعد كل هذه السنين، وأنا أشاهد زوربا وهو يقفز فى الهواء وعشت أسطورة طفولتى من جديد وأنا خائف، وكأنى كنت أخشى أن يضيع زوربا ويغيب فى السحاب.

– زوربا، زوربا، صرخت؛ كفى!

جثم زوربا على الأرض وهو يلهث وكان وجهه يبرق من السعادة. شعره الرمادى التصق بجبهته وكانت حبات العرق تتكور على خديه وذقنه، وكل هذا مختلط بالفحم.

انحنيت فوقه قلقًا.

– قال بعد قليل؛ الآن قد تحررت، كأنهم أخذو منى قليلاً من الدم. الآن أستطيع أن أتحدث.

دخل إلى الكوخ، وجلس أمام مدفأة الفحم، وكان وجهه يبرق على وهجها.

– ما الذى أصابك وبدأت فى الرقص؟

– ماذا كنت تريدنى أن أفعل يا سيدى؟ ملأتنى سعادة غامرة، وكان لابد أن أفرغ كل تلك السعادة بدلاً من أن أنفجر. وكيف يروّح الإنسان عن نفسه؟ بالكلام؟ أوووف!

– من أين لك السعادة يا زوربا؟

نظر إلى مضطرباً؛ كانت شفتاه ترتعش:

– من أين لى السعادة؟ من الكلام الذى قلته لى قبل قليل، هل سقط كلامك هكذا، كالرعد؟ ألا تعى ما تقوله بنفسك؟ لم نأتِ هنا من أجل الفحم... هكذا يا رجل، جئنا لنروّح عن أنفسنا! جئنا لنمضى وقتًا طيبًا، ونلقى الرماد فى عيون الناس، كى لا يظنوا أننا مجانين، كى لا يرجمونا بالحجارة، ونحن عندما نبقى وحيدين ولا يرانا أحد، ننفجر فى الضحك! أقسم بشرفى، هذا ما كنت أريده، لكننى لم أكن أفهم، كنت لا أفكر إلا فى الفحم وفى السيدة بوبولينا، وأحيانا فيك أنت يا سيدى... أو كنت أفكر فى كل هذا فى نفس الوقت. عندما كنت أفتح أحد الأنفاق، كنت أقول: «أريد فحمًا، أريد فحمًا، أريد فحمًا» وكنت أصير مثل عود الفحم من رأسى لأخمص قدمى. حتى عندما كنت ألهو مع تلك العجوز – طابت ساعتها! كنت أرمى كل الفحم وكل المناجم وكل الرؤساء من أجل

وشاح حول عنقها. كنت أرمى حتى زوربا، كان عقلى تائهًا. وعندما أكون وحدى وليس لدى عمل، كنت أستحضرك فى ذهنى يا سيدى، وكان قلبى يتحطم. كان هناك ثقل فى روحى: «عيب عليك يا زوربا أن تخدع هذا الرجل الطيب وتأكل أمواله هكذا. إلى متى ستظل إنسانًا حقيرًا، كفاك يا زوربا، ألا يكفيك هذا؟!»

كنت تائهًا يا سيدى، كان الشيطان يجذبنى من ناحية، والرب من الناحية الأخرى وكنت أتمزق بين الاثنين. الآن، لتكن دائمًا بخير وقلت قولاً سديدًا وبصرتنى إذ كنت لا أرى؛ والآن رأيت! فهمت! فهم كل منا الآخر. الآن ولنضرم النار فى كل شىء! كم من المال تبقى لديك؟ ضعه الآن هنا! لتذهب كل الأشياء إلى الجحيم!

راح زوربا يجفف عرقه ويبحث فى بواقى العشاء الذى كان مبعثرًا على المائدة الصغيرة؛ مد يده ثم قال:

- بعد إذنك يا سيدى، فقد شعرت بالجوع ثانيةً.

أخذ شريحة من الخبز وبصلة وحفنة من الزيتون؛ وأكل بشراهة؛ كان يلوك الطعام دون أن يضم شفتيه وصب النبيذ من القنينة وإذا به يضرب لسانه فى سقف فمه بسعادة بعد أن ارتشف منه جرعة كبيرة.

- عاد قلبى إلى مكانه، قال.

نظر إلى غامزًا:

– لماذا لا تضحك؟ سألنى. لماذا تنظر إلى هكذا؟ هكذا أنا. هناك شيطان بداخلى يصرخ، وأنا أفعل كل ما يقوله لى. كلما انتابنى الحزن ينادينى: «ارقص!» فأرقص. فينزاح عنى الحزن. فى إحدى المرات مات لى ابن، ديمتريوس الصغير، فى خالقيذونا، فإذا بى هكذا أقوم وأرقص. عندما رآنى أقاربى أرقص أمام رفاته، هرولوا نحوى وحاولوا منعى. «لقد جن زوربا، راحوا يصيحون، لقد جن زوربا!» لكن أنا، فى هذه اللحظة، لو لم أرقص، لكان الجنون قد أصابنى من فرط الألم. لأنه كان ابنى الأول وكان عمره ثلاث سنوات ولم يكن بمقدورى أن أتحمل موته. أتفهم ما أقوله لك ياسيدى، أم أنى أتحدث إلى الهواء؟

– فهمت يا زوربا، فهمت؛ إنك لا تتحدث إلىَ الهواء.

– وفى مرة أخرى أيضًا كنت فى روسيا؛ ما الذى ذهب بى إلى هناك، من أجل المعادن أيضًا؛ النحاس وبالقرب من نوفوروسيكى.

كنت قد تعلمت خمس أو ست كلمات من اللغة الروسية، كانت كافيات لأتم عملى: «لا ونعم وخبز وماء وأحبك وتعال، وكم» إلا أننى كنت قد عقدت صداقة مع روسى بلشفى. كنا نتقابل كل ليلة فى إحدى الحانات بالقرب من الميناء ونحتسى ما تيسر من الفودكا، حتى يعتدل مزاجنا، وعندما كنا نصل إلى الذروة، كانت قلوبنا تتفتح؛ كان يرغب هو فى أن يحكى لى كل شىء عن حياته وكل ما عاش وشاهد فى الثورة الروسية،

وأنا بدورى كـنت أرغب فى أن أأتمنـه على أسـرار سيرتى وحياتى؛ كنا نتمل، كما ترى، وصرنا إخوة.

«وبلغة الإشارة والإيماءات كنا نتفاهم؛ كان يبدأ هو فى الحديث؛ وعندما كان يستحيل على الفهم كنت أصيح: «ستوب!»؛ وكان يبدأ فى الرقص؛ كان يرقص كل ما كان يود أن يقوله لى. وأنا كنت أفعل نفس الشىء. كنا عندما لا نستطيع أن نعبر بألسنتنا، كنا نقوله بأقدامنا، بأيدينا، ببطوننا أو بصرخات وصيحات!»

كان الروسى يبدأ أولاً: كيف كانوا يحملون البنادق، وكيف اشتعلت الثورة، كيف وصلوا إلى نوفوروسيكى... وعندما كنت لا أفهم ما يقوله كنت أرفع يدى وأصيح «ستوب!»، فكان الروسى يقفز مباشرة ويبدأ بالرقص! كان يرقص كالممسوس، بينما أنا كنت أنظر إلى يديه وقدميه وصدره وعينيه وكنت أفهم كل شىء: كيف دخلوا نوفوروسيسكى، كيف قتلوا الإقطاعيين، كيف نهبوا المحال، كيف اقتحموا البيوت واختطفوا النساء - الساقطات - كن يبكين فى البداية ويقاومن بضراوة ثم يأخذن فى اللين بسرعة ويبدو الرضى فى عيونهن بعد ذلك، نساء! أترى...؟!

«بعـدها يجىء دورى. وقـبل أن أتم كلماتى الأولى، إذ لم يكن العملاق الروسى كما يبدو بالذكاء الخارق، فكان يصيح منذ البداية: «ستوب!» لم أكن أبغى أكثر من هذا! كنت أقفز وأزيح المقاعد والمناضد، وأبدأ فى الرقص... إيييييه، كيف كان يفهم الناس، ياللعنة! ترك الناس

أجسادهم فأصيبوا بالصمم، ويتواصلون بالأفواه فقط، ماذا يستطيع الفم أن يقول؟ لو رأيت كيف كان الروسى يأكلنى بعينيه من قمة رأسى حتى قدمىّ، وكيف كان يفهم كل شىء! حكيت له راقصًا عن معاناتى، عن رحلاتى، كم مرة تزوجت وكم من الأعمال امتهنت وأتقنت: عامل فى محجر وحفار وبائع جوال وصانع أوانى ومحارب مع الثوار وعازف السانتورى، بائع للقضامة، غجرى، مهرب للبضائع؛ كيف زج بى فى السجن وكيف هربت وكيف وصلت إلى روسيا...

كل شىء، كان يفهم كل شىء، وإن كان عملاقًا غبيًا. كانت قدماى ويداى وحتى شعرى وملابسى تتكلم. وحتى السكّين المعلقة فى حزامى كانت تتكلم... وحين كنت أنتهى، كان العملاق الروسى يحتضننى ويقبلنى، ويملأ كأسينا بالفودكا وكنا نبكى ونضحك وكل منا يرتمى فى أحضان الآخر... وعند الفجر كانوا يفرقوننا فكنا نذهب إلى النوم متعثرين فى السير من فرط الشراب. وفى الليل كنا نلتقى مرة أخرى لنكرر ما فعلناه.

«أتضحك؟ ألا تصدقنى يا سيدى؟ تُتَمتمُ بداخلك: «ما الذى يقوله ويثرثر به سندباد البحار؟ هل يعقل أن يتم حوار بالرقص؟» لكنى أقسم بأن الآلهة والشياطين يتحاورون هكذا.

«لكن، أرى أن النعاس يكاد يتملكك. كم أنت رقيق ومرهف، لا تحتمل. اذهب إلى النوم إذن، وغداً سنتحدث مجدداً. لدى خطة، خطة

عظيمة، سأحكى لك عنها فى الغد. سأدخن سيجارة أخرى، وربما بعدها أغطس رأسى فى البحر: فقد اشتعلت النار فى داخلى، ولابد أن أطفئها. تصبح على خير!

كان النوم عصيًا على عينىّ هذه الليلة. رحت أفكر؛ كم أن حياتى مهدرة وكم كنت أتمنى أن آتى بممحاة وأمحو كل ما قرأت وسمعت وتعلمت وأن أرتاد مدرسة زوربا وأبدأ فى تعلم الأبجدية العظيمة الحقيقية! كنت سأختار طريقًا مختلفًا! كنت سأدرب حواسى الخمس بشكل أفضل، وكذلك جسمى بأكمله كان سيفهم ويستمتع. كان سيتعلم كيف يهرول ويصارع ويسبح ويركب الخيل ويجدف ويقود سيارة ويطلق الرصاص من بندقية. كنت سأملأ جسدى بالروح وأملأ روحى بالجسد؛ كنت سأوفق بداخلى بين هذين الخصمين اللدودين...

جلست على فراشى أفكر فى حياتى التى تذهب هباء. من خلال الباب المفتوح وعلى ضوء النجوم الباهت كنت أرى زوربا قابعًا فوق صخرة مثل طائر ليلى، ينظر إلى البحر، حسدته. «هذا هو الشخص الذى اكتشف الحقيقة، رحت أتأمل، نعم هذا هو الطريق الصحيح!»

فى عصور أخرى بدائية وأكثر إبداعًا، كان زوربا لابد أن يكون رئيسًا لقبيلة ويتقدم الصفوف ويفتح الطريق بفأسه؛ أو ربما شاعرًا جوّالاً شهيرًا يتنقل بين القلاع يصفق الجميع لكلماته وأشعاره، السادة والسيدات والخدم... أما فى عصرنا الجاحد البغيض، يطوف ويجول

ضائعًا جائعًا يبحث عن طعامه حول الخرائب كذئب؛ أو يتدهور به الحال فيصبح مهرجًا لكاتب مغمور.

فجأة رأيت زوربا ينهض وخلع ملابسه وألقى بها فوق الصخور، وقفز في البحر، وبين الحين والآخر كنت أرى رأسه يظهر ثم يختفي تحت ضوء القمر الشاحب. وبين الحين والآخر يطلق صيحة أو ينبح مثل الكلب أو يصيح مثل ديك، يحمحم وينعق – لقد عادت روحه في هذه الليلة الموحشة وهو يسبح في البحر إلى الحيوانات بعد أن كانت وحيدة.

بعد قليل، ودون أن أشعر وغرقت في نوم عميق. وفي الصباح، عند الفجر، رأيت زوربا مبتسماً ومرتاحاً ويجذبني من قدمي.

– قال: استيقظ يا سيدي، دعني أعترف لك بخطتي. هل تسمعني؟

– أسمعك.

جلس متربعًا على الأرض وبدأ يشرح لي كيف أنه يريد إنشاء مصعدٍ بأسلاك ودعائم من قمة الجبل وحتى الشاطئ، كي نجلب الأخشاب التي نحتاجها من أجل دعائم الحفر في المنجم ويمكن أن نبيع الباقي إلى ورش الأخشاب وأغراض البناء. كنا قد اتفقنا أن نؤجر غابة صنوبر من أحد الأديرة، لكن النقل كان سيكلفنا الكثير ولم نستطع أن نجد البغال الكافية لهذه المهمة. لذلك تفتقت مخيلة زوربا عن هذا الخط المعلق بالأسلاك الثقيلة والدعائم والأبراج والبكرات، وأن يعلق الأخشاب من قمة الجبل وقبل أن تشعر سينزلق من القمة إلى الشاطئ.

– اتفقنا؟ سألنى عندما انتهى من شرحه، ثم أضاف، هل توقع على هذا؟

– أوقع يا زوربا، اتفقنا. هلم وابدأ.

أشعل الموقد، ووضع الإبريق وجهز لى القهوة، ألقى على قدمىّ ببطانية تقينى البرد، وغادر سعيداً.

– اليوم، قال، سنحفر نفقًا جديداً، لقد وجدت عرقًا جميلاً من الماس الأسود!

فتحت مخطوطة بوذا، وغصت أنا فى أنفاقى الخاصة. عملت طوال اليوم وكلما تقدمت فى العمل والكتابة شعرت بالخفة والتحرر، كنت أشعر بداخلى بمزيج من مشاعر التحرر والفخر والقرف ولكن تركت حالى يستغرق فى العمل، فكنت أعلم أننى عندما أنتهى من تلك المخطوطة سأختمه وأطويه وأصبح حراً تماماً.

شعرت بالجوع؛ فأكلت قليلاً من الزبيب واللوز وقطعة من الخبز. انتظرت حتى يأتى زوربا ليأتى محملاً بكل ما يدخل السرور إلى مهجة البشر – الضحك والحوار الشيق والطعام اللذيذ.

عند الليل ظهر زوربا. أعد الطعام وأكلنا ولكن عقله كان شارداً. جلس على ركبتيه وغرس بعض الأخشاب الرفيعة فى التراب، وصلها

بالخيط وعلق فى بعض الدعامات والمسامير الرفيعة عوداً من الثقاب حيث كان يحاول أن يجد زاوية الانحدار المناسبة كى لا ينهار كل شىء.

- لو أن الزاوية مالت أكثر من المطلوب، بدأ يشرح لى، فلن يستقيم شىء؛ ولو أن الميل أقل من المطلوب فسنذهب إلى الجحيم أيضًا. لابد أن نجد هذه الشعرة بينهما حتى تستقيم الزاوية بالشكل الذى نحتاجه؛ وهذا يتطلب يا سيدى عقلاً يقظًا ونبيذاً.

- لدينا الكثير من النبيذ، قلت ضاحكًا؛ أما العقل؟

انفجر زوربا فى الضحك:

- هناك بعض الأشياء تفهمها جيداً يا سيدى، قال وهو ينظر إلى بود.

جلس ليستريح، أشعل سيجارة. كان مزاجه رائقًا مرحًا، فانحلت عقدة لسانه وبدأ فى الثرثرة.

- لو نجحت هذه الخطة، قال، سننزل أخشاب الغابة كلها وسنفتح مصنعًا وسنصنع ألواحًا ودعامات وسقالات وسنجمع الكثير من المال، وسنبنى قاربًا بثلاث صوارٍ ونهجر كلّ شىء ونبحر حول العالم!

برقت عينا زوربا، وامتلأتا نساءً من موانئ بعيدة، وبلدانًا، وأنوارًا متلألئة، وبيوتًا جميلة وآلاتٍ وسفنًا.

- لقد شاب شعرى يا سيدى، أسنانى تخلخلت، ولم يعد لدى وقتًا أضيعه. أنت ما زلت شابًا، يمكنك أن تتحلى بالصبر وأما أنا فلا أستطيع.

لكنى أقسم أنه كلما تقدم بى العمر ازددت وحشية! دعك من الذين يقولون أنه كلما شاخ المرء ازداد تعقلاً؛ وانطفأت رغبته فى الحياة، ,أنه كلما رأى الموت قادمًا، يمد عنقه ويقول: «هيا اذبحنى، خذنى لأذهب إلى الجنـــة !» أنا كلما تقــدم بى العمر ازددت وحشية. لا أسلم أبدًا بل أزداد تمردًا وتزداد رغبتى في احتواء العالم.

نهض، وأخذ السانتورى المعلق على الحائط.

– تعال إلى هنا أيها الشيطان، قال؛ لماذا تقبع على الحائط صامتًا؛ هيا أسمعنا صوتك!

لم أكن أمل أبدًا من رؤية دقة ورقة زوربا وهو ينزع غطاء القماش من على السانتورى؛ وكأنه يقشر تينة أو يعرى امرأةً.

وضع السانتورى على ركبتيه وانحنى فوقه وتحسس أوتاره برقة وكأنه يستشيره أى الألحان يعزف؟ ويتوسل إليه أن يستفيق، راح يلاطفه ليرافق روحه التى سئمت ولم تعد تحتمل الوحدة بعد. شرع فى عزف لحن، لكنه لم يخرج بشكل جيد، تركه وشرع فى آخر، كانت الأوتار تئن كأنها تتوجع، كما لو كانت لا تريد العزف؛ سنده زوربا على الحائط، جفف عرقه الذى بدأ يهطل فجأةً من جبهته.

– دمدم قــائلاً، لا يريد... وهـــو ينظـــر برعب إلى السانتورى؛ إنـه لا يـريد...

لفــه بعنــاية، وكـأنه وحشٌ كـاسـر يخشى أن يعـضـه، نهض ببطء وعلقه مرة أخرى على الحائط.

- إنه لا يريد... دمدم ثانيةً؛ لا يريد... لا يجب أن نرغمه على ذلك.

جلس على الأرض، حـشـر بعض الكسـتناء في جـمـر الموقد ومـلأ الأكواب بالنبيذ. شرب، وشرب وقشر حبة كستناء وأعطاني إياها.

- أفهمت شيئًا يا سيدى؟ سألنى. أنا لم تعد لدى قدرة على الفهم والاستيعاب. كل شىء له روح، حتى الأبواب والأخشاب والنبيذ الذى نشربه والتراب الذى ندوس عليه. كل شىء، كل شىء يا سيدى.

ارفع كأسك

- فى صحتك!

أفرغه، ثم ملأه مجدداً.

— عاهرة تلك الحياة، تمتم قائلاً. يا لها من عاهرة! إنها مثل السيدة بوبولينا.

ضحك.

- اسمعنى يا سيدى، ولا تضحك؛ إن الحياة مثل السيدة بوبولينا. عجوز، لكنها مفعمة بالتوابل؛ تعرف فنونها بالقدر الذى يفقدك عقلك. تغلق عينيك وهى فى أحضانك وتظـن أن بين يديك بنتًا فى العشـرين.

يا رجــل، تصبــح عشـــرين عامًا عنـدما تكـون فى مـــزاج طـيب وتغلق الأنــوار!

لكن ستقول لى، إنها كثمرة الفاكهة التى زاد نضجها فصارت كأنها نصف عفنة، لا تقل هذا، فقد عاشت حياة حافلة، مرت ببحارة وقباطنة وجنود وفلاحين وباعة جوالين وقساوسة ورجال دين وصيادين ورجال شرطة، ومدرسين ورجال قضاء! وما العيب فى ذلك؟ سرعان ما تنسى هذه العجوز، فلا تتذكر أيًا من عشاقها القدامى، بلى صدقنى ففى كل مرة تزداد براءتها، كأنها بكر وتحمر وجنتاها وكما أقول لك، يحمر وجهها وترتعش كما لو كانت تلك المرة هى أول مرة. سر عجيب هى المرأة. فهى كما تسقط آلاف المرات، تنهض آلاف المــرات أيضًا وفى كل مرة تنهض عذراء. لماذا؟ قل لى. لأنها لا تتذكر.

– قلت مداعبًا: لكن الببغاء يتذكر يا زوربا، يهتف دائمًا بالاسم الذى ليس هو اسمك.

ألا يثير غيظك هذا؟ فى اللحظة التى أنت معـها وتسبحـان فى السموات السبع، أن تسمع الببغاء يصرخ: «كانافارو! كانافارو!» ألا يمر بذهنك أن تمسك به وتدق عنقـه أو تخنقـه؟ ألم يحن الأوان أن يتـعلم فيصيح: «زوربا! زوربا!»

– أوووه! ما كل هذا الهراء! صاح زوربا وهو يضع كلتا يديه على أذنيه. أخنقه؟ لكنى أحب أن أسمعه وهو يصيح بذلك الاسم. فى الليل

تعلقه العجوز الآثمة فوق الفراش، وهذا الشيطان له عين ثاقبة ترى فى الظلام، وفور أن يرانى بعينيه حتى يبدأ فى الصياح: «كانافارو! كانافارو!»

وأنا أقسم لك يا سيدى، لكن ماذا عساك أن تفهم، فقد أكلت الكتب اللعينة عقلك وأفسدته! أقسم لك، أننى أشعر فى هذه اللحظة بحذاء جلدى لامع فى أقدامى، وريش على رأسى، ولحية حريرية مفعمة بالعطور. «بونجورنو! بونا سيرا! مانجاتى ماكرونى؟» أصبح كانافارو فعلاً. أصعد إلى بارجتى التى ثقبتها آلاف الطلقات، آمر بإشعال النيران فى المراجل! وتبدأ المدافع فى القصف!

غرق زوربا فى الضحك. قال وهو يغلق عينه اليسرى بينما كان ينظر إلى:

– قال، سامحنى يا سيدى، فأنا أشبه جدى القبطان أليكسى إلى حد بعيد، قدس الله روحه وعظامه! كان قد بلغ من العمر مائة عام، كان يجلس عند الغروب أمام عتبة داره، ويتطلع إلى البنات الغاديات والرائحات نحو الصنبور العمومى وكان قد وهن بصره، ولم تكن لديه القدرة على الرؤية الواضحة. فكان ينادى على الفتيات. «من أنت. – لينو بنت ماسترو كوستا! – تعالى إلى هنا كى ألمس وجهك! تعالى أيتها

الحمقاء لا تخافى!» وتذهب نحوه الفتاة تكتم ضحكاتها وتقترب نحوه. وجدى يبدأ فى تحسس وجهها بشكل دقيق وبرقة وبدقة متناهيتين. وكانت الدموع تنهمر من عينيه. «لماذا تبكى يا جدى؟ سألته فى أحد الأيام. – آه، وكيف لا أبكى يا بنى، كيف أموت وأترك كل هؤلاء الفتيات الجميلات؟»

تنهد زوربا

– يا لجدى التعس، قال، كم أفهمك الآن! أجلس كثيراً وأقول فى ذهنى: «آه! آه! آه لو متن معى كل الفتيات الجميلات!» لكن سيعشن الخنزيرات، ويستمتعن بحيواتهن وسيمارسن الحب ويتبادلن القبلات والأحضان، وزوربا سيصبح تراباً، يطأن فوقه!

أخرج بعض الكستناء من النار وقشرها، قرعنا كأسينا. مر وقت طويل ونحن نشرب النبيذ ونمضغ الكستناء فى استرخاء، مثل زوج من الأرانب الكبيرة، وكنا نسمع فى الخارج هدير البحر.

لبثنا صامتين بجوار الموقد وقتًا ليس بالقليل. تأكدت لمرة أخرى من أن السعادة هى شىء بسيط وغير مكلف وكأس من النبيذ وبعض من الكستناء وموقد صغير ووصوت هدير البحر؛ ولا شىء آخر. كل ما تحتاجه لكى تشعر بأن كل هذه الأشياء هى السعادة، هو قلب بسيط قانع.

- كم مرة تزوجت يا زوربا؟ سألت بعد قليل من الوقت.

كنا أنا وزوربا فى مزاج رائق، ليس بسبب النبيذ ولكن كانت تغمرنا سعادة ما يتعذر وصفها وفى أعماقنا كنا ندرك، كل بطريقته، أننا لسنا سوى حشرتين ملتصقتين على قشرة الأرض، وقد وجدنا ركنا بجوار الشاطئ، خلف أعواد القصب والألواح الخشبية وصفائح الوقود الفارغة، وحشرنا أنفسنا معًا متجاورين، وكان لدينا بعض المأكولات الشهية، وبداخلنا صفاء، وحب وطمأنينة.

لم يسمعنى زوربا؛ فالرب هو الذى يعلم فى أى بحار كان عقله يسبح ولم يصله صوتى. مددت يدى ولمسته.

- كررت سؤالى. كم مرة تزوجت يا زوربا؟

انتفض. سمعنى هذه المرة وأشاح بيده.

- أوه، أجابنى، عمَّ تبحث وتريد أن تعرف الآن؟!

إنسان أنا أليس كذلك؟ ارتكبت أنا أيضًا هذه الحماقة؛ هكذا أقول، وليسامحنى كل المتزوجين، نعم ارتكبت هذه الحماقة العظمى، تزوجت.

- حسنًا، كم مرة تزوجت؟

حك زوربا رأسه بعصبية؛ فكر لبرهة.

- كم مرة؟ بأمانة وصدق، مرة واحدة، وقد كانت الأولى والأخيرة. وبنصف صدق وأمانة، مرتين؛ وبلا صدق على الإطلاق، ألف مرة أو ألفين أو ثلاثة آلاف مرة، لم أكن أحتفظ بدفتر للعدد.

- هيا قل يا زوربا! فغداً يوم الأحد، سنحلق ذقنينا ونرتدى أفضل ما لدينا ونذهب إلى السيدة بوبولينا، حياة ودجاجة! ليس لدينا عمل؛ دعنا نقضِ وقتًا ممتعًا الليلة؛ هيا تكلم!

- لكن، ماذا عساى أن أقول؟ هل هذه أشياء تحكى يا سيدى؟ فالزيجات المخلصة بلا طعم؛ مثل الطعام بلا توابل. ماذا أقول؟ عندما يحدق بك القديسون من أيقوناتهم ويعطونك بركاتهم، ثم تقبل الأيقونة، أتسمى هذه قبلة؟ يقولون فى قريتى: «اللحم اللذيذ هو اللحم المسروق فقط» وزوجتك ليست بلحم مسروق.

لكن الزيجات أو العلاقات غير المخلصة وغير الشرعية، كيف أتذكرها! هل يحمل الديك سجلاً؟ دعك من هذا! ولماذا يحتفظ بسجل؟ فأنا ذات مرة، عندما كنت شاباً، كانت لدى العادة الغريبة أن أحتفظ من كل امرأة أنام معها بخصلة من شعرها. كنت أحمل دائمًا مقص. حتى وأنا فى الكنيسة كان المقص دائمًا فى جيبى. فنحن بشر يا سيدى ولا تضمن أبدًا ماذا يمكن أن يحدث على غفلة.

كنت أجمع خصلات الشعر إذن، سوداء وشقراء وكستنائى وخصلات بشعر رمادى؛ كنت أجمع وأجمع حتى ملأت وسادة وكنت أنام عليها فى الشتاء فقط، أما فى الصيف فكانت تشعرنى بشدة الحر. لكن بعد قليل أصابتنى بالقرف فقد صارت لها رائحة عفنة، فألقيت بها فى النار.

ضحك زوربا.

– قال؛ هذه هى سجلاتى يا سيدى، احترقت. مللت منها، كنت أظن أنها قليلة، فاكتشفت أنها لا تنتهى – فتخلصت من المقص.

– وماذا عن الزيجات نصف المخلصة يا زوربا؟

– تنهد قائلاً، تلك لها سحر خاص، المرأة السلافية ياعزيزى يا لروعتها أمد الله فى عمرها ألف عام! حرية مطلقة! ليس لديها؟ أين كنت، لماذا تأخرت؟ أين نمت؟ لا تسألك ولا تسألها. حرية!

مد كأسه وأفرغه، قشر حبة كستناء. راح يمضغها بتمعن:

– كانت إحداهما تدعى سوفينكا، والأخرى نوسا. تعرفت على سوفينكا فى قرية كبيرة بالقرب من نوفوروسيكى. كنا فى الشتاء، جليد، كنت أبحث عن عمل فى أحد المناجم ومررت من القرية وتوقفت عند أحد الأسواق فى ذلك اليوم، وجاء من كل القرى المجاورة رجال ونساء للبيع والشراء. كانت هناك مجاعة، والبرد قارس، وكان الناس يبيعون كل ما لديهم حتى أيقوناتهم لأجل رغيف من الخبز.

كنت أتجول فى السوق، قفزت قروية من عربة تجرها الخيول، فتاة طويلة زرقاء العينين، لها فخذان كأفخاذ المهرة.... وقفت مشدوهاً. «قلت فى نفسى آه لقد ضاع زوربا المسكين!»

رحت أتبعها وأراقبها بعينى اللتين لم تتركاها للحظة، كيف أبتعد بعينى عنها وكان ردفاها يتأرجحان أمامى مثل أجراس الكنيسة فى عيد الفصح. «ماذا تريد أيها المسكين، أى عمل وأى منجم قلت لنفسى؟ لماذا تضيع وقتك وعمرك الثمين أيها الأبله؟ ها هو المنجم الحقيقى، هيا ادخله وافتح فيه أنفاقًا!»

وقفت الفتاة، راحت تساوم واشترت كمًا من الحطب، رفعته – يا لجمال هذين الذراعين يا ربى! – ألقت بحزمة الحطب فى العربة؟ اشترت خبزًا وست قطع من السمك المدخن. «كم الثمن؟ سألت. – بكذا». نزعت من أذنيها قرطيها الذهبى كى تدفع. لم يكن معها نقود،

كانت ستدفع قرطيها فى مقابل ما ابتاعته. فارت الدماء فى عروقى وهل أترك امرأة تدفع قرطيها وحليها وصابونها المعطر وزجاجة عطرها.... تبًا للعالم! إنه كما تنزع ريشة من طاووس. هل يطاوعك قلبك أن تنزع ريشة من طاووس؟ أبدًا! لا، لست أنا ولن يحدث هذا أبدًا ما دام زوربا حيًا، قلت، لن يحدث هذا. فتحت كيس نقودى، دفعت. كانت الروبيل فى هذا الوقت عملات ورقية ذات قيمة متدنية وكان بإمكانك بمائة دراخمة أن تشترى بغلاً وعشر نساء.

دفعت قيمة المشتريات إذن. المرأة الطويلة التفتت نحوى. نظرت لى. جذبت يدى لتقبلها، لكنى جذبت يدى نحوى رافضًا؛ ماذا، هل تظننى عجوزًا؟ «سباسيبا! سباسيبا!»[١٥] صاحت؛ وهى ما تعنى «شكرًا! شكرًا!» بالروسية وقفزة فأخرى كانت فوق العربة، أمسكت باللجام ورفعت سوطها. «قلت فى رأسى، زوربا، إنها ستضيع منك» لكن بقفزة واحدة كنت بجوارها على العربة. لم تقل شيئًا؛ ولم تلتفت نحوى لتلقى نظرة على وضربت بسوطها على ظهر الحصان، وتحركنا.

فى الطريق أدركت أنى أريدها زوجة لى. كنت أتحدث القليل من اللغة الروسية، لكن فى مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى الكثير من الكلام. كنا نتحدث بلغة العيون، بالأيدى وبالركب ووصلنا إلى القرية حتى لا أطيل عليك وتوقفنا خارج عزبة صغيرة ونزلنا من العربة ودفعت الباب فانفتح.

---

(١٥) سباسيبا: تعنى شكرًا باللغة الروسية. (المترجم)

أنزلنا حمولة الحطب وأخذنا الأسماك المملحة والخبز ودخلنا إلى الغرفة. كانت تجلس فيها عجوز بجوار مدفأة خالية من الحطب ترتعد من البرد. كانت متدثرة بالخيش والخرق وجلد الأغنام لكن كانت ترتعد حقًا من قسوة البرد. برد قارس تكاد أظافرك تسقط من قسوته. انحنيت وأخذت حزمة من الحطب وأشعلت النار فى المدفأة. نظرت إلى العجوز وابتسمت. قالت لها ابنتها شيئًا لم أفهمه. أشعلت النار فتدفأت العجوز ودبت فيها الحياة.

كانت الفتاة فى هذا الحين تعد المائدة؛ أحضرت قليلاً من الفودكا، شربنا. أعدت إبريقًا من الشاى وشربنا وجلسنا وأكلنا وأعطت شيئًا من الطعام للعجوز. بعدها أعدت الفراش؛ وضعت شراشف نظيفة، أشعلت قنديلاً أمام أيقونة العذراء ورسمت علامة الصليب على صدرها. أشارت إلى فجثونا على ركبتينا أمام العجوز، قبلنا يدها. فجذبت العجوز يدها النحيلة ووضعت كلتا يديها على رأسينا ودمدمت شيئًا وكأنها تباركنا. «سباسيبا! سباسيبا!» صحت أنا، وبقفزة واحدة كنت أنا والفتاة الملفوفة القوام فى الفراش.

صمت زوربا. رفع رأسه ونظر بعيداً فى الأفق نحو البحر.

– كان اسمها سوفينكا... قال بعد قليل من الصمت.

– حسنًا؟ سألت غير صابرٍ؛ حسنًا؟

– ليس هناك حسنًا! لديك ولع يا سيدى بكلمتى حسنًا، ولماذا؟ بربك، هل هذه أمور تُحكى؟ فالمرأة هى ينبوع فاتر، تنحنى عليه وترى وجهك

ثم تشرب حتى تشعر بتخلخل عظامك. ثم يأتى شخص آخر ظمآن ينحنى ويرى وجهه ويشرب هو الآخر. ثم يأتى آخر... هذا هو الينبوع؛ هذه هى المرأة.

- وماذا حدث بعد ذلك، رحلت؟

- ماذا كنت تريد أن أفعل؟ كانت ينبوعًا، شربنا، وأنا عابر سبيل، بالطبع رحلت. مكثت معها ثلاثة أشهر، باركها الرب، وبعد ثلاثة أشهر تذكرت أننى كنت فى طريقى للبحث عن منجم. «سوفينكا، قلت لها فى الصباح، لدى عمل ولا بد أن أرحل. - حسنًا قالت لى سوفينكا، اذهب. سأنتظرك شهرًا؛ إذا لم تأتِ، فأنا حرة. وأنت أيضًا حر. فى رعاية الرب!» ورحلت.

- هل عدت بعد شهر؟

- معذرةً! هل أنت أحمق يا سيدى! صاح زوربا. أين أعود! وهل تتركك الملعونات أبدًا؟ بعد شهر كنت قد قابلت نوسا فى كوبان.

- هيا حدثنى عنها، قل!

- فى مرة أخرى يا سيدى، لابد ألا نخلط بينهن هؤلاء المسكينات! فى صحة سوفينكا!

رفع كأسه وشربه جرعة واحدة وأسند ظهره إلى الحائط.

- حسنًا، قال، سأحدثك عن نوسا. قد اشتعل رأسى وامتلأ بروسيا. حان الوقت لنفرغه!

مسح شاربه ثم حرك الجمرات.

- حسنًا هذه هى نوسا، تعرفت بها فى قرية كوبان. وكنا فى الصيف وتلال من البطيخ والشمام، كنت أنحنى وآخذ ما أشتهى ولا أحد يعترض وأقطعه نصفين وألتهم ما أشاء.

يوجد كل شىء بوفرة وغزارة يا سيدى، بطيخ وشمام هذا غير الأسماك والزبد والنساء. تمضى ترى بطيخة وتأخذها ترى امرأة وتأخذها. الأمر ليس كما هو هنا فى هذا اليونان المقفر، فأنت هنا إذا أخذت ورقة بطيخ من أحد يذهب بك للمحاكمة، وإذا لمست امرأة؛ شهر إخوتها الأسلحة البيضاء فى وجهك ليمزقوك إربًا. بؤس وفقر يا رجل، أما فى روسيا فيمكنك أن تحيا حياة النبلاء!

حسنًا، عندما كنت أعبر من قرية كوبان، شاهدت امرأة فى حقل وأعجبتنى ولابد أن تعرف يا سيدى أن المرأة السلافية ليست مثل النساء اليونانيات البائسات اللائى يبعن لك الحب قطرات ويفعلن كل ما يستطعن ليبخسنك حقك ويخدعنك فى الوزن والجودة؛ السلافيات يا سيدى يعطينك حقك فى النوم والطعام، فلهن صلة قرابة بالوحوش والأرض، معطاءات، يعطين بغزارة، لا يبخلن مثل قريناتهن اليونانيات اللائى يساومنك على كل شىء! «سألتها، ما اسمك؟» كما ترى، علمتنى النساء قليلاً من اللغة الروسية.... «نوسا؛ وأنت؟ - أليكسيس. إنك تعجبيننى كثيراً يا نوسا.» نظرت إلى جيداً، تفحصتنى كما نتفحص حصانًا نود أن نشتريه. «وأنت تبدو لى شخصًا جيداً، أكتاف عريضة،

ذراعان قويان. تعجبني أيضًا» لم نقل أكثر من هذا، ولم يكن هناك حاجة للمزيد من الكلام. - فاتفقنا سريعًا؛ كنت سأذهب إلى بيتها في نفس الليلة بملابس أنيقة. «سألتني إن كان لدى سترة من الفراء؟ - لدى لكن الجو حار... - لا يهم؛ أحضرها، لابد أن تبدو أنيقًا».

هكذا ارتديت ملابسي في المساء كعريس، حملت على ذراعي السترة وأخذت معي عصا ذات قبضة فضية، وذهبت. بيت قروي كبير وله باحات وأبقار ومقطرات نبيذ ومصابيح مضاءة في الفناء وقدور على المواقد المشتعلة. «ماذا تطهون هنا؟ سألت. - دبس البطيخ. - وهنا؟ - دبس الشمام.» رباه، أين أنا؟ قلت في عقلي؟ يصنعون دبسًا من البطيخ والشمام! لابد أنني في أرض الميعاد، وداعًا أيها الفقر اللعين!

آه يا زوربا، هذه المرة وقعت على قدميك، كالفأر الذي سقط في إناء من الجبن.

صعدت درجات السلم. كانت درجاته عريضة ضخمة وتصدر صريرًا. على رأس الدرج كان يقف أبواها يرتديان نوعًا من السراويل السلافية الخضراء وجوارب طويلة. كانا يبدوان من الأثرياء. وفتحا أحضانهما وغمراني بالقبلات حتى امتلأ وجهي باللعاب وكانا يتحدثان بسرعة، ولم أفهم منهما كلمة واحدة - لكني لم أكن منزعجًا؛ كنت أفهم من أعينهما أنهما لا يريدان بي ضررًا.

دخلت إلى الداخل - فماذا أرى؟ موائد معدة ومعبأة بالطعام والشراب. الكل هنا أقارب، رجال وسيدات، واقفون وأمامهم نوسا،

متزينة ومتأنقة ترتدى مايكشف عن صدرها، بدت كعروسة بحر. كانت تتوهج شبابًا وجمالاً؛ كانت ترتدى منديلاً على رأسها، وعلى صدرها شبكت قطعة حلى مشغولة على شكل مطرقة ومنجل. «آه يازوربا، قلت فى نفسى، أهذا اللحم لك؟ أسيكون هذا الجسد بين أحضانك الليلة؟ فليغفر الرب لأبويك اللذين أنجباك!»

«بكل همة وعزم هرعنا نحو الطعام رجال ونساء رحنا نلتهم الطعام والشراب. أكلنا كالخنازير، شربنا كالثيران. سألت والد نوسا الذى كان يجلس إلى جوارى يكاد جسده يصدر أبخرة من فرط الطعام؛ «أين القس كى يباركنا؟» - لا يوجد قساوسة أو كهان هنا، أجابنى واللعاب يتناثر من فمه. «الدين هو أفيون الشعوب»

قال هذا ثم نهض منتفخًا وحل حزامه الأحمر ومد ذراعه آمرًا الجميع بالصمت. كان يحمل كأسًا ممتلئة وينظر مباشرة فى عينىّ وبدأ حديثه وأطال كأنه يخطب لم أفهم كلمة مما قاله بحق الرب وشعرت بالملل من الوقوف، بل إننى بدأت أشعر بالدوران؛ فجلست، جلست وألصقت ركبتى بركبة نوسا التى كانت تجلس على يمينى.

استمر العجوز فى خطبته والعرق يتصبب منه، هرع نحوه الجميع يحتضنونه علّه يصمت. وصمت أخيرًا. أشارت إلى نوسا: هيا تكلم، هيا قل شيئًا!»

«نهضت، بدأت ألقى خطابًا، نصفه بالروسية، ونصفه باليونانية. ماذا قلت؟ ليلعننى الرب إن كنت أعرف ماذا قلت. أذكر فقط أننى فى

النهاية بدأت أغني على المقام اللكلفتيكو. وهكذا وبدون أى سبب بدأت أجأر بالغناء:

خرج اللصوص من الجبل

ليسرقوا الخيول!

ولّما لم يجدوا خيولاً

سرقوا نوسا!

أترى يا سيدى، غيرت الكلمات قليلاً حتى تنسجم الأغنية مع المناسبة:

وذهبوا ذهبوا ذهبوا

ذهبوا بعيداً

آه يا أماه، أين ذهبوا؟!

آه يا نوساآه يا نوسا

آى أمان أمان آى أمان

وبينما كنت أجأر آى أمان أمان اندفعت نحو نوسا وقبلتها.

وقد كان! حين قبلتها، وكأن الجميع كان ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، اندفع عدد من الرجال ضخام الجثث ذوى لحىً حمراء وأطفؤوا الأنوار.

النسـاء تصنعن الخـوف وبدأن في صـراخ وعـويل لكن فـور أن حل الظلام بدأن في الضـحك! وتحول الضـحك إلى مداعبات وقهقهة.

يعلم الرب وحده ما الذى حدث يا سيدى. لكن أعتقد أن حتى الرب لا يعلم مـا حـدث، لأنه إذا كـان يعلم لأسـقط علينا صـاعـقة من السـمـاء تحـرقنا جـميعًا. كـان الجـميع، رجـالاً ونسـاءً، ومـختـلطين فـوق بعـضـهم البـعض فاختلط الحـابل بالنابل؛ رحت أبحث عن نوسـا، لكن أين أجـدهـا! وجدت أخرى، وحدث ما حدث معها.

وعند الفجـر اسـتيقظت لآخذ زوجتى لنترك المكان. كان الظلام لم يتبـدد بعد، لم أفـهم شيئًا. أمـسكت بقدم، لم تكن هى! أمـسكت بأخـرى، وأخرى، وفى النهاية وبعد معاناة فى البحث، وجدت قدم نوسـا، سـحبتها، بعد أن خلصتها من ثلاثة عمـاليق كانوا يتمددون فوق الفتـاة المسكينة، أيقظتـها. «نوسـا، قلت لها هيا بنا! – لا تنس سـترتك قالت لى! أجبـتها؛ هيا بنا.» وغادرنا.

– حسنًا، وماذا بعد؟ سألت بعد أن رأيت زوربا يلوذ الصمت ثانيةً.

– قال زوربا بعصبية. ماذا تريد بـ حسنًا وبعد؟.

تنهد.

– عشت مـعها سـتة أشهر. من يومهـا، أقسـم بالرب لا أخاف شيئًا. لا أخشى شيئًا أقول لك! سـوى شىءٍ واحدٍ، أن يمحو لى الرب أو الشيطان ذاكرة تلك الأشـهر الست. أفهمت؟ قلت نعم فـهمت.

أغمض زوربا عينيه. بدا متأثرًا. لأول مرة أراه متشبثًا بلحظة ماضية.

- سألته بعد قليل. ألهذه الدرجة أحببت هذه المرأة؟

فتح زوربا عينيه.

- لأنك ما زلت شابًا يا سيدى، ماذا تفهم؟ عندما يشيب شعر سعادتكم، تعال وقتها لنتحدث فى هذه القضية الأبدية....

- وما القضية الأبدية؟

- المرأة. كم مرة يجب أن أقولها لك؟ القضية الأبدية هى المرأة. الآن أنت مثل الديك الصغير يأتى الدجاجة بسرعة البرق وبعدها يرفع عنقه ويصعد على روثه ويصيح متباهيًا. لا ينظر إلى الدجاجات، بل ينظر إلى أعرافهن. ماذا يفهم عن الحب؟ لا شىء، عليه اللعنة!

بصق على الأرض باشمئزاز؛ أشاح بوجهه بعيدًا، لم يرغب أن ينظر نحوى أو إلى.

- حسنًا يا زوربا، سألت مرة أخرى، وماذا عن نوسا؟

- فى ليلة، أجاب، عدت إلى البيت ولم أجدها. رحلت. كان قد مر جندى وسيم على القرية فى تلك الأيام وهربت معه! انفطر قلبى وصار أشلاء؛ لكن قلبى الملعون عاد إلى طبيعته الأولى بسرعة. ألم ترَ بعض أشرعة المراكب المرقعة بالأسود والأبيض وقد خيطت بخيط سميك،

فلا تنشق أو تقطـع أبداً حتى فى العواصـف العـاتية؟ هذا هـو قـلبى، له ألف ثقب وألف رقعة، لكنه لا يهزم أبداً.

- ألم تغضب من نوسا يا زوربا؟

- ولماذا أغضب؟ قل ما شئت؛ المرأة شىء آخر يا سيدى، شىء مختلف، ولا تنتمى لجنس البشر. لماذا أغضب؟ إنها كائن غير مفهوم، وكل قوانين وأديان الدولة لا تفهم ذلك. لا يمكن أن تتعامل هكذا مع المرأة، لا! فهم يعاملونها بقسوة يا سيدى، وهذا ليس عدلاً... إذا كان الأمر فى يدى لأسن القوانين، كنت سأضع قوانين للرجل وأخرى للمرأة، عشر ومائة وألف وصية للرجل؛ فهو رجل يستطيع أن يحتمل. لكن لا يجب أن يكون هناك أى وصية أو قانون للمرأة. كم مرة يجب أن أقول لك يا سيدى المرأة كائن ضعيف. فى صحة نوسا يا سيدى!

فى صحة النساء! وليمنحنا الرب المزيد من الإحساس والمعرفة نحن الرجال!

شرب، رفع يده، وأنزلها بشكل مفاجئ كأنه يحمل فأساً.

- ليمنحنا مزيداً من الإحساس والمعرفة، قال، أو يجرى لنا عملية جراحية، صدقنى، فقد قضى علينا، ضعنا يا سيدى!

اليوم، يهطل المطر خفيفًا، ناعمًا، تمتزج السماء بالأرض اللانهائية بعنوبة ورفق. يستعيد ذهنى صورة نقش هندى على قطعة حجر رمادى: رجل يطوق ذراعيه حول امرأة ويتحد معها فى نعومة وعنوبة متناهية إلى الدرجة التى تجعلك تظن أن الزمن نحت هذا الامتزاج فى أجسادهم أو كما ترى حشرتين قد امتزجتا وبدأ المطر الناعم يتساقط فابتلت أجنحتهما، وبدأتا فى الغرق والذوبان معًا ملتصقتين متحدتين وتبتلعهما الأرض بنهم وهدوء.

اجلس فى الكوخ وانظر إلى العالم من وراء الغيم، والبحر الذى يترك لونه الرمادى المائل للخضرة. على امتداد الشاطئ لا ترى أحداً ولا حتى قاربًا واحداً ولا طيراً، لكن من النافذة المفتوحة تدخل رائحة الطين الندى.

نهضت ومددت يدى تحت المطر مثل المتسول. وفجأة داهمتنى رغبة فى البكاء. اعترانى حزن شديد، ليس من أجلى، لا ليس حزنى، لكنه كان حزنًا أعمق، أكثر إظلامًا، كان يصعد من الأرض المبتلة حتى أحشائى. ذعر ورعب. كهذا الذى ينتاب حيوانًا يسرح ويرعى هادئًا، وفجأة، ودون أن يرى شيئًا يجد نفسه قد سقط فى فخ لا يستطيع منه فراراً.

أردت أن أصـرخ، كنت أعـرف أن هذا قـد يخفف عنى قليلاً، لكننى خجلت من فعله.

السماء بدت منخفضة؛ نظرت من النافذة.

السحب قـد غطت هضبة المنجم، ووجـه المرأة المنحوت عليها قـد غرق.

إن ساعات المطر الخفيف تبعث إلى قلبك شيئًا من النشوة الممزوجة بالحزن، وكأنها فراشة ترش روحك بالماء ثم تغوص فى الطين. تأتى إلى ذهنك كل الذكريات المريرة، كل تلك الأشياء التى تظنها قد توارت فى ثنايا قلبك - فراق الأصدقاء وابتسامات نساء قد محيت وآمال مقطوفة مثل فراشات ولم يبق منها سوى الدود؛ وهذا الدود الآن يتسلق ويرعى فوق أوراق قلبك يقتات عليها.

وبهدوء شديد، ومن خلال المطر والطين المبتل، صعدت إلى قلبى صورة أيالا صديقى القديم المغترب بعيداً فى بلاد القوقاز أخذت القلم، انحنيت على الأوراق وبدأت أحدثه، علّى أستطيع أن أشق شبكة المطر وأطرد الحزن من داخلى:

«صديقى الحبيب، أكتب إليك من على شاطئ مهجور فى جزيرة كريت، حيث اتفقنا أنا والقدر على أن نمكث بضعة شهور لألعب دور الرأسمالى وصاحب المنجم ورجل الأعمال، وإذا نجحت فى لعبتى هذه،

سأقول إنها لم تكن لعبة، بل إننى اتخذت قرارًا عظيمًا وغيرت أسلوب حياتى.

أذكر، عندما رحلت كنت تداعبنى وأطلقت على لقب قارض الكتب. أصابنى العناد منذها وقررت أن أترك الكتب والأوراق لبعض من الوقت - أو ربما للأبد - وأن أنزل إلى أرض الواقع والعمل، استأجرت تلاً به منجمٌ، واستأجرت عمالاً، وأحضرت معاول ومجارف ومصابيح وسلالاً وشاحنات وحفرت أنفاقًا ودخلت فيها. هكذا، من أجل أن أعاندك فقط؛ ومن دودة كتب تحولتُ إلى حيوان خُلد أحفر فى الأرض.

أتمنى أن تصدق هذا التغيير. عادة؛ كنت تداعبنى قائلاً أنك تلميذى. كيف وأنا مدين لك بالكثير مما تعلمته منك، وأنا أعرف من هو المدين ومن هو المدرس: الذى يحاول جاهدًا أن يعلم قدر استطاعته تلميذه، ويشاركه تجاربه وشبابه حتى يعلمه بل ويتعلم منه ويبذل روحه فى سبيل هذا الغرض. وفى سبيل هذا راح يتتبع تعاليم تلميذه، فى سبيل هذا وصلت إلى جزيرة كريت.

لدى هنا متع كبيرة فهى كلها مصنوعة من العناصر الأبدية للطبيعة: هواء طلق، بحر وخبز من القمح، وفى الليل السندباد البحرى الرائع، يجلس متربعًا أمامى يفتح فمه والعالم كله ينفتح أمامى، وعندما لا يكون هناك متسعًا للكلام يقفز من مكانه ويستغرق فى الرقص؛ وعندما لا يكون هناك متسع للرقص، لديه سانتورى يضعه على ركبتيه ويبدأ العزف.

أحيانًا يكون اللحن متوحشًا ويشعرك بالاختناق وتدرك فجأة أن حياتك بائسة لا لون لها ولا طعم، ولا ترقى إلى حياة بشر؛ وأحيانًا يكون اللحن حزينًا، فتشعر أن الحياة تمر وتتدفق مثل الرمال من بين أصابعك ولا يوجد مجال للخلاص.

تروح الروح وتجيء وتترنح بين جدران الصدر، مثل آلة نسيج مكوكية تنسج هذه الشهور القليلة التى أقضيها فى جزيرة كريت، ليغفر لى الرب، لكن أظن أننى سعيد.

«يقول كونفوشيوس: «إن الكثيرين يبحثون عن السعادة فيما هو أعلى من الإنسان؛ وآخرين فى الأدنى؛ لكن السعادة هى على قامة الإنسان». صحيح. هناك الكثير من السعادات على مقاسات كل البشر. هذه هى، يا تلميذى وأستاذى الحبيب سعادتى؛ أقيسها، وأعيد قياسها بقلق، كى أعلم ما هو قوامى، لأنك تعلم جيداً أن قوام الإنسان لا يبقى دائمًا على حاله.

كيف يتغير وفقًا للمناخ، أو الصمت أو العزلة أو الرفقة أو روح الإنسان!

بسبب عزلتى هذه لم يعد يبدو لى الناس مثل النمل كما ستعتقد بالتأكيد، لكن على العكس تمامًا: بل مثل وحوش أسطورية، ديناصورات وزواحف ذوات أجنحة، تعيش فى هواء كربونى وعالم لزج متعفن كغابة حمقاء غير مفهومة وحزينة. إن المعانى التى تحبها مثل الوطن والأمة

والقومية والدولة العظمى والتى أغوتنى بدورها، تكتسب نفس القيمة فى تيار الفساد القاهر ونشعر أننا مشحونون كى نلفظ بعض المقاطع، أحيانًا لا ننطق حتى هذه المقاطع، بل بعض الحروف المتحركة غير المفهومة! - ثم ننكسر. حتى الأفكار الكبيرة إذا ما توغلت فى أحشائها، ترى أنها مجرد دمى محشوّة بالنخالة، وفى النخالة محشور مهماز من الصفيح.

تعلم جيداً أن هذه التأملات والأفكار القاسية لا تمزق كبدى، لكنها ضرورية لتوقد شعلتى الداخلية. وهذا لأنه كما يقول معلمى بوذا، رأيت. وبما أنّنى رأيت بطرفة عين منسجمًا مع الخالق المفعم بالخيال المرح، فأستطيع أن أتسق مع دورى على الأرض وألعبه دون حنق أو قنوط. لأن هذا الدور لم يمنحنى إياه الذى ورطنى فى هذه الحياة، إنما هى رغبتى الشخصية فى توريط نفسى. لماذا؟ لأننى رأيت وشاركت فى المسرحية التى ألعبها على خشبة المسرح الإلهى.

هكذا، وأنا أقلب بصرى فى مسرح العالم، أراك فى وكرك القوقازى الأسطورى تلعب دورك وتناضل من أجل أن تنقذ الآلاف من بنى جنسنا الذين يتعرضون للموت. يا بروميثيوس المزيف ستعانى بالفعل من عذابات القوى الظلامية التى تقاتلها وتقاتلك - الجوع والبرد القارس والمرض والموت وأنت، أظنك فخوراً بما أنت عليه وستسعد بأن القوى الظلامية كثيرة وجبارة؛ لأن هذا سيعطى لموقفك صبغة البطولة خاصة مع اختفاء الأمل واكتساب قواك الروحية مساحة ومدىً تراجيديًا عظيمًا.

هذه هى حياتك التى تظنها سعيدة.

ولأنك تظنها كذلك. قد فصلت هذه السعادة مقاسك وقوامك الآن، الشكر للرب! أن قوامك أكبر وأعظم من قوامى والمعلم الجيد لا يريد أجرًا أكبر من أن يتفوق التلميذ على أستاذه.

أما أنا فغالبًا ما أنسى وأسخر وأشذ عن الطريق وإيمانى ما هو إلا قطع فسيفساء من الشك والكفر وأفكر أحيانًا أن أقايض لحظة من حياتى أعيشها فى مقابل عمرى كله ولكنك تقبض بثبات على إرادتك وعجلة القيادة ولا تنسى وحتى فى أسعد اللحظات وأحلكها وأكثرها موتًا لا تنسى أبدًا اتجاه طريقك.

هل تذكر عندما كنا نعبر إيطاليا فى طريق عودتنا إلى اليونان؟ قررنا حينها أن نذهب إلى بونتو[١٦] هذا الأقليم الذى كان فى خطر آنذاك، أتذكر، ونحن فى طريقنا نزلنا من القطار فى بلدة صغيرة على عجل حيث لم يكن لدينا متسع من الوقت سوى ساعة واحدة حتى يأتى القطار التالى. دخلنا فى حديقة خضراء كبيرة بجوار المحطة؛ أشجارها كانت ذوات أوراق عريضة، وبها أشجار الموز وعيدان القصب ذوات اللون الفضى الداكن تتماوج، والنحل يطير فوق أحد الأغصان المزهرة الذى بدا كأنه يرتعش من فرط السعادة لأن النحل يمتص رحيقه.

---

(١٦) بونتو: أحد أقاليم شرق اليونان سابقًا، أمّا الآن فيقع داخل الحدود التركية. (المترجم)

رحنا نتمشى فى صمت مأخوذين كأننا فى نشوة حلم. وفجأة عند منعطف أحد الدروب الخضراء المحفوفة بالأزهار، كانت هناك فتاتان تقرآن كتاباً أثناء سيرهما. لا أذكر إن كانتا جميلتين أو قبيحتين؛ أذكر فقط أن إحداهما كانت شقراء والأخرى سمراء وكانتا ترتديان قميصين ربيعيين.

وبتلك الجرأة التى يتحلى بها المرء فى الأحلام، ذهبنا إليهما مبتسمين: «أياً كان ما يقرآنه كنا سنتناقش فيه معهما ببهجة!»

كانتا تقرآن غوركى. وبدأنا فى الحديث بسرعة، فلم يكن لدينا الكثير من الوقت، فرحنا نتحدث عن الحياة والفقر وثورة الروح والحب....

لن أنسى أبداً سعادتنا وحزننا. كما لو كنا أصدقاء قدامى وبيننا حميمية قديمة مع هاتين الفتاتين الغريبتين وكنا نشعر كما لو أن لدينا مسئولية تجاه روحيهما وجسديهما وكنا على عجلة من أمرنا، لأننا بعد لحظات معدودة سنغادر للأبد؛ كان الهواء يعصف نشوة وموتاً.

وصل القطار مطلقاً صافرته، هممنا كأننا نستيقظ من النوم، صافحناهما. كيف أنسى احتضان الأيادى الوديع، الأصابع العشر لم تكن لديها رغبة فى الافتراق! كانت إحداهما عابسة بينما الأخرى كانت تضحك وترتعش.

وأنكر أننى قلت لك حينها: «ماذا تعنى كلمة الوطن - اليونان؟ وماذا يعنى الواجب؟ هذه هى الحقيقة إذن!» وقد أجبتنى: «لا الوطن يعنى شيئًا ولا اليونان ولا الواجب، ومن أجل هذا اللا شىء لنضع ونهلك عن طيب خاطر!»

لكن لماذا أكتب إليك هذا الآن؟ أكتب هذا كى أقول لك أننى لم أنسَ أى شىء من كل الذى عشناه سويًا، لاشىء. ولأننى أجد الآن الفرصة أن أعبر من خلال كلماتى هذه عن مشاعرى ما لم تتحه لنا عادتنا - السيئة أو الجيدة - التى كانت دائمًا تقف عائقًا أمامنا وهى: أن نكبح مشاعرنا.

والآن، ولأنك لست أمامى ولا أراك ولا ترى تعبيرات وجهى ولأننى لا أواجه مخاطرة أن أبدو مرهف الحس أو مضحكًا، أقول لك إنى أحبك».

انتهيت من كتابة الخطاب الذى كنت أتحاور فيه مع صديقى، شعرت بارتياح شديد. ناديت زوربا. كان قابعًا تحت نتوءٍ صخرىٍّ كى لا يبتل، يجرب مخططه لإقامة المصعد الهوائى المعلق.

- تعال يا زوربا، ناديته؛ انهض، هيا لنتمشَ إلى القرية.

- يبدو أن مزاجك رائق يا سيدى؛ الجو ممطر. ألا تذهب وحدك؟

- مزاجى رائق بالفعل، وأشعر بالسعادة ولن أفقد هذا الإحساس إذا ذهبنا معًا؛ هيا.

ضحك زوربا.

- يسعدنى أنك بحاجة إلىّ؛ هيا، لنذهب!

ارتدى معطفه الصوفى ذو القبعة المدببة الذى كنت قد أهديته إياه، وبدأنا السير فى الطريق الموحل.

كان المطر يسقط وتوارت قمم الجبال ولم تكن هناك رياح والأحجار كانت تلمع وغطى الضباب تل الفحم وكان وجه المرأة المرسوم على التل يعتريه الحزن، وكأن المرأة قد أصيبت بإغماءة تحت المطر.

- قال زوربا، إن قلب الإنسان ينقبض ساعة المطر، ولا يصح أن تثيره فى ساعة المطر.

انحنى عند قاعدة أحد الحواجز وقطف زهرة نرجس برية؛ نظر إليها لوقت طويل بشهوة عجيبة، كأنه يرى النرجس البرى لأول مرة، وضعها تحت أنفه وشمها وهو مغمض عينيه، تنفس بعمق وأصدر زفيراً عميقًا وأعطانى إياها.

- لو كنا نعرف ماذا تقول الحجارة يا سيدى، والأزهار، والمطر! فمن الممكن أنها تصرخ، تنادينا، ونحن لا نسمعها. كما نناديها نحن ونخاطبها أحيانًا ولا تسمعنا. متى سيفتح العالم آذانه يا سيدى؟

متى سنفتح عيوننا لنرى؟ متى سنفتح أحضاننا للحجارة وللزهور وللمطر وللبشر؛ كى يضمنا حضن كبير؟ قل لى يا سيدى بربك ماذا تقول الكتب؟

- «اللعنة على الكتب، فليأخذها الشيطان! قلت مستخدما لغة زوربا فى التعبير؛ اللعنة؛ هذا ما تقوله الكتب ولا شيء آخر.

أمسك زوربا بذراعى.

- سأقول لك فكرة يا سيدى، لكن لا تغضب:

أجمع كل ماتملك من كتب وأحرقها. عندئذ، من يدرى، إنك لست أحمقًا، بل أنت إنسان سوى.... لكن ستستطيع حينها أن تفهم شيئًا!

«صحيح، صحيح! صرخت بداخلى؛ صحيح، لكنى لا أستطيع»!

توقف زوربا قليلاً، فكر ثم قال:

- سأفهم أنا .... قال.

- ماذا؟ ماذا قلت، أخبرنى يا زوربا!

- لا أدرى؛ لكن هكذا يبدو لى، أننى حينها سأفهم الأمر....

- لكنى لو قلت هذا أو حاولت، فلربما أفسده أو أخلط الأمور. لكن فى يوم ما، عندما سيكون مزاجى رائقًا، سأعبر لك عنه راقصاً.

بدأ المطر يهطل بقوة. وصلنا إلى القرية. بعض البنات الصغار كن فى طريق عودتهن من رعى الأغنام، كان الفلاحون قد فكّوا ثيرانهم من

السـواقى وتركـوا حـقـولهم نصف مـحـروسـة، وراحت النسـاء يُلمِمْنَ أطفالهن من أزقة القرية وكانت هناك فرحة طاغية تسيطر على القرية من قوة المطر المفاجئ؛ كانت النسـاء تصيح وأعينهن تلمع من السـعادة، ومن لحى الرجال كانت تتجمع وتتساقط حبات المطر الغليظة؛ وانبـعثت من الأرض رائحة الحشائش والطين المبلل.

تبللت مـلابسنا بل غرقت؛ فـانعطفنا إلى المقـهى - الجزار المسـمى: الحشمة، كان مكتظًا بالناس، كان البعض يلعب الورق، والآخرون يتحدثون بصوت عال مـثل الثوار على الجبـال. أمام أحد الموائد فى العمق وعلى مرتفع من باقى الموائد، تحلق شيوخ القرية حول العم أناغنوستى، كان يرتدى قميصًا أبيض اللون بأكمام واسعة، مافروأندونى كان صـامتًا، جادًا يدخن النارجيلة، وعيناه مثبتتان على الأرض، المعلم نصف الكريتى النحيل ذو الملامح الشرقية، يستند على عصا غليظة ويستمع بابتسامة متعالية إلى رجل ضخم كثيف الشعر عاد لتوه من القلعة ويحكى قصصًا وحكايات عجيبة عن البلاد البعيدة الكبيرة. صاحب المقهى كان يقف فى مكانه خلف منضدته يسـمع ويضـحك بينمـا يراقب بعـينيـه الإبريق على النار. فور أن رآنا العم أناغنوستى نهض وقال:

قال؛ اقتربوا من هنا يا أهل بلدى، إن سفاكياناكولى يحكى لنا كل ما رأى وحدث له فى البلاد البعيدة.... كم هذا مُسلّ، اقتربوا لتسمعوا.

التفت إلى صاحب المقهى:

- كأسان من العرق يامانولاكى، قال.

جلسنا. الرجل الضخم عندما رأى غرباء تقوقع على حاله وصمت عن الكلام.

- وذهبت هناك إلى المسرح يا كابتن نيكولا؟ سأله المعلم، كي يجعله يكمل حديثه. كيف بدا لك؟ احك لنا.

فرد سفاكياناكولى يده الكبيرة وأمسك بكأس النبيذ وشربها جرعة واحدة؛ فتشجع.

- طبعًا ذهبت إلى المسرح. فقد كنت أسمع الجميع يتحدث عن كوتوبولى كوتوبولى، فرسمت علامة الصليب على صدرى مصليًا وقلت: لمَ لا أذهب كى أرى بنفسى عمَّ يتحدثون وما هو كوتوبولى بحق الشيطان!

- هيا أكمل يا نيكولا، وماذا رأيت إذن؟ سأله العم أناغنوستى.

- وماذا أرى، لم أرَ شيئًا يذكر. فعندما تسمع الجميع يتحدث عن المسرح تظن أنك سترى العجب. لكن خسارة النقود التى دفعتها. كان هناك مقهى مستدير على شكل درّاسة الأرض ويشبه الحانة مليئًا بالكراسى والأضواء والناس. دارت الدنيا بى، أبهرتنى الأضواء، قلت:

قلت لها، «لا أعتقد أنهم يمارسون السحر، اللعنة على هذا، سأرحل من هذا المكان!» جاءت فتاة وسحبتنى من يدى. «إلى أين تذهبين بى» لكنها سارت بى وعادت لتقول لى:

«اجلس!» جلست. كان الناس من أمامى وعلى يمينى وعلى يسارى ومن كل الاتجاهات. ظننتنى سأختنق؛ فلا يوجد هواء! التفت نحو الجالس

بجواري وسألته: «يا بن العم من أين تخرج كل هذه الراقصات؟» - أجابني من هنا من الداخل» قال وهو يشير إلى ستارة في العمق. فبدأت التحديق نحو الستارة.

كان الرجل على حق، بعد قليل دقت الأجراس، فتحت الستارة وخرجت كوتوبولي التي يحكون عنها. لكن أقسم أنها لم تكن كوتوبولي، فهذه امرأة. امرأة بكل المعاني وبكل أعضائها، وراحت تهز مؤخرتها وعندما تململ الناس ولم تعد لديهم قدرة على التحمل راحوا يصفقون ويصفرون فهرعت إلى الداخل ثانيةً.

انفجر القرويون في الضحك، فغضب سفاكياناكولي وأصابه الخجل؛ والتفت نحو الباب.

- قال محاولاً تغيير الموضوع، إن المطر شديد اليوم.

التفت الجميع نحو الباب؛ وفي اللحظة نفسها مرت امرأة مهرولة رفعة فستانها الأسود إلى ركبتيها وشعرها على كتفيها كانت امرأة ممتلئة ذات قوام مشدود وكانت ملابسها قد التصقت على جسدها مظهرة مفاتنها بشكل مغر وشهي، وبدت مثل سمكة جاهزة للأكل.

ارتعدت في مكاني. قلت في نفسي يا لها من وحش كاسر، إنها مثل نمرة أكلة للحوم البشر.

التفتت المرأة ونظرت نظرة خاطفة نحو المقهى للحظة فبدا وجهها اللامع وعيناها ذاتا البريق المبلل.

– يا للعذراء! تمتم أحد الشباب الصغار ذو لحيــة ناعمة وعليها زغب بداية الرجولة كان يجلس بجوار النافذة الزجاجية للمقهى.

– اللعنه عليك أيتـها الساقطة! انفـجر مـانولاس خـفـيـر القـرية؛ تشعلين نيران الرجال ولا تطفئينها بعد ذلك.

الشاب الجالس بجوار النافذة الزجاجية راح يغنى؛ بهدوء وتردد ثم علا صوته قليلاً وراح يغنى بصوت متحشرج:

من وسادة الأرملة تفوح رائحة السفرجل

ومنذ أن شممته أنا، لم يهدأ فؤادى

صرخ فيه مافروأندونى وهو يرفع بخرطوم نارجيلته، اخرس!

سكت الشـاب. وانحنى رجل عجـوز على خـفـير القرية مـانولاكى وقـال لـه:

– قال بصوت خـفيض، لقد غضب العم ثانيةً؛ لو كـان الأمر بيده لقطع هذه البائسة بيده إربًا – أطال الله فى عمرها، ليرحمنا الرب!

– قال الخفير: أيها العجوز أندروليو، أظن أنك تهرول خلف تنورة الأرملة أيضًا. ألا تستحى يا رجل وأنت شماس فى الكنيسة؟

– اسمع ما أقوله لك جيداً، ليرحمـها ويرحمنا الرب! ألم ترَ كيف يولد أولاد القرية مؤخرًا؟ فـهم ليسـوا أطفـالاً، بل مـلائكة. ولـماذا تظن؟ ليرحم الرب تلك الأرملة! فهى بمثابة عشيقة القرية بأكملها: عندما تنطفئ

المصابيح وتظن أنك تحتضن زوجتك، لكنك فى مخيلتك تحتضن الأرملة. وهكذا يخرج أطفال القرية بهذا الجمال.

صمت العجوز أندروليو للحظة؛ ثم بعد قليل قال:

- همس العجوز: يا لسعادة الأفخاذ التى تعانقها! لِكَمْ أتمنى لو كنت شابًا فى العشرين مثل بافلى بن مافرواندونى.

- قال أحدهم ضاحكًا، سنراه الآن عائدًا إلى البيت.

راحوا ينظرون نحو الباب؛ كان المطر يهطل بشدة، فكان ارتطامه بحجارة الأرض يُحدث صوتًا كالقهقهة، وراح البرق يومض من وقت لآخر فى السماء. كان زوربا لا يزال مذهولاً منذ مرور الأرملة، التفت نحوى قائلاً بإشارة ما:

- يبدو أن المطر توقف يا سيدى، هيا بنا!

على الباب ظهر صبى صغير أشعث الرأس حافى القدمين ذو عينين زائغتين، كان يبدو مثل أيقونة ضخمة للقديس يوحنا المعمدان بعينيه الجاحظتين من الجوع والصلوات.

- مرحبًا ياميميكو! صاح البعض ضاحكًا.

لكل قرية مجذوبها، وإن لم يكن لديها صنعته، فقط من أجل أن يمضوا أوقاتهم؛ كان ميميكو مجذوب هذه القرية.

– صاح ميميكو بصوت نسائى مستعار: يا أهل القرية، يا أهل القرية، إن الأرملة سورميلينا قد أضاعت نعجتها! من يجدها سيربح خمس جالونات من النبيذ!

– قال مافروأندونى، اخرج من هنا أيها المجنوب.

تقوقع ميميكو مرتعبًا فى ركن بجوار الباب.

– اجلس يا ميميكو، اشرب كأسًا من العرق حتى لا يقتلك البرد! قال العم أناغنوستى الذى رق لحال المجنوب. كيف كان سيكون حال قريتنا بلا مجنوب!

شاب بوجه باهت وذقن بزغب نابت وعينين زرقاوين ظهر عند الباب لاهثًا يقطر الماء من شعره على جبهته.

– أهلاً بيافلى! صاح مانولاكى؛ بينما كان ابن عمه ينضم إلى الصحبة.

التفت مافرواندونى نحو ابنه، ضم حاجبيه وقال. «هذا هو ابنى: فكر قليلاً ثم قال. هذا التافه الصغير، من يشبه بحق الشيطان؟ كم أود أن أمسك به من قفاه وأضربه على صخرة مثل الأخطبوط!»

كان زوربا يجلس وبدا كأنه يجلس على جمر. كانت الأرملة قد أشعلت رأسه، لم تعد جدران المكان تتسع له...

– هيا بنا يا سيدى... كان يقول لى من وقت لآخر: سنختنق هنا!

بدا له كما لو أن السحب قد تبددت وأن الشمس قد سطعت.

التفت نحو صاحب المقهى:

- من هى هذه الأرملة. سأل وهو يتصنع اللامبالاة.

- إنها فرس أصيلة، أجابه كوندومانولى

وضع إصبعه عند شفتيه وأشار بعينيه وراح يحدق فى الأرض ثانية.

وكرر قائلاً:

- إنها فرس، لكن دعنا لا نتكلم عنها كى لا تصيبنا اللعنات!

نهض مافروأندونى ولف خرطوم النارجيلة حول عنقها.

- معذرة، قال: سأذهب إلى البيت. هيا يا بافلى، اتبعنى!

أخذ ابنه الذى سار أمامه واختفيا فى المطر. نهض مانولاكى وذهب خلفهم.

راح كوندومانولى واستقر على المقعد الذى كان يجلس عليه مافروأندونى مباشرة.

- سيموت هذا المسكين من شره. قال هامسًا حتى لا يسمعه الجالسون على الطاولات المجاورة. قد اشتعلت النار فى بيته وحدث بلاء عظيم، فقد سمعت بأذنى هاتين ابنه بافلى يقول له: «إذا لم أتزوجها

فسأقتل نفسى!» لكن هذه الساقطة لا تريده؛ وتنبذه بعيداً عنها وتقول إنه صبى صغير قذر.

بدأت الديكة فى الصياح، وتوقف المطر قليلاً.

- قال زوربا ثانية وهو ينهض، هيا بنا يا سيدى.

قفز ميميكو من الركن الذى كان يقبع فيه وهرع فى إثرنا.

كانت أحجار الشوارع تلمع، والأبواب مبللة وقد صارت سوداء من فرط ابتلالها، خرجت العجائز بالسلال ورحن يجمعن الحلزون.

اقترب منى ميميكو، لمس ذراعى وقال:

— أعطنى سيجارة يا سيد! علك تهنأ بكل من تحب.

مد يده النحيلة السمراء من حرقة الشمس.

أعطيته، وأشعلتها له. سحب الدخان بعمق وقد أغمض عينيه قليلاً ثم تمتم قائلاً:

- كالباشا سعيد أنا الآن.

- سألته. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى بستان الأرملة قال. فقد قالت أنها سوف تطعمنى إذا وجدت نعجتها الضائعة.

كنا نسير على عجل. انقشعت السحب قليلاً، وظهرت الشمس. بدت القرية مغسولة وضاحكة.

– هل تعجبك الأرملة يا ميميكو؟ سأله زوربا وبقى فكه السفلى متهدلاً.

همس ميميكو ضاحكًا.

– ولمَ لا؟ ألم أخرج من نفس السرداب يا بن العم؟

– نفسَ السرداب؟ قال متسائلاً. ماذا تريد أن تقول يا ميميكو؟

– أعنى من بطن الأم.

قد أصابنى الرعب. وفكرت أن شكسبير وحده الذى يستطيع فى أكثر لحظاته إبداعًا أن يقول عبارة بهذه الواقعية والفجاجة ليفسر السر المظلم الكريه للولادة.

نظرت إلى ميميكو؛ كانت عيناه كبيرتان، منتفختان وبهما حول بسيط.

– كيف تمضى يومك يا ميميكو؟

– كيف أمضيه يا باشا؟ أستيقظ فى الصباح، آكل قطعة من الخبز. ثم أقوم بالأعمال اليدوية أينما أجد، ألبى بعض الطلبات وأنقل الروث وأجمع وأنظف روث الخيل ولدى صنارة أذهب للصيد أحيانًا وأقيم مع عمتى والسيدة لينو وهى نادبة محترفة ولابد أن تتعرفوا عليها، فكل الناس يعرفونها. قد قاموا بتصويرها فى أحد الأيام. وعندما يحل الليل وأعود إلى المنزل أتناول شيئًا من الطعام وأشرب بعض النبيذ إذا كان

موجوداً؛ إن لم يكن، فمـاء الرب وفـير. تنتفـخ بطنى. ثم، تصبحـون على خير!

– ولن تتزوج يا ميميكو؟

– أنا، وهل أنا مـجنون؟ مـاذا تقـول يا صـديقى؟ هل أبحث عن مشـاكل أحشـرها فى رأسى؟ المرأة تحتـاج إلى حـذاء! أين أجـده؟ أنا أمشى حافى القدمين.

– أليس لديك حذاء؟

– بل لدى، فقد توفى فى العام الماضى أحد الرجال، فخلعت عمتى الندابة لينيو الحذاء من قدميه وأعطتنى إياه. أنتعله عندما أذهب إلى الكنيسة فى الأعياد أمام الكهنة. ثم بعد ذلك أخلعة وأعلقه فى رقبتى وأعود إلى البيت.

– وأى الأشياء تحب يا ميميكو فى هذا العالم؟

– أولاً، أحب الخبز. كم هو جميل! عندما يكون ساخنًا ومصنوعًا من دقيـق القمـح! وحتى لو كـان من الشعير! ثانيًا، النبـيذ. ثم بعد ذلك النـوم.

— والنساء؟

– أوف، أكـل وشـراب ونـوم أقـول لك! كل مـا هو دون ذلك هو مجـرد همـوم!

– والأرملة؟

– عليها اللعنة، فليأخذها الشيطان، ابتعد عنها إن كنت تريد الخير لنفسك!

بصق خلفه ثلاث مرات ورسم علامة الصليب.

– وهل تجيد القراءة والكتابة؟

– ماذا! أرسلوا بى عنوة إلى المدرسة عندما كنت صغيراً؛ لكننى كنت محظوظًا فقد أُصبت بالتيفوس وأصبحت أبلهَ. وهكذا تم إنقاذى من المدرسة!

لكن زوربا قد أصابه الملل من هذا الحديث، كان ذهنه مشغولاً بالأرملة.

– يا سيدى... قال وسحبنى من ذراعى.

اذهب أنت للأمام، قال آمراً ميميكو؛ ثم قال لى بصوت خفيض: لدينا ما نتحدث عنه. كان يبدو متأثرًا بعض الشيء.

– يا سيدى، أريد أن أعتمد عليك فى هذا الأمر، لا يجب أن تخذل جنس الرجال!

إن الرب قد أرسل لك هذه اللقمة الشهية، لديك أسنان، لا تتركها! مد يدك وخذها! فلماذا خلق لنا الرب اليدين؟ كى نمسك بها الأشياء؛ تناولها إذن وأمسك بها! لقد رأيت فى حياتى الكثير من النساء، لكن هذه الأرملة تحديداً تهز قلاعًا عليها اللعنة!

– أجبته غاضبًا. لا أريد المشاكل!

غضبت، لأننى فى أعماقى كنت أشتاق أن أضم هذا الجسد بين ذراعى، مثل وحش كاسر شبق يقطر مسكًا.

– لا تريد المشاكل! ردد زوربا مندهشًا؛ إذًا ماذا تريد يا سيدى؟

لم أجب.

– الحياة مشاكل، أكمل زوربا، لكن الموت ليس كذلك. أتعرف ماذا تعنى أن تكون حيًا؟ أن تفك حزامك وتبحث عن المشاكل والمتاعب.

لم أتكلم. كنت أعرف أن زوربا على حق، كنت أعرف أنه ليس لدى الجرأة وكانت حياتى قد تسير فى درب خطأ ولم يعد اتصالى مع البشر سوى مونولوجًا داخليًا أو مناجاة للذات. لقد انهرت ووصلت إلى الحضيض، ولو تعين على الاختيار بين حب امرأة وقراءة كتاب جيد، كنت سأختار الكتاب.

– لا تحسبها كثيرًا يا معلم، اتبع زوربا، دعك من الأرقام واكسر هذا الميزان الأحمق، أقفل دكانك، اسمع كلامى كما أقول لك. فالآن إما أن تنقذ روحك أو تسجنها للأبد. اسمع يا سيدى، خذ منديلاً، واربط فيه بعض الليرات الذهبية، لا تضع نقودًا ورقيةً فهى لا تبرق ولا تبهر العيون وأرسلها مع ميميكو إلى الأرملة، ولقنه ما سوف يقوله لها على لسانك: «تحياتى، من صاحب منجم الفحم، هذا هو منديلى. هدية بسيطة وحب كبير. لا تحزنى على نعجتك، وإن ضاعت فلا يهمك شيء؛ فنحن هنا

بجـوارك؛ لا تـخـافى ولا تحـــزنى! رأيتـــك تمـــرين من أمــام المقـــهى وسـرقت عقـلى».

هذا هو. ثم بعد ذلك مباشرة فى الليلة التالية - السرعة مطلوبة فى مثل هذه الأمور - اذهب واطرق باب بيتها. لقد ضللت الطريق قل، وقد حل الظلام واطلب منها أن تعطيك مـصبـاحًا. ثم، آه، سـينتـابك دوار مفاجئ، ستطلب منها كوبًا من المـاء. لا بل من الأفضل أن تشترى لها نعجة وتذهب بها إليها: «ها هـى النعجة التى ضاعت منك يا سيدتى. قد وجدتها!» اسمع منى يا سيدى، والأرملة ستكافئك وتدعك تدخل البيت - آه لو كنت أنا فى مكانك! - ستـدخل كما أقول لك، مـثل فارس يمـتطى حصانه ويدخل إلى الجنة. إنها جنة أخرى أيها المسكين ولا تستمع إلى القساوسة؛ فهذه هى الجنة؛ لا توجد جنة أخرى!

اقتربنا من بستان الأرملة، تنهد ميميكو وراح يغنى بصوته المخنث:

الكستناء يحب النبيذ والجوز يحب العسل

والفتى للفتاة، والفتاة للفتى.

سار زوربا بخطى واسـعـة، كانت فتحتا أنفه ترتعشــان. توقف، أخذ نفسًا عميقًا ثم نظر إلى:

- حسنًا؟ قال ثم انتظر متلهفًا.

- هيا إذن، لنذهب! أجبت مقاطعًا وأسرعت خطوتى أنا أيضًا.

هز زوربا رأسه وهمهم بشيء لكنى لم أسمعه.

عندما وصلنا إلى الكوخ، جلس متربعًا، وضع السانتورى على ركبتيه، ورفع رأسه، وغرق فى تأمله كما لو كان يفرز الأغانى فى رأسه، وبدأ يعزف لحنًا حزينًا شديد المرارة...

من وقت لآخر كان يلقى علىّ نظرة بطرف عينه؛ كنت أشعر أنه كان يود أن يقول لى شيئًا لكن ليس بالكلام، كان يحدثنى بالسانتورى. كيف أن حياتى راحت هباءً، كيف أننى أنا والأرملة ما نحن إلا دودتان نعيش لحظات تحت الشمس ومن ثم سنموت إلى الأبد. إلى متى! إلى متى!

نهض زوربا فجأة، فهم أن جهده يذهب هباءً. سند السانتورى على الحائط، أشعل سيجارة. ثم بعد قليل قال:

– سأفشى لك سرًا قاله لى شيخ مسلم عجوز فى سالونيكى، سأقوله لك وليذهب إلى الجحيم.

كنت بائعًا متجولاً آنذاك فى سالونيكى، أطوف الأحياء وأبيع بكرات الخيطان والإبر وعطر القديسين والبخور والبهارات... كان لدى صوت قوى وجميل كالكروان، والنساء يستسلمن للصوت الشجى، (وما هو الشيء الذى لا يستسلمن له الخنزيرات!). ماذا يحدث فى أحشائهن، ولا حتى الشيطان يعرف! يمكن أن تكون دميمًا وأعرج، لكن إن كان صوتك عذبًا فى الغناء عندها تسلب عقولهن تمامًا.

كنت بائعًا متجولاً إذن وكنت أمر على المحلات التركية؛ وكما يبدو أن ثرية تركية فتنت بصوتي. نادت على الشيخ العجوز وملأت كفه بحفنة من النقود الفضية. «يا إلهي، أمان أمان! اذهب وقل لهذا البائع أنني أريد أن أراه، فلم أعد أحتمل!»

جاءني العجوز: «أيها الروميّ، تعال معي، قال لي! - لن آتي معك، قلت له، إلى أين ستذهب بي؟

- إلى إحدى الهوانم أيها الروميّ، صافية كالماء العذب، تنتظرك في دارها، تعال!» لكن كنت أعرف أنهم يقتلون المسيحيين في الأحياء التركية ليلاً. «قلت له لا، لن آتي معك! - وألا تخاف الله أيها الرومي الكافر، إن من يستطيع أن يأتي امرأة ولم يفعل، فإنه يرتكب إثمًا عظيمًا. أن تدعوك امرأة إلى فراشها ولا تذهب، انتهت روحك! فهذه المرأة تتنهد في يوم الحساب العظيم، وتنهدها هذا سيحطمك تمامًا، أيًا كنت أنت، وإن كنت أصلح الصالحين فسوف تحرق روحك في الجحيم!»

تنهد زوربا.

- لو أن هناك جحيمًا، فسأذهب إلى الجحيم، وسيكون هذا هو السبب. ليس لأنني سرقت أو قتلت أو زنيت؛ لا، لا! كل هذه الأشياء يغفرها الرب. لكني سأذهب إلى الجحيم لأنني في تلك الليلة كانت هناك امرأة تنتظرني على فراشها ولم أذهب....

استيقظ، أشعل النار، راح يطهو طعامًا. نظر إلى بطرف عينيه.

ابتسم باشمئزاز:

- إذا أردت أن تطرق باب الأصم، فاضرب عليه إلى الأبد!

تمتم زوربا، وانحنى ينفخ في الحطب المبتل.

أصبح النهار أقصر؛ وفى ساعاته الأخيرة كان القلب ينقبض. حيث يعود إليه الرعب الأزلى الذى كان ينتاب الإنسان البدائى عندما كان يرى الشمس فى شهور الشتاء تنطفئ مبكرًا. «غدًا سيختفى النور للأبد» كان يقول يائسًا، وكان يسهر طوال الليل فوق قمم الجبال مرتجفًا تأكله الظنون والمخاوف: ستظهر الشمس أم لا؟

كان زوربا يعيش هذا الضيق والقلق بشكل أعمق وأكثر بدائية منى. ولكى يتفادى هذا الشعور كان لا يخرج من أنفاق المنجم التى شقها فى باطن الأرض إلا عندما يأتى الليل وتسطع النجوم فى السماء.

كان زوربا قد اكتشف عرقًا من الفحم، به القليل من الرماد والرطوبة وغنى بالحريرات، وكان زوربا سعيدًا بهذا الاكتشاف لأنه ترجمه مباشرة إلى مكاسب مالية وتحولات عظيمة فى حياته؛ سفر ونساء ومغامرات جديدة ولم يكن لديه صبر حتى يكسب الكثير من المال ليفرد جناحيه ويطير - فقد كان يسمى النقود أجنحة - ينفقها ليطير.

لهذا كان يسهر الليالى الكاملة ليختبر ويجرب النموذج الصغير الذى صنعه للمصعد الهوائى المعلق الذى يريد إنشاءه ومن أجل أن يجد

زاوية الميل الصحيحة، كى تهبط الأخشاب بشكل أنعم كما لو كانت تحملها الملائكة.

أخذ يومًا ورقة كبيرة وبعض الأقلام الملونة ورسم جبلاً وغابة، والجسر المعلق والأخشاب وهى تنحدر عليه وهى معلقة على الأسلاك، وقد رسم كل لوح من الخشب بجناحين زرقاوين. وفى الميناء المستدير رسم قوارب سوداء وبحارة بلون أخضر، مثل ببغاوات صغيرة. وبعض الزوارق تحمل جذوع أشجار. وأربعة كهنة يقفون فى الأربعة أركان، ومن أفواههم كانت تنطلق شرائط بحروف سوداء كبيرة: «رب عظيم بديع الصنع»!

فى الأيام الأخيرة، كان زوربا يشعل الموقد ويطبخ لنأكل بسرعة ثم يختفى فى شوارع القرية. وبعد بعض الوقت كان يعود متجهمًا.

- سألته: أين كنت وأين تذهب يا زوربا؟

- دعك من هذا يا سيدى، ثم غير الموضوع.

ذات ليلة عندما عاد، سألنى بقلق بالغ:

- هل هناك إله؟ أخبرنى بصراحة يا سيدى، وإن كان الرب موجودًا - فكل شىء وارد - كيف تتخيله؟

رفعت كتفىّ، ولم أجب.

- فأنا، لكن لا تضحك يا سيدى، أتخيل الرب يشبهنى تمامًا. ربما يكون أطول قليلاً وأقوى وأكثر جنونًا؛ وخالدًا. يجلس مسترخيًا على

فرو الغنم اللين الناعم، وكوخه الذى يسكنه فى السماء. وبالطبع ليس مصنوعًا من صفائح الوقود الفارغة مثل كوخنا، لكنه مصنوع من السحاب. لا يمسك فى يمينه سيفًا ولا ميزانًا – فهذه الأدوات للمجرمين والبقالين؛ الرب يمسك بإسفنجة كبيرة مليئة بالماء، مثل سحابة معبأة بالمطر. على يمينه الجنة وعلى يساره الجحيم. تأتى إليه الروح المسكينة صارخة عارية ترتعش لأنها قد فقدت جسدها. ينظر إليها الرب ويضحك من خلف شاربيه، لأنه يلعب دور الغول، «تعالى هنا، ويغلظ صوته، تعالى هنا أيتها الملعونة!» ويبدأ التحقيق. تسقط الروح تحت قدمى الرب.

«تصرخ، يا ويلاه؛ الرحمة!» وتبدأ فى الاعتراف بكل ما اقترفت. تحكى وتقول وتسهب بلا نهاية. والرب يتململ ويتثاءب. «كفى؛ اصمتى، يصرخ فيها بحزم!» ويضرب ضربة واحدة بالإسفنجة فيمحو كل الذنوب. «اغربى عن وجهى واذهبى إلى الجنة! يقول لها. – يا ملاك الآخرة بطرس، ضع تلك المسكينة أيضًا فى الداخل»!

فلا بد أن تعرف يا سيدى، أن الرب نبيل وعظيم؛ وعين النبل والعظمة هو أن تسامح وتغفر!

فى تلك الليلة أذكر أنه عندما قال لى زوربا هذا، ضحكت كثيرًا؛ لكن، من يومها وعظمة الرب قد تشكلت ونضجت بشكل كامل فى داخلى، بأنه رءوف، رحيم وقدير.

في الليلة التالية، بينما كنا جاثمين في كوخنا ونشوى حبات الكستناء على الموقد، التفت لى زوربا ونظر إلى طويلاً، وكأنه يريد أن يقول سراً خطيراً. وفي النهاية لم يطق صبرا:

- قال: كنت أريد أن أعرف يا سيدى، ما الذى يجعلك تتمسك بى ولا تشدنى من أذنى وتلقى بى إلى الخارج! ألم أقل لك أنهم يطلقون على اسم العفن الفطرى، وهذا لأننى أينما حللت تحل الكوارث... سينهار عملك وتسوء أحوالك؛ أنصحك بأن تطردنى!

- إنك تعجبنى يا زوربا، أجبته؛ ولا تسأل كيف أو لماذا؟

- لكنك لا تفهم يا سيدى، إن وزن رأسى ليس هو الوزن الطبيعى ربما يكون أثقل قليلاً أو أخف قليلاً لكنه بالتأكيد ليس الوزن الطبيعى. ولكى تفهمنى: منذ أيام وتلك الأرملة لا تجعلنى أنعم بأى هدوء. ليس من أجلى، لا، أقسم لك. فأنا لا أهتم بأمرها، عليها اللعنة فى كل الأحوال! فأنا أعلم أنى لن ألمسها أبداً فليست لدى الأسنان لأمضغ وجبة كهذه... لكننى لا أريد أن تذهب هباءً. لا أريدها أن تنام وحيدة. هذا ليس من العدل يا سيدى، قلبى لا يحتمل هذا أبداً. أدور فى الليل فى بستانها - لهذا أختفى أحياناً وتسألنى أين أذهب - أتعرف لماذا؟ لكى أرى إن كانت تذهب إلى أحد أو إن كان أحد يذهب إليها فقط من أجل أن يطمئن قلبى.

ضحكت.

– لا تضحك يا سيدى! إذا نامت امرأة وحيدة، فهذا ذنبنا نحن الرجال. سنسأل عن هذا أمام الرب فى يوم الحساب؛ فالرب يغفر كل الذنوب كما قلنا، يحمل الإسفنجة ويمحوها جميعًا، إلا هذا الذنب فلا يغفره أبدًا. الويل للرجل يا سيدى الذى يكون بمقدوره أن ينام مع امرأة ولا يفعل؛ والويل للمرأة التى يكون بمقدورها أن تنام مع رجل ولا تفعل. تذكر ماقاله لى الشيخ التركى المسلم.

صمت قليلاً؛ ثم قال فجأة:

– من الممكن أنه عندما يموت شخص، أن يبعث من جديد؟ سأل زوربا

– لا أظن ذلك يا زوربا.

– ولا أنا، لكن إن كان هذا محتملاً، فهولاء الناس إذن الذين يرفضون ويعصون ويذنبون فى ذلك الأمر، لنسمهم المذنبين، سيعودون ثانيةً إلى الأرض – أتدرى فى أى صورة؟ فى صورة بغال!

صمت مرة أخرى، ثم فكر؛ وفجأة برقت عيناه.

– من يدرى، قال بسعادة، فمن الممكن أن تكون كل البغال التى نراها اليوم فى عالمنا هذا، أن تكون هؤلاء المذنبين والحمقى والمعوقين الذين كانوا يعيشون بيننا رجالاً منهم ونساء. ولهذا صاروا بغالاً؛ ولهذا فعندهم كل هذا العناد لذلك فهم يركلون ويرفسون. ما رأى سعادتكم يا سيدى؟

– حقًا، إن وزن رأسك أقل من المواصفات المتعارف عليها يا زوربا، أجبته ضاحكًا.

قم وأحضر السانتورى !

– ليس هناك سانتورى الليلة يا سيدى، معذرة. أتكلم وأتكلم وأقول حماقات – لكن أتدرى لماذا؟ لأن ذهنى مشغول. الهموم كثيرة وكبيرة. النفق الجديد الملعون سيأكل رأسي. وأنت تحدثنى عن السانتورى....

قال ثم أخذ حبات الكستناء من على الموقد، أعطانى حفنة، ثم ملأ الكؤوس بالعرق.

– ليوفقنا الرب! قلت وأنا أقرع الكأس.

– الرب لم يوفقنا، حتى الآن! قال زوربا. فلم نرَ جديداً بعد.

شرب السائل النارى جرعة واحدة ثم تمدد على فراشه.

– غداً، قال، لابد أن أحتفظ بكل قواى وأستجمعها؛ فسوف أحارب آلاف المردة والشياطين. تصبح على خير!

فى اليوم التالى، وفى الصباح الباكر، غاص زوربا فى النفق. كان العمل قد تقدم فى النفق الجديد وعلى امتداد عرق الفحم، لكن الماء بدأ يرشح ويتساقط من السقف، فراح العمال يسدون مصادره بالطين.

كان زوربا قد أحضر جنوع الأشجار كى يوطد النفق؛ لكنه لم يهدأ؛ فلم تكن عروق الخشب غليظة كما ينبغى، وبغريزته وحدسه القويين اللذين لا يخطئان عرف ما يدور فى متاهة ذلك النفق وكأنه جسده، شعر أن هذه الدعائم لم تكن كافية ولا قوية وسمع صوتًا خفيًا ربما لا يسمع بالسمع المجرد صوت صرير وكأن الدعائم تتنهد من فرط ثقل سقف النفق عليها.

كما أن هناك شيئًا آخر جعل زوربا اليوم أكثر قلقًا: فى اللحظة التى كان يستعد فيها لنزول النفق، مر قس القرية، القس ستيفانوس، مر عليهم ممتطيًا بغلته وهو فى طريقه نحو دير النساء المجاور لكى يقرأ على إحدى الراهبات تصارع سكرات الموت. وفور أن رآه زوربا، استطاع قبل أن يحدثه أن يبصق ثلاث مرات فى صدره ليطرد النحس.

– أجاب بنف فمه مفتوحًا على تحية القس. صباح الخير يا أبانا!

ثم قال بصوت خفيض:

– أعوذ بالملكوت من لعناتك وشيطانك ونحسك يا ستيفانوس!

لكن لم يشعر أن تعويذته هذه كانت كافية كى تطرد النحس والشر، ثم هبط إلى النفق الجديد حانقًا متذمرًا.

رائحة ثقيلة من الفحم والإستلين؛ كان العمال قد بدأوا قبل يوم أمس بتثبيت الدعائم وتوطيدها فى النفق.

ألقى زوربا عليهم تحية الصباح بحنق واقتضاب وشمر ساعديه وانهمك فى العمل.

كان حوالى عشرة من العمال يضربون عرق الفحم بالفؤوس فيتكوم الفحم تحت أقدامهم، والآخرون كانوا يضعونه بمجارفهم فى عربات صغيرة ويحملونه إلى الخارج.

توقف زوربا لحظة؛ أشار إلى العمال؛ وراح ينصت. كما يفعل الفارس مع حصانه، والقبطان مع سفينته وكان زوربا قد امتزج بالمنجم وبدأ يشعر أن أنفاقه هى عروق تجرى فى جسده، كان يشعر بما لا تشعر به تلك الكتل السوداء فى بطن الجبل وبقوة وشفافية راح ينصت باهتمام بالغ كأنه يتسمّعُ شيئًا؛ وفى تلك اللحظة كنت قد وصلت أنا. كما لو كان لدى إحساس بشىء ما سىء، وكأن شيئًا قد دفعنى للذهاب إلى هناك. نهضت من فراشى وارتديت ملابسى وانطلقت إلى الخارج، لا أدرى لماذا وإلى أين، لكن جسدى اندفع وأخذ الطريق نحو منجم الفحم. ووصلت فى نفس اللحظة التى كان زوربا فيها ينصت إلى شىء ما.

– لا شىء.... قال بعد قليل؛ عودوا إلى العمل يا رجال!

التفت زوربا ولمحنى، ثم عض على شفتيه:

– ما الذى أتى بك إلى هنا فى هذه الساعة المبكرة يا سيدى؟

اقترب نحوى:

–لمَ لا تصعد خارج النفق حيث الهواء النقى يا سيدى؟ همس لى بصوت خفيض. ربما تأتى فى يوم آخر لتتسلى.

– ماذا يجرى يا زوربا؟

— لا شىء... تخيلت بعض الأشياء. فلقد رأيت القس اليوم فى الصباح الباهر، اذهب الآن!

– إذا كان هناك أى خطر، أليس من العيب والعار أن أذهب؟

– قال زوربا: بلى.

– أكنت سترحل أنت فى حالة كهذه؟

– لا.

– إذن؟

– أجاب بغضب، ما يجب أن يفعله زوربا شىء، وما يجب على الآخرين شىء آخر. لكن إن كنت تعلم أنه من العار والعيب أن ترحل، فلا ترحل؛ ابقَ هنا.

أخذ فأساً، مد قدميه وأخذ يدق بعض المسامير الغليظة فى دعامات السقف الخشبية. أخذت أحد المصابيح وذهبت نحو الأسفل أغوص فى الطين ونظرت إلى عرق الفحم اللامع الداكن اللون كالكستناء؛

غابات ممتدة هائلة غاصت فى الأرض منذ ملايين السنين، ابتلعتها الأرض وهضمتها وشكلتها الأرض كأطفال لها والأشجار أصبحت فحمًا، وجاء زوربا ووجده.

علقت المصباح فى مكانه ورحت أرقب زوربا الذى كان مستغرقًا تمامًا فى عمله، اتحد مع الأرض والمطرقة والفحم تمامًا كما لو صاروا كلهم فى جسد واحد؛ كان يحارب ويعانى مع الدعائم الخشبية والسقف الذى ترهل وكان يحارب الجبل كله، كان يريد أن يأخذ الفحم ويرحل. كان يشعر بكل الثقة وهو يضرب ويصوب بنجاح قوته نحو الأماكن الضعيفة حتى يسيطر عليها وغطاه الفحم تمامًا وصار مموهًا، كنت لا أرى منه سوى بياض عينه الذى كان يبرق، وكأن العالم قد تحول إلى كرة من الفحم وهو نفسه قد صار قطعة من الفحم كى يتمكن من مراوغة خصمه واختراق حصونه الداخلية.

- سلمت يمينك يا زوربا! صحت بإعجاب دون أن أشعر.

لكنه لم ينتبه ولم يلتفت. ليس لديه الوقت كى يتبادل أطراف الحديث مع كائن مرفه مثلى بدلاً من أن يمسك بفأس يمسك فى يده قلم رصاص وكان مشغولاً ولم يقبل أن يتكاسل ويتحدث. «لا تحدثنى عندما أعمل قال لى ذات ليلة؛ فمن الممكن أن أفقد أعصابى!» - تفقد أعصابك يا زوربا، لماذا؟ - دائمًا تسأل لماذا لماذا، مثل الأطفال الصغار! كيف أشرح لك؟ أنا منهمك فى عملى. مشدود من رأسى حتى أخمص قدمى،

غارق فى التفكير فى الحجارة والفحم وأحارب معهم أو حتى مع السانتورى. إذا لمستنى فجأة وأنا مستغرق أو حدثتنى فمن الممكن أن أفقد أعصابى فجأة؛ لكن كيف تفهم أنت هذا!»

– نظرت فى ساعتى؛ اقتربت من العاشرة.

–حان وقت الراحة يا رجال، لقد مر الوقت، قلت.

فوراً وبسعادة ألقى العمال معاولهم فى الركن، وراحوا يمسحون عرقهم ويستعدون للخروج من النفق. كان زوربا لا يزال مستغرقًا فى العمل، لم يسمع. حتى لو سمع لم يكن ليتحرك.

– انتظروا، قلت للعمال، انتظروا حتى أعطيكم سجائر.

بحثت فى جيبى أبحث عن علبة السجائر، التف العمال حولى ينتظرون.

فجأة قفز زوربا وألصق أذنه بجدار النفق؛ وعلى ضوء مصباح الإستيلين لمحت فمه يرتعش.

– صحت، ماذا جرى يا زوربا؟

وفى هذه اللحظة، بدأ سقف النفق كله يرتعش فوقنا.

– اخرجوا! اخرجوا، صاح زوربا بصوت أجش.

هرعنا نحو المخرج؛ لكن قبل أن نصل إلى الدعامة الأولى، سمعنا صريراً آخر فوقنا أقوى هذه المرة. فى هذه اللحظة رفع زوربا أحد

الجنوع الضخمة ليسند الدعامة التى بدأت تنهار؛ إذا نجح فى هذا ربما يتماسك السقف للحظات تُتاح لنا كى نخرج.

- اخرجوا! سمع الآن صوت زوربا مكتومًا كما لو كان يخرج من باطن الأرض.

هرعنا كلنا بكل الجبن الذى ينتابنا فى تلك اللحظات نحو الخارج، دون أن يعنينا ما الذى يجرى لزوربا.

بعد قليل من اللحظات، استجمعت قواى وعدت للخلف.

- صحت، زوربا، زوربا!

خيل إلى أننى أصيح، لكننى أدركت أن صوتى حشر فى حلقى؛ كان الخوف قد خنق صوتى.

شعرت بالخزى. أخذت خطوة أخرى قافزًا للخلف مادًا ذراعى. كان زوربا فى هذه اللحظة قد نجح فى تثبيت الدعامة الكبيرة وراح يجرى بسرعة وقوة فى الوحل ناحية المخرج وكان يجرى بسرعة فاصطدم بى فى الظلام فسقط فوقى ودون أن نشعر احتضن كل منا الآخر.

- اخرج لابد أن نخرج من هنا!

هرولنا، وصلنا نحو الضوء؛ كان العمال متجمعين عند المدخل صامتين مرعوبين شاحبين.

سمعنا صوت صرير ثالث أشبه بالتصدع لكنه كان أقوى فى هذه المرة؛ مثل جذع شجرة يكسر من المنتصف. وفجأة صوت هدير وانهيار أحدث اهتزازًا فى الجبل، وانهار النفق.

- صاح زوربا بغضب: لقد تركتم معاولكم وفؤوسكم بالداخل.

صمت العمال.

- صاح زوربا ثانيةً وكان فى حالة هياج شديدة. لمَ لم تأخذوها؟ هل تبوّل كل منكم فى سرواله من شدّة الخوف، يا للرجال!. يا حسرتى على المعاول!

- وهل سننتبه إلى الفؤوس والمعاول فى هذه اللحظة يا زوربا، قلت متدخلاً. لابد أن نشكر الرب أن أحدًا لم يصب بمكروه؛ شكراً لك يا زوربا، كلنا مدينون لك بحياتنا.

- قال زوربا: أنا جائع! لقد فتحت شهيتى.

أخذ كيسه الذى يحتوى على طعام غدائه، حيث كان قد تركه على إحدى الصخور وفتحه وأخرج الخبز والزيتون والبصل وحبة بطاطا مسلوقة وقنينة من النبيذ.

- قال وفمه ممتلئ بالطعام: استريحوا لتأكلوا.

راح يأكل بنهم، كما لو أن كل قواه قد خارت فجأة ويحاول جاهداً يملأ قلبه بالدماء ثانية.

كان يأكل صامتًا متأملاً، أخذ قنينة النبيذ من عنقها ووضعها على فمه ليروي حلقه الجاف.

تشجع العمال وفتحوا حقائبهم وراحوا يأكلون. جلسوا جميعًا متربعين حول زوربا، كانوا يأكلون وينظرون إليه. كانوا يريدون تقبيل قدميه ويديه شاكرين، ولكنهم كانوا يعلمون أنه غريب الأطوار ولا يستطيع أحدٌ أن يقدم على حركة كهذه.

وأخيرًا قرر ميخائيل أكبرهم سنًا وذو الشاربين الرماديين الكثيفين:

– لولاك يا رئيس ألكس لتيتم أولادنا.

– اخرس! قال له زوربا وفمه مليء بالطعام ولم يجرؤ أحدٌ بعد ذلك أن ينطق بكلمة.

«مَنْ ذا الذى خلق شيطان الشك ومعبد العجرفة وجرة الذنوب والحقل المنثور ببذور الخطيئة والكوارث وفم الجحيم والسلة التى تفيض دهاءً والسم الذى له طعم العسل والقيد الذى يربط البشر بالعالم والمرأة»

جلست متربعًا على الأرض بجوار الموقد، أكتب هذه الترنيمة البوذية وأعيد كتابتها. كنت أقاتل وأنا أعقد تعاويذَ فوق أخرى كى أطرد هذا الجسد المبلل من المطر بتموجاته وتضاريسه والذى يخطر على بالى فى هذه الليالى الشتوية الرطبة ويمر بإلحاح على ذهنى كأنه يأتى مع نسيم الليل. لا أدرى كيف وأثناء انهيار النفق، حيث واجهت خطر الموت فجأة، قفزت هذه الأرملة إلى دمائى وراحت تنادى على مثل وحش برى بعتاب وإلحاح.

«كانت تنادى؛ تعال، تعال، الحياة تمضى كالبرق، تعال بسرعة، تعال لتلحق بها قبل أن يفوت الأوان!»

كنت أعرف أنها مارا، روح الشر والمكر متجسدة فى جسد امرأة جذابة. كنت أكافح محاولاً صدها. جلست ورحت أكتب كلمة بوذا كما

كان ينقشها القدماء البدائيون بالحجر المدبب وبالألوان والوحوش الكاسرة الجائعة تحوم حولهم؛ كانوا يحاربونها أيضًا ويرسمونها على جدران وصخور كهوفهم حتى لا تهاجمهم وتلتهمهم.

منذ اليوم الذى تعرضت فيه لخطر الموت، كان طيف الأرملة يلوح ويمر على خلوتى وتشير إلى وتهز ردفيها؛ فى النهار كانت لدى القوة، كان ذهنى متيقظًا، فكنت أستطيع أن أقاوم وأطرد هذا الطيف ورحت أكتب كيف أن شيطان الخطيئة كان يأتى إلى بوذا فى هيئة امرأة مغرية، وكيف أنها كانت تلمس سيقان الناسك الراهب بنهديها الثريين. وعندما رأى بوذا الخطر شحذ كل قواه وطرد شيطان الغواية وكنت أكتب هذا وأطرد أنا أيضًا شيطان الغواية مع بوذا.

كنت أكتب وفى كل جملة أكتبها أشعر بارتياح وقوة، كنت أشعر أننى أطرد بالفعل ذلك الإغراء من أمامى بفضل التعويذة القوية، أى الكلمة. كنت أقاتل قدر استطاعتى وبكل شجاعة فى النهار؛ لكن فى الليل كان عقلى يستسلم ويتخلّى عن كل أسلحته، وتُفتح الأبواب الداخلية كلها لتدخل الأرملة.

كنت أستيقظ فى الصباح منهكًا مهزومًا، وتبدأ الحرب من جديد. كنت أستيقظ أحيانًا ما بعد العصر، أدرك نور النهار وهو يهرب مطاردًا، كان الظلام يهبط فجأة والأيام تزداد قصرًا وعيد القيامة يقترب وكنت أراقب تهادى الهواء الأبدى وأقول: «لست وحدى؛ هناك قوة كبرى، النور،

يحارب أيضًا وينتصر تارة ويُهزم تارة أخرى، وأحيانًا ييأس؛ لكنى سأنتصر معه!»

ما كان يمدنى بالشجاعة والصبر أننى كنت أتخيل نفسى فى إيقاع عالمى فى كفاحى مع الأرملة. وقد اتخذت هذا الجسد ورحت أتأمل هذه المادة الماكرة تؤمر فتطيع بهدوء ونعومة وتنطفئ فى داخلى جذوتها. كنت أقول: «إن الرب هو القوة المطلقة التى تحول الأشياء إلى أرواح؛ فكل إنسان بداخله يحمل شيئًا من هذه المحركات الإلهية، ولهذا لديه القدرة على تناول الخبز والماء واللحم ويحولها إلى تفكير ويحول التفكير إلى فعل وكان زوربا على حق عندما قال: قل لى ماذا تفعل بما تأكله لأخبرك من أنت!» كنت أقاوم الآن هذا الشوق الجسدى العاصف لأتناوله وأحوله إلى «بوذا».

– قال لى زوربا ذات ليلة: فيمَ تفكر؟ لا أراك على ما يرام يا سيدى، وكانت عشية عيد يوم الميلاد، وكان قد فهم مع أى شياطين أحارب.

تظاهرت أنى لا أسمعه؛ لكن زوربا لم يكن ليتركنى بهذه السهولة.

– قال: أنت شاب يا سيدى، ثم فجأة؛ علا صوته واتخذ نبرة فيها شىء من الغضب والمرارة؛ أنت شاب، قوى، تأكل وتشرب جيداً وتتنفس هواءً نقيًا، تستجمع كل القوة – وماذا تفعل بها؟ تنام وحيداً، يا للأسف لا تستغل هذه القوة! انهض، الآن، هذه الليلة، لا تُضع وقتًا، إن الحياة بسيطة والعالم بسيط، يا سيدى.... كم مرة يجب أن أقولها لك؟ لا تعقد الأمور!

كانت أمامي مخطوطة بوذا وأتصفحها وأنا أستمع لزوربا وأدركت أن هناك طريقًا كبيرًا وأكيدًا يفتح أمامي، وللمرة الثانية كان صوت مارا الماكرة المحتالة يناديني.

كنت أستمع له صامتًا متخذًا قراري ومصرًا على المقاومة وأقلب صفحات المخطوطة ببطء، ورحت أصفر لأخفي اضطرابي. لكن زوربا، كلما رآني صامتًا، ثارت أعصابه:

– الليلة عشية عيد الميلاد، اذهب بسرعة لتجدها، قبل أن تذهب إلى الكنيسة. المسيح يولد يا سيدي الليلة، قم أنت واصنع معجزتك!

نهضت غاضبًا:

– كفى يا زوربا، قلت؛ كل إنسان يختار طريقه ويعيش على هواه، تمامًا مثل الأشجار. هل تشاجرت يومًا مع شجرة تين لماذا لا تطرح كرزًا؟ اصمت إذن! الساعة تقترب من منتصف الليل، لنذهب إذن إلى الكنيسة لنرى ميلاد المسيح.

دس زوربا رأسه بعمق في قلنسوته الشتوية:

– حسنًا، قال متململاً، لنذهب. لكن لابد أن تعرف أن الرب سيكون أكثر رضىً وسعادة إذا ذهبت الليلة إلى الأرملة، مثل الملاك جبريل الذى إذا كان قد اتخذ طريق الرب لم يكن ليذهب أبدًا إلى مريم العذراء ولم يكن ليولد المسيح أبدًا. إذا سألتني ما هو طريق الرب، سأقول لك إنه الطريق الذى يؤدى إلى مريم؛ الأرملة.

صمت لينتظر جوابي دون جدوى؛ فتح الباب بقوة، خرج وضرب بعصاه الحصى.

– نعم، نعم، مريم العذراء هي الأرملة، قالها وراح يرددها بإصرار.

رحنا نسير بسرعة في الليلة الشتوية، كانت السماء صافية، والنجوم كبيرة مما يزيد بريقها ويجعلها تبدو قريبة من الأرض، كأنها كرات ضوء معلقة. بدت الليلة ونحن نسير على الشاطئ مثل وحش مقتول على شاطئ البحر.

«رحت أتأمل واعتباراً من هذه الليلة والنور الذي قد حاصره الشتاء، بدأ ينتصر عليه وكأنه يولد الليلة مع الوليد الرباني.»

تجمع الناس بكثافة داخل الكنيسة الدافئة وكانت تفوح منها رائحة عطرة؛ في الأمام الرجال وفي الخلف النساء. القس ستيفانوس، طويل نحيل وخارجٌ من صيام أربعين يومًا ومرتديًا حلته الكنسية المذهبة وكان يهرول في كل مكان مؤرجحًا مبخرته ويصيح ويتعجل أن يرى المسيح وهو يولد ليذهب إلى بيته كي يلقي بنفسه في طبق حساء دسم ويلتهم النقانق واللحم الشهي...

إذا قالوا: «اليوم يولد النور» لم يكن قلب الإنسان ليشتاق ولم تكن لتولد الأسطورة أو الفكرة التي كانت ستحتوي العالم؛ كان اليوم سيبقى مثل أعجوبة من عجائب الطبيعة، لم تكن لتفجر الخيال، أو الروح ولكن النور الذي يولد في قلوبنا في الشتاء يصبح طفلاً، والطفل يصبح إلهًا، وعشرون قرنًا الآن والروح تحفظه في صدرها وترضعه...

قليلاً بعد منتصف الليل انتهت المراسم؛ ولد المسيح، وهرول القرويون جائعين وسعداء نحو بيوتهم وكى يأكلوا حتى أعمق ما فى بطونهم بالسر الإلهى المقدس فى الخلق والمعدة هى أساس قوى؛ الخبز والنبيذ واللحم أولاً؛ وبدونها ولا يمكن أن يولد إله.

كانت النجوم تبرق فى السماء كالملائكة، ونهر الأردن يتدفق بين جنبى السماء ونجمة خضراء تدق الأجراس فوقنا كزمردة. تنهدت.

التفت زوربا:

– أحقًا تصدق يا سيدى أن الرب أصبح إنسانًا وأنه ولد داخل إسطبل أتصدقِ هراء الناس هذا؟

– من الصعب أن أعطيك إجابة يا زوربا؛ فأنا أصدق ولا أصدق. وأنت؟

– أقسم لك أننى تائه. ماذا أقول لك: عندما كنت صبيًا، وحكت لى جدتى هذه الأسطورة لم أصدقها؛ لكننى كنت أرتعش من فرط التشويق، كنت أضحك وأبكى، كأننى صدقتها. لكن عندما كبرت ونبتت لحيتى، أيقنت أنها أساطير تركتها ورحت أسخر منها، لكن الآن وفى كهولتى لابد أننى قد جننت يا سيدى، بدأت فى تصديق هذه الأساطير ثانية... كم أن الإنسان غامض!

كنا قد أخذنا طريقنا نحو بيت مدام أورتانس، كنا نهرول مثل الخيل الجائعة.

– قال زوربا: كم هم خبثاء القديسون! إنهم يصلون إليك من خلال بطنك، فهل تستطيع المقاومة؟ هل تستطيع ألا تأكل اللحم لمدة أربعين يومًا، صيام؛ لماذا؟ كى تشتاق إلى اللحم! إيه، الكهنة السمان يعرفون كل الحيل والألاعيب!

زادت خطواتنا سرعة:

– قال زوربا: أسرع يا سيدى، فالديك الرومى سيكون شهيًا جدًا!

عندما دخلنا فى حجرة السيدة ذات الفراش المزدوج، كانت المائدة معدة ومفروشة بالأبيض، والديك الرومى مقلوبًا تتصاعد منه الأبخرة وقدماه مفتوحتين والموقد لا يزال مشتعلاً يصدر الدفء العذب.

كانت مدام أورتانس قد صففت شعرها على شكل خصل وارتدت ثوبًا طويلاً ذا أكمام طويلة بلون وردى تهرأ وانسلت شرائط الدانتيل منه بحكم الزمن؛ ووضعت عليه وشاحًا أصفر كلون الكنارى وتحلت بشريط حول رقبتها كان يضغط على عنقها المجعد؛ ورشت إبطيها بماء الورد.

«رحت أتأمل مخاطبًا نفسى، كيف أن كل الأشياء متناغمة فى هذا الكون؟ وكيف أن الكون كله يتوافق مع هوى الإنسان! فها هى تلك المغنية العجوز التى عاشت حياة حافلة؛ تعيش الآن فى هذه الغرفة على هذا الشاطئ المهجور وتجمع فيها كل دفء ونظام ونظافة وأنوثة المرأة».

الطعام الوفير المعد بعناية على المائدة، الموقد المشتعل، الجسد المتزين التى تفوح منه رائحة ماء الورد، كيف أن كل هذه المتع الإنسانية والحسية البسيطة تتحول بهذه السرعة والبساطة إلى بهجة روحية عظيمة!

لوهلة اغرورقت عيناى عندما اعترانى حزن ما بأننى لست متزوجًا فى هذه الليلة العظيمة، على شاطئ هذا البحر البعيد، لكن هذه المرأة المفعمة بالرقة والصبر تحتوينى بكل هذا الحنان والعطف والعناية كأم وأخت وزوجة. وأنا الذى كنت أظن أننى لا أحتاج إلى مثل هذه الأشياء ولا إلى أى شىء، شعرت فجأة أننى فى حاجة إلى كل شىء.

يبدو أن زوربا شعر بهذا الشعور الدافئ أيضًا لأنه فور أن دخلنا هرع إلى العجوز المتزينة وعصرها فى أحضانه.

- المسيح يولد! صاح؛ تحياتى إلى جنس الأنثى!

التفت إلى متبسمًا:

- أرأيت يا سيدى كيف أن المرأة كائن مكار ومخادع؛ فهى تستطيع أن تربط الرب نفسه على خصرها.

جلسنا إلى المائدة، ارتمينا على الطعام والنبيذ ملتهمين، شبعت البطن، ودب النشاط فى القلب. واشتعل زوربا:

- وراح يصيح، كل واشرب، كل واشرب يا سيدى، ليعلو مزاجك، غنِّ معنا كالرعاة: «المجد للرب فى السماء!....» ولد المسيح ليس هذا هراء؛ غنِّ أغنيتك ليسمعك الرب ويبتهج بعباده؛ فكفاه ذنوبنا ومراراتنا!

استعاد زوربا مزاجه العالى ولم يكن ليوقفه شىء.

– ولد المسيح يا سليمان الحكيم، أيها المثقف الهمام! لا تنبش فى الأمور كثيراً: هل ولد أم لم يولد؟ ولد يا صاح، لا تكن أحمقَ! إذا أمسكت بمصباحٍ لترى الماء الذى نشربه، كما قال لى مهندس ذات يوم، سترى كما يقول: إن الماء ملىء بالديدان الصغيرة جداً والتى لا تظهر بالعين المجردة. سترى الديدان ولن تشرب. لن تشرب وستموت من العطش. حطم المصباح يا سيدى، حطمه هذا اللعين كى تختفى الديدان فوراً وتشرب الماء وتروى عطشك!

التفت نحو رفيقتنا المبهرجة وقال، اللعنة، ارفعى كأسك:

– فأنا يا سيدتى العذراء يا رفيقة النضال سأشرب هذا الكأس فى صحتك! قد رأيت فى حياتى الكثير من أشكال حوريات البحر المثبتات على مقدمة السفينة يمسكن أثداءهن وشفاههن وخدودهن مطلية بالأحمر. طفن فى كل البحور وهبطن فى كل الموانئ، وعندما ينتهى عمر السفينة، يتركن البحر ويقطن اليابس ويقضين باقى أعمارهن حتى النهاية معلقات على الحائط فى أحد مطاعم السمك حيث يذهب القباطنة ليتسامروا.

يا سيدة البحار والقباطنة، الليلة أراك فى هذا الشاطئ حيث أكلت وشربت وفتحت بصيرتى وتبدين لى كشكل من تلك الأشكال المعلقة فى مقدمة إحدى السفن الكبيرة. وأنا ميناؤك الحنون وأنا حانتك حيث

يأتى القباطنة ليشربوا؛ تعالى، اتكئى على كتفى وارفعى أشرعتك! أشرب كأسى هذا المملوءة فى صحتك يا حوريتى!

انهالت دموع مدام أورتانس من شدة التأثر ووضعت رأسها على كتف زوربا.

– همس زوربا فى أذنى، سترى، بهذه الكلمات الرقيقة سأضع نفسى فى مشاكل؛ لن تتركنى هذه العاهرة أغادر الليلة. لكن ماذا أفعل فأنا أشعر بالأسى من أجل هذه المخلوقات المسكينة، أشعر بالأسى!

شبك زوربا ذراعه مع ذراع المدام وشربا جرعة واحدة وهما متعانقان، ونظر كل منهما إلى الآخر بمعنى يفيد الافتتان.

كان الوقت قد اقترب من الفجر عندما رحلت وحيداً من الحجرة الدافئة وأخذت طريق العودة وكانت القرية قد أكلت وشربت جيداً وأغلقت البيوت أبوابها ونوافذها تحت سماء الشتاء الثقيلة ونجومها.

كان البرد قارساً والبحر هادراً، ونجمة أفروديتى تعلقت فى شرق السماء متألقة متلألئة وراقصة وكنت أمشى بجوار الشاطئ، ألعب مع الأمواج التى كانت تهجم لتبللنى فكنت أهرب منها، كنت سعيداً أقول: «هذه هى السعادة الحقيقية؛ إن السعادة الحقيقية هى ألاّ يكون لك أى طموح ولا عمل ولا لهاث خلف العمل، إنه يشبه تماماً كما لو كان لديك كل طموح الحياة؛ أن تعيش بعيداً عن الناس وتحبهم دون أن تحتاج إليهم. أن تكون فى يوم الميلاد، أن تأكل وتشرب جيداً ثم تخرج وحيداً

بعيداً عن كل الفخاخ، وتكون النجوم فوقك، على يسارك الأرض وعلى يمينك البحر وأن تدرك فجأة في أعماق قلبك أن الحياة أنهت آخر معجزاتها وأضحت أسطورة».

الأيام تأتى وتمضى، وأنا أكافح كى أتحلى بالشجاعة، كنت ألهو؛ لكن فى أعماق جدران قلبى كنت حزينًا. فى أسبوع الأعياد هذا استيقظت فى داخلى الذكريات وامتلأت أحشائى موسيقى ووحشة للأحباء. كنت أشعر أيضًا كم هى صحيحة تلك الأسطورة القديمة التى تقول بأن قلب الإنسان ماهو إلا حفرة مملوءة بدمائنا ويسقط فيها الأحباء الأموات على وجوههم يشربون دماءنا كى يعودوا إلى الحياة؛ وكلما زادت محبتهم شربوا دمًا أكثر.

عشية رأس السنة. مجموعة من أطفال القرية يحملون مركبًا ورقيًا جاءوا حتى باب الكوخ ينشدون ترانيم رأس السنة بأصواتهم المرحة،

جاءنا بابا نويل من مكانه البعيد

بحديثه الطيب وهداياه الجميلة

وكأنه وصل إلى هذه القرية على شاطئ كريت يحيينا أنا وزوربا.

رحت أستمع إلى الأغانى ولا أتكلم وكنت أشعر أن سنة أخرى تسقط من شجرة العمر، وأن قلبى يخطو خطوة أخرى نحو القبر المظلم.

– ماذا بك يا سيدى؟ سألنى زوربا الذى راح يغنى مع الأطفال وأخذ الطبلة منهم وراح يقرعها؛ ماذا بك يا بنىّ؟ تبدو شاحبًا وكأنك شخت يا سيدى. أنا فى ليلة كهذه أشعر أننى عدت طفلاً صغيراً؛ أولد من جديد مثل المسيح. كيف يولد هو كل عام؟ هكذا أنا تماماً.

تمددت على الفراش وأغمضت عينى؛ كان قلبى مقبوضًا ومزاجى سيئًا للغاية ولم تكن عندى رغبة فى الحديث.

لم أستطع النوم، وكأن الليلة كانت ليلة الاعتراف بكل ذنوبى، وحياتى كلها ظهرت أمامى بسرعة، مرتبكة مهتزة مثل حلم، ورحت أتأملها يائسًا عابسًا.

ومثل سحابة رقيقة راحت والزوابع تنفضها فى السماء وكانت حياتى تغير شكلها وتتلملم وتنفصل وتعيد تجمعها ثم يتغير شكلها ويأخذ أشكالاً عديدة – بجعة وكلبًا ووحشًا وعقربًا وطاووسًا ذهبيًا وقرداً، وكل هذا والزوابع مستمرة تعصف بالسحابة فى أرجاء السماء الممتلئة بالعواصف وبأقواس قزح.

كل الأسئلة التى طرحتها لحياتى لم تبق فقط بلا إجابة بل ازدادت تعقيداً ووحشية. وانهارت كل آمالى أمامى بهدوء وسكينة...

طلع النهار. لم أفتح عينىّ، كنت أحاول جاهداً أن أستجمع شوقى، أن أعبر من خلال غلاف عقلى لأمر فى داخل القناة السوداء الوعرة التى تجمع كل قطرة إنسان بالمحيط العظيم وكنت على عجلة فى أن أمزق هذا الحجاب كى أرى ما سيجلبه لى هذا العام الجديد...

– صباح الخير يا سيدى، كل عام وأنت بخير!

صوت زوربا أطاح بى فجأة على الأرض. فتحت عينىّ ورأيت زوربا يكسر ثمرة رمان كبيرة على عتبة الكوخ فانطلقت حباتها اللامعة حتى الفراش وجمعت بعض هذه الحبات وأكلتها، فترطب حلقى.

– كل الأمانى الطيبة بالصحة واليسر يا سيدى، وبنات ملاح علهن يسرقن قلوبنا! قال زوربا مرحاً وبمزاج رائق.

تحمم وحلق ذقنه وارتدى أفضل ما عنده؛ بنطالاً من الصوف الأخضر وسترة رمادية محلية الصنع وألقى فوقها سترة مبطنة بجلد الماعز؛ وارتدى قبعة روسية وبرم شاربيه:

– سأذهب أنا إلى الكنيسة يا سيدى وسأحضر نائبًا عن الشركة. حتى لا يظنوا أننا من الماسونيين. ليس لدى ما أخسره، سأتسلى وسيمر الوقت.

التفت وغمز لى بعينه.

- ربما أمر على الأرملة، تمتم بعد ذلك.

الرب، سفير الشركة والأرملة يجتمعون بانسجام فى عقل زوربا؛ سمعت صوت خطواته الخفيفة وهو يغادر؛ قفزت من مكانى، فقد تلاشى السحر وعادت روحى إلى سجنها فى الجسد.

ارتديت ملابسى، رحت أتمشى على الشاطئ بسرعة، وكنت سعيداً، كما لو أننى كنت قد نجوت من خطر أو من ذنب عظيم؛ بدا لى أنه شىء من الدنس فى هذا الصباح أن أحاول أن أرى أو أن أتنبأ بما سيحدث فى المستقبل.

أذكر ذات صباح ورأيت شرنقة فراشة على غصن شجرة وفى اللحظة التى كانت تشق فيها شرنقتها كى تخرج إلى العالم. انتظرت طويلاً هذه الروح حتى تخرج ولكنها تأخرت وكنت على عجلة من أمرى؛ انحنيت فوقها ورحت أدفئها بأنفاسى. كنت أفعل ذلك غير صابرٍ، وبدأت المعجزة تحدث أمام عينى بشكل سريع وليس بشكل طبيعى؛ فتحت الشرنقة كلها، والفراشة خرجت. لكن لن أنسى أبداً مدى خوفى ورعبى: ظلت أجنحتها ملتوية ومنطوية وكان كل جسدها يرتعش وكانت تحاول أن تفرد جناحيها لكنها لم تستطع؛ حاولت أنا بدورى أن أساعدها بأنفاسى ثانية، وكانت المسكينة بحاجة إلى نضوج بطئ وخروج من شرنقتها تحت حرارة شمس دافئة ولكن فات الوقت لهذا؛ كانت أنفاسى قد دفعت الفراشة أن تخرج للحياة قبل موعدها وضعيفة فقد ولدت قبل أوانها.

خرجت إلى الحياة ضعيفة، حاولت جاهدة وباستماتة أن تبقى على قيد الحياة لكنها بعد قليل ماتت فى راحة كفّي.

هذا الجسد الرقيق للفراشة الميتة أظن أنه أثقل شىء أحمله فى قلبى وضميرى. واليوم فهمت بعمق: أنه ذنب مميت أن تخرق قوانين الطبيعة؛ فالمرء مجبر أن يتبع إيقاع الطبيعة بثقة وإيمان.

تقوقعت على صخرة حتى أستوعب أول تأمل فى أول يوم من هذا العام. قلت لنفسى، آه لو أستطيع أن أرتب حياتى فى هذا العام بدون تعجل هيستيرى! هذه الفراشة التى قتلتها عجلتى فى بعثها للحياة، لو كانت حية لكانت أشارت إلى نحو الطريق! وهكذا فإن فراشة ماتت قبل ساعتها وكان يمكن أن تساعد شقيقتها وأن ترشد روحًا إنسانية كى لا تتعجل مولدها، وتتأنى الخروج من شرنقتها؛ منسجمة مع إيقاع الطبيعة.

استيقظت من نومي سعيداً وكأنني تلقيت هدية العام الجديد. هواء بارد وسماء صافية وبحر يتلألأ.

أخذت الطريق نحو القرية؛ لابد أن القداس قد انتهى وكنت أسير وقلبي يدق بسرعة من سيكون أول إنسان أقابله في هذا العام؛ من سيفتتح عالم روحي. هل سيكون طفلاً، تساءلت، يمسك بلعبة في يديه أم عجوزًا نشيطًا يرتدي قميصًا أبيضَ بكمّين واسعين سعيداً أنه أدى واجباته على الأرض! كلما اقتربت من القرية زاد اضطرابي.

وفجأة تثاقلت ركبتاي؛ من أحد شوارع القرية، تحت أشجار الزيتون ولمحتها تسير متمايلة متوهجة متشحة بوشاحها الأسود متألقة، ظهرت الأرملة.

كانت تسير متهادية كنمرة سوداء، وبدا لي أنها تنثر رائحة مسك لاذع في الهواء. فكرت في الهروب لكن تهيأ لي أن هذا الوحش الكاسر الغاضب لن يبدي أي رحمة إذا ما تملك، والنصر الوحيد في هذه الحالة هو الهروب. لكن كيف أهرب؟ كانت الأرملة تقترب؛ صوت الحجارة تحت أقدامها يعلو كما لو يمر عليها جيش؛ هزت رأسها فانزلق وشاحها

وظهر شعرها الأسود اللامع. لمحتنى بطرف عينها وابتسمت؛ كان فى عينيها دفء متوحش، وبسرعة ربطت الوشاح ثانية على رأسها، وكأن الخجل أصابها بعد أن بدا لى سر من أعمق أسرار المرأة؛ شعرها.

حاولت أن أحييها وأن ألقى التهانى بالعام الجديد ولكن حلقى تحشرج، مثل ذلك اليوم الذى انهار فيه النفق وتعرضت للموت. القصب فى حديقتها كان يتمايل مع الريح وشمس الشتاء سقطت على أشجار الليمون والبرتقال ذات الأوراق الداكنة فكان كل البستان يتلألأ مثل جنة صغيرة.

توقفت الأرملة، مدت يدها لتدفع باب حديقتها، فتحت الباب. فى هذه اللحظة كنت أمر من أمامها؛ التفتت ورفعت حاجبيها ورمقتنى بنظرة.

تركت الباب مفتوحًا ورحت أشاهدها وهى تختفى وردفاها يتحركان يمينًا ويسارًا خلف أشجار البرتقال.

أخطو فوق عتبتها وأوصد الأبواب وأجرى نحوها أشدها من خصرها ودون أن نقول كلمة واحدة نسقط فى الفراش - هذا ما يعنيه فى أن تكون رجلاً! هذا ما كان سيفعله جدى، وأتمنى أن يفعل ذلك حفيدى؛ لكننى تسمرت أمام الباب ورحت أتأمل....

- فى حياة أخرى سأتصرف على نحو آخر، ربما، دمدمت بابتسامة مريرة!

هبطت نحو الوادى الضيق الأخضر، وشعرت بثقل على قلبى، كمن ارتكب إثمًا مميتًا. رحت أدور سيرًا هنا وهناك وكنت أرتعش من البرد الشديد، ورحت أطرد من مخيلتى تهادى الأرملة وابتسامتها ونظرة عينيها ورسمة صدرها ولكنها كانت تأبى أن تتركنى كما لو كنت أجرى وهى تلاحقنى.

الأشجار لم تورق بعد، لكن براعمها كانت منتفخة؛ بشكل يجعلك تشعر أنها حبلى ممتلئة بالحياة، جاهزة أن تنطلق نحو النور، وتنجب أزهارًا وأوراقًا وثمارًا معسولة، وخلف كل الأوراق الجافة، ينسج الربيع خفية معجزاته الكبيرة.

وفجأة سمعت صوتًا مرحًا أمامى؛ شجرة لوز شجاعة قد أثمرت قبل كل الأشجار وتبشر بالربيع.

زالت الكآبة من على قلبى وهذا ما كنت أريده وتنفست بعمق عبقها اللاذع، انحرفت عن طريقى واستلقيت تحت فروعها المزهرة.

مر وقت طويل دون أن أتأمل شيئًا، بلا أى هموم، كنت سعيدًا. وكأنى أعيش روح الأبدية تحت إحدى أشجار الجنة.

فجأة صوت وحشى زعق فطردنى خارج الجنة.

-لماذا تختبئ فى الخندق يا سيدى. بحثت عنك فى كل مكان؛ لقد انتصف النهار؛ هيا بنا!

– إلى أين؟

– إلى أين؟ هل تسألنى؟ إلى حضرة الخنزير المشوى، ألا تشعر بالجوع؟ لقد خرج لتوه من الفرن ورائحته تثير اللعاب والشهية؛ هيا بنا، أسرع.

قمت وأنا أداعب جذع شجرة اللوز العجيبة التى استطاعت أن تنبت هذه المعجزة وكان زوربا يسير أمامى مسرعًا ممتلئًا حيوية وطاقة وجوعًا ومزاجًا رائقًا؛ الاحتياجات الأساسية للإنسان – طعام وشراب ونساء ورقص – كان يمسك فى يده شيئًا ملفوفًا فى ورقة وردية اللون معقودة بشريط ذهبى.

– سألته، أهذه هدية؟

ضحك زوربا فى محاولة منه أن يخفى تأثره.

– نعم، كى ندخل قليلاً من السعادة على قلب تلك المسكينة! قال دون أن يلتفت نحوى. كى تتذكر أيامها الخوالى.... امرأة هى، وكما قلنا هن كثيرات الشكوى.

– صورة؟ أتهدى لها صورتك يارجل؟

سترى... سترى، لا تتعجل الأمور؛ إنه شىء صنعته بيدى. هيا أسرع.

شمس الظهيرة الدافئة هى من الأشياء التى تنعش عظام المرء. كان البحر أيضًا يتشمس سعيدًا. على مبعدة من الشاطئ كانت هناك جزيرة جافة مهجورة يغطيها الصقيع وبدت كأنها تطفو على سطح البحر سابحة.

وصلنا إلى القرية؛ جاء زوربا إلى جوارى وكان صوته يبتسم:

– أتدرى يا سيدى، لقد رأيتها فى الكنيسة. كنت أقف فى المقدمة أمام المنشد؛ وفى لحظة رأيت المعبد يضىء؛ انعكس نور المسيح والعذراء الحواريين الاثنا عشر... «قلت ما هذا؟ ورسمت شارة الصليب على صدرى؛ أهى الشمس؟» لكنها كانت الأرملة.

– دعك من الهراء يا زوربا، كفى قلت لك! قلت وأنا أحث الخطى.

لكن زوربا جرى خلفى:

– رأيتها على مقربة يا سيدى؛ لديها شامة على خدها تخطف العقل. ماهو سر الشامات على خد المرأة!

جحظت عيناه من الدهشة.

– ترى يا سيدى الجلد ناعمًا مشدودا وفجأة بقعة سوداء. لكنها، تخلب لب الرجل! أتفهم أنت لماذا يا سيدى؟ ماذا تقول الكتب؟

– تقول الكتب دعك من الهراء يا زوربا!

ضحك زوربا فرحًا.

- هكذا يا سيدى؛ لقد بدأت تفهمنى.

عبرنا من أمام المقهى بسرعة دون أن نتوقف. فقد كانت السيدة أورتانس قد طبخت لنا خنزيراً فى الفرن وتنتظرنا واقفة على عتبة دارها.

كان الوشاح الأصفر كنارى اللون ما زال يطوق عنقها، وقد وضعت على وجهها طبقات من البودرة ولونًا أحمر قرمزيًا على شفتيها فبدت مرعبة بعض الشيء. اهتز جسدها كله فور أن رأتنا وفرحت وراحت عيناها تتراقصان بدلال وهما تنظران إلى شاربى زوربا المفتولين. وهو بدوره ما إن أغلق الباب حتى طوقها من خصرها.

- كل عام وأنت بخير يا بوبولينتى، قال؛ انظرى ماذا أحضرت لك!

وقبلها خلف رقبتها المجعدة.

أحست الحورية العجوز بقشعريرة لكن عينيها لم تتحركا عن الهدية؛ خطفتها من يد زوربا وحلت الشريط الذهبى وما إن رأتها حتى انطلق صوتها يصيح من البهجة.

انحنيت كى أرى: فقد رسم هذا المحتال على قطعة سميكة من الورق المقوى بأربعة ألوان مختلفة - أصفر ورمادى وأسود وذهبى - أربعة سفن حربية تبحر فى بحر وردى وأمامهم رسم مدام أورتانس بيضاء عارية مسدلة الشعر وثدياها فى الهواء على شكل حورية بحر

ووشاح أصفر حول عنقها وكانت تمسك بأربعة خيوط تجر بها السفن الحربية الأربع التى ترفع أعلام الأربع دول إنجلترا وروسيا وفرنسا وإيطاليا. وفى كل ركن من اللوحة كانت تتدلى أربع لحى بألوان أربعة: الأشقر والأحمر والرمادى والأسود.

فهمت الغانية العجوز على الفور مغزى اللوحة.

- قالت وهى تشير إلى حرية البحر بفخر، هذه أنا! ثم تنهدت

- آخ، آخ، كنت قوة خارقة ذات يوم...

نزعت من فوق الفراش مرآة مستديرة بجوار قفص الببغاء وعلقت مكانها لوحة زوربا وتحت كم الطلاء والبودرة بدا وجهها شاحباً.

كان زوربا قد دخل إلى المطبخ فى هذه اللحظة، كان جائعًا؛ خرج وصينية الخنزير فى يديه، وضع أمامه قنينة من النبيذ وملأ الثلاث كؤوس.

- هيا، اقتربوا! صاح وهو يصفق. لنبدأ بالبطن؛ ثم يا بوبولينتى نذهب إلى ما يلى!

لكن الهواء قد شحب من تنهيداتها. ففى كل عام فى مثل هذا اليوم تصاب بحالة من الحزن، وتذهب وتزن عمرها الضائع وفى رأس هذه المرأة الفارغ، مغامرات ورجال، والملابس الحريرية والشمبانيا واللحى المعطرة، كل هذا يبعث من جديد فى مثل هذه الأيام من داخلها وتصرخ الذكريات.

– دمدمت بدلال: ليس لدى شهية، لن آكل....

جثت أمام الموقد وراحت تقلب الفحم وكان انعكاس النار يضيء خديها المتهدلين وخصلة من شعرها تعلقت ولست النار؛ ففاحت فى الغرفة رائحة عفنة من حريق شعرة من تلك الخصلة.

– لن آكل... لن آكل... دمدمت ثانية، عندما رأتنا لا نعيرها اهتماماً.

شدّ زوربا قبضته دليلاً على نفاذ صبره؛ بدا متردداً للحظة. كان من الممكن أن يتركها تدمدم ونواصل نحن أكلنا وشرابنا؛ كان يمكن أيضاً أن يجثو على ركبتيه أمامها، ويحيطها بين ذراعيه، وبكلمة رقيقة سيجعلها ترق. كنت أراقب تناقض تعابير وجهه تروح وتجيء بين الشيء ونقيضه.

وفجأة توقف وجه زوربا على تعبير واحد بعد أن اتخذ قراراً. جثا على ركبتيه وأمسك بركبة الحورية:

– إذا لم تأكلي يا بوبولينا قال لها بصوت متأثر، سيضيع العالم كله. ألا يحزنك ضياع العالم يا سيدتى إذا لم تأكلى قدم هذا الخنزير!

ووضع قدم خنزير مغموس فى الزبد فى فمها.

أخذها بين أحضانه وحملها ووضعها على المقعد بيننا.

- كلي، قال حتى يدخل بابا نويل فى قريتنا! فإذا لم تأكلى لن يدخل. سيعود إلى موطنه، وسيأخذ هداياه معه، ولن يترك شيئًا حتى كعكة عيد الميلاد وألعاب الأطفال الصغار وسيرحل. افتحى إذن فمك يا بوبولينتى، وكلى!

ثم مد يده وداعبها تحت إبطها. فراحت العجوز فى قهقهة عميقة ثم مسحت عينيها الحمراوين وعادت مرة أخرى لطبيعتها وراحت تأكل وتمضغ بتلذذ قدم الخنزير المشوية...

فى هذه اللحظة سمعنا صوت قطتين تموءان فى حالة عشق على السطح فوق رؤوسنا، ثم راحتا تصيحان بنهم وشبق، كان صوتهما يعلو ويهبط بضجيج عالٍ ثم سمعناهما تتدحرجان على السطح وبدأتا تتقاتلان.

- مياو مياو.... قال زوربا وهو يغمز بعينه للعجوز.

فتبسمت هى وقبضت على يديه تحت المائدة. زالت حشرجة حلقها وراحت تأكل بشهية مفتوحة بعد أن اعتدل مزاجها.

تحركت الشمس ودخلت أشعتها من النافذة وجلس زوربا تحت قدمى بوبولينا وفرغت قنينة النبيذ واقترب زوربا بشوارب قط وحشى نحو الأنثى، ومدام أورتانس متقوقعة ورأسها فى كتفيها وشعرت بقشعريرة عندما أحست بأنفاسه الدافئة المشبعة بالنبيذ.

– أى لغز هذا يا سيدى؟ التفت نحوى زوربا قائلاً: كل الأشياء تأتى عكس ما أريد. عندما كنت طفلاً كانوا يقولون لى أنى أشبه الرجل العجوز؛ أتحدث قليلاً ومزاجى ثقيل وصوتى خشن؛ كنت أشبه جدى على حد قولهم! عندما بلغت العشرين رحت أتصرف بجنون الشباب ولكن ليس بالقدر الكافى؛ عندما بلغت الأربعين شعرت أنى ممتلئ حيوية وشباباً وبدأت مغامراتى المجنونة.

الآن بعد أن تخطيت الستين – فأنا فى السادسة والستين من عمرى يا سيدى – لكن هذا سر بيننا – بعد أن بلغت هذا العمر أقسم لك يا سيدى أن العالم لا يسعنى!

رفع كأسه والتفت بإيماءة نحو سيدته:

– فى صحتك يا سيدتى النبيلة، قال بشكل رسمى؛ عل الرب يعطيك فى العام الجديد أسناناً وحواجبَ وجلدا ناعماً مرمرياً وتتخلصين من أوشحتك الحمقاء القديمة التى تلفين بها عنقك! وتندلع الثورة مرة أخرى فى كريت وتعود مرة أخرى القوى الأربع العظمى يا بوبولينتى بأساطيلها الضخمة، ولكل أسطول منها قبطان وكل قبطان بلحية مصففة ومعطرة. وتنطلقين يا حوريتى وتقفزين فوق الأمواج – آه ضعنا وضاعت أغنيتنا! – عل الأساطيل تتحطم فوق الصخور.

قال زوربا هذا، ووضع يديه الكبيرتين على ثديى المدام المترهلين.

لقد اشتعل زوربا ثانية واستعاد حيويته، تحشرج صوته من الشوق. ذات مرة شاهدت فى السينما أحد الباشوات الأتراك يلهو فى إحدى حانات باريس وكان يضع يده على ركبة إحدى الشقراوات؛ واشتعل الباشا، وكلما زاد اهتياجه كنت ترى خصلة طربوشه ترتفع وتتصلب فى البداية بشكل أفقى ثم بعد ذلك تقف وحدها فى الهواء.

– سألنى زوربا: لماذا تضحك يا سيدى؟

لكن المدام كان ذهنها شارداً فيما قاله زوربا.

–هل تظن هذا يا زوربا؟ إن الشباب لا يعود مجدداً!

اقترب زوربا منها حتى التصق الكرسيان.

– اسمعى ما أقوله لك يا بوبولينا، قال، محاولاً أن يفك الزر الثالث والأهم من قميصها، ما سأقوله لك هو هدية كبيرة: جاء طبيب جديد يصنع المعجزات ويعطيك قطرات من دواء، أو ربما مسحوق ما لست متأكداً، وتعودين صبية فى العشرين. اهدئى أنت يا سيدتى وسأطلب لك هذا الدواء من أوربا...

قفزت الحورية وتوقف شعر رأسها الخفيف اللامع الأحمر وشعر جسدها كله.

– صحيح هذا يا زوربا؟ صاحت، أصحيح هذا؟

ألقت بذراعيها الغليظين حول عنق زوربا وقالت وهى تتمسح فى جسده:

– إذا كان الأمر ممكنًا يا زوربا لو كانت على شكل قطرات أما إذا كانت مسحوقًا....

– كيسًا كبيرًا كاملاً من أجلك! قال زوربا وكان قد انتهى من فتح الزر الثالث.

القطتان اللتان صمتتا للحظة عن ممارسة العشق العنيف، بدأتا فى الصياح مرة أخرى؛ الصوت الأول كان ينوح ويتوسل، أما الثانى فكان يرفض ويهدد....

تثاءبت السيدة وانتفخت عيناها.

– هل تسمعين القطط؟ ألا تستحى؟ دمدم زوربا وهو يجلس على ركبتيه.

مالت برقبتها وتنهدت؛ فقد شربت كثيرًا من النبيذ، أكثر مما تحتمل حتى اغرورقت عيناها.

– فيمَ تفكرين يا بوبولينتى واغرورقت عيناك هكذا؟

– أفكر فى الأسكندرية... دمدمت الحورية الرحالة وهى تنوح على الأسكندرية؛ الأسكندرية... بيروت... إسطنبول... أتراك وعرب، شراب الفواكه، الأحذية الذهبية والطرابيش....

تنهدت مجدداً.

– عندما قضى معى على بك تلك الليلة، يا لروعة شاربيه وحاجبيه وذراعيه! – كان ينادى عازف المزمار والطبال ويرمى لهم بالنقود من النافذة حتى يظلوا يعزفون حتى الصباح وكانت الجارات يغرن كثيراً ويثرثرن: «إن على بك يقضى الليلة مع تلك السيدة...».

– ثم بعد ذلك فى إسطنبول، سليمان باشا لم يكن يتركنى فى أى يوم جمعة حتى لا يرانى السلطان وهو فى طريقه إلى الجامع ويجن من جمالى فيضمنى إلى حريمه... وكان عندما يخرج من بيتى كان يترك ثلاثة حراس من الأعراب يحرسوننى، حتى لا يقترب أى رجل منى... آه يا سليمانى!

أخذت منديلها وراحت تعضه وتصرخ كسلحفاة مائية.

تركها زوربا على الكرسى المجاور متذمرا؛ وراح يسير هنا وهناك، لقد اشتاط غضباً، لم تعد الحجرة تسعه وأخذ عصاه وخرج إلى الفناء، أسندها مقلوبة على الحائط وراح يصعد السلم بسرعة.

– من ستضرب يا زوربا: صحت؛ هل أنت ذاهب لتضرب سليمان باشا؟

– اللعنة على هذه القطط؛ لا تتركنى أبداً هادئًا!

وبقفزة واحدة كان فوق السطح.

كانت مدام أورتانس ثملة وشعثاء الشعر أغمضت عينيها الملتهبتين، فقد غلبها النوم وذهبت إلى المدن الكبيرة فى الشرق وإلى الحدائق المغلقة

وفى الحرملك المظلم، إلى عشاقها من الباشوات. ثم بعدها عبرت البحر وراحت تحلم بأنها تصيد، حيث رأت أنها كانت تصطاد السمك وقد ألقت أربع صنارات واصطادت أربع سفن حربية عملاقة...

فى نومها الهادئ وانتعاشها من البحر فى رحلة الصيد هذه كانت الحرية تبتسم فى نومها.

دخل زوربا يهز عصاه.

– نامت؟ قال وهو يرى المدام نائمة؛ نامت الخنزيرة؟

– نعم، أجبته، لقد أخذها الدكتور فورنوف الذى يعيد الشباب للعجائز يا زوربا باشا، هذه النائمة هى الآن بنت عشرين عامًا وتتمشى فى شوارع الإسكندرية وبيروت....

– عليها اللعنة، عجوز عفنة! قال وهو يبصق على الأرض؛ ثم قال: انظر كيف تبتسم! هيا نذهب من هنا يا سيدى!

وضع قبعته ثم فتح الباب.

– هل نغادر هكذا ونتركها وحيدة قلت، يا له من خزى؟؟

– هى ليست وحيدة، قال زوربا متذمرًا، فهى مع سليمان باشا، ألا تراها: هى فى السموات السبع الآن، يا لها من عاهرة، هيا بنا!

خرجنا فى الهواء البارد؛ كان القمر يسبح فى السماء السعيدة.

– قــال زوربا باشمئزاز: نساء؛ تفــوووو! لكن ليس ذنبكــن أنتن، بل ذنبنا نحن، أصحاب العقول الصغيرة من أشباه الـ سليمان باشا والـ زوربــا!

وبعد قليل:

– ولا حتى ذنبنا نحن، بل المخطئ الوحيد ذو العقل الأصغر من السلطان سليمان وزوربا... أتدرى من هو!

– إذا كان موجوداً ربما؛ أما إذا لم يكن...؟

– إذن فاللعنة على كل شىء!

سرنا لوقت طويل دون أن نتكلم. كان غارقًا فى تفكير وحشى، حيث إنه كان يضرب الحصى بعصاه من حين لآخر ويبصق على الأرض.

فجأة التفت نحوى:

– قدس الله روح وعظام جدى. كان يدرك من هن النساء، لأنه كان يحبهن كثيراً وقد عانى منهن كثيراً أيضاً. وقال لى ذات مرة «اذهب فى رعاية الله يا أليكسى، واحترس من المرأة! عندما أخرج الله ضلعًا من آدم ليخلق المرأة، صار الشيطان ثعبان وخطف الضلع وهرب... راح الرب يحاول الإمساك به لكنه كان ينزلق فما بقى فى يد الرب غير قرنى الثعبان الذى هو الشيطان. لذلك يقول الرب، إن ربة البيت تغزل بملعقة؛

فخلق المرأة من قرني الشيطان وصنعها ورحنا نحن الرجال في لعنة الشيطان يا أليكسي يا ولدي». أينما تلمس المرأة إنك تلمس قرني الشيطان يا بني! هي من سرقت التفاحة من الجنة، ووضعتها في صدرها، والآن تسير وتتهادى أمامنا مفتخرة وتهز ردفيها أمامنا، عليها اللعنة! فإذا أكلت هذه التفاحة أو لم تأكلها فأنت هالك لا محالة. بمَ أنصحك يا بني؟ افعل ما شئت!» هذا ما كان يقوله لي جدي، لكن لم يكن عندي استعداد للتعقل أبداً!

كنا نسير باتجاه القرية؛ كان القمر متوتراً ويدعو للتوتر، وكأنك ثملت ثم خرجت تتمشى بالخارج واكتشفت فجأة أن العالم تغير وصارت الشوارع أنهاراً من الحليب، والحفر امتلأت بالجير، والجليد غطى الجبال. وصارت يداك ووجهك ورقبتك تنضح بضوء فوسفوري مثل حشرة سراج الليل. والقمر قد تعلق على صدرك مثل وسام غريب من كوكب آخر...

كنا نسير بسرعة كالخيل، وكما كنا ثملين شعرنا بخفة أجسادنا، كأننا نطير. صعدت الكلاب على أسطح منازل القرية النائمة وراحت تنبح نباحاً أشبه بالعويل وأعينها تحدق في القمر؛ وكأن رغبة تلح عليك أن ترفع عنقك نحو القمر وتبدأ في العويل.

عبرنا الآن حديقة الأرملة. توقف زوربا؛ كان النبيذ والطعام والقمر قد أصابوا رأسه بالدوار. رفع عنقه وبدأ ينشد أغنية خليعة بصوته

الحميرى، ولأنه كان ثملاً إلى درجة كبيرة أظن أنه قد ارتجل هذه الأغنية فى حينها:

أحب جسدك من الوسط وما أسفله

يخرج الثعبان حياً وفجأة تقتلينه!

- قال زوربا: هذه هى أحد قرون الشيطان! هيا يا سيدى!

كان الشروق قد أوشك على الطلوع عندما وصلنا إلى الكوخ.

وقعت فى الفراش منهكًا؛ تحمم زوربا وأشعل الموقد وصنع القهوة، جلس متربعًا أمام الباب، وأشعل سيجارة وجلس يدخن بهدوء، كان جسده ثابتًا مستقيماً ينظر إلى البحر. تعبير وجهه كان جاداً للغاية وفى منتهى التركيز؛ كان يشبه أحد الرسومات اليابانية التى أحبها: يجلس الراهب متربعًا، ملفوفًا بعباءة برتقالية، وجهه متلألئ وصلب، كأنه منحوت على لوح من الخشب، مسودٌ من المطر، وينظر بعنق متأهبة، متبسماً وبلا رعب إلى الأمام نحو الليل المظلم...

رحت أنظر إلى زوربا تحت ضوء القمر معجباً بالبساطة والحيوية اللتين توحد بهما مع العالم.

كان القمر على وشك الأفول؛ كان كامل الاستدارة ولونه أخضر شاحباً. وكان هدوء لطيف وطاغٍ قد خيم على البحر.

ألقى زوربا سيجارته ومد يده وراح يقلب فى سلة وأخرج خيطين وبكرات وعيدان خشبية وأشعل المصباح وبدأ يجرب مرة أخرى مشروع المصعد الهوائى المعلق.

انحنى على لعبته البدائية وكان غارقًا وتائهًا فى حسابات كثيرة ومعقدة بالتأكيد وحيث كان بين الحين والآخر يحك رأسه بعنف وعصبية ويطلق اللعنات.

وفجأة، ودون سابق إنذار وبملل شديد، ركل بقدمه نموذج المصعد الهوائى المعلق الذى صممه فسقط على الأرض متحطماً.

غلبني النوم وحين استيقظت كان زوربا قد غادر وكان الجو باردًا ولم تكن لى رغبة فى النهوض ومددت يدى وأخذت من فوق الرف الموضوع فوقى كتابًا أحبه كثيرًا وحملته معى وأغانى مالارميه[١٧]. رحت أقرأ ببطء مقطوعات من هنا وهناك دون ترتيب وأغلقت الكتاب ثم فتحته ثم ألقيت به. كل هذا بدا لى لأول مرة اليوم بدون حياة أو دم أو رائحة أو معنى إنسانى؛ كلمات فارغة ذات لون أزرق باهت تقرقع فى الهواء وكلام ناصع كالماء النقى، بلا ميكروبات وبلا أى فائدة صحية؛ بلا حياة.

كما فى الأديان التى فقدت بريقها فتصبح آلهتها مجرد أنماط شعرية، وحلا لعزلة الإنسان والجدران، وهذه الأشعار تشبه هذا الوصف تمامًا. شوق القلب الشاحب، الطين الملىء بالبذور، الأمر أضحى لعبة ذهنية عقيمة ونماذج معمارية فى الهواء.

فتحت الكتاب مرة أخرى، أعدت القراءة. لماذا هذه الأغنيات تخلب عقلى كل هذه السنوات؟ شعر نظيف! الحياة تصبح لعبة شفافة وخفيفة،

---

(١٧) مالارميه: شاعر فرنسى. (المترجم)

ولا تثقلها قطرة دم. إن الكائن البشرى هو بدائى فظ قذر وشرس - العشق والجسد والصرخة - ليكن كل هذا فكرة مجردة فى بوتقة الروح يتحلل من خلال الكيمياء إلى كيمياء أخرى فتتخلخل جزيئاته ويتبخر!

كيف إن كل هذه الأشياء تبهرنى، فهى تبدو لى فى هذا الصباح مجرد ألعاب ذهنية بهلوانية! الحالة تشبه تماماً حالة انهيار الحضارات وألعاب متقنة من السحر والشعوذة والشعر النقى والموسيقى الخالصة والفكر المجرد - صراع الإنسان.

الإنسان الأخير الذى تيتَّمَ من كل معتقد ووهم، والذى لم يعد ينتظر شيئًا، ولا يخاف شيئًا، يرى التراب الذى صنع منه قد تحول إلى روح، ولم يبقَ فى هذه الروح ترابٌ تنمو فيه الجذور وتستمد منه غذاءها.... لقد أفرغ الإنسان كل ما لديه ولم يعد لديه أى بذور ولا فضلات ولا دم. كل الأشياء أضحت كلمات، وكل الكلمات استحالت ألعاباً موسيقية، والآن يجلس الإنسان الأخير فى طرف صحرائه كى يفك رموز الموسيقى ويحولها إلى منطق رياضى أبكم.

قفزت من مكانى. إن بوذا هو الإنسان الأخير! صرخت. هذا هو معناه الموسيقى. بوذا هو الروح النقية التى فرغت ولا يوجد أى شىء بداخلها... هو الذى ينادى «أفرغوا أحشائى وأفرغوا عقلى وروحى وأفرغوا قلبى!» أينما تطأ قدماه لا ينبع الماء ولا ينبت الزرع ولا يولد طفل.

فكرت وقلت فى نفسى أنه حتما ولابد أن أحشد قوة الكلمة كى أستحضر هذه الروح، وأستحضر ذلك الصوت السحرى أن أحاصره وأطرده، أن ألقى عليه شبكة الكلمات فيصبح أسيرى، أن أتخلص وأتحرر!

لم تعد كتابة بوذا بالنسبة لى لعبة أدبية؛ بل معركة مع قوة مدمرة داخلى ومعركة مع رفض كبير كان يأكل قلبى، إنها معركة ومسألة حياة أو موت بالنسبة لى.

أمسكت بالمخطوطة مبتهجًا، فقد وجدت الآن الشجاعة، عرفت الآن إلى أين أوجه سهامى! بوذا هو الإنسان الأخير، ونحن ما زلنا فى البداية، لم نأكل ولم نشرب، لم نعشق ولم نعش بما فيه الكفاية؛ فى البدء جاءنا هذا العجوز الرقيق الحس الوديع ذو الحضور الخفيف، ويجب أن نتخلص منه سريعًا!

هكذا كنت أصرخ بداخلى، وبدأت أكتب. لم تكن هذه هى الكتابة، بل الحرب، الكر والفر، الحصار تعويذة كى يخرج الوحش من مخبئه. طقس سحرى، الحقيقة هى الفن، كائنات ظلامية غائمة قاتلة تعيش فى أحشائنا ودوافع للقتل والإدماء والكره وارتكاب الحماقات والشر؛ ويأتى الفن بأنغامه العذبة ليخلصنا.

رحت أكتب وأحارب طوال اليوم وعندما حل الليل كانت قواى قد أنهكت؛ لكننى كنت متأكدًا وقد تقدمت وقد سيطرت اليوم على مواقع

عديدة للعدو. كنت أتلهف قدوم زوربا، كى آكل وأنام لأستجمع قواى وأبدأ المعركة مجدداً فى الصباح الباكر.

دخل زوربا مع حلول ظلام الليل؛ كان وجهه مشرقًا فقلت فى نفسى:

«لابد أنه وجد ما كان يبحث عنه!» ثم انتظرت.

فقد بدأ صبرى ينفذ معه وقد قلت له ذلك بغضب قبل ليلتين:

- لقد بدأ المال ينقص لدينا، يا زوربا، إذا كنا سنفعل شيئًا فعلينا أن نفعله بسرعة! لابد أن ننفذ فكرة المصعد الهوائى المعلق؛ وإذا لم تنجح الفكرة سنتاجر فى الأخشاب. أو سنهلك.

حك زوربا رأسه.

- المال ينتهى يا سيدى؛ هذا شىء سىء!

- لقد نفد يا زوربا، لقد أنفقنا الكثير؛ راجع حساباتك مرة أخرى. كيف تسير تجاربك فيما يخص المصعد الهوائى المعلق؟

خفض زوربا رأسه؛ لم يجب. كان يشعر بالخزى، لابد أنه قد صمم على نجاح الفكرة، لهذا كان وجهه مشرقًا.

- وجدت حلاً يا سيدى! قال من بعيد. لقد وجدت الزاوية الصحيحة وصار الانحدار صحيحًا، كادت تهرب من بين يدى، لكنى تمكنت منها فى النهاية!

– هيا لنبدأ إنن! اطرق الحديد وهو ساخن يا زوربا! ما الذى تحتاجه.

– لابد أن أغادر غداً إلى المدينة لأشترى الخامات والمعدات – كابل فولاذى سميك، بكرات، مسامير وخطاطيف.... سأذهب وأعود بسرعة الطير.

أشعل النار بسرعة وطبخ وأكلنا وشربنا بشهية مفتوحة؛ فكلانا قد أرهق نفسه فى العمل اليوم.

فى الصباح رافقت زوربا إلى القرية وتحاورنا بهدوء وبشكل عملى حول العمل والمنجم؛ فى أحد الشوارع المنحدرة تعرقل زوربا فى حجر، وراح الحجر ينحدر بعيداً. توقف زوربا متفاجئًا كأنه يرى الحياة لأول مرة على أنها منظر بديع؛ التفت ونظر إلى لمحت فى عينيه شيئًا من الخوف.

– قال زوربا أخيراً: هل لاحظت هذا الشىء يا سيدى؟ إن الأحجار تستعيد حياتها فوق المنحدرات!

لم أتكلم ولكن سعادتى كانت غامرة. شبيهة بسعادة الحالمين وتنبؤات الشعراء الكبار، فهم يرون كل شىء لأول مرة وكل صباح هم أمام عالم جديد؛ لا يرون عالمًا جديداً بل يخلقونه.

إن العالم بالنسبة لزوربا مثل ما كان للإنسان البدائى، رؤية كثيفة والنجوم تلامسه وتتكسر أمواج البحر على صدغيه ويعيش دون أدنى وساطة من منطق زائف، التراب والماء والحيوان والرب.

كنا قد بلغنا مدام أورتانس فكانت فى انتظارنا على عتبة الباب. متزينة بمساحيقها ومتأنقة، ومتوترة بعض الشىء. جعلت من نفسها مركب زينة فى احتفالية يوم سبت؛ البغل كان جاهزًا خارج الباب وقفز زوربا فوق ظهره وقبض على اللجام واقتربت الحورية العجوز على مضض ولمست البغل بصدرها وبيدها السمينة، كما لو أرادت أن توقف حبيبها وتمنعه من الرحيل.

– ماءت العجوز كالقطة... زوربا ثم وقفت على أصابع قدميها؛ زوربا....

أشاح زوربا وجهه بعيداً؛ لم يعجبه هذا التصرف فى الشارع، هراء العاشقين فى الشارع. لكن البائسة مدام أورتانس رأت عينى زوربا وارتعبت؛ لكن يدها كانت لا تزال تضغط على صدر البغل.

– صاح فيها زوربا بعصبية. ماذا تريدين؟

– زوربا همست بدلال، كن طيبًا... لا تنسنى يا زوربا؛ كن طيبًا...

شد زوربا لجام البغل دون أن يعطيها أية إجابة؛ وانطلق البغل فى الشارع.

– إلى اللقاء يا زوربا! صاحت، ثلاثة أيام لا أكثر؛ هل تسمع!

التفت وهز يده ملوحًا؛ الحورية العجوز بكت فحفرت دموعها خنادق فى سطح المساحيق على وجهها.

- لقد وعدتك يا سيدى! إلى اللقاء!

واختفى بين أشجار الزيتون. بكت مدام أورتانس، كانت تبكى وتنظر بقعة أحدثها زوربا على البساط الأحمر الذى كانت تضعه ليجلس عليه حبيبها مرتاحًا. بعد قليل اختفت هى الأخرى وفرغ العالم من حولى.

لم أعد إلى الشاطئ؛ صعدت نحو الجبل. قبل أن أصل إلى الدرب المؤدى نحو الجبل سمعت صوت بوق؛ ساعى البريد كان يعلن عن وصوله إلى القرية.

- نادى على وهو يلوح بيده.

اقترب منى وأعطانى حزمة من الصحف والمجلات وخطابين. أحدهما أخفيته فى جيبى حتى أقرأه فى المساء، عندما ينتهى اليوم ويصفو الذهن؛ كنت أعلم من هو المرسل وكنت أود أن أؤجل قراءته حتى أطيل من زمن فرحتى.

الخطاب الآخر كنت أعرف أيضًا من هو المرسل من خط اليد العصبى ومن طابع البريد الغريب عليه؛ أرسله إلى زميل دراسة قديم اسمه كارايانيس من إفريقيا من فوق أحد الجبال بالقرب من تانجانيقا.

كان رجلاً متهوراً غريب الأطوار أسمر البشرة، له أسنان حادة شديدة البياض؛ وناب طويل أشبه بناب الكلب يخرج خارج فمه ولم يكن يتحدث أبداً، كان يصيح؛ لم يكن يتحاور، كان يتعارك ورحل عن وطنه كريت حيث كان يعمل أستاذاً لعلم اللاهوت وهو شاب صغير يرتدى عباءة قس وكان قد عشق إحدى تلميذاته وتم القبض عليهما يتبادلان القبل فى أحد الحقول ففضحه الناس وكالوا له السباب والشتائم وفى نفس اليوم نزع الأستاذ عباءة الراهب واستقل المركب وذهب إلى أحد أقاربه فى إفريقيا وانهمك فى العمل، أنشأ مصنعًا للحبال، وجمع مالاً وفيراً. كان يرسل إلى من وقت لآخر يدعونى أن أذهب إليه لأقيم ستة أشهر. وذات مرة وأنا أفتح أحد خطاباته وقبل أن أقرأه، شعرت بأن هناك ريحًا عاصفةً تهبُّ من صفحات خطابه المدرز دائمًا بخيط، مما يجعل شعر جسدى ينتصب وفى كل مرة أتخذ قراراً أن أذهب إلى إفريقيا كى أراه، لكنى لم أذهب أبداً.

انعطفت عن الدرب وجلست فوق إحدى الصخور أقرأ الرسالة:

«متى إذن ستأخذ القرار أيها المحار اليونانى اللعين لتأتى لزيارتى؟ لقد صرت روميًا حقيراً ترتاد الحانات وتتمرغ فى المقاهى. وليتها مجرد مقاهٍ كالمقاهى؛ إنها الكتب والمجلات عاداتك وعقائدك الثمينة وكلها مقاهٍ ياعزيزى. اليوم الأحد وليس لدى عمل وأقضى اليوم فى المنزل وقد خطرت ببالى وحرارة الشمس هنا حارقة، ولم تنزل قطرة مطر، عندما يهطل المطر هنا عادة فى أبريل ومايو ويونيو فهذا يعنى سيولاً وطوفانًا.

أعـيش وحـدى وأفـضل هذا. هـنا يوجـد الكثـيـر من اليـونانيـين. أكرههم. لا أحب اليـونانيـين، حـتى هـنا، يونانيـون، هل يوجـد مكان لم يذهب إليه اليونانيون؟ أشعر بالقرف منهم، اللعنة عليهم، لقد ألقيتم علينا كل جذامكم وأمراضكم بسبب مهاتراتكم السياسية؛ هذا ما سوف يدمر اليونان. الميسر والجهل والجسد.

أكـره الأوربيين؛ ولهـذا أطوف هنا فـى الجبـال فى بامبـاسا. أكـره الأوربيين؛ لكنى أكره اليونانيين واليونان أكثر من أى شىء فى حياتى. لن تطأ قـدمـاى أرض اليـونـان ثانيـة. هـنا سـأمـوت لقــد صنعت قـبـرى بالفعل خارج بيتى، فى جبل منعزل. وكتبت عليه بحروف محفورة بيدى بحـروف كبـيرة:

هنا يرقد يونانى يكره اليونان

أقهقه عاليًـا، أبصـق، أسـب وأضـحك عندمـا أفـكر فى اليونان. وكى لا أرى اليـونان واليـونـانيين غـادرت هذه البلد إلى الأبد؛ جئت إلى هنا وأحـضـرت قدرى مـعى - لم يأت بى القدر إلى هنا، فـالإنسـان يفـعل مـا يشـاء! - أحـضـرت قدرى وأعمل مثل العبيد. أعمـل وأكدح وسـأظل أعمل وأكدح كـثـيـراً. فـهنا أحـارب الأرض والريح والمطـر والعمـــال والحمـر والسـود.

لا توجد لدى متع. بل لدى متعة واحدة ألا وهى العمل، العمل اليدوى والروحى؛ أحب أن أتعب فى العمل وأتعرق، أن أسمع عظامى تطقطق. أكره المال، فأنا أبدد كل ما أكسبه فى أى شىء أريد؛ فأنا لست عبداً للمال؛ بل المال عبد لى. فأنا عبد للعمل! وهذا شرف لى. أقطع الأخشاب، أبرمت عقداً مع البريطانيين وأقمت مصنعًا لصنع الحبال، الآن أزرع القطن. لدى الكثير من العمال، سود وحمر وحمر سود. من كل الملل والأصناف كائنات قذرة وقدرية، مفسدون فى الأرض وكاذبون. ليلة أمس بدأت قبيلتا الزنوج فى المنطقة: الفويايون مع الفانجونيين تتقاتلان من أجل امرأه عاهرة. لقد جرح كبرياؤهما، تماماً كما يحدث فى اليونان. سباب وإهانات ثم بعدها انطلقت الهراوات والعصى، وهشم أحدهم رأس الآخر، أسرعت النسوة لإحضارى فى منتصف الليل كى أذهب وأحكم بينهم بعد أن أيقظننى بصراخهن. غضبت وقلت لهن أن يذهبن إلى الجحيم أو إلى البوليس البريطانى، إلا أنهن بقين ينحن ويصرخن أمام بيتى طوال الليل. خرجت مرغماً عند الفجر وحكمت بينهم.

فى صباح الغد سأذهب لأتسلق جبال أوسومبار ذات الغابات الكثيفة الخضراء والمياه العذبة. أيها اليونانى القذر متى ستغادر أبراجك البابلية فى أوربا وتأتى إلى هنا؟؟؟.... أوربا هذه العاهرة العجوز التى تجلس فوق عرش مياه كبير، والتى ضاجعها ملوك الأرض.... متى ستأتى لنتسلق هذه الجبال البرية؟

لقد أنجبت طفلة من امرأة سوداء. طردت أمها بعد أن جعلت منى ديوثًا أمام الملأ، ليل نهار وتحت كل شجرة خضراء فى هذا المكان؛ مللت منها وطردتها... لكن الطفلة معى، تبلغ من العمر سنتين. تستطيع أن تمشى وقد بدأت تتكلم، أعلمها اللغة اليونانية، وأول جملة علمتها إياها هى: «أبصق على اليونان واليونانيين!»

هى تشبهنى كثيراً؛ لم تأخذ من أمها سوى الأنف المفلطحة. أحبها كثيراً، لكن كما نحب كلبًا أو قطة فى البيت. تعال إلى هنا لتنجب أنت أيضاً ولداً من إمرأة زنجية كى نتسلى سوياً!

تركت الخطاب على ركبتى؛ اشتعلت بداخلى ثانيةً رغبة الرحيل؛ ليس لأننى أحتاج أن أترك هذا الشاطئ؛ فأنا سعيد هنا على هذا الشاطئ الكريتى، كل شىء على ما يرام ولا ينقصنى شىء؛ لكن هذه الرغبة تشغلنى: أن أرى وألمس أكثر قدر ممكن من الأرض والبحر قبل أن أترك هذا العالم.

نهضت من على الصخرة. غيرت رأيى، لن أذهب نحو الجبل، نزلت نحو الشاطئ. تحسست الخطاب الآخر فى الجيب الداخلى لسترتى ولم تعد لدى قدرة على الانتظار. لقد انتظرت كثيراً، وكأن طعم تلك البهجة الجميلة قد دام طويلاً.

وصلت إلى الكوخ، أشعلت النار، أعددت الشاى، أكلت خبزًا وزبدًا وعسلاً وبرتقالاً. بدلت ملابسى واستلقيت على الفراش وفتحت الخطاب:

«أستاذى العزيز وتلميذى النجيب، تحياتى!

إن العمل هنا كثير وشاق«حمدًا للرب».

أكتب هذه الكلمة الخطيرة بين قوسين (كوحش كاسر محبوس فى قفص)، كى لا يستثير غضبك فور أن تفتح خطابى. إن العمل شاق جدًا هنا، حمدًا «للرب»! إن ما يقرب من نصف مليون من اليونانيين يخاطرون بحياتهم فى جنوب روسيا والقوقاز. الكثير منهم يتحدثون التركية والروسية فقط، لكن قلوبهم تتحدث اليونانية بتعصب. إنهم من بنى وطننا وتجرى فيهم دماؤنا؛ يكفى أن ترى عيونهم كيف تشع، عيونهم الماكرة وشفاههم الشهوانية عندما يبتسمون، وكيف استطاعوا أن يصبحوا سادة وأصحاب عمل ويجعلوا العمال الروس يعملون تحت إمرتهم – كى تدرك كيف أن هؤلاء هم أحفاد أوديسيوس؛ ستحبهم حينئذ ولن تتركهم يهلكون.

أتدرى لماذا يتعرضون للفناء. لقد خسروا كل ما يملكون، يتضورن جوعًا؛ تبدلت حيواتهم من يوم لآخر ويتعرضون لغزو البلاشفة من جهة والأكراد من الجهة الأخرى. لقد حوصروا من كل الجهات بين ولايات جورجيا وأرمينيا، ونزح اللاجئون؛ لايجدون طعامًا ولا ملبسًا ولا دواء،

يتجمعون فى الموانئ يسرحون فى أركان البحر ينتظرون أن تأتى مراكب يونانية لتقلّهم من هنا كى يعودوا إلى وطنهم اليونان. إنهم جزء من بنى جنسنا يا معلمى، أى أنهم جزء من روحنا وقد سيطر عليهم الرعب.

إذا تركناهم يواجهون مصيرهم، سيهلكون. إن الأمر يحتاج إلى كثير من الحب والعقل والحماس والتنظيم - حتى يتسنى لنا أن ننقذهم وننقلهم إلى أرضنا الحرة، هناك حيث هو المكان الأمثل الذى يناسبنا - على حدود مقدونيا العليا، بعيداً عن حدود ثراكى. هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن ننقذ مئات الآلاف من الأرواح اليونانية، وسننقذ أنفسنا معهم. حيث إننى منذ اللحظة التى وصلت فيها إلى هنا، رسمت خط سير وفقًا لتعاليمك، عبارة عن دائرة وسميتها: واجبى. وقلت: إذا أنقذت هذه الدائرة فقد أنقذت نفسى؛ وإذا لم أنقذها هلكت. وفى وسط هذه الدائرة هناك خمسمائة ألف من اليونانيين.

أجوب بلاداً وقرى، أجمع اليونانيين، أكتب تقارير، أرسل برقيات، أقاتل كى أقنع السلطات أن ترسل لنا مراكب، طعامًا وملابس وأدوية وأن يحملوا كل هذه الأرواح إلى اليونان. عندما تكافح بإصرار شديد فهذه سعادة، أنا سعيد. لا أدرى كما تقول أن أقص السعادة على قدر حجمى؛ أتمنى ذلك، لأن حجمى عندئذ سيكون عظيماً. لكننى أفضل أن أزيد من حجمى على القدر الذى أظن أن فيه سعادتى، أى حتى حدود اليونان. لكن لا تجعلنا نسهب فى التنظير؛ أنت الآن مستلق على شاطئك

الكريتى، تنصت إلى البحر وإلى السانتورى، لديك الوقت، أنا ليس لدى أى وقت. طاقتى كلها تستهلك وأنا سعيد بالعمل، الفعل، إنه الخلاص الوحيد الذى أعرفه.

فى البدء كان العمل – وفى النهاية أيضًا.

إن تفكيرى الآن بسيط للغاية، دفعة واحدة أقول: أن البنديين والقوقازيين وفلاحى كارس وهؤلاء التجار فى منطقة تيفيذا فى جورجيا وفاتوم ونوفوروويسيك وراتسوف وأوديسا والقرم، هم من بنى وطننا، لحمنا ودمنا، بداخله تقبع القسطنطينية عاصمة لوطننا. لدينا جميعًا نفس القائد؛ أنت تسميه أوديسيوس، آخرون يسمونه قسطنطين باليولوغوس[١٨]، ليس هذا الذى قتل فى بيزنطة، ولكن الآخر الذى صار تمثالاً رخاميًا فى وجدان أساطيرنا وينتظر ريح الحرية. أما أنا وبعد إذنك طبعًا، أسمىّ زعيمنا أكريتاس. أحب هذه الكلمة كثيرًا. إنه اسم صارم ويشى بالإصرار والعناد والجلد، ما إن تسمعه حتى تحضر فى مخيلتك صورة هيلين الخالدة تحمل السلاح وتحارب دون كلل أو رأفة على كل الحدود والجبهات. على كل الجبهات فى آن واحد: القومية والثقافية والذهنية، وإذا أضفت ذيجينيس[١٩] سيكون المعنى أعمق لقوميتنا، يحمل تلك التركيبة الرائعة بين الشرق والغرب والتى تجرى فى دمائنا.

---

(١٨) قسطنطين باليولوغوس: آخر أباطرة الإمبراطورية البيزنطية. (المترجم)

(١٩) ذيجينيس: فيلسوف يونانى. (المترجم)

أنا الآن فى كارس، جئت إلى هنا لأجمع اليونانيين من القرى المجاورة؛ فى نفس اليوم الذى وصلت فيه كان الأكراد قد قبضوا على عاملٍ وكاهنٍ يونانيين من خارج كارس وثبتوا حدوات حصان فى قدميهما. تجمع الجميع فى البيت الذى أنا فيه؛ نسمع أصوات مدافع الأكراد تقترب أكثر فأكثر منا. عيون الجميع مثبته على كأننى أنا الذى لديه المقدرة على إنقاذهم جميعًا.

كان من المقرر أن أغادر غدًا إلى تيفليذا، لكن الآن الوضع تغير وصار أكثر خطورة، سأشعر بالخزى إذا غادرت وتركتهم. سأبقى إذن. لا أدعى أننى لست خائفًا؛ بل إنى خائف، لكننى أشعر بالخزى. ألم يكن ليفعل محارب رمبرانت نفس الشىء؟! سأبقى إذن؛ سأبقى أنا أيضًا. وإذا دخل علينا الأكراد، سيكون من الطبيعى أن يضعوا فى قدمىَّ أنا أيضًا حدوة البغال. هذه ستكون نهاية بغل من تلامذتك يا معلمى، بالطبع لم تكن تتوقع نهاية كهذه.

بعد محاورات يونانية من النوع الطويل الذى يعتاد عليه اليونانيون؛ اتخذنا قرارًا أن يتجمع كل اليونانيين ببغالهم وخيولهم وثيرانهم وأغنامهم ونسائهم وأطفالهم، وعند الفجر سنتحرك جميعًا نحو الشمال؛ وسأكون أنا فى المقدمة. الكبش الذى يتقدم القطيع.

هجرة شعب من خلال سهول ووديان ذات أسماء أسطورية، وسأكون مثل موسى – أو موسى زائف – أقود الشعب المختار نحو أرض الميعاد، كما يطلق هؤلاء الناس على اليونان. كان من الأحرى كى

أكون جديراً بمهمة كهذه المهمة الموسوية أن أتخلص من حذائى الأنيق الذى طالما كان موضع سخريتك، وألفُّ قدمىَّ بجلد الغنم. وأن أطلق لحية طويلة مجعدة مبقعة بالدهن، والأحرى أن أضع قرنين أيضًا. لكن للأسف لن أفعل هذا وأمنك هذه المتعة. إذ أنه كما تعرف تغير روحى أسهل لدى من تغيير ملابسى؛ أرتدى حذائى وأحلق ذقنى وأنعمها وأنا أعزب.

معلمى العزيز، أتمنى أن تصلك هذه الرسالة، التى ربما ستكون هى الأخيرة. لا أحد يعرف ماذا يخفى لنا الغد. ليس لدى ثقة فى تلك القوى الخفية التى تحمى الإنسان. أعتقد أنها قوى عمياء تضرب ذات اليمين وذات اليسار دون أن تكون شريرة لكن بدون أى هدف أيضاً لكنها يمكن أن تقتل أى أحد يصدف أن يكون بالقرب منها. إذا رحلت عن هذا العالم، أقول إذا رحلت حتى لا أقول تلك الكلمة فيصاب كلانا بالرعب، إذا رحلت إذن عن هذه الأرض، فالوداع يا معلمى الحبيب! أشعر بالعار أن أقولها، لكن لابد أن أقولها وأرجو أن تلتمس لى العذر: فلقد أحببتك كثيراً»

وفى الأسفل مكتوب بالقلم الرصاص على عجل:

«ملاحظة: ذلك الاتفاق الذى عقدناه فى المركب عندما كنت فى طريقى إلى المغادرة، لم أنسه؛ لو كنت سأغادر هذا العالم، فسأبلغك، يجب أن تعرف هذا، أينما كنت، فلا تدع الأمر يبث الرعب فى نفسك».

مضت ثلاثة أيام، ثم أربعة ثم خمسة أيام، وزوربا لم يظهر.

بعد ستة أيام تلقيت خطاباً غليظاً من المدينة، صفحات كثيرة مليئة بالهراء، مكتوب على ورق معطر ومرسوم على جانبه قلب يخترقه سهم.

احتفظت بالرسالة، ونسختها وحافظت على ألفاظها البديعة؛ عدلت فقط أخطاءها اللغوية المضحكة. يبدو أن زوربا يمسك بالقلم كأنه يمسك فأساً، كان يضربه بقوة وكان الورق مبقعاً بالحبر والثقوب.

«سيدى العزيز، الرأسمالى!

أود أن أسأل فى البداية إذا كنت تتمتع بصحة جيدة. نحن هنا على ما يرام، حمداً للرب.

لقد أدركت منذ زمن بعيد أننى لم آتى إلى هذا العالم كحصان أو ثور؛ فالحيوانات فقط تعيش لتأكل وتشرب. وأنا أنأى بنفسى أن أنضم إلى هذه الشريحة من المخلوقات، أعمل ليل نهار، أخاطر من أجل لقمة عيشى أو من أجل فكرة، أغير المقولة المأثورة الشهيرة دائماً «من الأفضل أن تخاطر من أجل عشرة عصافير على الشجرة بدلاً من أن تكون عصفوراً فى قفص».

الكثير من الناس وطنيون دون أن يكلفهم هذا شيئًا؛ أنا لست وطنيًا، ولن أكون ولا يهمنى الأمر؛ الكثير يعتقد فى الجنة ويعيش من أجلها؛ هذا لست أنا، أنا إنسان حر ولا أخاف الجحيم، ولا أتمنى الجنة ولا أعيش من أجلها، كل يحشو دماغه بأفكار يعيش من أجلها. أنا شخص غير متعلم ولا أستطيع أن أصيغ الأمور ببراعة، لكنك تفهمنى يا سيدى.

كثيرون يخشون الغرور والتفاخر! أما أنا فقد انتصرت على هذه الأشياء. الكثيرون أيضًا يفكرون كثيرًا، أما أنا فلست فى حاجة إلى أن أفكر. ليست لدى الحاجة إلى أن أفرح أو أن أحزن؛ فإذا علمت أن اليونانيين استولوا على القسطنطينية فإحساسى سيكون هو نفسه إذا ما استولى الأتراك على أثينا.

من كل ما أكتب لك، إذا كنت قد فهمت أيًا من هذا الهراء الذى أكتبه، أو كيف وصلت به إلى عمرى هذا، فاكتب لى. أنا أطوف على المحلات فى المدينة لأشترى الأسلاك الفولاذية من أجل مشروعنا وأضحك. ويسألنى الناس، «لماذا تضحك يا بن العم». لكن فى اللحظة التى أمد فيها يدى لأرى جودة الأسلاك ينتابنى التفكير فى ماهية الإنسان ولماذا جاء إلى هذا العالم وفى أى شىء هو مفيد.... أنا أظن أن الإنسان لا يفيد فى شىء. كل شىء كما هو؛ إذا كان لدى امرأة أم لا، إذا كنت شريفًا أو لصًا، إذا كنت من باشا أو حمالاً فى الأسواق؛ فقط إذا كنت حيًا أم ميتًا هذا الذى يعنينى وهذا ما يصنع الفرق بالنسبة إلى.

إذا كنت سأذهب إلى جحيم الشيطان أو رحاب جنات الرب (ماذا أقول لك يا سيدى؟ أنا أعتقد أن الرب والشيطان هما شىء واحد)، سأموت، سأصبح جثة عفنة، وستفوح رائحتى وسيضطر الناس إلى أن يلقوا بى بعيداً حتى لا يصابوا بالاختناق من العفن.

وبما أن الكلام قد أتى بنا إلى هذا الموضوع، سأقول لك يا سيدى عن الشىء الذى يخيفنى - شىء واحد ولا شىء آخر - ويؤرقنى ليل نهار ولا أستطيع أن أستريح من فرط التفكير به: إن الشيخوخة هى التى تخيفنى يا سيدى، أبعدها الله عنا! أما الموت فهو لا شىء، هو أشبه بأن تنفخ زفيرك فى شعلة الشمعة فتنطفئ؛ أما الشيخوخة فهى خزى كبير.

أظن أنه عار كبير أن أعترف بأنى عجوز، أن أفعل كل ما أستطيع كى لا يبدو علىّ أو يلاحظ أى شخص ملامح الشيخوخة علىّ؛ أقفز، أرقص، تؤلمنى كليتاى، لكنى أستمر فى الرقص؛ أشرب حتى الثمالة، يدور العالم حولى، لكنى أظل واقفًا صلبًا، وكأنى لم أشرب شيئًا ولم يصبنى الدوار. أتعرق أغوص فى البحر، يصيبنى البرد وأود أن أسعل كى أخفف من آلام صدرى، لكننى أشعر بالخزى يا سيدى، أبتعد عن الناس كى أسعل، هل رأيتنى أسعل أبداً يا سيدى! ولن ترانى ولن أسعل إذا كان حولى بشر، لكن عندما أكون وحيداً أسعل وأشعر بالخزى، أشعر بالخزى من زوربا يا سيدى، هل تصدق؟ إنى أخجل منه؟

ذات مرة تعرفت على راهبٍ في جبال أثوس - كنت قد ذهبت هناك وليتني لم أذهب - كان الراهب يدعى لافرنتيو من جزيرة خيو. كان هذا المسكين يعتقد أن هناك شيطانًا داخل جسده، حتى أنه أطلق عليه اسم خوجا. «خوجا يريد أن يأكل اللحم فى الجمعة العظيمة» كان يهيج ويزأر المسكين لافرنتيو ويضرب رأسه على عتبة الكنيسة؛ «خوجا يريد أن يضاجع امرأة، خوجا يريد أن يقتل رئيس الدير. خوجا يريد هذا خوجا يريد ذلك، خوجا؛ لست أنا» وفى كل مرة يضرب رأسه فى الصخر.

هكذا أنا يا سيدى، أظن أن ثمّة شيطانًا داخل جسد زوربا. زوربا الداخلى؛ وهو لا يريد أن يشيخ، لا، لا يريد أن يشيخ، إنه تنين، له قرون وشعر واثنتان وثلاثون سنًا وزهرة قرنفل فى أذنه. لكن مظهره الخارجى هو زوربا؛ شاخ وابيض شعره وتجعد جلده، وهن، تساقطت أسنانه، وأذناه امتلأتا بشعرالشيخوخة الأبيض المدبب الذى يشبه شعر الحمار.

ماذا أفعل يا سيدى؟ إلى متى سيتقاتلان هذان الزورباوان؟ أيّهما سينتصر فى النهاية؟ إذا مت سريعًا فهذا شىء حسن، لا يهم الأمر إذن؛ أما إذا عشت كثيرًا، سأهلك؛ سأهلك يا سيدى. فسيأتى اليوم الذى سأصاب فيه بالخزى لا محالة. سأفقد حريتى، وستطلب منى ابنتى وزوجة ابنى أن أرعى لهم طفلاً، وحشًا صغيرًا، كى لا يحرق نفسه أو يقع أو لا تتسخ ملابسه، وإذا اتسخت ملابسه، فسيجعلاننى أنظفه، تفووووو!

ستمر أنت بنفس الموقف يا سيدى، وإن كنت ما زلت شاباً، احترس! ولهذا، اسمع ما أقوله لك، سر على دربى، فليس هناك سبيل آخر للنجاة، لنطُف الجبال ونستخرج الفحم والنحاس والحديد والزنك ونكسب المال وكى يخاف منا الأقرباء، ويتملقنا الأصدقاء، ويرفع لنا الأثرياء قبعاتهم. وإذا لم ننجح فى هذا، فالموت أفضل لنا يا سيدى، من ذئب أو دب أو أى وحش نصادفه أمامنا، حلال لحمنا له! لهذا خلق الله الوحوش فى هذه الدنيا؛ ليأكلوا بعض البشر أمثالنا، كى لا يفضحوا»

وهنا رسم زوربا شيئًا بالألوان الرصاص، شخصًا نحيلاً يجرى تحت شجرة خضراء، وخلفه سبع ذئاب حمراء اللون تطارده؛ وكتب تحتها بخط سميك: «زوربا والخطايا السبع».

ثم أكمل:

«من رسالتى هذه لابد أنك فهمت كم أننى إنسان حزين؛ لكن معك لدى بعض من الأمل عندما أتحدث إليك وأخفف من همومى الكثيرة. لأنك مثلى، لكن لا تدرى، فبداخلك شيطان أنت أيضًا، لكنك لم تعرف اسمه بعد، ولأنك لا تعرف اسمه، لا تحير نفسك كثيراً، عمِّده، سمه اسماً وسترتاح كثيراً بعد ذلك.

كنت أقول كم أنا حزين؛ وأرى بوضوح أن ذكائى ما هو إلا غباء ولا شيء آخر؛ لكن تأتى لحظات أتوصل فيها بعقلى إلى أفكار عظيمة لا تخرج إلا من رأس عبقرى، ولو كنت أستطيع أن أترجم هذه الأفكار التى يمليها على زوربا الداخلى، لأدهشت العالم!

ولأن عقـدى مع الحيـاة غير مشروط بمـدة زمنيـة، أترك نفسى ولا أكبح جماحى عند أى منعطف خطير.

إن حياة كل إنسان ما هى إلا منحدرات ومرتفعات وعرة، وكل يسير فى طريقه بحذر؛ لكن أنا، هنا تظهر مواهبى يا سيدى، لقد ألقيت كل ما يعطلنى وراء ظهرى منذ زمن بعيد، لأننى لا أخشى المخاطرة كما يحدث لنا نحن العمال عندما تخرج الآلة عن مسارها. اللعنة؛ فأنا لا أعبأ حتى بالمخاطر التى تصيبنى أو التى أسببها؛ فأنا منطلق ليل نهار بكل طاقتى، أفعل ما يحلو لى، ولا أخشى السقوط حتى لو تهشّمت عظامى. ماذا لدى كى أخسره؟ لا شىء. أتدرى؛ لو كنت أتوخى الحذر فى كل تحركاتى لسقطت منذ زمن بعيد؛ اللعنة على كل شىء إذن!

الآن أنت تضحك معى يا سيدى، لأنى أكتب إليك حماقاتى، أو أفكارى أو مواطن ضعفى - بربك، ما هو الفرق بين هذه الأشياء الثلاثة، فأنا لا أفهم - أنا أكتب لك، وأنت تضحك، إذا لم تكن متململاً. أنا أضحك لأنك تضحك - وهكذا الضحك فى العالم لا ينتهى. كل إنسان له حماقاته؛ لكن الحماقة الكبرى فى رأيى، هو ألا يكون لديك حماقة.

أنا أدرس حماقتى هنا فى المدينة، وأكتب لك كل شىء يا سيدى، وأود أن أطلب مشورتك. فأنت ما زلت شاباً يا سيدى، هذه هى الحقيقة؛ لكنك قرأت كل كتب الحكمة والمعرفة، وصرت بهذا عجوزاً بعض الشىء، لا تؤاخذنى؛ أريد أن أستشيرك فى شىء.

حسنًا، أنا أعتقد أن كل إنسان له رائحته الخاصة: لا نعيها بالضبط، لأن الروائح والعطور تختلط، ولا نعرف أيًا منها رائحتي وأيها رائحتك أنت، ونسميها عفن الإنسان. البعض يستنشقها كما لو كانت نبات الخزامى العطر. أما أنا فتولد لدى رغبة في التقيؤ. لكن هذا موضوع آخر، لنعد لما كنا نقوله.

كنت أود أن أقول وكنت سأطلق العنان لنفسى مرة أخرى - كيف أن النساء لديهن أنوف مبللة مثل الكلاب ويستطعن معرفة الرجل من رائحته إن كان يتوق إليهن أو لا يطيقهن. لهذا، ففى كل بلدة أدخلها حتى وأنا عجوز قبيح الوجه وغير مهندم المظهر، هناك اثنتين أو ثلاثة من النساء سيطاردننى. لقد التقطت الكلاب كما ترى رائحتى، بارك الرب فيهن!

فى الليلة الأولى التى وصلت إلى المدينة كان ظلام الليل حل عليها. هرعت على الفور إلى المحلات فكانت مغلقة وذهبت إلى إحدى الحانات، وضعت طعامًا للبغل، أكلت أنا أيضًا، اغتسلت، أشعلت سيجارتى وخرجت أتمشى. لم أكن أعرف أى شخص فى البلدة. لا أحد، كنت حرًا. كنت أستطيع أن أصفر فى الشارع، أن أضحك، أن أحدث نفسى، اشتريت بعض بذور التسلية ورحت آكلها وأبصق وأتسكع. كانت المصابيح قد أشعلت، والرجال يشربون العرق، والنساء عدن إلى بيوتهن، كان للهواء رائحة مساحيق تجميل وصابون ولحم مشوى. «قلت آه يا زوربا إلى متى ستعيش، وراح أنفى يرتعش مع الروائح، هل سأظل أسترق الشم، هيا خذ نفسًا عميقًا يا رجل!»

أخذت نفسًا عميقًا ورحت أتسكع ذهابًا وإيابًا فى الساحة الكبيرة، تعرفها. إلى أن سمعت فجأة أغانى ورقصًا ونقرًا على الدفوف وغناءً شرقيًا. استطالت أذناى ورحت أهرول نحو مصدر الصوت؛ كان مقهى صغيرًا به ملهى، لم أكن أبحث عن مكان أفضل من هذا، دخلت. جلست إلى إحدى الموائد الأمامية. وممَ أخجل؟ لقد كنت دومًا حرًا ومقدامًا!

كانت امرأة ضخمة ترقص على المنصة، كانت ترفع فستانها وتخفضه، لكننى لم أهتم. طلبت زجاجة بيرة وإذا بصغيرة تأتى وتجلس بجوارى، حلوة سمراء لكن صبغت وجهها بشكل مبالغ فيه.

- هل تسمح لى يا جدى؟ قالت ثم ضحكت.

استشاط غضبى واعترتنى رغبة عارمة فى أن أدق عنقها! لكننى تماسكت، تملكنى شعور بالحزن على جنس المرأة، فناديت النادل:

- شمبانيا! طلبت منه.

(اعذرنى يا سيدى فقد أنفقت مالك، لكنها كانت إهانة عظمى، كان لابد ألا أفضح، وكان على أن أنقذ سمعتنا وشرفنا وأن أجعل هذه الطفلة البائسة تجثو على ركبتيها أمامنا. لابد. أعرف إنك لن تتركنى أعزل فى هذه الساعة الصعبة، فأنا أعرفك جيدًا. الشمبانيا أيها النادل إذن)!

جاءت الشمبانيا، ثم طلبت حلوى، طلبت شمبانيا أخرى. مر بائع الياسمين فأخذت كل ما لديه وألقيته فى حضن الصغيرة.

شربنا وشربنا، لكن أقسم لك يا سيدى أننى لم ألمسها. أعرف ما أفعل؛ عندما كنت شابًا، كان أول شىء أفعله هو أن ألمس المرأة؛ الآن بعد أن شخت، أول شىء أفعله هو أن أنفق المال وأن أكون شهمًا وأنثر المال؛ فالنساء يعشقن أن يعاملن بهذه الطريقة، يفقدن صوابهن العاهرات ويفتتنَّ بك، حتى لو كنت أحدبَ وعجوزًا هزيلاً وقبيح الوجه والهندام، ينسين كل ذلك ولا يرين العاهرات سوى اليد التى تخرج المال وتنثرها. لذا، كما أقول لك لقد أنفقت الكثير من المال - بارك الرب فيك يا سيدى، أدعو أن تعاد إليك مضاعفة، هذا وقد راحت تقترب منى الفتاة وتحك ركبتها الناتئة بى؛ لكننى لم أستجب، وإن كنت أذوب فى داخلى. هذا ما يزيد جنونهن، لتعلم هذا إذا صادفك فى حياتك. أن يعلمن أنك تحترق من الداخل لكن لا تلمسهن.

فى النهاية، حل منتصف الليل ثم بزغ الفجر، وبدأ نور النهار يطلع، وأخذ الملهى يغلق أبوابه، أخرجت صرة المال ودفعت الحساب وأعطيت النادل بقشيشًا كبيرًا.

تعلقت الفتاة بى.

- سألتنى بصوت ذائب. ما اسمك؟

- أجبتها بمرارة. الجد!

قرصتنى الحمقاء بشدة:

- قالت لى تعال معى وغمزت لى بعينها.

أخذت يدها وشددت عليها بطريقة ذات معنى.

- هيا بنا يا صغيرتى.... أجبتها، وقد بح صوتى.

البقية معروفة. مارسنا الحب بجنون. ثم نمنا. عندما استيقظت عند الظهيرة. نظرت حولى، وماذا رأيت؟ الحجرة الصغيرة كانت رائعة وفى غاية الأناقة بها كراسٍ ومغسلة وصابون وزجاجات عطر ومرايا من أحجام مختلفة، وثياب ملونة مزركشة على الحائط وصور كثيرة: بحارة ورجال جيش وأدميرالات ورجال شرطة، نسوة عاريات، وعلى السرير إلى جانبى تلك الفتاة الدافئة العطرة بشعرها الأشعث. من جنس حواء.

آه يا زوربا دمدمت وأغلقت عينى لقد دخلت الجنة حيًا؛ يا له من مكان رائع، ابقَ هنا ولا تتزحزح!

كل إنسان يا سيدى كما قلت لك فى مرات سابقة له جنته الخاصة؛ فبالنسبة لك الجنة ستكون مليئة بالكتب وزجاجات الحبر؛ وبالنسبة لشخص آخر ستكون مليئة ببراميل النبيذ والعرق والكونياك؛ وبالنسبة لغيره ستكون مليئة بجنيهات إنجليزية؛ أما جنتى أنا فهى هذه: غرفة صغيرة معطرة وبها فساتين زاهية الألوان وصابون معطر وسرير عريض بوسائد طرية، وبجوارى أنثى.

الاعتراف بالذنب ينفيه؛ طوال اليوم لم أخرج خارج الحجرة لأفعل ماذا؟ دعك من هذا، كنت على ما يرام وطلبت طعامًا من أفضل مطعم فجاء الطعام على أطباق مليئة بالطعام والخيرات عليها كل ما لذ وطاب

ويقوى الجسد ويعزز طاقته، كافيار أسود ولحم مشوى وأسماك وفواكه كثيرة وقطائف وحلويات؛ مارسنا الحب ثانية وعدنا للنوم؛ استيقظنا فى المساء وارتدينا ملابسنا وأخذت الصغيرة وذهبنا إلى نفس المقهى الذى تعمل فيه.

كى لا أطيل عليك ولا أرهقك بتفاصيل مملة يا سيدى، فهذا البرنامج الذى حكيته لك ما زال قائمًا. لا تغضب؛ فأنا أحرص على عملنا أيضًا. من حين لآخر أخرج وأدور على المحلات، ألقى نظرة، سأشترى الأسلاك الفولاذية وكل ما نحتاجه، لا تقلق. ولا ضرر إن أتيت يومًا مبكرًا أو متأخرًا أو أسبوعًا بعد ذلك، فالقطة عند العجلة تلد هرات مشوهة؛ لا تتعجل إذن. فأنا أنتظر حتى أقرر قرارًا صحيحًا وأرتب أفكارى كى لا أخدع.

فالسلك لابد أن يكون على جودة عالية، أولاً، وإلا سيضيع كل مجهودنا هباء؛ تحلَّ بالصبر إذن، ثق بى.

ولا تقلق على صحتى أبدًا؛ فالمغامرات تغذينى جيدًا، فى غضون أيام قليلة عدت شابًا فى العشرين. لديه قوة كبيرة، لدرجة أننى أشعر أن أسنانًا جديدة ستنبت لى؛ كانت كليتاى تؤلماننى من قبل أتذكر؟ الآن صحتى ممتازة؛ كل صباح أنظر إلى المرآة وأتساءل كيف لم يسود شعرى بعد.

ربما ستتساءل لماذا أكتب لك هذا الخطاب؟ أنت بالنسبة لى مثل كاهن الاعترافات فلا أخجل أن أعترف لك بكل ذنوبى؛ أتدرى لماذا؟

هكذا يبدو لى، فأنت لا تهتم إن كنت أحسن صنعًا أم لا. تحمل إسفنجة مبللة مثل تلك التى يحملها الرب، وتمحو كل شىء، الجيد والقبيح. لهذا لدى الشجاعة أن أحكى لك؛ اسمع إذن:

أنا مرتبك للغاية، فقد اختلطت على الأمور وأكاد أجن؛ من فضلك، فور أن يصلك هذا الخطاب امسك بالقلم واكتب لى الإجابة فورًا؛ حتى يصلنى ردك سأنتظر على أحر من الجمر. أظن أن الآن ومنذ سنين طويلة قد تم محو اسمى من سجلات الرب، أو الشيطان لا فرق عندى. أظن أن اسمى موجود فى سجلاتك أنت فقط، لذا استمع لما سأقوله جيدًا. هذا ما يحدث يا سيدى:

بالأمس بالقرب من القرية كان أهل البلدة يحتفلون بأحد أعياد القديسين. ولولا - عفوًا لقد نسيت أن أقول اسمها، اسمها لولا - التفتت وقالت لى:

- يا جدى (إنها ما زالت تنادينى جدى، لكن بدلال)، جدى أريد أن أذهب إلى الاحتفال.

- اذهبى، قلت لها، يا جدتى اذهبى.

- لكن أريد أن أذهب معك.

- أنا لن أذهب، أشعر بالملل؛ اذهبى أنت.

- إذن، فلن أذهب أنا أيضًا.

حدقت بعينى.

– لن تذهبى؟ لماذا؟ أليست لديك رغبة؟

– إذا جئت معى، نعم لدى رغبة؛ أما إذا لم تأت فليست لدى رغبة.

– لكن لماذا؟ ألست إنسانًا حرًا؟

– لا لست هكذا.

– لست حرة؟

– لا أريد!

لا أدرى ماذا أقول يا سيدى؛ لقد صعقت.

– صرخت. ألا تريدين أن تكونى حرة.

– لا، لا أريد! لا أريد! لا أريد!

سيدى، أكتب إليك من حجرة لولا، على أوراق لولا، انتبه من فضلك: أنا أعتقد أن الإنسان يريد أن يكون حرًا؛ المرأة لا تريد أن تكون حرة؛ هل المرأة إذن إنسان؟

من فضلك أجبنى على الفور. أطيب تمنياتى:

«أنا، أليكسيس زوربا»

بعد وقت طويل من قراءة خطاب زوربا الطويل، أحسست بتشويش هائل ولم أستطع أن أتخذ قرارًا. لم أدر، هل أغضب أم أضحك أم أعجب بهذا الإنسان البدائى الذى خرق قشرة الحياة – المنطق والفضيلة والشرف –

ووصل إلى جوهرها مباشرة. كل الفضائل الصغيرة المفيدة تغيب عنه، وبقيت لديه فقط فضيلة مزعجة خطيرة تدفعه بشكل لا يقاوم نحو حدود الهاوية.

هذا العامل الجاهل والذى عندما يكتب يحطّم القلم من فرط طيشه، هو دائمًا متحمس مثل الإنسان البدائى الذى هرب من سلالة القردة هو مثل الفلاسفة العظام، لا تشغله سوى المشاكل الأساسية للحياة ويعيشها مثل ضرورة وحاجة طارئة. مثل طفل يرى كل شيء لأول مرة، ودائمًا يندهش ويسأل، وكل شيء يبدو له إعجازيًا، وكل صباح يفتح عينيه ويرى الأشجار والبحر والأحجار والطيور، وينظر لها كل يوم باندهاش. ويصرخ يا لها من معجزة. ماذا تعنى شجرة وبحر وحجرة وطير؟

أذكر ذات يوم، كنا نسير ناحية القرية فقابلنا عجوز يمتطى حمارًا. ففتح زوربا عينيه على اتسعاهما وراح ينظر إلى الحمار. كانت نظرته حادة للدرجة التى أزعجت العجوز الذى صاح مذعورًا:

– بحق الرب يا بن العم، لا تحدق فيه هكذا لتحسده!

ثم رسم علامة الصليب على صدره.

التفت إلى زوربا:

– ماذا فعلت للعجوز ليصيح هكذا؟

– أنا؟ لم أفعل له شيئًا؛ كنت أنظر إلى الحمار؛ ألم يثر انتباهك يا سيدى؟

- ماذا؟

- أن فى هذا العالم يوجد حمير وبغال.

وفى يوم آخر كنت مستلقيًا على الشاطئ أقرأ، وجاء زوربا جلس أمامى متربعًا، أخرج السانتورى ووضعه على ركبتيه ثم أخذ يعزف.

رفعت عينى ونظرت له. كان تعبير وجهه يتغير بين الحين والآخر، كانت تغمره فرحة وحشية، بهجة عارمة، مد رقبته المجعدة نحو السماء وراح يغنى.

ألحانًا مقدونية وأغانى متمردين، وراح يطلق أصواتًا وحشية، وكأن حنجرة الإنسان قد عادت إلى العصر البدائى، حيث كانت الصرخة توليفة تحل محل ما نسميه اليوم بالموسيقى والشعر والانفعالات. «الـ آه والـ آخ!» كانت تخرج من أعماقه، فكانت تشرخ تلك القشرة لما نسميه نحن الثقافة والحضارة، وكان يقفز من داخله الوحش الخالد والإله المشعر والغوريلا الرهيب.

الفحم والأرباح والخسائر، الـ بوبولينا، كل هذا اختفى. الصرخة هدمت كل شىء، لم نعد بحاجة إلى أى شىء؛ وقفنا نحن الاثنين على الشاطئ الكريتى المهجور، نحمل فى صدورنا مرارة الحياة وحلاوتها، لم تكن هناك مرارة ولا حلاوة، الشمس غابت وجاء الليل، كان النجم القطبى العجوز يرقص فى زاوية السماء وصعد القمر وراح يراقب مرتعدًا حشرتين تغنيان على الرمال ولا تخافان أحداً.

– إيبيه، يا له من وحش هذا الإنسان.

قال زوربا فجأة وهو لا يزال مثاراً بوحشية من فرط الغناء: دعك من الكتب، ألا تخجل؟ إن الإنسان وحش برى، والوحوش لا تقرأ!

صمت قليلاً، ثم ضحكت.

قال زوربا: أتدرى كيف خلق الرب الإنسان؟ وما هى الكلمة الأولى التى قالها هذا الوحش الذى هو الإنسان للرب؟

– بالطبع لا؛ أنّى لى أن أعرف مثل هذه الأشياء؟ فأنا لم أكن هناك.

صاح زوربا: أنا كنت هناك! قال وعيناه تشعان.

– قل إذن!

وبدأ زوربا وهو نصف مخبول ونصف ساخر يحكى أسطورة خلق الإنسان:

حسنًا؛ اسمع يا سيدى! لقد استيقظ الرب ذات يوم غاضبًا وتساءل: «أى رب أنا؟ لم لا يكون لدى بشر يسبحون لى ويسبوننى، كى يمر الوقت؟ لقد مللت أن أعيش وحيداً كغراب البين. تفووو!».

بصق فى كفيه واستعد، وضع نظارتيه. وأخذ حفنة من التراب وبصق فيها فصارت طينًا وأخذ يعجن فيها جيداً حتى صارت إنسانًا ثم وضعه فى الشمس. بعد سبعة أيامٍ كان قد نضج ونظر إليه الرب وضحك ثم قال:

اللعنة، هذا أشبه بخنزير واقف على ساقيه ولقد كنت أريد أن أصنع شيئًا آخر ولكن لا بأس!

أمسك به من قفاه وركله بقدمه:

- هيا، اذهب وأنجب خنازير كثيرة، هذه الأرض لك!

وراح يعد له: واحد، اثنان، اقفز!

لكن هذا يا عزيزى لم يكن خنزيراً، فقد كان يضع قبعة على رأسه ويلقى سترة على كتفيه وبنطالاً خشناً ونعلاً تركيًا بخصلة حمراء فى مقدمته، وكان الشيطان قد أعطاه خنجراً منقوشاً على نصله الحاد «سوف أقتلك!»

وكان الإنسان! مد الله له يده ليقبلها، لكن الإنسان فتل شاربيه وقال:

هيا أيها العجوز، دعنى أمر!

توقف زوربا عن الكلام وهو يرانى أنفجر ضاحكاً، فعبس وجهه وقال:

لا تضحك، هذا ما حدث!

- وكيف عرفت؟

- هكذا حدث، أقول لك، فأنا كنت سأفعل هكذا إن كنت فى مكان آدم. أراهن برأسى إن لم يكن هذا هو تصرف آدم، ولا تصدق ما تقرؤه وتقوله لك الكتب، اسمع منى أنا!

مد يده دون أن ينتظر منى أى رد، وبدأ ثانية يعزف السانتورى.

كانت رسالة زوربا المعطرة لاتزال فى يدى، برسمتها ذات القلب المرشوق، ورحت أتذكر كل الأيام التى قضيناها معًا كم كانت مليئة بأشياء إنسانية جوهرية. صار للوقت والزمن طعمًا جديداً؛ لم يعد للأحداث تعاقبٌ زمنىٌّ ولا حسابىٌّ ولا حتى فلسفىٌّ معقدٌ، لكل شىء كان هناك حلٌّ وتفسيرٌ؛ كأن هناك رملاً دافئًا أشعر به يتسلل من بين أصابعى.

- همست، بارك الرب فيك يا زوربا، فقد أعطى لكل الأفكار المجردة التى ترتعش داخلى جسداً دافئًا. وعندما يغيب أشعر بالبرد مجدداً.

أخذت ورقة، ناديت على أحد العمال ليرسل تلغرافًا على عجل:

«عد سريعًا»

عصر يوم السبت فى أول شهر مارس كنت أكتب وأنا متكئ على صخرة أمام البحر. رأيت أول طائر سنونو، وكنت فرحًا، كنت أكتب تعويذة بوذا على الورق بلا توقف، وصار صراعى مع التعويذة أكثر لطفًا، لم أكن متعجلاً بل كنت واثقًا من النجاة.

فجأة شعرت بخطوات فوق الحصى؛ رفعت رأسى ورفعت عينى ووجدت الحورية العجوز تتدحرج على الشاطئ متزينة كفرقاطة لاهثة وبدت لى الحورية العجوز متوترة.

- هل وصلت رسالة. سألتنى بقلق.

- نعم! أجبتها ضاحكًا ووقفت كى أستقبلها. يرسل لك الكثير من التحيات كما قال لى زوربا فى الخطاب، إنه يفكر فيك ليل نهار ولا يستطيع أن يتناول لقمة طعام يقول، ولا ينام، إنه لا يقوى على فراقك.

- وماذا يقول أيضاً؟

حزنت من أجلها؛ أخرجت الخطاب من جيبى، تظاهرت أننى أقرؤه. ففغرت الحورية فمها الخالى من الأسنان، وضمت عينيها نصف إغماضة وراحت تنصت إلى متلهفة.

تظاهرت بالقراءة وعندما كنت أرتبك أتظاهر بأنى لا أستطيع أن أقرأ خط يده: «بالأمس ذهبت يا سيدى إلى أحد المطاعم الرخيصة لآكل شيئًا حيث إننى كنت ممنوع من شروب العرق. ورأيت فتاة رائعة الجمال مثل جنية حقيقية تدخل. يا ربى، كيف تشبه بوبولينتى! فراحت الدموع تنهمر من عينى، تحشرج حلقى، ولم أستطع أن أبتلع شيئًا، دفعت حسابى وغادرت المكان. وأنا الذى لا أتذكر القديسين أبدًا، تأثرت كثيرًا يا سيدى، هرولت إلى كنيسة القديس مينا وأشعلت شمعة.

دعوت القديس، أيها القديس؛ دعنى أسمع أخبارًا سارة عن الملاك الذى أحب. واجعل لقاء جناحينا سريعًا»

- ضحكت مدام أورتانس وأشرق وجهها.

- لماذا تضحكين يا سيدتى؟ سألتها وتوقفت ألتقط أنفاسى وكى أجهز فى ذهنى أكاذيب أخرى. لماذا تضحكين؟ فأنا تأتينى رغبة فى البكاء.

- أتعرف... آه لو تعرف.... ثم انفجرت ضاحكة.

- ماذا؟

- إنه يقول أجنحة هذا العفريت، بينما عندما نكون وحدنا يقول تلتحم أقدامنا ويسميها الآن أجنحة... وانفجرت فى الضحك ثانية!

- استمعى إلى ما يلى يا سيدتى ستذهلين....

قلبت الصفحة، تظاهرت بالقراءة:

«اليوم مررت ثانية على الحلاق؛ وفى تلك اللحظة كان الحلاق يسكب وعاء الماء بالصابون خارج المحل؛ ابتلت أرضية الشارع. وأنا تذكرت بوبولينتى وأجهشت بالبكاء. لم أعد أستطيع التحمل يا سيدى أن أكون بعيداً عنه، سأجن. سأفقد صوابى؛ فى ليلة قبل الأمس لم يراودنى النوم مطلقًا فجلست أكتب شعرًا؛ اقرأه لها من فضلك يا سيدى حتى ترى كيف أعانى بعيدًا عنها:

«آه لو نلتقى فى درب

ويكون الدرب واسعًا بقدر آلامى

وإن قطعونى إربًا، وفرموا لحمى

لن تستريح عظامى إلا بجوارك»

راحت مدام أورتانس بعينها المنتفخة نصف المفتوحة تسمع بكل حواسها وبسعادة طاغية. حتى أنها نزعت الوشاح من حول رقبتها حيث كاد يخنقها وتركتها تجاعيد رقبتها حرة.

صمتت، تبسمت. كانت تعطى الإحساس أن عقلها يسرح بعيدا بعيدًا فى سعادة وكأن الماء قد جرفه إلى حيث لا تدرى.

شهر مارس حيث العشب الرطب والزهور الحمراء والصفراء والبنفسجية، المياة الرائقة تسبح عليها أسراب من إناث البجع الأبيض وذكور البجع الأسود بمناقيرها القرمزية المفتوحة وتخرج الأسماك من

الماء فتبرق ألوانها فى أشعة الشمس وتلهو مع ثعابين البحر. مدام أورتانس صارت فى الرابعة عشر من عمرها ترقص على السجاد الشرقى فى الأسكندرية وبيروت وأزمير والقسطنطينية ثم بعد ذلك على أسطح السفن فى شواطئ كريت... راحت تخلط الذكريات وتتوتر، وصدرها يعلو ويهبط. كل الأشياء بدت لها شيئًا واحداً، علا صدرها من النشوة واهتزت الشواطئ.

وفجأة بينما كانت ترقص، امتلأ البحر بالمراكب بواجهات ذهبية، وبأشرعة ملونة وترفرف عليها رايات حريرية ووخرج منها باشوات بطرابيش حمراء نوات خصلات ذهبية، وأثرياء عجائز متدينين بهدايا ثمينة فى أيديهم، وأولاد بلحى ناعمة وخرج الأدميرالات بقبعاتهم المثلثة اللامعة، والبحارة بياقاتهم الناصعة البياض وبناطيلهم الفضفاضة. وخلفهم أولاد كريتيون بسراويلهم المنتفخة ذات اللون الأزرق الفاتح وأحذيتهم المدببة الصفراء اللون وعلى رؤوسهم مناديل سوداء، ويخرج زوربا بعدهم طويلاً نحيلاً من فرط ممارسة الحب، مرتديًا خاتم خطوبة ضخم فى إصبعه وعلى رأسه الرمادى تاج من زهور الليمون...

خرج كل الرجال من المراكب إلى حيواتهم الطبيعية، كلهم بلا استثناء ولم يبق أىٌّ منهم؛ والبحار العجوز عديم الأسنان الأحدب، الذى خرجت معه تتنزه فى مياه إسطنبول وكان الظلام قد حل ولم يكن هناك أحد على الإطلاق.... الجميع كان قد خرج، وفى الخلفية امتزجت ثعابين البحر مع البجع.

خرج الرجال وتحلقوا حولها، كانوا كلهم فى حالة هياج شهوانية، يحومون حولها جاهزين للهجوم. وفى الوسط تقف أورتانس تتصبب عرقًا عارية بشفاه نصف مفتوحة وأسنان حادة - تقف ثابتة فى الرابعة عشر من عمرها وفى الثلاثين والأربعين والستين....

لم يضع شىء، لم يمت أى محبوب، فى صدرها العطب عادوا جميعهم للحياة متسلحين. وكأن الفرقاطة ذات الثلاث أشرعة كانت مدام أورتانس وكل عشاقها في هذه السنوات الخمس وأربعين من العمل الدائم - يتسلقون على متنها، يصعدون إلى العنابر، وإلى جوانبها العلوية، والفرقاطة تواصل الإبحار، بعد أن حاربت وقصفت ودكت كثيراً، وتتوق دومًا أن تصل إلى ميناء آخر بعيد: الزواج وزوربا اتخذوا ألف وجه، تركى وأوربى وأرمينى وإنجليزى وعربى ومدام أورتانس تعانق كل أجناس الأرض....

الحورية العجوز أدركت فجأة أننى توقفت عن القراءة، فانقطع حبل خيالها ورفعت فجأة رمشها الثقيل:

- ألا يقول شيئًا آخر؟ دمدمت بعتاب وهى تلعق شفتيها بشراهة.

- ماذا تريدين أكثر من ذلك يا مدام أورتانس؟ ألا ترين؟ كل الخطاب يتحدث عنك. انظرى، أربع صفحات كاملة.

هناك قلب على زاوية الأوراق يقول زوربا أنه رسمه بنفسه. نظرت إلى القلب وسهم العشق مغروس فيه، وأسفله زوج من اليمام يتعانقان

ويتبادلان القبل؛ وعلى أجنحتهما مكتوب بخط صغير لا يظهر جيداً مكتوب بخط متداخل بحبر أحمر: أورتانس زوربا.

لم يكن هناك لا يمام ولا حروف ولا أسماء؛ لكن عينيّ الحورية العجوز اللتين اغرورقتا بالدموع كان لديهما الاستعداد أن تريا ما تشتاق إليه السيدة أورتانس.

- سألت ثانية غير راضية. لا شيء آخر؟ لا شيء آخر؟

كل هذا - قديس وأجنحة وصابون الحلاق وطيور ويمام - كل هذا الكلام الرقيق وهواء وعشق؛ لكن عقل المرأة يحب التوابل فكانت تطلب المزيد وشيئًا ملموسًا أكثر. كم مرة في حياتها قد سمعت هذا النوع من الهراء! وفيم أفادها. بعد كل هذه السنوات من العمل الشاق، بقيت وحدها بلا أنيس.

- لا شيء آخر؟ دمدمت مرة أخرى بعتاب؛ لا شيء آخر؟

نظرت إلى مثل غزالة مطاردة؛ أسفت لحالها.

- يقول شيئًا آخر، شيئًا في غاية الأهمية يا مدام أورتانس، قلت لها؛ وهذا ماتركته للنهاية.

- قل لي ما هو؟ قالت متلهفة.

- لقد كتب قائلاً إنه فور عودته كما يقول سوف يجثو على ركبتيه يتوسل إليك والدموع في عينيه كي تقبلي الزواج منه. فإنه لم يعد يحتمل. يريد أن يجعلك زوجته، مدام أورتانس زوربا، كي لا تفترقا أبداً....

الآن راحت الدمــوع تجـرى من عينيـهـا وها هـى الفرحة الكبيـرة وها هو الميناء الكبير وها هو شوق السنين الموجع، كفى!

مسحت دموعها.

– قـالت: حـسنًا بعظمـة النبـلاء، قـبلت. لكن عليك أن تكتب له من فضلك، وأن تقول له أن هنا فى القـرية لا توجد تـيجـان للزواج؛ لابد أن يحضر معه من المدينة تاج زواجنا وأن يحضر أيضًا شمعتين كبيرتين بشرائط وردية، وملبسًا باللــوز من النــوع الجـيد. ويحضــر فسـتـان عرس أبيض، وجوارب حريرية وحذاء. لدينا ملاءات، اكتب له ألا يحضر، كما لدينا سرير.

رتبت طلباتها، جعلت من زوجها حمـالاً يحملها ويحضرها. وقفت، وفجأة اتخذت هيئة امرأة متزوجة وقورة.

– قالت: لدى شىء هام أود أن أقترحه عليك.

– قولى يا مدام زوربا؛ تحت أمرك.

– إن زوربا وأنا نحـبك؛ فـأنت رجل كـريم ولن تـخـذلنا. هل تقـبل أن تكون وصيفًا فى زواجنا؟

صدمت. لقد كان لدينا فى بيت العائلة خادمة عجوز تدعى ذيامانتو، كان عمرها فوق الستين عامًا. كانت مـخبولة من عدم الزواج وعصبية، نحيفة جدا ليس لها صدر كباقى النساء، وعندها شـعر تحت أنفها يشبه الشوارب. قد أحبت ميتسو ابن بقال الحى، كان ولدًا سمينًا قرويًا أمردَ.

كـانت تسـألهِ كل يوم أحـد: مـتـى سـتـتـزوجنى؟ كيف يمكنـك أن تحتمل؟ فأنا لا أستطيع!

- ولا أنا أحتمل.

كان يجيبها البقال الماكر الذى كان يحسن الحديث إليها كى يضمن أن تكون زبونة دائمة: ولا أنا أحتمل يا ذيامـاندو يا حبيبتى، اصبرى قليلاً حتى تنبت لى شوارب....

وهكذا كانت السنون تمر على العجوز ذياماندو وكانت صابرة تنتظر، وكان يهدئ أعصابها، ويهدئ ألم رأسها أيضًا. وتعلمت شفتاها المريرتان اللتان لم تقبلا الابتسام قط، فكانت تقوم بأعمال المنزل بشكل أفضل، وتغسل أحسن وتكسر أطباقًا أقل، ولم تعد تحرق الطعام.

- أ تقبل أن تكون وصيفًا؟

سألتنى خلسة ذات مساء.

- نعم يا ذياماندو.

أجبتها وحلقى تحشرج من المرارة.

هذه الوصافة أذاقتنى الكثير من المرارة، فها أنا أسمع الشىء نفسه من مدام أورتانس، وها هو قلبى يرتجف.

- نعم يا مدام أورتانس؛ إنه شرف لى...

- ها قد صرنا أقارب، لابد أن تعتاد على هذا، على الأقل عندما نكون بعيداً عن الناس...

قالت، وابتسمت بفخر.

نهضت، وعدلت من جدائل شعرها التى أفلتت من القبعة، ولعقت شفتيها.

- تصبح على خير! طابت ليلتك، قالت، أرجو أن يعود إلينا سريعًا...

رحت أراقبها وهى تتهادى بعيداً. تتمايل بجسدها العجوز كأنها صبية صغيرة تسير بدلال وتكاد تطير من الفرحة؛ وحذاؤها القديم المعقوف كان يترك آثاراً عميقة فى الرمال.

لم تكد تبتعد عن الشاطئ، حتى سمعت أصوات بكاء ونحيب عالية على الشاطئ.

قفزت من مكانى وجريت نحو مصدر الصوت، رأيت عند خليج البحر نساء يولولن وكأنهن ينشدن ندبة أو رثاءً؛ صعدت على إحدى الصخور، رأيت رجالاً ونساءً يهرعون إلى الأمام، وخلفهم كلاب تنبح، وحوالى ثلاثة رجال يمتطون أحصنة ينطلقون أمامهم، وكانت تتصاعد سحابة غبار كثيفة.

قلت فى نفسى لابد أن هناك حادثًا، ورحت أجرى نحو الخليج.

بدأ صوت الجلبة يعلو؛ كانت الشمس تغرب، وكانت ثلاث سحابات ورديات قد ثبتن فى السماء. وشجرة تين السيدة الشابة مكسوة بأوراق خضراء.

فجأة وجدت مدام أورتانس أمامي؛ عادت شعثاء الشعر لاهثة، بفردة حذاء واحدة، الفردة الأخرى كانت تمسكها في يدها. كانت تجرى وتبكي.

- كادت تسقط فوقي بعد أن تعرقلت وهي تجرى فأمسكت بها.

- لماذ تجرين؟

وساعدتها أن ترتدى فردة حذائها.

- إني خائفة... خائفة....

- ممَ تخافين؟

- الموت.

لقد شممت رائحة الموت في الهواء وارتعدت. أمسكتها من ذراعيها المتهدلين لآخذها نحو المكان، لكن جسدها العجوز كان يقاوم ويرتعش.

- لا أريد... لا أريد... صاحت.

كانت البائسة تخاف أن تقترب من مكان ظهر فيه الموت. مثل جميع العجائز - حتى لا يراها الموت ويتذكرها...

مثل كل العجائز، كانت تحاول حوريتنا العجوز أن تختبئ تحت حشائش الأرض وأن تختبئ تحت التراب وأن تصبح خضراء اللون أو بنية اللون، حتى لا يستطيع الموت أن يراها أو يميزها عن التراب أو العشب. حشرت رأسها داخل كتفيها المكتنزين وهي ترتجف.

زحفت نحو شجرة زيتون، مدت معطفها المرقع وتمددت.

– دثرنى، قالت دثرنى ثم اذهب.

– أتشعرين بالبرد؟

– نعم، دثرنى.

غطيتها بقدر ما أستطيع حتى لا تكون مميزة عن الأرض وذهبت.

اقتربت من الخليج حتى استطعت أن أميز النواح والندب. مر ميميكو من أمامى مهرولاً.

– ماذا يحدث يا ميميكو؟

– لقد غرق! غرق! أجابنى دون أن يتوقف.. غرق!

– من؟

– بافلو ابن مافروأندونى!

– لماذا؟

– الأرملة....

ضاع صوته فى صوت النواح. وعلقت الكلمة فى الهواء، وامتلأ الهواء بقطع متناثرة من جسد الأرملة الخطير.

وصلت إلى الصخرة حيث كانت كل القرية مجتمعة.

الرجال كانوا صامتين، بدون غطاء رأس. النساء وضعن مناديلهن على أكتافهن ورحن يشددن شعورهن ويولولن بصوت حاد.

وفوق الحصى كانت الجثة ممددة زرقاء ومنتفخة. العجوز مافروأندونى كان يقف ساهمًا بلا حراك كنت أراه يضع يده اليمنى على عصاه وبيده اليسرى كان يمسك لحيته الرمادية.

– عليك اللعنة أيتها الأرملة! سُمع فجأة صوت حاد.

لينتقم منك الرب!

وثبت امرأة والتفتت نحو الرجال:

– ألا يوجد رجل فى هذه القرية يذبحها تحت قدميه مثل النعجة؟ تفــووو!

وبصقت على الرجال الذين نظروا إليها فى صمت.

كوندومانوليو صاحب المقهى، انتفض:

– لا تحقرى من شأننا يا كاترينا المجنونة، صاح؛ لا تحقرى من شأننا، ففى القرية رجال أشداء وسترين!

– لم أحتمل:

– هذا عيب يا رجال! صحت؛ وما ذنب المرأة؟ هذا مكتوب وهو قدر الرب. ألا تخشونه!

لكن أحداً لم يرد على كلامى.

مانوليس الصغير ابن عم الغريق بجسده العارى، انحنى واحتضن جثمان ابن عمه بين ذراعيه ورفعه وهم ذاهبًا نحو القرية. راحت النساء

ينحن ويولولن فور أن رأين الجثمان محمولاً، ورحن يهرولن خلفه كي يتعلقن به. لكن مافروأندوني العجوز لوح لهن بعصاه، وسار أمام الموكب. وخلفه تبعنه النساء وهن ينشدن رثاءهن، بينما سار الرجال في صمت.

اختفوا في الظلام. وسمع من جديد صوت البحر يتنفس. نظرت حولي؛ لقد صرت وحدي.

- هممت بالعودة. فهناك الكثير من المرارة في هذا اليوم، لنحمد الرب.

قطعتُ الدرب شارد الفكر؛ وفي الضوء الباهت ظهر العم أناغنوستي حيث كان لا يزال هنا يتكئ على صخرة؛ أسند ذقنه على عصاه الطويلة وراح ينظر إلى البحر.

ناديت عليه فلم يسمعني؛ اقتربت حتى رآني، وهز رأسه:

- عالم بائس! دمدم قائلاً. يا لخسارة الشباب! لكن الفتى المسكين لم يحتمل أحزانه، فألقى بنفسه في البحر وغرق. لقد نجا.

- نجا؟

- نجا يا بني، لقد نجا. ماذا كان يمكنه أن يفعل بحياته؟ إذا تزوج الأرملة كانت المشاجرات ستنشب وتجلب الفضائح. لأنها كالفرس، ساخنة وتصهل كلما رأت رجلاً. وإذا لم يتزوجها؛ كان سيبقى حزينًا طوال حياته؛ لأنه كان سيعتقد أنه فقد سعادة عظيمة في حياته. كان أمامه البحر وخلفه الهاوية.

– لا تتحدث هكذا يا عم أناغنوستى، فإنك تجلب اليأس لمن يسمعك.

– لا تقلق يا ولدى؛ من سيسمع؟ من يسمع ومن يصدق. هل كان أكثر حظًا منى؟ لدى أراض، وأشجار وزيتون ومنزل له طابقان، كنت مجتهداً؛ كنت محظوظًا فى الزواج فلدى امرأة طيبة، مطيعة وربة بيت رائعة؛ لم ترفع أبدًا عينها فى وجهى، وأولادى على ما يرام؛ ليس لدى شىء آخر. لدى أحفاد أيضًا؛ ماذا أريد من الحياة؟ لقد زرعت بذوراً جيدة وها هى تطرح وتزداد عمقًا. ولو كان على أن أبدأ حياتى من جديد سأفعل ما فعله بافلى سأربط حجراً حول رقبتى وألقى بنفسى فى البحر. حتى وإن كان لديك حظ فى الحياة فهى قاسية، اللعنة عليها!

– لكن ماذا ينقصك يا عم أناغنوستى؟ لماذا تتنهد هكذا؟

– لا ينقصنى شىء، هل تجلس هنا وتتساءل ماذا يثقل قلوب الرجال!

صمت للحظة ثم نظر ناحية البحر ثانية وبدأ الظلام يهبط:

– أحسنت يا بافلى! صاح وهو يرفع عصاه؛ دع النساء تصرخ، فهن نساء وليس لديهن عقل وأنت قد نجوت؛ وأبوك يعرف هذا، ولهذا فهو لا يبكى.

ألقى نظرة نحو السماء وحول الجبال التى بدأت تختفى فى الظلام.

– لقد حل الليل، قال، سأذهب.

توقف كأنه ندم على شيء قاله؛ كأنه باح بسر عظيم وهو الآن يصارع ليسترده.

رفع يده الجافة على كتفى وقال مبتسماً:

- أنت شاب، لا تستمع إلى العجائز، فلو استمع العالم للعجائز سينهار. إذا صادفت فى حياتك أرملة جيدة فلا تتردد! تزوجها، أنجب أطفالاً، لا تجبن؛ فالمتاعب خلقت للرجال الأشداء!

وصلت إلى الشاطئ، أشعلت النار ورحت أعد شاى المساء وكنت مرهقًا وجائعًا، والآن استرحت وأكلت بنهم، وشعرت بسعادة عميقة وأنا مستسلم لحيوانية الإنسان الأبدية.

وفجأة دس ميميكو رأسه المسطح من النافذة وراح ينظر إلى وأنا أمام النار آكل وابتسم لى بمكر.

- ماذا تريد يا ميميكو؟

- أتيت إليك بتحية من الأرملة؛ قفص من البرتقال. إنها الحبات الأخيرة من حديقتها كما تقول.

- من الأرملة؟ قلت مرتعداً. ولماذا ترسلها لى؟

- من أجل الكلمة الطيبة التى قلتها لأهل القرية اليوم.

- أية كلمة طيبة؟

- لا أدرى: هذا ما قالته لى، هذا ما أقوله لك!

أفرغ السلة على الفراش؛ صارت رائحة الكوخ برتقالاً.

- قل لها إنى أشكرها على الهدية وأن تحترس! تحترس ولا تخرج إلى القـرية، أتسـمع؟ قل لهـا أن تلزم المنزل حـتى يمـر بعض من الوقت وينسى الناس ما حدث. فهمت يا ميميكو؟

- هل تأمر بشىء آخر يا سيدى؟

- لا شىء، اذهب.

غمز لى ميميكو.

- لا شىء آخر؟

- اذهب!

غادر. قشرت برتقالة وكانت غضة وحلوة كالعسل؛ تمددت، أخذنى النوم وطوال الليل كنت أحلم أنى أسير فى النسيم الساخن تحت أشجار البرتقال، وكان صدرى عارياً وممتلئًا، وكنت أضع غصن ريحان خلف أذنى. كنت قروياً عمرى عشرون عامًا، وأسير ذهابًا وإيابًا فى حديقة البرتقال أصفر وأنتظر... من كنت أنتظر، لا أدرى؛ لكن قلبى كاد ينفطر بسبب الأرملة؛ برمت شاربىَّ ورحت أنصت إلى البحر طوال الليل خلف أشجار البرتقال يتنفس وكأنه امرأة.

هبت رياح جنوبية ملتهبة من شمال إفريقيا محملة بالرمال. سحب من الرمال الناعمة تحوم فى الهواء وتدخل إلى الحلق والأحشاء. تتسلل بين الأسنان وتحرق العيون، لابد أن يغلق المرء الأبواب والنوافذ جيداً إذا أراد أن يأكل قطعة خبز بلا رمال.

الجو حار مختنق. كان قد أصابنى الاكتئاب والأعياء الذى يتلازم مع دخول فصل الربيع المتقلب.

أصابنى الأعياء وآلام فى الصدر، وخدر بكل جسدى ونوع من الحنين قد أصابنى، لا أدرى حنين إلامَ؟ - إلى سعادة بسيطة جداً. نفس النشوة، ونفس الألم لابد أن تشعر به براعم الأشجار فى هذه الأيام وبالتأكيد ستشعر الشرنقة وهى تتفتح ويخرج المولود منها ويشعر بنفس الألم فى أجنحته.

سرت على الدرب نحو الجبل، أتمشى ثلاث ساعات فى المدينة الميناوية التى ظهرت من تحت الأرض بعد ثلاثة أو أربعة آلاف عام، لتتدفأ تحت الشمس الكريتية. قلت ربما إرهاق السير يخفف من اكتئابى الربيعى.

أحجار رمادية صخرية عارية تلمع فى الضوء، الجبل كما أحبه تماماً، وعر خشن وجاف مقفر بلا أشجار أو جمال رومانسى.

بومة قد أعماها الضوء الشديد بعينين صفراوين كانت تجثم فوق صخرة وكانت جميلة هادئة ومليئة بالألغاز وكنت أمشى بخفة كى لا تسمعنى، إنّما سمعها حاد جداً، خافت وطارت، وبين الصخور اختفت. كانت رائحة الزعتر تفوح فى الأرجاء؛ كانت أزهار الجولق الصفراء الرقيقة تتفتح بين أشواكها.

عندما وصلت إلى مدينة صغيرة مهجورة. انبهرت. صرنا فى الظهيرة والضوء كان عمودياً يغسل الأطلال. فى مدن مهجورة ومهدمة هذه الساعة خطرة. الهواء ملىء بالأصوات والأشباح. سمع صرير غصن يتحرك، سحلية تزحف، وعندما تمر سحابة تلقى بظلالها على المكان ويصيبك الرعب.

هناك قبر فى كل شبر تطؤه قدمك، والموتى يصرخون.

بعد حين اعتادت عيناى على الضوء الشديد والآن داخل هذه الأحجار وبدأت أرى بوضوح ماذا صنعت يدا الإنسان بين هذه الأطلال: شارعان واسعان ممهدان بالحجر الجيرى، وعلى جانبيهما يميناً ويساراً أزقة ضيقة ملتوية وساحة دائرية فى المنتصف والسوق العامة التى كانت منتدى للنقاش أيضاً وبجوارها وبتسامح ديمقراطى يقبع القصر الملكى، بأعمدته المزدوجة ودرجاته العريضة، ومخازنه الضيقة الطويلة.

وفى قلب المدينة، هناك حيث الأحجار المتآكلة من أثر أقدام الناس، ضريح الآلهة الكبير بثدييها الخشبيين والثعابين المقدسة أمامها.

وفى كل مكان محلات صغيرة وورش عمل - معاصر الزيت وورش حدادة ونجارة وخزف. مدينة صغيرة مصممة بدقة وعناية فائقة مثل خلايا النمل، لكن النمل قد هجرها منذ آلاف السنين وفى إحدى الورش أحد الصناع المهرة راح ينحت صخرة ذات عروق كثيرة لكن على ما يبدو لم يكن لديه الوقت الكافى لينتهى من عمل فنى فريد. وسقط الأزميل من يده ليتم اكتشافه بعد آلاف السنين بجوار قطعته الفنية غير المكتملة.

الأسئلة الأبدية الحمقاء تخطر على ذهنك كى تسمم قلبك.: لماذا؟ ولأى سبب؟ هذا العمل الفنى الذى انكسر منه جزؤه العلوى لماذا لم ينتهِ وفى الوقت الذى كان الفنان الذى يصممه فى أوج الثقة والسعادة؟ إنه شىء يملؤك حزنًا وحسرة.

ظهر فجأة راعى غنم صغير، تركت الشمس أثرها على وجهه، يعقد منديلاً على رأسه على شكل عمامة يغطى بها شعره المجعد، وكان يقف منتصباً على أحد الأحجار بجوار أطلال القصر.

-- نادى على، يا بن العم.

كنت أود أن أبقى وحيداً؛ تظاهرت أنى لم أسمعه:

- لا تتظاهر أنك لم تسمعنى! هل لديك سيجارة يا بن العم؟ ففى هذا المكان المعزول سيقتلنى الملل.

مط هذا الجزء الأخير من كلماته بحرقة مما جعل قلبى يتألم من أجله.

لم يكن لدى سجائر، حاولت أن أعطيه نقوداً لكن الراعى غضب.

– اللعنة على المال؟ صاح. ماذا أفعل به؟ أقول لك أن الملل يكاد يقتلنى، أعطنى سيجارة!

– ليس معى، قلت له بإحباط، ليس معى!

– ليس معك، صاح الراعى بعصبية وضرب الأرض بعصاه بقوة. ليس معك! لكن ماذا لديك فى جيوبك وتبدو منتفخة هكذا؟

– قلت له وكأننى أعترف وأخرج ما فى جيوبى، كتاب ومنديل وأوراق، قلم وسكين صغيرة، هل أهديك السكين؟

– لدى كل شىء، ولدى خبز وجبن وزيتون وسكين وجلد لحذائى وقنينة ماء، كل شىء! لكن ليس لدى سيجارة؛ كأننى لا أملك شيئًا! وماذا تفعل أنت بين الأطلال؟

– أشاهد العالم القديم.

– وماذا تفهم من هذا؟

– لا شىء!

– وأنا أيضًا لا أفهم شيئًا. فقد مات القدماء، ونحن نعيش؛ هيا اذهب من هنا!

قال وكأنه هو صاحب المكان ويطردنى.

- قلت مطيعًا، سأذهب.

اتجهت بسرعة نحو الدرب الصغير، وفى لحظة التفت خلفى فرأيت الراعى الصغير الضجر لا يزال واقفًا منتصبًا على الصخرة، وخصلات شعره المجعدة تتطاير مع الريح الجنوبية من تحت عمامته. وكان الضوء يغمره من جبهته حتى قدميه، كأنه تمثال لشاب برونزى وكان يضع عصاته على كتفه ويصفر.

سلكت شارعًا آخر وبدأت أهبط نحو الشاطئ. كان النسيم الإفريقى الساخن يمر من على رأسى مشبعًا بروائح الحدائق القريبة؛ كان للتراب رائحة مميزة، البحر يضحك والسماء زرقاء صافية تبرق مثل الفولاذ.

إن الشتاء يقبض الجسد والروح؛ ويأتى الآن الدفء فيريح الصدر.. وبينما كنت أسير كنت أسمع صرخات مجشرجة فى السماء؛ رفعت رأسى ورأيت مشهدًا يقبض قلبى منذ كنت طفلاً صغيرًا: كان سرب طيور الكركى منظمًا كأنه فى عرض عسكرى، عائدًا من بلاد دافئة قضى فيها فصل الشتاء. والآن تهاجر من البلاد الحارة حاملةً طبقًا للأسطورة على أجنحتها طائر السنونو أو فى تجاويف عظامها.

إيقاع الفصول، عجلة العالم التى تدور، وجوه الأرض الأربعة؛ واحدًا بعد الآخر تضيئها الشمس، الحياة ترحل ونرحل معها، اضطرب قلبى.

دق صدى صوت طائر الكركى بداخلى مرة أخرى وهذا التحذير بأن هذه الحياة فريدة لكل إنسان، وهى الحياة الوحيدة، ليس هناك أخرى، فاسعد قدر ما تستطيع وتمتع هنا قدر ما تستطيع، فالحياة تمر بسرعة ولن تأتى مرة أخرى ولن تكون هناك أية فرصة أبداً.

عقل يسمع هذا التحذير القاسى غير الرحيم - والرحيم فى نفس الوقت، يتخذ قراراً أن يسيطر على حمقاته وضعفه، أن ينتصر على كسله وآماله غير المجدية ويتمسك بكل قواه بكل لحظة تمر ولا تعود مجدداً.

نماذج عظيمة تقفز إلى ذاكرتى، وترى كيف أن الإنسان هو لا شىء، وأن حياته تضيع فى متع صغيرة وأحزان صغيرة وحوارت ساذجة. فتصرخ وتعض على شفتيك «يا للعار، يا للعار»

سرب طيور الكركى شق السماء واختفى متجهًا نحو الشمال وما زالت تنعق بصوتها المحشرج، ظلت تحوم فى رأسى وتصيح.

وصلت إلى البحر، رحت أسير على الشاطئ بسرعة. من الصعب أن تسير وحدك على شاطئ البحر؛ كل موجة وكل طير فى السماء يصيح يذكرك بما يجب عليك أن تفعله، وعندما تسير مع آخرين فإنك تضحك أو تتحاور وفى هذا الضجيج لا تسمع الأمواج ولا الطيور؛ ربما لا يقولون شيئًا. ربما ينظرون إليك تمر داخل هذه الأصوات والثرثرة الحمقاء وهم صامتون.

تمددت فوق الحصى الصخرية، أغلقت عينى. «ما هى الروح؟ رحت أفكر، ما العلاقة الخفية بينها وبين البحر، السحب والعطور....».

نهضت وتحركت ثانيةً، لقد اتخذت قرارًا، ما هو؟ لا أدرى.

فجأة سمعت صوتًا فى داخلى:

- إلى إين أنت ذاهب يا سيدى؟ إلى الدير؟

التفت؛ كان عجوزًا قصيرًا نحيلاً بلا عصا، يربط منديلاً أسود على رأسه، يلوح لى بيده مبتسمًا. كانت تتبعه زوجته العجوز، وخلفهما ابنتهما، فتاة شديدة السمرة وحشية النظرات تضع وشاحًا أبيضَ على رأسها.

- سألنى العجوز مرة أخرى. إلى الدير؟

شعرت فجأة أننى قد اتخذت القرار نحو الدير بالفعل؛ كنت أريد أن أذهب إلى دير النساء الصغير منذ شهور الذى يقع بجوار البحر لكنى لم أقرر أبدًا، لكن جسدى كان قد قرر.

- أجبته، نعم؛ إلى الدير أريد أن أسمع أناشيد صلوات العذراء.

- باركت العذراء خطواتك!

أسرع من خطواته ولحق بى.

- هل أنت من يلقب بشركة الفحم؟

- نعم أنا.

- فلتمنحك العذراء ربحًا وفيرًا. لقد فعلت خيرًا بقريتنا؛ منحت سبل عيش للكثير من الفقراء والعائلات، بارك الرب فيك.

بعد قليل، أضاف العجوز النحيف الذى لا بد أنه نما إلى علمه أن أعمالنا لا تسير على ما يرام:

- حتى وإن لم تربح كثيراً يا ولدى، فلا تقلق! فأنت رابح بكل الأشكال؛ ستذهب روحك إلى الجنة...

- هذا ما أبغاه يا جدى.

- أنا لست شخصًا متعلمًا؛ لكن ذات مرة سمعت فى الكنيسة كلمات المسيح، وهذه الكلمات طبعت فى ذهنى ولم تمحَ منذ ذلك الحين: يقول؛ لابد أن تبيع كل ما تملك من أجل أن تشترى لؤلؤة كبيرة.. وما هى قطعة اللؤلؤة الكبيرة؟ نجاة روحك يا ولدى. سعادتك فى الطريق للحصول على اللؤلؤة يا سيدى.

اللؤلؤة الكبيرة! كم مرة لمعت فى ذهنى، فى الظلام مثل دمعة كبيرة؟

كنا نسير أنا والعجوز فى المقدمة، والنساء خلفنا تشبكان أيديهما. كنا نقول كلمة بين الحين والآخر وشيئًا عن أزهار الزيتون إن كانت ستسقط أم لا؟ هل ستمطر ليزداد محصول الشعير؟ يبدو أننا قد بدأنا نجوع، ولهذا تحول حديثنا عن الطعام ولم نغيره.

- ما هو طعامك المفضل يا سيدى؟

- كل الأطعمة محببة لدى يا ولدى؛ إنه ذنب عظيم أن نقول هذا الطعام جيد وهذا سيء!

- لماذا؟ ألا نستطيع أن نبدله؟

- بالطبع لا.

- لكن لماذا؟

- لأن ثمّة أناسًا جياعًا.

صمت خجلاً. فلم يصل قلبى أبدًا إلى هذه الدرجة من السمو والشفقة.

جرس الدير أخذ يدق مبتهجًا كضحكة امرأة.

رسم العجوز علامة الصليب على صدره وراح يتمتم دعواته:

- أيتها العذراء العظيمة ساعدينا؛ أيتها الشهيدة بسكين فى عنقك وتجرى دماؤك.......

وبدأ العجوز يثنى على العذراء كما لو كانت امرأة حقيقية، شابة لاجئة مضطهدة وطعنها الكفار فى شرفها فجاءت باكية من الشرق تحمل ابنها فى يوم من السنة يسيل دم حقيقى ساخن من جراحها، أذكر ذات مرة فى عيد العذراء، كنت شابًا صغيراً، نزلنا من كل القرى المجاورة كى نصلى لها وكان عيد العذراء الذى فى الخامس عشر من شهر أغسطس؛ تمددنا نحن الرجال لننام فى الساحة والنساء فى الداخل. وإذا بى فى منامى، يا إلهى يا سيدى! أسمع العذراء تصرخ قفزت

ناهضًا من نومى، هرولت نحو أيقونتها، مددت يدى نحو عنقها وماذا أرى؟ ابتلت أصابعى بالدماء....

رسم العجوز شارة الصليب؛ التفت نحو الخلف، نظر إلى النساء ونادى عليهن:

– هيا، لقد أوشكنا على الوصول.

كان صوته مبتسمًا:

– لم أكن قد تزوجت حينها؛ استلقيت على بطنى ورحت أصلى لها وأخذت عهدًا على نفسى أن أترك هذه الدنيا وأصبح راهبًا...

ضحك.

– لماذا تضحك يا جدى؟

– وكيف لا أضحك يا بنى؟ فعندما رأيتها فى المهرجان السنوى فى القرية وكأن الشيطان لبس زى امرأة ووقف أمامى؛ وكانت سيادتها!

قال وهو يشير بإصبعه للخلف دون أن يلتفت، إنها العجوز التى تتبعنا صامتة.

– لا تنظر إليها الآن، قال، فإن فكرة لمسها لا تحتمل. لكن آنذاك كانت لعوب مفعمة بالحياة مثل سمكة. كانت طويلة الأهداب وهكذا كانوا ينادونها. لكن الآن؛ يا لبؤس الحياة! ذهبت الأهداب وذهب كل شىء، كل شىء!

في لحظة، خلفنا، تنحنحت المرأة العجوز مثل كلب مقيّد؛ لكنها لم تقل شيئًا.

- ها هو الدير! أشار العجوز بيده.

عند شاطئ البحر، دير صغير يلمع من البياض محصور بين صخرتين كبيرتين.

في المنتصف كانت هناك قبة الكنيسة، المطلية حديثًا بالجير الأبيض، صغيرة ومستديرة كاملة الاستدارة، كانت تشبه ثدي امرأة؛ حول الكنيسة خمس أو ست حجرات بأبواب مطلية باللون الأزرق، وفي الفناء ثلاث أشجار سرو كبيرة؛ وسياج من أشجار الصبار المزهرة.

أسرعنا خطواتنا، صوت الأناشيد والترانيم كان يخرج من نوافذ المعبد والهواء المالح كان برائحة البخور، وكان باب المدخل المقوس مفتوحًا، كان الفناء ممتدًا ونظيفًا ومكسوًا بالحصى الأبيض والأسود الذي تراه على الشاطئ، وعلى امتداد الجدران يمينًا ويسارًا اصطفت أصص من أزهار الريحان والمردقوش والنعناع.

هدوء وسكينة، والشمس تغرب والجدران المطلية بالجير اتخذت لونًا ورديًا.

الكنيسة الصغيرة كانت دافئة نصف مضيئة وتفوح فيها رائحة الشمع؛ كان الرجال والنساء يتحركون وسط سحابات البخور وخمس

أو ست راهبات يرتدين عباءاتهن السوداء ينشدن بعذوبة صوت ذى نبرة عالية مزمور «رب القوى». وكان جميع الحضور يستغفرون، كان يسمع صوت هفهفة عباءاتهن كلما سجدن مثل رفرفة جناحى طائر.

مرت سنوات طويلة منذ أن سمعت تراتيل العذراء. بعد فترة التمرد فى أول سنوات شبابى حيث كنت أحضر إلى الكنيسة وقلبى معبأ بالكراهية؛ لكن مع السنين هدأت وخف غضبى. ومن حين لآخر كنت أحضر القداس فى الأعياد الكبيرة الأساسية، ميلاد المسيح والتهجد وعيد القيامة؛ وكنت أفرح أن يبعث الطفل الذى ظل بداخلى. يعتقد البوهيميون بأنه عندما تفقد آلة موسيقية قدرتها القدسية، تصدر صوتًا منسجمًا، وتلك هى السعادة الجمالية التى بقيت من الدين الداخلى.

وقفت فى أحد الأركان واتكأت على المقصورة التى صقلتها ونعمتها أيادى المؤمنين، وسمعت من عمق الزمن ألحانًا بيزنطية: «سلام على مريم، سُمُوُّك لا يدركه عقل بشر، عمق لا تراه عيون الملائكة... سلام على مريم، عروس السماء، الوردة الطاهرة.....»

ورحن الراهبات يسجدن فهفهفت عباءاتهن ثانية مثل رفرفة جناحى الطائر.

كانت اللحظات تمر مثل أجنحة الملائكة تفوح منها روائح البخور، ويمسكن زنابق لم تتفتح بعد، وينشدن ثناء لمريم العذراء. غربت الشمس، وغطتنا زرقة قاتمة. لا أذكر كيف وجدنا أنفسنا فى الفناء وكنت قد بقيت

وحدى مع كبيرة الراهبات وراهبتين شـابتين تحت أكبر شجـرة سرو في الفناء. قدمن لى حلوى الفاكهة المنقوعة في المربى والماء البارد، وحواراً هادئًا....

تحدثنا عن معجزات العذراء، وعن الفحم، وعن الدجاج الذى سوف يرقد على بيضه الآن وقد حل الربيع. عن الراهبة افنوكسيا التى أُصيبت بالصرع وسقطت على أرض الكنيسة تتخبط مثل السمكة وفمها يزبد وتمزق ملابسها

– إنها فى الخامسة والثلاثين من عمرها، قالت كبيرة الراهبات بعد أن تنهدت متألمة، مرحلة سنية قاسية، عل الشهيدة العذراء تساعدها وتشفيها من مرضها...

– دمدمت متنهداً، عشرة، خمسة عشر عاماً...

– وما هى عشرة أو خمسة عشر عاماً قالت كبيرة الراهبات بحدة؛ ألا تفكر فى الخلود؟

صمت؛ فأنا أعرف أن الأبدية أو الخلود هى كل لحظة نعيشها؛ قبلت يد كبيرة الراهبات، يداً بيضاء مكتنزة تفوح منها رائحة البخور، ثم غادرت.

حل الليل. كان هناك اثنان أو ثلاثة من الغربان تعود مسرعة إلى أعشاشها وكانت البوم تخرج من تجاويف الأشجار بحثًا عن الطعام،

والحلزون يخرج من الأرض، واليرقات والديدان والفئران لتكون طعاماً للبوم.

أفعى غامضة تأكل ذيلها والأرض تلد أطفالها ثم تأكلهم، ثم تعيد ولادتهم لتعيد التهامهم. إنها دائرة الحياة المحكمة.

تلفت حولي؛ كان الظلام حالكاً، صرت وحيداً تماماً.

كان آخر القرويين قد غادروا، لا أحد يراني. نزعت حذائي، ووضعت قدمي في البحر وتدحرجت على الرمال. كنت في احتياج إلى أن ألمس الحجارة والماء والهواء بجسد عارٍ. «الخلود» تلك الكلمة التي قالتها كبيرة الراهبات قد أثارتني، سقطت على مثل الحبل الذي يصطادون به الخيول البرية ونهضت محاولاً أن أهرب من الرغبة في لمس هذه الأشياء بدون ملابس وصدري على صدر الأرض والبحر وأن أشعر بالطمأنينة في أنّ هذه الأشياء الحبيبة إلى قلبي موجودة.

«أنت هنا، وحدك، صرخت في أعماقي، يا أيتها الصخرة والتراب والماء والهواء؛ وأنا، يا أيتها الأرض، أنا ابنك المحروم أمسك بثديك ولن أتركه. إنك لا تدعينني أعيش لحظة واحدة، إلاّ وتحولت هذه اللحظة إلى ثدي أرضع منه».

خيل إلي بأنني سأقع في كلمة «الخلود» هذه الكلمة آكلة لحوم البشر؛ رحت أجتر الذكريات متى كان؟ ربما في العام الماضي، حين توقفت عند هذه الكلمة وأغمضت عيني وفتحت يدي لأسقط سقوطاً حراً.

عندما كنت فى الصف الأول فى المرحلة الابتدائية كانت لدينا قصة ندرسها لنتعلم الأبجدية:

كانت تقول؛ سقط ولد فى بئر فوجد مدينة جميلة - حدائق مديدة، أتذكر، بها عسل وأرز باللبن وألعاب... كنت أتهجى، وكل مقطع ألفظه يأخذنى أعمق فى القصة. وذات ظهيرة، وأنا فى طريق عودتى من المدرسة، دخلت البيت مهرولاً، واندفعت نحو حافة البئر فى فناء البيت، تحت العريشة، انحنيت ونظرت مأخوذًا لوجه الماء الأسود. وتخيلت أنى رأيت المدينة الجميلة؛ بيوتًا وشوارع وأطفالاً وشجرة كروم كبيرة مملوءة بعناقيد العنب.

لم أعد أحتمل؛ ثنيت رأسى إلى أسفل، مددت يدى وركلت الأرض بقدمى كى أثب وأسقط. لكن فى هذه اللحظة رأتنى أمى، وصرخت، هرولت نحوى وفى آخر لحظة استطاعت أن تمسك بى من خصرى فى الوقت المناسب.

عندما كنت صغيراً، كدت أسقط فى البئر؛ وعندما كبرت، كدت أسقط فى بئر كلمة

«الخلود»؛ وفى كلمات أخرى كثيرة: «الحب»، «الأمل»، «الوطن»، «الرب». كل سنة يخيل لى أننى أنجو وأتقدم إلى الأمام. لم أكن أتقدم أبدًا؛ بل كنت أغير الكلمة، وكنت أسمى هذا نجاة. وفى السنتين الأخيرتين، أتعلق فى كلمة: «بوذا».

لكن، وبفضل زوربا، هذا هو البئر الأخير، الكلمة الأخيرة، وسأنجو بعدها للأبد. للأبد؟ أقول هكذا فقط كي أريح عقلي.

نهضت. كل جسدي من كعب قدمي وحتى عقلي كان في سعادة. نزعت ملابسي وسقطت في البحر وكانت الأمواج تضحك، وأنا أضحك معها، ورحنا نلعب. وعندما تعبت خرجت وجففت جسدي في هواء الليل. انطلقت بخطوات خفيفة وواسعة في الطريق، بدا لي كما لو أنني نجوت من خطر عظيم، وبأنني ما زلتُ أمسك بقوة بصدر الأم.. وأرضع.

ما إن اقتربت من شاطئ الفحم حتى توقفت فجأة؛ كان هناك ضوء فى الكوخ، قلت فى نفسى «لابد أن يكون زوربا قد عاد».

جاءتنى رغبة أن أجرى نحو الكوخ لكننى تماسكت. «لابد أن أخفى ابتهاجى، قلت؛ لابد أن أبدو غاضبًا وأبدأ توبيخه. لقد أرسلته فى مهمة عمل، وذهب هو ليبدد أموالى، تورط فى علاقة مع غانية ومكث اثنى عشر يومًا. لابد أن أظهر أننى غاضب جداً، لابد...»

كنت أقترب بخطوات بطيئة، كى يكون لدى الوقت أستجمع غضبى. حاولت أن أهيج نفسى فعصرت قبضتى وقطبت حاجبى وفعلت كل الإيماءات كى أغضب. لكننى لم أغضب. وكلما اقتربت ازدادت بهجتى.

اقتربت على أطراف أصابعى؛ نظرت من النافذة؛ كان زوربا جالسًا على الأرض وقد أشعل الموقد لصنع القهوة فذاب قلبى وصرخت:

- زوربا!

فتح الباب فجأة وخرج زوربا حافى القدمين لا يرتدى قميصًا؛ مد عنقه فى الظلام يبحث عنى وفور أن رآنى فتح ذراعيه، لكنه تماسك فجأة وأنزل ذراعيه.

– قـال بتردد، وقـد وقـف ساهمًا حـزينًا، سعيد برؤيتـك ثـانية يا سـيدى.

حاولت أن أتحدث بصوت عصبى:

– مرحبًا بعودتك! قلت ساخرًا. لا تقترب منى فرائحتك صابون معطر، أضفت.

– دمدم قائلاً، آه لو تعرف يا سيدى كم اغتسلت وفركت جسدى. لقد نظفت نفسى وكشطت جلدى بقوة قبل أن أقابلك! ساعة كاملة كنت أغتسل. لكن هذه الرائحة الملعونة... لا أدرى ماذا أفعل لها، على أى حال ستزول شاءت أم أبت.

– قلت. هيا لندخل.

كنت أشعر أننى أود أن أنفجر فى الضحك ولم أعد أحتمل أن أكتمه أكثر من هذا.

دخلنا؛ كانت رائحة الكوخ عطرًا ومساحيق وصابونًا ورائحة نسائية.

– ألا قلت لى ما هذا؟ صحت عندما رأيت صندوقًا مليئًا بالصابون المعطر وجوارب نسائية ومظلة حمراء وقنينتى عطر.

– هدايا... دمدم زوربا وهو ينظر إلى الأرض خافضًا رأسه.

– هدايا؟! قلت وأنا أحاول أن أتظاهر بالغضب.

– هـدايا يا سيدى، لا تغضـب؛ من أجـل بوبولينـا المسكينة... لقد اقترب عيد الفصح، أليست إنسانة هى الأخرى؟

استطعت أن أكتم ضحكى.

– لكنك لم تجلب لها أهم شىء؟

– ماذا؟

– أكاليل الزواج.

ثم قصصت عليه ما فعلته بالحورية العاشقة العجوز.

حك زوربا رأسه وفكر قليلاً.

– لم تحسن صنعًا يا سيدى، قال فى النهاية؛ لم تحسن صنعًا، لكن اعذرنى. فهذه الدعابات يا سيدى كما تعرف... المرأة كائن ضعيف، رقيق، كم مرة يجب أن أقول لك هذا الشىء؟

فهن مثل المزهريات الهشة. يحتجن الكثير من العناية يا سيدى.

شعرت بالخجل. لقد ندمت على ما فعلت، ولكن جاء الندم متأخراً.

غيرت الموضوع.

– ماذا عن المعدات والأسلاك؟

– لا تقلق يا سيدى، لقد أحضرت كل شىء! لقد فعلت كل شىء، أطعمت الكلب ولا تزال الكعكة كاملة. سكة الحديد المعلقة، لولا، بوبولينا، الوضع تحت السيطرة تماماً يا سيدى.

رفع إبريق القـهـوة من على النار ومــلأ فنجـانـي، أعطانـي كـعكًا بالسمسم قد أحضر معه حلاوة بالعسل أيضًا حيث يعرف كم أحبها.

-أحضــرت لك صـنـدوقًا من الحـلاوة هــدية! قال لي بود شـديد؛ لم أنسكَ. وقد أحضـرت كيسًا من الفستق العـربي للببغاء. كنت متيقظًا لكل شيء.

أكلت الكعكة وشربت القهوة، كنا جالسين أنا وزوربا متربعين على الأرض، كان زوربا يشـرب قـهـوته ويدخن، نظر إلي وكانت عـيناه تلعب كالثعبان.

– هل وجدت حلاً للمشكلة التي كانت تعذبك أيها العـجوز الملعون؟ سألته وقد رق صوتي الآن.

– أي مشكلة يا سيدي.

– إذا كانت المرأة إنسان.

– آآآه! لقد حلت المشكلة! أجاب، وهو يـهز يديه. هي إنسـان مثلنا تمامًا.

– وربما أسوأ! فهي في اللحظة التي ترى فيه كيس أموالك تصاب بالدوار وتلتصق بك و تخسر حريتها وتسعد لأنها تفقدها؛ لأنها ببساطة تنظر إلى بريق أموالك. لكن بسرعة.... دعك من هذا يا سيدي، اللعنة!

نهض وألقى بسيجارته من النافذة.

– قال: لنتحدث فى أمور رجالية الآن. أسبوع الأعياد المقدس يقترب، لقد أحضرنا الأسلاك، لقد حان الوقت أن نصعد إلى الدير ونقنع هذه الكائنات السمينة أن توقع على الأوراق والوثائق المطلوبة لنستغل الغابة... قبل أن يشاهدوا الخط الهوائى ويغالون فى مطالبهم، أتفهمنى؟ الوقت يمر يا سيدى، وليس من الصحيح أن نتكاسل، لابد أن نبدأ فى الحفر وأن تأتى السفن تحمل ما نستخرجه وأن نعوض خسائرنا... هذه الرحلة الملعونة إلى المدينة تكلفت كثيراً كما ترى....

صمت؛ حزنت لحاله، وكان مثل طفل قام ارتكب حماقة ولايدرى كيف يصلح الأمور، ويرتعش قلبه.

«قلت لنفسى، يا للعار، كيف تترك روحًا كهذه ترتعش أمامك؟ انهض، أين وكيف ومتى ستجد زوربا آخر؟ قف، خذ الإسفنجة وامحُ كل شىء!»

– صحت، زوربا بعصبية، اللعنة، لسنا بحاجة لهذا الهراء! لننس كل ما حدث.

هات السانتورى!

فتح ذراعيه، كما لو أنه أراد أن يعانقنى؛ لكنه أغلقهما ببطء متردداً. وبسرعة وصل إلى الجدار ونزع السانتورى من على الحائط، وحين اقترب من ضوء المصباح، رأيت شعره: أسودَ كالقطران.

– صحت، ماهذا الشعر أيها الملعون؟ من أين لك؟

ضحك زوربا،

– لقد صبغتها يا سيدى، صبغته فقد كان نحسًا وأردت أن أغير حظى.

– لماذا؟

– هكذا، ربما كبرياء؛ ذهبت مرة إلى لولا وأمسكت يدها. ليس بالضبط... أطرافها.. انظر هكذا! وجاء صبى من خلفنا وصاح «أيها العجوز الملعون، إلى أين تأخذ حفيدتك؟»

فخجلت لولا المسكينة، وخجلت أنا أيضًا، ولكى لا أجعلها تخجل، ذهبت فى نفس الليلة إلى الحلاق وصبغت شعرى.

ضحكت بينما كان زوربا ينظر إلىّ بجدية.

– هل تظن هذا مضحكًا يا سيدى؟ لكن اسمع، كيف أن الإنسان لغز محير فمنذ اليوم الذى صبغت فيه شعرى، أشعر أننى إنسان مختلف، وأكاد أصدق أنا نفسى أن شعرى أسود اللون فالإنسان ينسى بسهولة كل ما لا يلائمه، أترى؟ – أقسم أن قواى قد زادت ولقد لاحظت لولا هذا أيضًا. أتذكر تلك الآلام التى كانت تمزق كليتى؟ انتهت! لا تصدق، نعم فهذه أشياء لا تكتب فى الكتب...

ضحكت ساخرًا، لكننى ندمت على الفور.

– اعذرنى، قال. فإن الكتاب الوحيد الذى قرأت فى حياتى هو قصة السندباد؛ ولم أرَ منه أية فائدة.

عرى السانتورى بهدوء وحنان.

- قال: دعنا نخرج من هنا، الجدران الأربعة لا تسع السانتورى؛ فهذا الوحش يحب الرحابة.

خرجنا خارج الكوخ. وكانت النجوم تومض فى السماء، وكأن نهر الأرض يفيض من جانب السماء ليصب فى الجانب الآخر، وكان البحر يفور.

جلسنا متربعين على الحصى؛ وراحت الأمواج تلعق أقدامنا.

- قال زوربا: علاج الفقر هو أن تمضى وقتًا طيبًا، وهل يظن الفقر أنه سينتصر علينا؟ تعال هنا أيها السانتورى!

- قلت، اعزف لنا لحنًا مقدونيًا من بلدتك يا زوربا.

- قال زوربا: بل كريتى من بلدتك! سأغنى لك رباعية كريتية تعلمتها فى المدينة ومنذ أن تعلمتها تغيرت حياتى.

فكر قليلاً:

- قال: لا، لم يغير حياتى، لكن الآن أفهم أن به حكمة كبيرة.

مد أصابعة الغليظة على السانتورى، رفع عنقه، وراح صوته الوحشى المبحوح الملىء بالحزن يحرك الهواء.

إذا عزمت فلا تخف ولا تتردد

أطلق العنان لشبابك فالشجاع أبدًا لا يندم.

ذهب كل القلق وتلاشت الهموم التافهة وبلغت الروح ذروتها؛ لولا والفحم والمصعد الهوائى المعلق و«الخلود» وهموم صغيرة وكبيرة كل هذا صار دخانًا وتبدد، لم تبقَ سوى روح الإنسان، هذا الطائر الفولاذى، وراح يغرد.

- حلال عليك يا زوربا! صحت بعد أن انتهى من عزفه المبهر؛ حلال عليك كل ما فعلت - الغانية - شعرك الذى صبغته، المال الذى بددته، حلال عليك كل شىء، كل شىء! أكمل الغناء!

مد عنقه النحيلة المليئة بالعروق:

تسلح بإيمانك وتقدم، وتقدم حيث يقودك قلبك

افعل ماتظنه صحيحًا، ولا يشغلنك ما سوف يحدث

عشرة من العمال الذين يبيتون خارج المنجم سمعوا صوت الرباعيات الكريتية؛ فاستيقظوا ونزلوا خلسة إلى حيث مصدر الغناء وتحلقوا حولنا ليسمعوا أغانيهم المحببة وقد أصاب الخدر سيقانهم.

لكنهم فجأة قفزوا فى الظلام واقفين فلم يتمالكوا أنفسهم نصف عراة بشعورهم الشعثاء وسراويلهم الفضفاضة. وتحلقوا حول زوربا والسانتورى وراحوا يرقصون فوق حصى الشاطئ الغليظ.

نظرت إليهم صامتًا ومنبهرًا وقلت فى نفسى:

«هذا هو العرق الحقيقى الذى كنت أبحث عنه؛ لا أريد غيره».

في فجر اليوم التالي كانت أصداء زوربا وأصوات المعاول تتردد في المنجم، وكان العمال يشتغلون بنهم شديد؛ لم يكن غير زوربا هو الذي يستطيع أن يسيطر عليهم ويشعل الحماس في أوصالهم، فمعه كان العمل يتحول إلى نبيذ، غناء، حب فكانوا ينتشون، وكان العالم يستعيد الحياة في يديه، الحجارة، الفحم والخشب، حتى العمال كانوا ينسجمون مع إيقاعه، كانت طبول الحرب تدق في المنجم تحت الضوء الأبيض لمصابيح الإستيلين، وكان زوربا في المقدمة مع الجنود كتفًا بكتف. يعطي اسمًا لكل نفق وكل عرق، كان يعطي وجهًا لكل القوى الخفية وهكذا كان يصعب عليها الهروب منه.

«عندما أعرف أن هذا هو نفق كانفارو (كان قد أعطى هذا الاسم لأول نفق)، أين يمكن أن يختفي؟ فأنا أعرف اسمه، ولن يجرؤ أن يراوغني أو يخدعني، ولا حتى النفق الأم ولا الأعرج. أقول لك أنا أعرفهم جميعًا وبأسمائهم».

تسللت ذات يوم إلى النفق دون أن يلاحظ.

- كان يصيح في العمال؛ هيا هيا يا رفاق؛ هيا بنا نأكل الجبل! نحن رجال، وحوش كاسرة، يرانا العدو ويرتعد رعبًا، وأنتم كريتيون وأنا مقدوني، سنأكل الجبل، سنهزمه لن يأكلنا، لن يهزمنا! لقد هزمنا الأتراك أليس كذلك؟ هل سنخاف هذا الجبل التافه؟ هيا، هيا!

اقترب أحدهم من زوربا؛ رأيت تحت ضوء مصباح الإستيلين أنه ميميكو.

– نادى على زوربا بصوت مرتعش، زوربا...

– صاح فيه زوربا، ارحل من هنا! اغرب عن وجهى!

– جئت من عند المدام... ثم بدأ ميميكو يتلعثم.

– ارحل من هنا قلت لك! لدينا عمل!

خرج ميميكو مهرولاً؛ فبصق زوربا على الأرض بعصبية.

– قال؛ إن النهار للعمل، النهار رجل.

أما الليل فهو للهو والمرح؛ الليل امرأة، لا تخلطوا الأمور!

جئت فى هذه اللحظة.

– قلت: يا رفاق، لقد انتصف اليوم؛ حان وقت الراحة وتناول الغداء.

التفت زوربا، رآنى، وقطّب ملامحه.

– بعد إذنك يا سيدى، دعنا، واذهب أنت وتناول طعامًا من فضلك. لقد ضيعنا اثنى عشر يومًا، لابد أن نعوض خسارتنا؛ أرجو لك شهية طيبة!

خرجت من النفق ونزلت نحو الشاطئ؛ فتحت الكتاب الذى كان بين يدى ونسيت الجوع بعد أن كنت جائعًا. «إن التفكير منجم، قلت فى نفسى، هيا!»، وغصت فى أنفاق العقل.

كتاب مثير للقلق - يصف جبال التبت الجليدية والأديرة الغامضة والرهبان الصامتين ذوى العباءات الصفر الذين يركزون فى الرغبة الإنسانية ويجبرون الأثير أن يتخذ الشكل الذى يرغبونه.

قمم عالية كثيفة، الهواء معبأ بالأرواح، لا يصل هناك ضجيج العالم العقيم، الناسك الكبير يأخذ تلاميذه، صبية فى السادسة والثامنة عشر من عمرهم ويذهب فى منتصف الليل فى بحيرة الجبل الجليدية، وينزعون ملابسهم ويكسرون طبقة الثلج، ويسقطون ملابسهم فى الماء المثلج، ثم يلبسونها لتجف على أجسادهم، ثم يسقطونها ثانية، ويجففونها مرة أخرى على أجسادهم، يفعلون ذلك سبع مرات. ثم بعدها يعودون إلى الدير للصلاة.

يرتقون إحدى القمم على ارتفاع ستة آلاف متراً فوق سطح البحر.

يجلسون فى هدوء، يتنفسون بعمق وبإيقاع، نصفهم العلوى عارٍ من الملابس دون أن يشعروا بالبرد ويحملون طاسة من الماء المثلج فى أيديهم، ويركزون ويلقون بقوتهم الروحية فوق الماء المثلج، ثم يغلى الماء؛ ثم يصنعون الشاى.

يجمع الناسك الكبير التلاميذ حوله ويصيح:

«الويل لمن لديه منبع السعادة فى داخله!

الويل لمن يريد أن يكون مصدر إعجاب الآخرين!

الويل لمن لا يشعر بأن هذه الحياة والحياة الأخرى، هما شيء واحد!»

حل الظلام ولم أعد أرى كي أقرأ؛ أغلقت الكتاب ورحت أنظر إلى البحر. رحت أقول في نفسي، «لابد أن أنجو من هذه الكوابيس - بوذا، والرب، والوطن والأفكار.... ثم صحت، الويل لمن لا ينجو ولا يتخلص من بوذا والآلهة والوطن والأفكار!»

صار لون البحر أسود فجأة؛ وبدأ القمر الصغير يتدحرج في السماء. بعيداً عن الحدائق، والكلاب تعوي حزينة، فيتردد صدى عوائها، وكأن الوادي كله يعوي.

عاد زوربا يكسو التراب وجهه وملابسه ونزع قميصه وعلقه على الكرسي.

قبع إلى جواري.

- قال مبتهجاً: لقد سار اليوم على ما يرام، أنجزنا عملاً كثيراً.

سمعت كلام زوربا دون أن أفهمه؛ كان ذهني لا يزال شارداً في الصخور الوعرة.

- فيم تفكر يا سيدي؟ إنك مبحر بعيداً في أعالي البحار.

استجمعت أفكاري، والتفت إلى زوربا؛ نظرت إلى رفيقي وهززت رأسي.

– أجبت: إنك تظن أنك سندباد بحرى خطير جاب أرجاء العالم وتفتخر بذلك ولكنك لم تر شيئًا، ولا أى شىء أيها التعس!

ولا أنا. إن العالم أكبر بكثير مما نعتقد، نسافر ونجول ونطوف، ونكتشف فى النهاية أننا لم نبتعد عن عتبة باب بيتنا.

زم زوربا شفتيه؛ لم يتكلم وتمتم فقط مثل كلب وفى عندما يضرب.

– هناك جبال فى هذا العالم شاهقة وضخمة، مليئة بالأديرة. وفى هذه الأديرة يعيش رهبان يلبسون عباءات صفر، يجلسون القرفصاء دون حركة لمدة شهر أو اثنين وستة أشهر يتأملون شيئًا واحدًا فقط. أتسمع؟ واحدًا فقط؛ لا شيئين! لا يفكرون كما نفكر نحن فى النساء أو الأنفاق، كتاب ونفق، يركزون يا زوربا عقولهم فى شىء واحد ويصنعون المعجزات.

هكذا تحدث المعجزات. أريت يا زوربا، عندما تضع عدسة فى مقابلة الشمس وتجمع أشعتها كلها فى نقطة واحدة؛ هذه النقطة بعد قليل تشتعل وتدب فيها النار؛ لماذا؟ لأن قوة الشمس لم تتبدد، تجمعت كلها فوق هذه النقطة.

هكذا تمامًا هو عقل الإنسان؛ يستطيع أن يصنع المعجزات، إذا وضعت عقلك كله فى شىء واحد. أ تفهم يا زوربا؟

بدأ زوربا يتنفس بصعوبة؛ لبرهة قفز كأنه أراد أن يغادر. لكنه تماسك.

– قال بصوت مخنوق. أكمل!

لكن مباشرة هب واقفًا.

– صاح؛ اسكت! اسكت! لماذا تقول لى هذا يا سيدى؟ لماذا تسمم قلبى بهذه الأفكار، كنت على ما يرام، لماذا توترنى؟ لقد كنت جائعًا وقد أرسل لى الرب والشيطان (اللعنة على الفرق بينهما) عظمة رحت ألعقها. وأهز ذيلى وأصيح: «شكرًا، شكرًا» والآن....

ضرب بقدمه على الحصى، أدار لى ظهره؛ حاول أن يذهب إلى الكوخ؛ لكن روحه كانت تغلى؛ فتوقف.

– أووووف! يا لروعة العظمة التى ألقى لى بها هذا (الرب والشيطان!). حياة غانية، عاهرة قذرة!

أمسك بحفنة من الحصى وألقى بها فى البحر.

– صاح، لكن من هو؟ من هذا الذى سيلقى لنا بالعظام؟

انتظر قليلاً ولما لم يتلق منى ردًا زاد هياجه.

– لمَ لا تقول شيئًا يا سيدى؟ إذا كنت تعلم شيئًا فقل لى لأعرف أنا أيضًا ما هو؟ لكن لا يهمك، أعرف كيف أتدبر أمرى معه! لكن إذا كان هناك أى احتمال بعيد، فلى أن أعرف أى طريق أسلك؟ أم سألقى بنفسى فى التهلكة؟

– إنى جائع، قلت؛ هيا، أحضر لنا شيئًا نأكله؛ دعنا نأكل أولاً!

ألا يمكننا أن نبقى ليلة بلا طعام يا سيدى؟ كان أحد أعمامى راهبًا وكان لا يأكل طول الأسبوع سوى ماء وملح؛ فى أيام الآحاد والأعياد كان يضيف قليلاً من النخالة. وعاش مائة وعشرين عامًا.

– عاش مائة وعشرين عامًا يا زوربا لأنه كان مؤمنًا؛ وجد الرب واطمأن قلبه ولم يكن لديه أى قلق ولكننا نحن يا زوربا، ليس لدينا رب يطعمنا؛ هيا أشعل النار، لدينا بعض الأسماك؛ اصنع لنا حساء ثقيلاً ببصل كثير وفلفل كما نحبه، ثم سنرى.

– ماذا سنرى؟ قال زوربا وقد جن جنونه. إذا أكلنا ستمتلئ بطوننا وسننسى.

– هذا ما أريده؛ لذا الطعام له فائدة... هيا اذهب واصنع لنا حساء السمك يا زوربا، كى لا تنفجر رءوسنا!

لكن زوربا لم يتحرك؛ ظل واقفًا ساهمًا ينظر إلى.

– اسمع يا سيدى، سأقول لك، فأنا أعرف ما ترمى إليه. جاءتنى الفكرة كالومضة بينما كنت تتحدث!

– سألته ضاحكًا. وإلامَ أرمى يا زوربا؟

– إنك ترغب أن تبنى ديرًا، وتضع فيه بدلاً من رهبان، بعض الصغار أشباهك، معلمين صغار وكتاب؛ يقرؤون ويكتبون ليل نهار وتخرج من أفواههم مثل القديسين الصغار المنقوشين على الأيقونات، شرائط مطبوعة: هاه، أليس كذلك؟

خفضتُ رأسي في مرارة، أحلام الشباب القديمة، أجنحة كبيرة سقط ريشها، رغبات حمقاء ونبيلة... أن ننشئ مركزًا أو ديرًا أشبه بلجنة ثقافية روحية وعشرة من الأصدقاء نسجن أنفسنا فيه - موسيقيين، رسامين وشعراء.... - نعمل طوال النهار ونتحاور ليلاً... كنت أنا من كتبت لائحة اللجنة، ووجدت المقر؛ عند مضيق جبل أميتوس عند القديس يوحنا الصياد...

- قال زوربا بسعادة لما رآني صامتًا واحمر وجهي. لقد أصبت!

- أجبت، نعم؛ لقد أصبت يا زوربا، قلت وأنا أخفي تأثري.

- إذن؛ سأطلب معروفًا أيها الراهب المعلم: أرجو أن تعينني بوابًا في هذا الدير، كي أهرّب وأسرّب بعض الأشياء من وإلى الدير المقدس - أشياء تافهة ونساء وآلات البوزوكي وزجاجات العرق خنازير مشوية.... كي لاتتبدد الحياة كلها في هذا الهراء!

ضحك زوربا وهو ذاهب نحو الكوخ؛ جريت خلفه. نظفت الأسماك في صمت؛ أحضرت الأخشاب، أشعلت النار، وعندما جهز الحساء، أمسكنا بملاعقنا، وأكلنا من القدر مباشرة.لم ننبس ببنت شفة؛ لم نأكل شيئًا طوال اليوم، أكلنا بنهم شديد وشربنا قليلاً من النبيذ؛ اعتدل مزاجنا؛ وفتح زوربا فمه:

- لكم سيكون ممتعًا يا سيدي أن تدخل علينا الآن بوبولينا - طيب الرب ساعتها وحفظها، هذا ما ينقصنا في ساعتنا هذه ولن أفشي لك سرًا يا سيدي إذا قلت لك: إنني اشتقت إليها، عليها اللعنة!

- لم لا تسأل من يلقى لك بهذه العظمة؟

- وما يشغلك يا سيدى؟ برغوث فى كومة قش. دعك من اليد التى تلقيها. أليس طعمه لذيذ؟ به قليل من اللحم؟ هذا هو السؤال؛ كل الباقى....

- فعل الطعام معجزته! قلت وأنا أربت على كتف زوربا وإذا ما هدأ الجسد الجائع؛هدأت الروح الحائرة... أحضر السانتورى!

فى اللحظة التى كان زوربا ينهض فيها، سمعنا صوت خطوات ثقيلة ومسرعة تدب على الحصى فى الخارج فارتعشت فتحتا أنف زوربا المشعرتان.

- يأتى الحمار على صوت صاحبه! قال زوربا بصوت خفيض وهو يضرب على فخذيه، ها هى قد جاءت، شمت رائحة زوربا وجاءت لتحصل هديتها.

- قلت وانا أنهض، سأغادر كى لا أشعر بالضجر وسأذهب لأتمشى قليلاً، امضوا وقتًا ماتعًا.

- تصبح على خير يا سيدى!

- ولا تنسَ يا زوربا؛ لقد وعدتها بالزواج، لا تجعلنى كذابًا.

تنهد زوربا:

- هل أتزوج ثانية يا سيدى؟ لقد مللت من مرة واحدة.

رائحة الصابون المعطر قد وصلت.

- كان الرب في عونك يا زوربا!

غادرت على عجل؛ سمعت عندما أصبحت في الخارج لهاث الحورية العجوز.

في صباح اليوم التالى استيقظت من النوم على صوت زوربا.

- ماذا أصابك فى هذه الساعة المبكرة، قلت له. لمَ كل هذا الصياح؟؟؟

- ما هذا يا سيدى، لابد أن نأخذ الأمور بجدية، أحضرت بغلين، انهض لنذهب إلى الدير كى نوقع الأوراق، لابد أن نبدأ بإنجاز المصعد الهوائى المعلق. الأسود لا تخاف سوى من القمل - قم يا سيدى هيا بنا قبل أن يأكلنا القمل!

- قلت ساخراً. من تقصد بالقمل؛ بوبولينا؟؟

لكن زوربا تظاهر بالصمم.

- هيا بنا يا سيدى؛ انهض قبل أن تتعامد الشمس.

لقد افتقدت صعود الجبل، ورائحة أشجار الصنوبر؛ امتطينا البغال وصعدنا، وتوقفنا قليلاً عند النفق وأعطى زوربا للعمال طلباتهم: لابد أن يحفروا فى النفق الأم ويفتحوا مجرى نحو النفق الآخر وأن ينزحوا المياه....

بدت الشمس وهى تشرق كقطعة ماس، وكلما صعدنا أكثر سمت أرواحنا وتطهرت. جربت مرة أخرى قوة تأثير الهواء النقى على الروح، يصبح التنفس خفيفًا فى هذا الأفق الشاسع، وتشعر بأن الروح حيوان برى له أنف ورئتان، يحتاج إلى الأكسجين ويستلقى متمددًا على الأرض ويتنفس بعمق وسرعة.

كانت الشمس قد تعامدت عندما دخلنا غابة الصنوبر، رائحة العسل فى الهواء الذى كان يهب فوق رءوسنا ويصدر صوتًا مثل وشوشة أمواج البحر.

طوال الطريق كان زوربا يراقب انحدار الجبل، كان فى كل بضعة أمتار ينصب أعمدة فى مخيلته، يرفع عينيه ويرى السلك الفولاذى الممتد إلى الشاطئ يلمع تحت ضوء الشمس؛ وفوقه تتعلق جذور الأشجار المقطعة وتنزلق كالسهام.

راح يفرك يديه وقال:

– سيدر علينا هذا العمل الكثير من الذهب، وسنجمع المال بالجرافات ونفعل ما نحلم به.

نظرت إليه مندهشًا.

– مِمّ تتظاهر بالنسيان!؟ قبل أن نبنى الدير الذى تحلم به، ونصعد إلى قمة الجبل الشاهق، ماذا كان اسمه؟ نعم، جبل الطيبات، الثيبات.

- التـبت يا زوربا... لكن أنا وأنت، هذا المكان لا يسـمح بدخـول النسـاء.

- ومن تحـدث عن النسـاء؟ هي كـائنـات مـفيـدة ومـسكينـة على أى حال، لا تحقر من شأنهن، لكن هذا يحدث عندما يتصادف ألاّ يكون لدى الرجال بعض الأعمال الرجولية - أن يستخرج فحمًا مثلاً، أن يذهب إلى المدينة، أن يناجى الرب. مـاذا بوسـعـه أن يفـعل غيـر ذلك؛ هل ينفـجـر؟ يشرب النبيذ؟ يلعب النرد؟ يحتضن النسـاء؟ ينتظر حتى تأتى ساعته؛ إذا كانت ستأتى؟

- كرر كلمته "إذا كانت ستأتى" إذ ربما لن تأتى مطلقًا.

وبعد قليل قـال: لا أستطيع؛ يا سيدى، لا أستطيـع؛ فإمـا أن تكبر الأرض أو أصـغر أنا، وإلاّ هلكت.

ظهر راهب من بين أشـجار الصنوبر؛ شاحب اللون ذو شعـر أحمر، رافعًا عباءته ويرتدى قبعة مـحلية، وكان يحمل عصاة حديدية ويضـرب بهـا الأرض وهو يسيـر. وعندمـا رآنا توقف ورفع العـصـا الحـديدية: إلى أين أنتما ذاهبان يا أبناء الرب؟

- فأجابه زوربا: إلى الدير. ثم أضاف: كى نصلى.

- قـال الراهب: عـودا أيهـا المسيـحيـان! صـاح الراهب وجـحظت عيناه الزرقـاوان واحمـر بياضـهمـا. عودا واسـمـعـا نصيـحـتى! لا توجد

بساتين العذراء هنا، إنها حديقة الشيطان. فقر، وطاعة، وعذرية وأكاليل العزلة.

– همس لى زوربا، هذا الرجل مضحك يا سيدى. ثم انحنى للراهب قائلاً:

– ما اسمك أيها الراهب؛ وإلى أين أنت ذاهب؟

– اسمى زكريا؛ أخذت متاعى وسأرحل، فلم أعد أحتمل. قل لى من فضلك يا بن وطنى ما اسمك؟

– أجاب زوربا؛ كانافارو.

– لم أعد أستطيع يا أخ كانافارو. ففى كل ليلة يئن المسيح فى أذنىّ ولا أستطيع النوم؛ أئن معه، فأرسل كبير الرهبان يستدعينى – عل جهنم تلتهم عظامه – باكر اليوم وقال لى:

«يا زكريا، إن سلوكك يمنع الإخوة من النوم؛ سوف أطردك من الدير! قلت له، أنا لا أتركهم ينامون، أنا أم المسيح؟ فانفجر غاضبًا». رفع عصاه الملعون وانظروا ماذا فعل!

– رفع قبعته وأشار إلى بقعة دم واضحة فى رأسه.

– قال له زوربا، تعال معنا إلى الدير وسوف أقنع رئيس الدير. هيا تعال برفقتنا، ولترشدنا إلى الطريق أيضًا؛ لقد أرسلك لنا الرب.

فكر الراهب للحظة؛ وبرقت عيناه.

- ماذا ستعطوننى؟ قال أخيراً.

- ماذا تريد؟

- أوقية من السمك المقدد المملح وزجاجة كونياك.

انحنى زوربا ونظر إليه:

- هل هناك شيطان فى جسدك يا زكريا؟

قفز الراهب من مكانه:

- سأل بدهشة. كيف عرفت؟

- أجاب زوربا، أنا من جبل أثوس؛ أعرف فى هذه الأشياء.

أطرق الراهب رأسه؛ ثم دمدم قائلاً:

- نعم؛ هناك شيطان.

- وهو يريد سمكًا مملحًا وكونياك، أليس كذلك؟

- بلى، يريد الملعون!

- اتفقنا، هل يدخن أيضًا؟

ألقى له زوربا بسيجارة؛ فالتقطها الراهب بحماس ثم قال.

- نعم يدخن، يدخن، عليه اللعنة! وأخرج من صدره قداحًا له فتيل وأشعل السيجارة وأخذ منها نفسًا عميقًا.

- قال باسم الرب؛ ثم رفع قضيبه الحديدى، وتحرك أمامنا.

- سأله زوربا وهو يغمز لى بعينه. ما اسم شيطانك؟

- أجاب الراهب دون أن يلتفت، اسمه يوسف.

هذه الرفقة مع الراهب نصف المختل لم تعجبنى؛ العقل المريض هو تمامًا كالجسم المريض، يصيبنى بخليط من مشاعر الاشمئزاز والعطف والقرف ولكنى لم أكن أتكلم؛ تركت الكلام لزوربا، ليفعل ويقل ما يريد.

الهواء النقى فتح شهيتنا؛ جعنا وجلسنا على الأرض تحت شجرة صنوبر ضخمة وفتحنا حقيبة الطعام؛ انحنى الراهب بنهم ليرى ماذا لدينا من طعام.

- قال زوربا، لا تتلمظ كثيراً يا أبانا زكريا! إننا فى أيام صيام مقدسة؛ لكننا كفرة سنأكل لحم الدجاج، ليسامحنا الرب ولدينا حلاوة بالعسل وزيتون من أجل قداستك، تفضل!

مسد الراهب لحيته القذرة وقال محبطًا.

أنا زكريا، صائم؛ وسوف آكل زيتونًا وخبزًا وأشرب قليلاً من الماء... لكن يوسف، الشيطان الملعون الذى بداخلى، ليس صائما؛ وسيأكل اللحم يا إخوانى، وسيشرب قليلاً من نبيذكم.

رسم علامة الصليب، وراح يلتهم بنهم الخبز والزيتون والحلاوة ومسح فمه بكفه وشرب جرعة ماء. رسم علامة الصليب ثانيةً كأنه انتهى من طعامه.

– الآن، قال، هذا دور الشيطان الملعون يوسف... ثم انقض على الدجاجة.

– راح يدمدم بوحشية، وهو يلتهم قطعًا كبيرة. كل أيها الملعون، كل، كل.

– قال زوربا! مرحى أيها الراهب؛ أرى أن لديك رخصة مزدوجة للحسنات والذنوب، ثم التفت نحوى.

– كيف تراه يا سيدى؟

– قلت ضاحكًا، إنه يشبهك.

أعطى زوربا قنينة النبيذ للراهب وقال له:

– هيا يا يوسف، اشرب!

– قال الراهب؛ اشرب أيها الملعون، وخطف القنينة وألصقها بفمه.

كانت الشمس حارقة، فتحركنا نحو الظل. كان الراهب يفوح برائحة العرق الحامضة والبخور. كاد يذوب من حرارة الشمس فسحبه زوربا إلى الظل كي لا تزداد رائحته.

– سـأله زوربا؛ بعد أن أكل جيداً وكانت لديه رغبـة فى الثرثرة، كيف أصبحت راهباً؟

قهقه الراهب:

– هــل تظــن بأنّى كنت أرغب أن أكون قديساً؟ على الإطـلاق. لكن بسبب الفقر يا أخى، الفقر، فقد فكرت: ليس لدى مال ولا أستطيع أن أطعم نفسى: لما لا أذهب إلى دير حتى لا أموت من الجوع!

– وهل أنت سعيد؟

– حـمـداً للرب! أنا عـادة أشكو وأتذمـر، لكن لا عليك؛ فـلا تهـمنى الحياة الدنيوية – أنا أتوق لحياة الجنة، وأقص دعابات وأمرح مع الرهبان كى يضـحكوا؛ يقـولون عنى بـأنّنى ممسـوس ويهـينـوننى؛ لكننى أقـول «هذا مستحيل، فالرب يحب الضحك وسيقول لى ذات يوم: تعال إلى هنا أيها الحقير، تعال وأضحكنى!» وهكذا سأدخل الجنة كمهرج.

– أظن أن عقلك على ما يرام ياصـاح! قـال زوربا ثم نهض واقـفا، وأتبع قائلاً، هيا بنا قبل أن يحل الظلام علينا!

سـار الراهب أمامنا كى يرشدنا إلى الطـريق، صـعدنا الجبـل، خيل إلى أن الروح تصـعد فى المكان، تصـعد من الهـموم التـافـهـة إلى أشـياء أكـثـر سـمـواً من عـقـائد أرضـيـة سـهـلة إلى نظـريات وعـرة شـديدة الانحـدار.

توقف الراهب فجأة:

- قال: العذراء المنتقمة، وهو يشير إلى كنيسة صغيرة ذات تصميم جميل.

نزلت من على البغلة ودخلت القبو الرطب وعلى ركن فى الحائط أيقونة مسودة من الدخان ونذور فضية كثيرة مشغولة بشكل بدائى فج؛ وأمامها قنديل فضى مشتعل على الدوام.

نظرت إلى الأيقونة بعناية، العذراء قاسية محاربة، ذات عنق قوى مشدود ونظرة صارمة وعينين قلقتين؛ ولم تكن تحمل فى يدها الطفل المقدس بل تحمل رمحًا طويلاً.

الويل لمن يعبث بالدير! قال الراهب برهبة شديدة؛ تهجم عليه وترشقه بالرمح الذى تحمله، ومنذ زمن بعيد خرج الكفار وجاءوا ليحرقوا الدير؛ لكن انظر ماذا حل بهم هؤلاء الملاعين: فى اللحظة التى غادروا فيها وهم يمرون على الكنيسة الصغيرة بعد أن أحرقوا الدير، خرجت عليهم العذراء برمحها وأوسعتهم ضربًا ومزقتهم شر تمزيق، قتلتهم جميعًا، وجدى كان يذكر عظامهم التى كانت تملأ الغابة؛ ومنذ ذلك الحين سموها بالعذراء المنتقمة؛ قبل ذلك كانوا يسمونها بالعذراء الرحيمة.

- سأله زوربا. ولمَ لم تصنع معجزتها يا أبانا زكريا قبل أن يحرقوا الدير؟

– هذه كانت إرادة الرب العليا! أجاب الراهب وهو يرسم شارة الصليب ثلاث مرات.

– أية إرادة عليا! دمدم زوربا وامتطى البغلة وصاح: هيا بنا.

بعد قليل، تراءى لنا دير العذراء مريم على هضبة واسعة محاطة بصخور عالية فى وسط أشجار الصنوبر، هادئًا ولامعًا ومعزولاً عن العالم، قابعًا فى جرف أخضر، مرتفعًا فوق قمة هذا الجبل النبيل ولطف الوادى، بدا لى هذا الدير كأنه المكان الأروع ليكون الملاذ الأخير لتأملات إنسان.

قلت لنفسى، هنا من الممكن لروح نقية أن تعطى سموًا دينيًا يضاهى مكانة الإنسان؛ وتصنع هذا التوازن بين قمة الجبل شديدة الانحدار ووادى الشهوات البشرية وكل ما يلزم هنا، أن تسمو روح الإنسان دون أن تخسر لطف الإنسانية؛ فهذا المكان لا يصنع أبطالاً ولا خنازير؛ بل يصنع الإنسان المثالى.

هذا مكان يصلح أن يكون معبدًا فى اليونان القديمة أو مسجدًا إسلاميًا؛ فالرب هنا سيهبط بطبيعة إنسانية وسيتمشى حافى القدمين فوق الأعشاب الربيعية ويتحاور بهدوء مع البشر.

– دمدمت، يا للروعة، يا للمعجزة، يا لجمال العزلة هنا، يا للسعادة!

نزلنا من على دابتينا وعبرنا البوابة الرئيسـية الموصدة وصـعدنا إلى غرفة الزوار؛ حيث قُدمت لنا وجبة بها عرق وحلوى الفاكهة وقهوة؛ وجاء كبير المضيفين لمقابلتنا ومعه رهبان فأحاطوا بنا، بدأ الحديث. عيون ماكرة وشفاه شهوانية ولحى وشوارب، ورائحة عرق شبقى

- سألنا الراهب كبير المضيفين: لم تحضروا معكم أى جريدة.

- قلت مندهشاً: جريدة؟ وماذا تريدون أن تفعلوا بالجريدة هنا؟

- صاح اثنان أو ثلاثة من الرهبان بسخط. جريدة يا أخى، لنرى ما يحدث فى العالم!

بدا لى وكأنهم غربان واقفة على قضبان الشرفة يصيحون، وراحوا يتحدثون عن إنجلترا وروسيا وعن فنيزيلو[٢٠] وعن الملك بحماس شديد. لقد أقصاهم العالم، ولكنهم لم يقصوا العالم من دواخلهم، فعيونهم مليئة بالمدن والمحلات والنساء والجرائد...

قام راهب سمين مشعر وقال لى:

لدى شىءٌ أريد أن أريك إياه، أريد أن أعرف رأيك فيه، سأذهب لأحضره.

ذهب وهو يضع يديه القصيرتين على بطنه ويزحف فى حذائه الصوفى ثم توارى خلف الباب.

---

(٢٠) فنيزيلو: اليفثريوس فنيزيلوس أحد أهم السياسيين اليونانيين المؤثرين فى تاريخ اليونان الحديث. (المترجم)

ضحك الرهبان فى شماتة.

- قال كبير المضيفين، إن الأب نومايتيس، سيحضر الراهبة الفخارية ولقد أعطاها له الشيطان، ذات يوم كان نومايتيس يحرث الحديقة ووجدها فوضعها فى حجرته، ومنذها والراهب المبارك لم يغمض له جفن، وهو الآن على وشك أن يفقد صوابه.

نهض زوربا واقفًا؛ فقد بدأ يمل ويختنق ثم قال:

- لقد جئنا إلى هنا لنقابل رئيس الدير من أجل أن نوقع بعض الأوراق....

- إن قداسة رئيس الدير ليس هنا اليوم، لقد غادر فى الصباح ليذهب إلى القرية؛ تحليا بالصبر.

عاد الأب ذيوماتيس وهو يحمل شيئًا على كفيه المرفوعتين للأعلى كما لو أنه يحمل الكأس المقدسة.

- قال بعد أن فتح كفيه بعناية. هذا هو!

اقتربت؛ تمثال فخارى صغير من تانغرا[٢١] لفتاة نصف عارية مبتسمة على كف الراهب السمينة؛ كسرت إحدى يديها وباليد الأخرى كانت تمسك رأسها.

---

(٢١) تانغرا: قرية يونانية يرجع تاريخها إلى العصور القديمة، وتعد موقعًا أثريًا هامًا. (المترجم)

– قال ذيوماتيس: إنها تشير إلى رأسها ولكى تفعل هذا، فهذا يعنى أن فى رأسها حجر كريم؛ أو ربما قطعة ماس أو لؤلؤة. ماذا تظن سعادتك؟

– قبل أن أتحدث؛ قفز تعليق لاذع من أحد الرهبان، هذا يعنى أنها تعانى من الصداع.

لكن ذيوماتيس السمين كان ينتظر ردى وقد تدلت شفتاه كالجدى، وراح ينظر إلى بالتياع ثم قال.

– أظن أننى لابد أن أكسره لأرى. لا أستطيع النوم... ماذا لو أن فى هذا الرأس لؤلؤة؟

نظرت إلى تمثال الفتاة الجميلة بنهديها الصغيرين المشدودين، منفية هنا وسط رائحة البخور والآلهة المصلوبة التى تلعن الجسد والسعادة والقبلات.

قلت لنفسى: لو أستطيع أن أخلصها!

أخذ زوربا التمثال فى يده وراح يقلبه ويتفحص جسد المرأة النحيل توقف قليلاً عند حلمات النهدين النافرين ثم قال:

– لكن ألا ترى قداستك أنها هى الشيطان بعينه؟

ها هو، هو بعينه الملعون. لا عليك، فأنا أعرفه جيداً هذا الملعون؛ انظر إلى نهديها يا أب ذيوماتيس، مستديران مشدودان، صلبان ورطبان؛ هذا هو يا راهبى الفاضل صدر الشيطان!

دخل من الباب راهب جميل؛ أضاءت الشمس شعره الذهبى ووجهه المستدير ذا اللحية الخفيفة.

غمز الراهب الشاحب لكبير المضيفين وابتسما بخبث.

– يا أب ذيوماتيس؛ لقد جاء تابعك جبريل.

أخذ الراهب التمثال الفخارى فى كفه بسرعة وذهب يتدحرج مثل البرميل نحو الباب؛ ذهب إلى الراهب الصغير بصمت وغابا فى البهو العميق المتهالك.

أومأت لزوربا وخرجنا للفناء. كانت حرارة الجو لطيفة، وشجرة برتقال فى منتصف الفناء قد أزهرت وفاحت رائحتها فى الهواء. بجوارنا كان هناك صنبور على شكل رأس كبش قديم يضخ ماء من ينبوع ويسمع له خرير. وضعت رأسى تحته فانتعشت.

– يا إلهى، من هؤلاء الناس؛ قال زوربا باشمئزاز. ليسوا رجالاً ولا نساءً؛ هم بغال. تفووو؛ عليهم اللعنة!

وضع رأسه تحت الماء الفاتر هو الآخر، ثم ضحك وقال مرة أخرى:

– عليهم اللعنة!. كل منهم لديه شيطان بداخله؛ فهذا يريد امرأة والآخر سمكًا مملحًا، والثالث يريد مالاً والأخير يريد جرائد... كم هم أغبياء! لم لا ينزلون إلى العالم ليشبعوا من متعه وتصفو عقولهم!

أشعل سيجارة وجلس على مصطبة تحت شجرة البرتقال المزهرة ثم قال:

– أنا عندما أشتهى شيئًا أتدرى ماذا أفعل؟ آكل منه حتى أشبع للدرجة التى لا أطيقه ثانية فأنجو منه ولا أفكر فيه مرة أخرى. ذات مرة عندما كنت طفلاً، سأحكى لك لترى، كنت أعشق فاكهة الكرز. لم يكن لدى مال، وكنت أشترى القليل منه، وكلما أكلتها اشتهيتها أكثر... وذات ليلة رمتنى شهيتى على الكرز وراح لعابى يسيل، كنت أتعذب! إلى أن غضبت فى يوم وخجلت من نفسى، لا أدرى، لكنى شعرت أن هذه الفاكهة تتحكم بى وتفقدنى صوابى. حسنًا فاتخذت هذا القرار، ونهضت فى الليل من فراشى ورحت أفتش فى جيوب أبى، وجدت عملة فضية كبيرة، سرقتها. وفى الصباح الباكر استيقظت وذهبت إلى البستان واشتريت سلة من الكرز وجلست فى خندق وبدأت آكلها وظللت آكل حتى انتفخت معدتى، وبدأ يؤلمنى، فتقيأت. نعم تقيأت يا سيدى، ويومها نجوت من الكرز؛ ولا أستطيع الآن أن أراه. صرت إنسانًا حرًا. وكنت أرى الكرز بعدها وأقول: لم أعد أحتاج إليك! نفس الشىء فعلت مع النبيذ ومع السجائر وما زلت أشرب النبيذ وأدخن السجائر؛ لكن فى اللحظة التى أريد! أستطيع أن أمتنع عنهما فى لحظة، هكذا. أنا لا تحكمنى الشهوة ونفس الشىء مع الوطن وتقيأت ذات يوم، ونجوت.

– وماذا عن النساء؟ سألته ضاحكًا.

– سيأتي دورهن، عليهن اللعنة، سيأتي! لكن حينها سأكون قد بلغت السبعين من عمرى.

فكر للحظة، فبدت له المدة المتبقية قليلة؛ فتابع مصححًا:

– الثمانين من عمرى. لا ينبغى أن تضحك يا سيدى! فهكذا يتحرر المرء، اسمعنى، هكذا يتحرر – فإما أن تصاب بالتخمة أو أن تصير راهبًا. كيف تتحرر من الشيطان إذا لم تصبح شيطانًا مثله؟

ظهر ذيوماتيس فى الفناء وهو يلهث والراهب الصغير الأشقر يتبعه.

– مثل ملاك غاضب... دمدم زوربا معجبًا بخجله وشبابه.

اقتربوا من السلم الحجرى الذى يؤدى إلى الغرف العليا؛ التفت ذيوماتيس ونظر إلى الراهب الصغير، يبدو بأنه قد قال له شيئًا فأشاح برأسه نحو السماء كأنه ينفى أمرًا ما. لكن الراهب الصغير سرعان ما خفض رأسه فى طاعة. احتضن العجوز من خصره وصعدا درجات السلم.

– أتفهم ما حدث، قال لى زوربا؛ كوارث ومصائب تحدث هنا يا سيدى!

ظهر راهبان وغمز كل منهما للآخر بخبث ثم همسا ضاحكين.

- قال زوربا، يا له من شيء بغيض. الغراب لا يفقأ عين الغراب؛ لكن يبدو أن الراهب يفقأ عين الراهب. فقط من أجل ممارسة مكرهن وخبثهن.

- ثم استدركت ضاحكًا ومصححًا؛ مكرهم وخبثهم.

- ليس هناك فرق يا سيدى، لا تشغل بالك! كلهم وكلهن بغال؛ نعم كما أقول لك. فتستطيع أن تناديهم حسب مزاجك، جبريل أو جبريلة؛ ذيوماتيس أو ذيوماتا.

دعنا نرحل من هنا؛ نوقع أوراقنا يا سيدى ونرحل من هنا بأقصى سرعة؛ فهنا يا سيدى من الممكن أن تقرف نفسك من النساء والرجال.

ثم قال بصوت متبسم:

- لدى خطة...

- ستكون فكرة مجنونة مثلك يا زوربا... هيا قل!

- ماذا أقول لك معذرة يا سيدى! فأنت شخص لطيف. شديد الحرص وتفعل ما فى مقدورك لتسعد الآخرين. فأنت إذا وجدت برغوثًا فى لحافك فى الشتاء، ستغطيه جيداً حتى لا يبرد. كيف يمكنك أن تفهم متشرداً مثلى! فأنا إذا رأيت برغوثا سأسحقه؛ وإذا وجدت خروفًا سآخذه دون تردد وأذبحه وأشويه ثم أدعو أصدقائى لنأكله. لكنك ستقول لى: الخروف ليس لنا؛ وأنت على حق ولكن دعك من هذا يا أخى، لنأكل

الخروف ثم بعدها نتحدث بهدوء عن لمن تعود أحقية الخروف وأنا أنظف أسنانى بعود الثقاب.

صدى ضحكه ملأ أرجاء الدير. فظهر زكريا واضعًا سبابته على فمه واقترب على أطراف أصابعه وقال:

- ششش، صمتًا؛ لا تضحكا! فهناك، وأشار إلى نافذة عالية، يجلس الأسقف خلف هذه النافذة العالية فى المكتبة يكتب ويكتب طوال اليوم.

- لم أكن أريد غيرك فى هذه اللحظة يا أب يوسف! قال زوريا وأمسك الراهب من ذراعه وقال له، هيا بنا إلى غرفتك لنتحاور.

ثم التفت نحوى:

- اذهب أنت فى نفس الوقت لتتفحص الكنيسة والأيقونات القديمة. أنا سأنتظر رئيس الدير إلى أن يأتى. لا تتدخل أنت فى الأمر وتفسده! دعنى أنا أتفاوض؛ فلدى خطة.

انحنى زوريا وهمس فى أذنى:

- سنأخذ الغابة بنصف الثمن... لا تقل كلمة!

ثم غادر وهو يمسك بذراع الكاهن نصف المخبول.

تخطيت عتبة الكنيسة ودخلت فى الغرفة الداخلية حيث الجو الرطب والرائحة الزكية.

المكان تقريبًا مهجور، نور القناديل الفضية باهت، كان هناك أيقونه كبيرة مزخرفة بالنقوش تحتل كل الحائط فى العمق، عبارة عن عريشة مذهبة مليئة بعناقيد العنب، كل الجدران كانت مكسوة بالأيقونات القديمة المهملة: نساك لهم أشكال موحشة، آباء الكنيسة، تصوير لآلام المسيح، ملائكة بشعر مجعد وملفوف بشرائط.

على الدعامة العلوية، كانت أيقونة للعذراء بيدين ممدودتين باستعطاف.. قنديل ثقيل مشتعل أمامها وضوؤه المرتعش يسقط بنعومة على وجهها الطويل المعذب. لن أنسى أبدًا نظرة عينيها المتألمة ولا فمها الصغير، وذقنها القوية الصارمة. قلت: ها هو الرضى التام، حتى وهى فى أشد حالات ألمها، هى أم سعيدة؛ لأنها تشعر أنها وجدت فى المخلوق الذى يخرج من أحشائها شيئًا خالدًا...

عندما خرجت من الكنيسة، كانت الشمس تغرب فجلست على المصطبة تحت شجرة البرتقال سعيدًا؛ قبة الكنيسة أخذت اللون الوردى

وكأن الفجر بزغ؛ الرهبان انسحبوا إلى غرفهم ليستريحوا قليلاً فهم يسهرون الليل فى الصلوات ولابد أن يستجمعوا قواهم؛ فاليوم ذكرى صعود المسيح نحو السماء ولابد لهم من مرافقته. خنزيرتان سوداوان بأثداء وردية نائمتان تحت شجرة خروب؛ اليمام الآن على الأسطح يمارس الحب. رحت أفكر؛ إلى متى سأعيش أسعد بهذه الأرض الطيبة والهواء، بالصمت ورائحة أزهار البرتقال؟ أيقونة القديس باخوس فى الكنيسة جعلت قلبى يفيض نشوة وسعادة. إن ما يهز أعماقى هو: التوحد واستمرار المحاولة وقوة الرغبة، كل هذه الأشياء تجلت أمامى؛ شكرًا لهذه الأيقونة الصغيرة لهذا القديس المسيحى بشعره المجعد الذى يتدلى على جبهته مثل عناقيد العنب الأسود. الإله الإغريقى ذيونيسوس والقديس باخوس امتزجا فيه وكأن لهما نفس الوجه؛ تحت أشجار العنب بعباءة القس يدور بجسده الملفوح بالشمس اليونانية.

ظهر زوربا فى الفناء.

– جاء رئيس الدير، قال لى على عجل، لقد تحدثنا قليلاً. إنه يطلب أكثر مما يستحق والأمر يحتاج شيئًا من المداهنة والتملق ولكنى سأنجح فى مهمتى.

– ماذا يحدث؟ لقد اتفقنا على شيء.

– قال زوربا متوسلاً. لا تخلط الأمور يا سيدى، أوف!

إنك ستفسد الأمر. ها أنت تتحدث الآن عن اتفاق قديم؛ لقد انتهى هذا الاتفـاق! لا تقطب حـاجـبـيك، انتـهى أقـول لك! سنأخـذ هذه الغـابة بنصف الثمن.

– لكن ما الذى تخطط له يا زوربا؟

– هذا ليس شـأنك؛ سـأضـع زيتًـا فى العـجلة حـتى تلين وتسيـر – أفهـمـت؟

– لكن لمـاذا؟ أنا لا أفهم.

– لأننى أنفقت مالاً كثيراً فى المدينة، هكذا! لأنه ليس صـحيـحًا أن تأكل لولا أموالك؛ هـذا غير صـحيح، أتظننى قد نسـيت؟ مـاذا تظـن يا سيدى؟ أنا رجل شريف. لا أطيق ثقل ذبابة على سيفى. لقد بددت مـالاً وعلى أن أعيـده؛ لقـد قـمت بحـسـاباتى؛ أنفـقت سـبـعـة آلاف على لولا؛ سـأستـقطـع هذا المبلغ من ثمن الغـابة. وسـيـدفـع نفقـات لولا رئيس الدير والكنيسة والعذراء. هذه هى الخطة – هل تعجبك؟

– على الإطـلاق. ومـا ذنب العـذراء، وكـيف تكـون مـسـئولة لتـدفع ثمـن طيشـك؟

– هى مسئولة، ومسئولة جداً بالطبع. هى التى أنجبت ابنها، الإله؛ وهذا الإله خلقنى أنا ومنحنى عـدتى التى تعرفـهـا؛ وهذه العدة والأدوات الملعونة تجعلنى كلمـا رأيت أنثى يصـيـبنى الدوار وأفقد صـوابى وأفتح

كيس نقودى. أفهمت الآن؟ ذنبها هى بالطبع، وقداستها مسئولة مسئولية تامة؛ عليها أن تدفع!

– لا يعجبنى هذا يا زوربا؟

– هذا هو أمر آخر يا سيدى. دعنا نوفر السبعة آلاف دراخمة ثم نتناقش بعدها. «افعل ما أطلبه منك، وبعدها سأصبح عمتك إن شئت» كما تقول الأغنية، أتعرفها؟

ظهر كبير المضيفين السمين، وقال بصوت كنسى معسول:

– هيا، تفضلا، العشاء جاهز.

نزلنا إلى غرفة المائدة، طاولة طويلة وضيقة. رائحة زيت زنخ تفوح فى المكان. فى العمق كانت أيقونة باهتة للعشاء الأخير. الأحد عشر حواريًا حول المسيح، وفى الجانب الآخر يقف يهوذا الحقير وحيدًا بلحيته الحمراء؛ والمسيح ينظر إليه وحده.

جلس كبير المضيفين؛ جلست أنا على يمينه وزوربا على يساره.

– إننا صائمون، قال، لهذا فاعذرونا؛ لا زيت ولا نبيذ حتى للضيوف. على كل حال مرحبًا بكما! أرجو لكما شهية طيبة.

رسمنا شارة الصليب على صدورنا، ورحنا نتناول الطعام؛ زيتونًا وبصلاً أخضر، بيض السمك المهروس وفولاً أخضر، ورحنا نمضغ نحن الثلاثة ببطء دون شهية.

- قال كبير المضيفين؛ هذه هى الحياة الأرضية، صيام. لكن إذا صبرنا، تأتى القيامة بلحم الغنم؛ تأتى لنا مملكة السماء.

سعل زوربا وداس على قدمي، كما لو أراد أن يقول لى بتهكم، ويحك يا رجل ماذا تقول!!

- رأيت الكاهن زكريا... قال زوربا ليغير الموضوع.

قال كبير المضيفين سائلاً بقلق:

- ماذا قال لكم هذا المسوس؟ لقد سكنته ست أرواح شريرة، لا تستمعوا إليه! إنه روح قذرة لا ترى سوى القذارة.

دق جرس صلوات اليقظة للرهبان على نحو حزين. رسم كبير المضيفين شارة الصليب على صدره ثم نهض واقفًا.

- قال: أنا سأذهب. لقد بدأت آلام المسيح؛ هيا لنصلب معه. لكن الليلة بإمكانكم أن تستريحوا، فأنتما متعبان من السفر؛ لكن غداً سنكون معًا لصلوات اليقظة والقيام....

- دمدم زوربا وهو يكز أسنانه فور أن غادر الرهبان، محتالون! كذابون وبغال وبشر بغال خنازير!

- ماذا بك يا زوربا؟ هل قال لك زكريا شيئًا؟

- دعك من هذا يا سيدى، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، لكنهم سيوقعون لا محالة!

ذهبنا إلى الغرفة التى أعدوها لنا؛ فى أحد أركانها كانت هناك أيقونة العذراء تضع خدها على خد ابنها؛ وعيناها الواسعتان مليئتان بالدموع.

هز زوربا رأسه:

- أتدرى يا سيدى لماذا تبكى؟

- لا.

- لأنها ترى؛ لو كنت أنا رسام أيقونات لرسمت العذراء بلا عيون وبلا آذان وبلا أنف؛ لأننى سأكون آسفا عليها.

تمددنا على الفرش الصلبة وكانت رائحة الأعمدة مثل أشجار السرو، ومن النافذة المفتوحة كان الهواء يدخل محملاً بروائح الربيع، وبين الحين والحين كانت تسمع من الفناء أصوات هبوب الريح وبعض الأصوات الحزينة؛ صوت عندليب خارج النافذة يغنى، ثم على مقربة منه عندليب آخر وآخر؛ كانت الليلة تفيض بالحب.

لم أستطع النوم؛ كان صوت العندليب يمتزج بحزن المسيح وكنت أصارع بين رائحة أزهار البرتقال ورحلة عذابات المسيح. مستدلاً ببقع الدم وفى هذه الليلة الزرقاء الصافية حبات العرق البارد كانت تغطى جسد المسيح ويده، كيف كانت يداه ممدودتين ترتعشان كأنه يستعطف أو يتسول... أهل بلدته الذين كانوا يهرولون خلفه يهتفون له بالمجد والخلود ويلوحون له بالسعف ويفترشون ملابسهم تحت أقدامه ليدوس عليها.

كان ينظر إليهم بحب، لكن أحداً لم يكن يعرف: هو فقط الذى كان يعرف أنه ذاهب لموته. تحت النجوم، يبكى بصمت، كان يواسى الناس وقلبه كان يرتعش: «ومثل القمح يا قلبى لابد أن تنزل إلى الأرض لتموت لا ترتعش، وإلا كيف ستصبح سنبلةً أيها القلب؟ وكيف ستطعم البشر الذين يتضورون جوعًا؟»

لكن فى جوفه كان هناك قلب بشرى يرتعش ويرتعش ولا يريد الموت...

شيئًا فشيئًا، صارت الغابة التى تحيط بالدير تصدح بالعنادل. كانت الأغانى تصعد على أوراق الشجر الرطبة، كلها حب ومشاعر دافئة؛ كانوا يغنون معه ويبكون ومعهم قلب البشرية يبكى وينتفخ ويفيض بالحزن.

وهكذا مع آلام المسيح وغناء العنادل دخلت فى النوم، كما تدخل الروح إلى الجنة.

لم تمض ساعة على نومى حتى استيقظت مذعوراً:

- صاح زوربا، هل سمعت؟ طلقة من مسدس!

لكن زوربا كان جالساً على الفراش يدخن.

- لاتقلق يا سيدى، قال وهو يحاول كتم غيظه؛ دعهم يقتل بعضهم البعض.

سمعنا صوت جلبة فى الممر وصوت أحذية صوفية ثقيلة تزحف على الأرضية وصوت أبواب تتصدع وصوت شخص يئن من بعيد وكأنه مصاب.

قفزت من على فراشى وفتحت الباب فإذا بعجوز نحيل قفز أمامى وكان يرتدى قلنسوة مدببة وقميصًا أبيض يصل حد ركبتيه.

– من أنت؟

– الأسقف... أجاب بصوت مرتعش.

كنت على وشك أن أنفجر فى الضحك؛ أين حلة قداسته الذهبية والقبعة والصليب الكبير والمجوهرات والأحجار الكريمة متعددة الألوان. لأول مرة فى حياتى أرى أسقفًا برداء النوم.

– ما صوت إطلاق الرصاص هذا؟

– لا أدرى... لا أدرى... دمدم ثم دفعنى إلى الخلف.

كان زوربا على فراشه يضحك:

– هل أصابتك الرهبة يا أبانا؟ هيا ادخل أيها المسكين فلسنا رهبانًا ولا تخف.

– قلت بصوت خافت: لا تتحدث هكذا يا زوربا؛ إنه الأسقف!

– يا عزيزى برداء النوم ليس هناك أسقف، هيا، ادخل إلى الغرفة أقول لك!

نزل زوربا، أخذه من ذراعه، وسحبه للداخل ثم أغلق الباب وأخرج من حقيبته قنينة عرق وملأ كأساً.

- اشرب يا أبانا، قال له، كي يقوى قلبك.

شرب الرجل العجوز كأس العرق، واستعاد وعيه. جلس على الفراش واتكأ على الحائط.

- قلت: أيها الأب الموقر، ما صوت إطلاق الرصاص هذا؟

- لا أدرى يا بنى، لا أدرى، فأنا كنت أعمل حتى منتصف الليل ثم استغرقت فى النوم إلى أن سمعت صوت إطلاق الرصاص بجوار حجرة ذيوماتيس...

- آه، آه، قال زوربا؛ لقد كان زكريا على حق!

أطرق الأسقف برأسه:

- ربما كان لصاً... دمدم.

الجلبة فى الممر كانت قد هدأت، وغاص الدير فى الصمت مرة أخرى ونظر إلى الأسقف بعينيه الطيبتين الخائفتين بتوسل:

- هل أنت نعسان يا بنى؟ سألنى.

- أحسست أنه لم تكن لديه رغبة البقاء وحده فى الغرفة؛ كان خائفاً.

- أجبته، لا، لا أشعر بالنعاس؛ ابق هنا قليلاً.

بدأنا نتحدث؛ كان زوربا متكئًا على وسادته ويدخن.

- قال لى الأسقف؛ يبدو لى أنك شاب مثقف ومتعلم، حمداً للرب. فأنا هنا لا أجد بشراً أتحدث معهم. لدى ثلاث نظريات تخفف عنى الحياة؛ أود أن أطلعك عليها.

لم ينتظر ردى وتابع حديثه:

- أول نظرية هى: أن الشكل الذى تكون عليه الزهرة يؤثر على ألوانها؛ وألوان الزهور تؤثر على خصائصها؛ وهكذا كل زهرة لها تأثير مختلف على الجسد، وبالتالى على الروح ولهذا لابد أن نحترس جميعًا عندما نسير فى حقل مزهر.

صمت، كأنه ينتظر رأيى. خيل إلى أننى أرى الأسقف يسير فى حقل مزهر وينظر إلى الأرض، وبقشعريرة خفية راح يبحث فى أشكال الزهور وألوانها، ويرتعش: كل البستان فى الربيع يمتلئ بالأرواح...

- وهذه هى النظرية الثانية: كل فكرة لها تأثير حقيقى لها أيضًا وجود حقيقى. هى موجودة بالفعل، لا تحوم فى الهواء كشبح هلامى بلا جسد؛ بل لها جسد حقيقى، عينان وفم وأقدام وبطن...هى رجل أو امرأة؛ تطارد الرجال أو النساء.. ولهذا يقول الإنجيل:«تجسدت الكلمة...»

نظر إلى مرة أخرى بقلق.

- النظرية الثـالثة، قال بتعجل، حيث إنه لم يعد يحتمل صمتى، هى كالتالى: هناك شىء من الخلود موجود فى حياتنا العابرة؛ لكن من الصعب أن نجده وحدنا؛ فهمومنا اليومية تضللنا وقليل من الناس المصطفين، لهم القدرة أن يعيشوا الخلود فى هذه الحياة العابرة. بقية البشر هم ضائعون وفانون ولذلك أسف عليهم الرب فأرسل لهم الديانة.

- وهكذا؛ أصبح الناس قادرين على عيش الخلود أيضًا.

تحدث الأسقف وشعر بالارتياح. رفع جفنيه ونظر إلى مبتسمًا. كأنه أراد أن يقول: «هذا هو ما لدى من حكمة، وها أنا أعطيك إياه.» شعرت بتأثر شديد أن يمنحنى ثمار حياته بهذا الكرم وهو لا يكاد يعرفنى.

نظر إلى كأنه يريد أن يعرف إذا ما كانت حياته ذهبت هباءً.

كان يرتعش، لكنى كنت أعرف أن فوق الحقيقة هناك واجب للإنسانية أكبر وأهم بكثير.

- أجبته، إن هذه النظريات يا أبانا يمكن أن تنقذ أرواحًا كثيرة.

أشرق وجه الأسقف؛ وكأن هذا قد برر حياته كلها.

- همس وهو يربت على يدى بمودة، أشكرك يا بنى.

قفز زوربا حينها من ركنه وقال:

- معذرة؛ فأنا لدى نظرية هائلة.

التفت نحوه الأسقف ونظر إليه بقلق وقال: قل يا بني وليبارك الله فى نظريتك، ما هى؟

– قال زوربا بجدية: جمع اثنين واثنين هو أربعة!

نظر إليه الأسقف مندهشاً.

– ثم تابع زوربا، ونظرية خامسة يا أبانا: أن؛ مجموع اثنين واثنين ليس أربعة؛ خذ وقتك واختر ما تشاء!

– دمـدم الأسـقف وهـــو ينظـــر إلى كمـــن يطـــلب مسـاعدة... إنى لا أفهم...

– ولا أنا! قال زوربا وهو يرفع صوته بالضحك.

التفت إلى الأسقف المندهش، وغيرت الموضوع:

– ما الأبحاث التى تقوم بها هنا فى الدير؟

– أنا أنسخ مخطوطات الدير القديمة يا بنى؛ وهذه الأيام أنسخ كل الألقاب التى منحتها كنيستنا للعذراء.

ثم تنهد قائلاً.

– لقد شخت ولم تعد لدى القدرة على فعل شىء، لكن أرتاح عندما أنسخ ألقاب العذراء فهذا ينسينى بؤس هذا العالم.

اتكأ على الوسادة وراح يدمدم كأنه يهذى:

- «وردة الذبول وأرض خيرة وشجرة كروم وينبوع ونهر وصنبور يصب المعجزات ودرجات السماء وجسر وفرقاطة وميناء ومفتاح الجنة وفجر وشمعة مضيئة وبرق وعمود نارى وقائد بطل وقلعة حصينة وجدار منيع وسقف وملاذ وعزاء وسعادة وعصا الأعمى وأم الأيتام وطاولة وطعام وسلام وصفاء وعبق ووليمة وعسل وحليب....».

- قال زوربا... إن المسكين يهذى؛ دعنا ندثره حتى لا يصيبه البرد....

نزل من على السرير، عدل من وضع الوسادة تحته وألقى عليه بطانية.

- لقد سمعت أن هناك سبعةً وسبعين نوعًا من الجنون، لكن يبدو أن هذا النوع هو الثامن والسبعون.

بدأ نور الصباح يشرق. سمعنا صوت قرع من الفناء. أطللت من النافذة ورأيت راهبًا نحيفًا يرتدى غطاء رأس أسود ويحرك أداة ما فى الفناء ويقرعها بمطرقة خشبية. كان يصدر صوتًا ونغمًا حلوًا راح يفيض فى هواء الصباح وصمتت عنادل الليل وراحت عصافير الصباح ترفرف وتغنى فوق الأشجار.

وأنا مطلاً من النافذة فتنت بالألحان الجميلة لتلك الآلة الخشبية ورحت أفكر كيف أن إيقاع الحياة السامى هذا يمكن أن ينحط، ويحتفظ فقط بشكل الحياة الخارجى مليئًا بالنبل الخارجى فقط فإن الروح ترحل لكنها تترك مكانها التى ظلت تبنيه بتفاصيله فى قوقعة الزمان.

قواقع فارغة كهذه، رحت أفكر، هى تلك الكاتدرائيات الرائعة في المدن الملحدة؛ وحوش ما قبل التاريخ قد انقرضت وبقيت هياكلها متآكلة على الصخور ومن حرارة الشمس.

طرق أحدهم باب غرفتنا؛ سمع صوت كبير الضيافة الغليظ:

– انهضوا لصلاة القيامة يا إخوة!

نهض زوربا بعصبية:

– ماذا كان صوت إطلاق الرصاص؟

انتظر قليلاً؛ اصمت. لابد أن الراهب ما زال واقفًا أمام الباب فلم نسمع صوت خطواته يرحل. اشتعل زوربا غيظًا:

– ماذا كان صوت إطلاق الرصاص أيها الراهب؟ صرخ زوربا.

سمعنا خطوات الراهب يخطو مسرعًا ليبتعد ولكن بقفزة واحدة كان زوربا عند الباب وفتحه:

– تفووو، أيها المهرجون! قال وبصق نحو الراهب الذى غادر. قساوسة ورهبان وراهبات وشماسون أبصق عليكم جميعًا.

– دعنا نرحل من هنا؛ فأنا أشم رائحة دم.

– لو كانت رائحة دم فقط! قال زوربا مدمدمًا. اذهب أنت يا سيدى إلى الصلاة إذا كانت لديك رغبة؛ أما أنا فسأبحث لأعرف.

- قلت: دعنا نرحل، من فضلك لا تحشر أنفك فى ما لا يعنيك.

- على العكس تماماً يا سيدى، لأن هذا يعنينا أريد أن أحشر أنفى، قال بعد أن فكر وابتسم بمكر: قائلاً:

- إن الشيطان يسدى لنا معروفًا كبيراً! أظن أنه يجلب لنا الأمور يا سيدى، كم يمكن أن تكلف الدير هذه الرصاصة؟ سبعة آلاف دراخمة!

نزلنا إلى الفناء. روائح الأشجار المزهرة كانت تعبق المكان: كان زكريا ينتظرنا، هرول وأمسك بزوربا من ذراعه.

- يا أخ كانافارو، دمدم وهو يرتعش، هيا نرحل من هنا!

- ماذا كان إطلاق الرصاص؟ هل قتل أحد؟ تكلم أيها الراهب وإلا خنقتك!

كان فك الراهب السفلى يرتعش. نظر حوله: كان الفناء خاوياً، الغرف مغلقة، كانت الأنغام تفيض كالموجات من داخل الكنيسة.

- قال زكريا: اتبعانى... كوارث ومصائب!

سرنا بجوار الجدار وعبرنا الفناء وخرجنا خارج الحديقة.

على مبعدة من الدير كانت هناك مقبرة: دخلنا فيها.

وطأنا القبور ودفع زكريا باب الكنيسة الصغير ودخلنا وراءه وفى المنتصف فوق حصيرة كان هناك جسد مسجى وملفوف بعباءة راهب.

كانت هناك شمعة موقدة عند رأسه وأخرى عند قدميه.

انحنيت فوق الجثمان؛ رفعت الغطاء من على الوجه.

- إنه الراهب الصغير! قلت مرتعشاً؛ إنه الصغير الأشقر صاحب ذيوماتيوس!

على باب المصلى، كانت أجنحة الملاك ميخائيل تتلألأ وهو واقف يحمل سيفه.

- صاح الراهب؛ أيها الملاك ميخائيل! أحرقهم جميعاً، افعل شيئاً، اترك أيقونتك ومزقهم بسيفك؛ ألم تسمع صوت الرصاص.

- من قتله؟ من؟ ذيوماتيس؟ تكلم يا لحية العنزة!

تخلص الراهب من يد زوربا وسقط عند أقدام الملاك ميخائيل؛ مكث بعض الوقت خافضاً رأسه، وفمه مفتوح كأنه يتصنت على شيء.

وفجأة هب واقفاً بسعادة.

- سأحرقهم! قال بحزم؛ لقد هز الملاك لي رأسه بالموافقة.

رسم شارة الصليب على صدره.

- حمداً للرب، قال مرتاحاً!

أمسك زوربا بالراهب من كتفيه.

- تعال إلى هنا يا يوسف، هيا بنا، وستفعل ما أقوله لك.

التفت نحوى:

- أعطنى المال يا سيدى؛ سأوقع أنا على الأوراق. هذا مكان ملىء بالثعالب واعذرنى فأنت كالخروف البرىء، سيأكلونك؛ دعنى أتعامل معهم ولا تشغل نفسك أنت، فأنا أمسك بخصاهم فى يدى؛ عند الظهيرة سنرحل من هنا والغابة فى جيبنا، هيا بنا يا زكريا!

تسلل نحو الدير كل منهما؛ أما أنا فرحت نحو أشجار الصنوبر.

تعامدت الشمس وأنارت السماء والأرض، كان الندى يرتعش على الأوراق. طار شحرور أمامى وجلس على شجرة كمثرى برية، راح يهز ذيله، فتح منقاره ونظر إلى وغرد ثلاث مرات بمرح.

من بين أشجار الصنوبر كنت أرى فناء الدير والرهبان يخرجون من الكنيسة مطرقى الرءوس؛ فيما أغطية رءوسهم مرخية على أكتافهم. انتهت الصلوات وكانوا ذاهبين باتجاه غرفة الطعام.

«يا للحسرة، رحت أفكر، كل هذا التقشف والنبل كيف يكون بلا روح!»

كنت مرهقًا، فلم أنم ليلة أمس. تمددت على العشب. كانت رائحة البنفسج البرى والمريمية تهب مع الهواء؛ والحشرات تطن جائعة، فراحت تخرق الزهور لتمتصّ عسلها، والجبال هناك كانت تتلألأ مشرقة شفافة، زرقاء، كانت تشبه دخانًا يحوم تحت لهيب الشمس الحارقة...

أغمضت عينى هادئًا. فتملكتنى فرحة أثيرية، وكأن تلك الخضرة التى تحيط بى هى الجنة، وكأن هذه النداوة هى الرب، وهذا السرور فى الشعور بأن الرب يتخفى خلف كل هذه الأقنعة. تارة يرتدى قناع كوب من الماء المثلج، تارة طفل نراقصه على أرجلنا، وأخرى امرأة فاتنة وتارة نزهة صباحية.

شيئًا فشيئًا ودون أن أشعر تحولت الأشياء إلى حلم؛ النوم واليقظة اتخذا نفس الوجه، كنت نائمًا وأحلم بالواقع وأنا سعيد. الأرض والجنة اتحدتا؛ صارتا شيئًا واحدًا. بدت لى الحياة مثل وردة برية وقطرة عسل كبيرة فى قلبى، وروحى مثل نحلة برية تطير فى المكان.

نهضت مفزوعًا فجأة من هذا الحلم الجميل؛ سمعت خلفى صوت خطوات وحوارًا هامسًا، وصوتًا مبتهجًا ينادينى!

- هيا بنا يا سيدى!

كان زوربا أمامى وفى عينيه بريق شيطانى.

- هل سنغادر؟ قلت بارتياح؛ هل انتهى كل شىء؟

- كل شىء! قال زوربا وهو يضرب على جيب سترته؛ ويقول هنا؛ الغابة هنا. مبروك يا سيدى! وها هى السبعة آلاف دراخمة التى أنفقتها على لولا! وأخرج من صدريته لفافة من الأوراق المالية.

- خذها، قال، لقد أوفيت بدينى لك ولم أعد أخجل بعد اليوم. هنا الجوارب والحقائب والعطور وهدايا السيدة بوبولينا، وفستق الببغاء وحتى الحلوى التى أهديتك إياها.

- قلت: حلال عليك يا زوربا، خذها كلها، اذهب الآن وأشعل شمعة كبيرة بحجمك للعذراء التى أخطأت فى حقها.

التفت زوربا خلفه؛ فظهر الراهب زكريا بعباءته القذرة التى بدأ لونها يتغير جرّاء القذارة ويتحول إلى الأزرق، وحذائه المهترئ، فأشار له زوربا بلفافة الأوراق المالية وقال:

- سنتقاسمها أنا والأب يوسف، هيا خذها واشتر مائة أوقية من السمك المقدد المملح لتأكل أيها المسكين حتى تصاب بالتخمة وتتقيأ! افتح كفك وخذ!

خطف الراهب لفافة النقود وأخفاها فى صدره.

- سأشترى كيروسين... قال.

ابتسم زوربا وانحنى على أذن الراهب هامساً:

- لابد أن يكون الوقت ليلاً وأن يكونوا نائمين؛ وتكون الرياح شديدة... سترش أركان الجدران الأربعة؛ ستبلل خرقًا أو قطع قطن كبيرة وتشعلها... فهمت؟

كان الراهب يرتعش.

- لا ترتعش أيها الراهب، ألم يعطك الملاك ميخائيل أمراً من السماء؟ كيروسين والرب المقدس! على بركة الرب!

- هل علمت أى شىء يا زوربا عن طلقة المسدس أمس؟ سألته.

– عن طلقة المسدس لا تسأل يا سيدى؛ لا تتعب نفسك، فكما يقول زكريا؛ هنا تحدث الكوارث! لقد قتل ذيوماتيس الراهب الصغير الوسيم.

– ذيوماتيس! لماذا؟

– لا تحاول أن تشغل بالك وتبحث فى الأمر يا سيدى، فهى مجرد قذارة وعفن.

التف نحو الدير. كان الرهبان يتجهون نحو غرفة الطعام، وغرفهم مغلقة.

– صاح زوربا. امنحونى قوة لعناتكم أيها الآباء المقدسون!

أول من قـابلناه عندمـا عـدنا ليـلاً إلى الشـاطئ كـانت بوبولينا التى كانت تجلس متقوقعة أمام الكوخ.

عندما أشعلنا المصباح ورأينا وجهها، فزعت.

- ما بك يا مدام أورتانس؟ هل أنت مريضة؟

منذ اللحظة التى برقت فى ذهنهـا فكرة الزواج، تخلت الحـورية العجوز عن كل مظاهر تبرجها وإظهار فتنتها. كانت تصارع كى تمحو المـاضى بأسره، وأن تخلع من فوقها كل أجنحة المـاضى المبهرجة التى زينها بها الباشوات والقباطين...

كانت تتوق إلى أن تكـون امرأة جادة، ربة بيت عـادية ومحترمة. لم تعد تخشى ألا تتزين أو تتعطر، كانت تظهر على طبيعتها.

لم يتكلم زوربا؛ كان يبرم شاربيه المصبوغين حديثًا بعصبية. انحنى وأشعل الموقد ووضع عليه إبريق القهوة.

- إنك قـاسى القلب! سـمـعنا فـجـأة صـوت المغنيـة العـجـوز الأجـش.

رفع زوربا رأسه، نظر إليها؛ ورقت عيناه. لم يكن يحتمل أن يسمع امرأة تكلمه بتوسل دون أن يرتبك أو يرق قلبه؛ كان يمكن أن يغرق فى دمعة امرأة.

لم يتكلم؛ وضع البن والسكر فى الإبريق وراح يقلبهما.

– لمَ لم تتزوجنى حتى الآن؟ قالت الحورية العجوز. لم أعد أجرؤ أن أظهر فى القرية؛ لقد ضاع منى شرفى! إنى أشعر بالخزى والعار! سأقتل نفسى!

كنت متعبًا ومستلقيًا على الفراش متكئًا على وسادتى وأستمتع جداً بهذا المشهد الكوميدى المؤثر.

اقتربت مدام أورتانس من زوربا ووضعت يداها على ركبتيه.

– لمَ لم تحضر أكاليل عرسنا؟ سألته وهى تتمزق.

شعر زوربا بيدى بوبولينا المكتنزتين ترتعشان على ركبتيه. وكأن هاتين الركبتين كانتا المكان الوحيد الآمن والصلب الذى يمكن أن تتمسك به تلك الغريقة لتنجو بحياتها.

بدأ زوربا يستفيق ويفهم ويرق قلبه.

لكنه ظل صامتًا؛ راح يصب القهوة فى الفناجين الثلاثة.

– لمَ لم تحضر الأكاليل يا زوربا؟ سألته مرة أخرى بصوت مستعطف.

- لم يكن لديهم فى المدينة أكاليل من نوع جيد، أجاب زوربا.

أعطى لكل منا فنجانه وتقوقع فى أحد الأركان.

- لقد أرسلت إلى أثينا، تابع زوربا حديثه، لكى يرسلوا إلينا أكاليل جيدة؛ أرسلت لهم أيضًا طلبًا لشموع بيضاء وحلوى الملبس بالشوكولا واللوز المحمص...

كلما استمر فى الحديث راحت مخيلته تشتعل؛ وعيناه تشعان وميضًا، ومثل الشاعر فى لحظة استقبال الإلهام والإبداع، كان يتأرجح فى الهواء هناك حيث يمتزج الكذب والحقيقة ويصبحان شيئًا واحدًا.

جلس يستريح الآن متكورًا ويرشف قهوته بصوت عال، وأشعل سيجارته، فقد سار يومه على ما يرام ولديه عقد الغابة فى جيبه وكان سعيدًا، وانطلق:

- إن زواجنا يا بوبولينا لابد أن يحكى عنه العالم. لابد أن ترى فستان العرس الذى طلبته لك! لهذا مكثت أيامًا كثيرة فى المدينة يا حبيبتى. لقد أحضرت خياطتين مشهورتين من أثينا؛ وقلت لهما: «إن المرأة التى سأتزوجها ليس لها مثيل فى الشرق ولا فى الغرب! كانت ملكة القوى الأربع العظمى، والآن صارت أرملة، فقد انهارت القوى العظمى، ماتت، وقبلت أن تجعلنى زوجها. لذلك إذن أريد أن تصنعا لها فستان زفاف ليس له مثيل؛ مصنوعًا كله من الحرير واللؤلؤ، ولابد أن تزينا ذيله بالنجوم الذهبية، وعلى الصدر لابد أن تضعا على اليمين

الشمس وعلى اليسار القمر!، ولكن قالت الخياطتان، سيكون هذا مبهراً جداً لكن أحداً لن يستطيع النظر إليه، سيصابون بالعمى! - فليصابوا! قلت؛ لا يهمنى، كل ما يهمنى أن تكون حبيبتى سعيدة!»

كانت مدام أورتانس تنصت وهى مستندة بظهرها على الحائط. راحت تبتسم ملء وجهها السمين المتجعد، والوشاح الوردى الذى تربطه على رقبتها يكاد يتمزق.

- همست وهى تنظر إلى زوربا نظرة ذائبة... أريد أن أهمس بشيء فى أذنك.

غمز لى زوربا بعينه وانحنى نحوها.

- همست العروس فى أذن زوربا المشعرة وكادت تخرقها بلسانها، لقد أحضرت لك شيئًا الليلة.

أخرجت من صدرها منديلاً معقوداً وأعطته لزوربا.

امسك زوربا المنديل بين أصابعه وألقاه على ركبته اليمنى ثم التفت للخارج وراح ينظر للبحر.

- قالت. ألن تفك العقدة يا زوربا؟ لا يبدو أنك متعجل على الإطلاق؟

- أجاب، دعينى أشرب قهوتى أولاً، وأدخن سيجارة، فأنا أعرف ماذا فيه على أيه حال.

- قالت الحورية متوسلة... فك العقدة، فك العقدة.

- ألم أقل سأدخن سيجارتى أولاً!

نظر لها زوربا باحتقار وقال، كما لو لم أقل شيئًا: «هذا ذنبك»

راح يدخن على مهل وينفث الدخان من أنفه وينظر إلى البحر.

- غداً ستهب رياح شرقية، قال، لقد تغير الطقس. ستنتفخ الأشجار ولن تتسع قمصان البنات لنهودهن... الربيع المحتال من بدع الشيطان!

صمت قليلاً ثم قال:

- كل ما هو جميل فى هذه الدنيا هو من صنع الشيطان. المرأة الجميلة، الربيع، النبيذ، كل هذه الأشياء من صنع الشيطان؛ أما الرب فصنع الرهبان والصيام وشراب المريمية والنساء القبيحات، تفوو؛ عليهم اللعنة!

قال هذا وألقى نظرة وحشية على المدام البائسة التى انكمشت فى ركنها تنصت لما يقوله.

- زوربا... زوربا... كانت تقول متوسلة بين الحين والآخر.

لكن زوربا أشعل سيجارة أخرى وراح ينظر جهة البحر.

- فى الربيع يسود حكم الشيطان؛ ترخى الأحزمة وتفتح أزرار القمصان، تتنهد النساء العجائز...

أبعدى يديك يا سيدة بوبولينا!

- زوربا... زوربا... راحت تتوسل مجدداً وانحنت، أخذت المنديل وحشرته فى كفه المفتوح ونظرت إليه.

- قال لها زوربا بقرف، ماهذا يا سيدة بوبولينا؟

- خاتمان... خاتمان يا حبيبى... خاتما الخطوبة...

همهمت الحورية العجوز وهى ترتعش. إن وصيفنا فى الزواج هنا، والليلة جميلة والجو بديع، والرب يشاهدنا، هيا اخطبنى يا زوربا!

راح زوربا ينظرُ إلى تارة، وإلى مدام أورتانس أخرى، ثم إلى الخاتمين تارة ثالثة. إن شياطين كثيرة تتصارع فى داخله الآن ولم ينتصر أحد منهم بعد؛ كانت المرأة البائسة ترنو إليه برعب.

- راحت تناديه بصوت أشبه بالخرير، زوربا... زوربا يا حبيبى...

استويت على سريرى ورحت أراقب وأنتظر؛ ترى أى الدروب سيسلك زوربا؟

فجأة هز رأسه، لقد اتخذ قراراً، أشرق وجهه؛ ضرب كفيه، هب واقفاً.

- هيا بنا نخرج! صاح زوربا؛ هيا بنا تحت النجوم ليرانا الرب يا وصيفى، خذ أنت الخاتمين؛ أتستطيع أن تنشد؟

– أجبت، لا، لكنى كنت قد قفزت من على الفراش ورحت أساعد المدام لتنهض.

– لقد نسيت أن أخبرك، لقد عملت منشداً فى جوقة الكنيسة وكنت أتبعها فى مراسم الزواج والتعميد والجنازات، حفظت كل أناشيدهم عن ظهر قلب. تعالى يا بوبولينتى، تعالى يا بطتى، تحركى، هيا يا فرقاطة الأسطول، قفى على يمينى!

من كل شياطين زوربا، انتصر هذه الليلة أيضاً الشيطان الطيب اللعوب. لقد أسف لحال المغنية، أوجعت قلبه عندما رأى عينيها وقد اغرورقتا وتعلقتا عليه بهلع.

«دمدم وهو يأخذ القرار؛ إلى الجحيم؛ إذا كان يمكننى أن أهدى فرحة لأنثى من بنات حواء، فلمَ لا؛ هيا بنا!»

أسرع نحو الشاطئ، وأخذ المدام فى يده، أعطانى الخاتمين، التفت نحو البحر وراح ينشد:

«تبارك الرب إله العالم الأبدى، آمين!»

التفت نحوى:

– انتبه يا سيدى...

– ليس هناك سيدى الليلة، قلت؛ قل لى يا وصيف.

– انتبه يا وصيفى إذن عندما أصيح:

«بسرعة ضع الخاتمين».

قال وبدأ مجدداً بصوته الناشز ينعق وينشد: «لعبد الرب أليكسيس وأمـة الرب أورتانس، يخطب كل منهـمـا الآخـر، نطلب منك الرحـمـة والمباركة يا إلهنا!»

– يا رب الرحـمـة! يا رب الرحمـة! رحت أردد وأنا أقـاوم الضـحك والبكاء بصعوبة بالغة.

– لا تزال هناك أشيـاء كثـيرة، قـال زوربا، لكن ليأخذنى الشيطان إن كنت أذكرها! لنذهب إلى لب الموضوع:

– هيا! أسرع! ومد يده الكبيرة إلى.

– مدى يدك أنت أيضاً يا سيدتى الجميلة، قال لخطيبته.

مدت نحوى يدها المكتنزة والمهترئة من فرط الغسيل وكانت ترتعش. مررت الخاتمين فى إصبعيهما، وراح زوربا يصرخ بجنون كالدراويش: «لقـد خطب عـبـد الرب أليكسـيس أمـة الرب أورتانس بسم الأب والأم والروح القـدس، آمـين! تمت خطبـة أمـة الرب أورتانس على عـبـد الرب أليكسيس.....»

– ها هو، قد انتهى، مبروك! تعالى هنا يا مدام زوربا إلى جوارى لأعطيك أول قبلة شريفة فى حياتك!

لكن مدام أورتانس انهارت وسقطت على الأرض، واحـتضن زوربا قدميها وراح يبكى. وهز زوربا رأسه مشفقاً وغمغم قائلاً:

– مسكينات هؤلاء النسـاء! يا لهن من حمقاوات.

نهضت مدام أورتانس ونفضت فستانها، ثم فتحت ذراعيها.

- صاح فيها زوربا معنفًا إياها، اليوم الثلاثاء المقدس، أنزلى يديك، هذه فترة صيام!

- زوربا حبيبى... دمدمت ذائبة.

- صبرًا يا سيدتى،، حتى عيد الفصح، وسنأكل اللحم. وسنكسر البيض الأحمر. الآن، حان الوقت أن تعودى إلى البيت. ماذا سيقول الناس إذا رأوك تعودين إلى البيت فى وقت متأخر؟

نظرت له بوبولينا بتوسل.

- لا، لا، قال زوربا، فى عيد الفصح! تعال معنا يا وصيف!

انحنى على أذنى:

- لا تتركنا وحدنا بربك! ليس لدى أى مزاج الليلة.

أخذنا الطريق نحوالقرية؛ كانت النجوم تومض فى السماء ورائحة البحر تحيطنا وطيور الليل تئن فوقنا والحورية العجوز متعلقة بيد زوربا، كانت تسير بجواره سعيدة وحزينة فى نفس الوقت.

وأخيرًا وصلت الليلة للميناء التى كانت تتوق إليه طيلة عمرها، وكانت تغنى البائسة طوال حياتها وتلهو وأمضت أوقاتًا ممتعة فى الماضى وكانت تسخر من السيدات المحتشمات ولكن قلبها كان يحترق، وعندما كانت تمر متزينة وتفوح منها رائحة العطر وترتدى الثياب المبهرجة

فى الإسكندرية وبيروت وإسطنبول وترى نساء فقيرات يحملن أطفالهن، كان صدر مدام أورتانس المسكينة يتمزق، وينتفخ ثدياها وتتصلب حلمتاهما وتطلب هى الأخرى أفواه رضع تمتص منها الأمومة.

«أريد أن أتزوج وأنجب طفلاً...» كان هذا هاجساً مزمناً فى عقلها طيلة حياتها، كانت تتنهد وحيدة وتحلم. لكنها لم تبح لأحد بهذا الألم قط. والآن حمداً للرب! متأخراً بعض الشىء لكن لا بأس، دخلت أخيراً الميناء المنتظر بعد أن لطمتها الأمواج بعنف ولسنوات طويلة...

كانت ترفع عينيها من وقت لآخر لتنظر خلسة إلى هذا الأحمق الطويل الذى يسير بجوارها. راحت تفكر، إنه ليس ثرياً ولا من الباشوات بالخصلات الذهبية فى طربوشه؛ وليس وسيماً مثل الأثرياء؛ لكن لا بأس، هو أفضل من لا شىء، حمداً للرب!»

كان زوربا يشعر بأنها تتكأ على ذراعه بثقلها كله وهو كان يجرها متعجلاً كى يصل إلى القرية وينجو.

وكانت المسكينة تتعثر بحجارة الشارع، وكادت أظافر قدميها أن تقتلع، وجروح أقدامها تؤلمها، لكنها لم تتذمر شاكية. لمَ تشكو أو تتكلم كل شىء على ما يرام، حمداً للرب!

كنا قد عبرنا شجرة تين سيدتنا الشابة وحديقة الأرملة، وظهرت أول منازل القرية. فتوقفنا.

– طابت ليلتك يا حبيبى، قالت المغنية بسعادة ووقفت على أصابع قدميها وارتفعت كى تصل إلى فم خطيبها.

لكن زوربا لم ينحنِ.

– هل تدعنى أقبل قدمك يا حبيبى، فهمّت المرأة أن تجثو على الأرض لتستعد للطقس الرومانسى.

– لا، لا قال زوربا متأثرًا بعد أن التقطها بين أحضانه. أنا الذى يجب على أن أقبل قدميك! هذا واجب على أنا.... لكننى لا أشعر فى الرغبة الآن... طابت ليلتك!

افترقنا. عدنا سالكين نفس الطريق صامتين كنا نتنفس بعمق الهواء العطر؛ لكن زوربا التفت نحوى ونظر إلى.

– ماذا سنفعل يا سيدى؟ قال؛ هل نضحك أم نبكى؟ انصحنى أرجوك.

لم أجب؛ فكانت لدى عقدة فى حلقى ولم أعرف ماهيتها هل هى من البكاء أم الضحك؟

– قل لى يا سيدى؛ ما اسم هذا الإله الإغريقى زير النساء الذى كان لا يترك للنساء أى شكوى فى الحياة؟ كنت قد سمعت شيئًا عن هذا. كان يصبغ لحيته هو الآخر، ويرسم أوشامًا على ذراعه، حوريات وقلوب، وكان يتنكر كما يقال، كان يصبح ثورًا وبجعة وجديًا وحمارًا أحيانًا، كان يفعل ما يحلو له وما يعجب أى فتاة. هيا قل لى؛ ما اسمه؟

– أظن كان اسمه زيوس؛ لمَ تذكرته الآن؟

– قدس الله روحه! قال زوربا وهو يرفع يده نحو السماء. فقد كان يعاني كثيراً، ويتألم كثيراً، إنه شهيد عظيم، اسمع منى أنا، يا سيدى، فأنا أعرف عن هذه الأشياء. أنت تقرأ الكتب، لكن فكر ولو مرة من يكتبها! أووف! أساتذة! وماذا يفهم الأساتذة عن النساء وأزيار النساء؟ لا شيء!

– ولماذا لا تكتب أنت كتاباً عن زوربا، لتشرح لنا كل أسرار العالم والحياة؟

– لماذا؟ لأننى ببساطة، أعيش أسرار العالم والزمان. أعيش الحياة، وأعيش المرأة، والنبيذ والسانتورى، وليس لدى وقت كى أمسك بالأقلام البائسة. هكذا وقع العالم فى أيدى الكاتبين الناسخين؛ لأن الذين يعيشون أسرار العالم ليس لديهم وقت ليكتبوا؛ ومن لديهم وقت، لا يعيشون أسرار العالم. أفهمت؟

– حسناً، زيوس إذن؟ لنعد إلى موضوعنا الأصلى، لا تغير الموضوع.

– قال زوربا وهو يتنهد. آه، هذا الرجل المسكين! أنا أعرف فقط أنه عانى الكثير. كان يحب النساء كثيراً، هذه حقيقة، لكن ليس كما تظنون أنتم معشر الكتاب، لا، على الإطلاق ! هو كان يتألم من أجلهن؛ كان يفهم مزاج كل منهن، ويضحى من أجلهن. كان عندما يرى فى الريف

أى عانس تتألم فى وحدتها، وكانت امرأة جميلة، وحتى وإن لم تكن جميلة، وإن كانت فى قبح وحش أو يغيب عنها زوجها ولا تستطيع النوم، كان يرسم شارة الصليب هذا الرجل الحنون، ويبدل ملابسه، ويلبس قناع الوجه الذى فى عقل المرأة ويدخل حجرتها.

ليس لديه مزاج للمداعبة أو ممارسة الحب، صدقنى، فقد كان فى أغلب الأحيان منهك القوى، - ومعه حق - فالعدد كبير، تفهم ذلك، ماذا عساه أن يفعل المسكين! مرات عديدة يكون متململاً، ليس لديه رغبة. أرأيت يا سيدى فى حياتك جدياً يضاجع هذا الكم من العنزات؟ يسيل لعابه وتغبش عيناه ويبدأ فى السعال ولا تكون له القدرة فى أن يقف على قدميه. بهذه الحالة كان زيوس المسكين يمر كثيراً. يعود إلى بيته عند الفجر ويقول: آه، متى يا إلهى، سأستلقى لأنام؟ لا أستطيع أن أقف على قدمى! ثم يعاود مسح اللعاب من على فمه.

لكن فجأة يسمع تنهدات من مكان ما فى الأرض، ثمة امرأة ألقت ملاءات سريرها، خرجت إلى سطح منزلها تتنهد وتتلوى من الحرمان. فإذا بقلب زيوس يرق وينوب. آخ، آخ، لابد أن أهبط ثانية إلى الأرض، يدمدم ويقول، سأهبط مرة أخرى إلى الأرض، إن ثمة امرأة تتأوه، فينزل إليها المسكين يواسيها!

واستمر هكذا إلى أن قضت عليه النساء، ضاعت صحته ونقص وزنه ومرض وراح يتقيأ، أصيب بالشلل ثم مات. وجاء بعده وريثه المسيح ورأى مصير الإله الذى سبقه فقال: «احذروا النساء».

كنت أسمع زوربا معجباً بعقله اليقظ وانفجرت ضاحكاً.

- اضحك، يمكن أن تضحك يا سيدى، لكن اذا كتب الرب - الشيطان لأعمالنا أن تنجح - وما أراه مستحيلاً، لكن على أى حال! - أتدرى أى نوع من المحلات سأفتح؟ وكالة للزواج! وكالة زواج، زيوس! ستأتى إذن كل النساء المسكينات اللائى لم يستطعن العثور على رجل للزواج، العوانس، القبيحات، العرجاوات، المصابات بالحول، ذوات السيقان المقوسة، الحدباوات، وسأستقبلهن أنا فى صالة معلق على جدرانها صوراً لشباب أقوياء وسيمين وسأقول لهن: اخترن من تحببن يا سيداتى. وسأجد أنا فيما بعد أى شاب يشبه الصورة قليلاً سألبسه ملابس كما فى الصورة، سأعطيه بعض المال وأقول له: شارع كذا، رقم كذا، أسرع وابحث عن هذه المرأة، وضاجعها بشبق. لا تشمئز، سأدفع لك أنا، نم معها؛ قل لها حديثًا طيبًا مثل الذى يقوله الرجال للنساء والتى لم تسمعه هذه المسكينة من قبل فى حياتها، أقسم لها أنك ستتزوجها، أعطها قليلاً من السعادة تلك البائسة، حتى وإن كانت السعادة التى تشعر بها النعاج والسلاحف وأم أربعة وأربعين.

أما إذا صادفت مُهراً عجوزاً مثل السيدة بوبولينا (طيب الله ساعتها)، ولن يرضى أحدٌ مهما دفعت لها أن يواسيها، حينها سأرسم أنا شارة الصليب على صدرى وأتولى المهمة بنفسى، مدير الوكالة شخصياً. وسيردد الجميع العجوز المجنون! أليس لديه نظر، أليس لديه

حاسة شم؟ - نعم أيها الحمقى، لدى يا أصحاب القلوب المتحجرة، عين لأرى وأنف لأشم وقلب أيضًا يشعر بالأسف والحزن! وعندما يكون لديك قلب، فلا جدوى للعيون والأنوف! كل هذا تلغى أهميته تماماً!

«وعندما سأصاب بالشلل من كثرة المهمات، سأموت، عندها سيفتح لى خادم الجنة القديس بطرس أبوابها ويقول لى: ادخل يا زوربا ادخل أيها المسكين، اذهب واستلقِ بجوار رفيقك زيوس لتستريح، ادخل أيها الشهيد؛ لقد عانيت وتألمت كثيراً فى حياتك!»

كان زوربا يتكلم، يطلق مخيلته التى تنصب له فخاخًا ويقع هو نفسه فيها، فكان شيئًا فشيئًا يصدق القصص التى يحكيها، وعندما انتهى كنا نمر أمام شجرة تين السيدة النبيلة، تنهد ورفع يده كما لو كان سيلقى قسماً ثم قال:

- يا بوبولينتى، يا مركبى القديمة المتهالكة العفنة! لا عليك يا بوبولينتى، لن أتركك وسأواسيك دومًا! لقد هجرتك القوى الأربع العظمى، الشباب، الرب، أما أنا، زوربا، فلن أتركك!

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما وصلنا إلى شاطئنا.

اشتدت الريح القادمة من إفريقيا فكانت الريح الجنوبية الدافئة تنفخ أشجار الكروم وأثداء جزيرة كريت. كل الجزيرة، مستلقية على

البحر وقد دبت فيها الحياة من أنفاس الرياح الجنوبية. كان زيوس وزوربا والرياح الجنوبية الشهوانية كلهم يمتزجون الليلة داخلى، وتراءى لى شكل وجه ذكرى بلحية سوداء وشعر أسود دهنى وينحنى ويلامس شفتى مدام أورتانس الحمراوين، الأرض.

استلقينا على سريرينا؛ راح زوربا يفرك يديه سعيداً.

- قال؛ كان يومًا طيبًا يا سيدى، وماذا يعنى هذا؟ ستسألنى: سأجيبك؛ مليئًا! فكر قليلاً: فى الصباح كنا فى عين الشيطان، فى الدير، ووضعنا رئيس الدير فى جيبنا - عليه كل اللعنات!

بعد ذلك عدنا إلى أراضينا، وجدنا السيدة بوبولينا، تمت خطبتنا، والدليل هو ذلك الخاتم فى إصبعى. من الذهب الخالص؛ كان ما زال لديها جنيهان إنجليزيان، من أواخر القرن الماضى كان قد أعطاها إياهما القبطان الإنجليزى؛ كانت تحتفظ بهما كما تقول من أجل جنازتها؛ حفظها الرب وأطال فى عمرها؛ ذهبت وأعطتهما للصائغ، وصنع لها هذين الخاتمين، إن الإنسان لغز كبير.

- قلت: نم يا زوربا؛ استرخ، فهذا يكفى ليوم واحد. غداً لدينا المراسم الرسمية لندق أول مسمار فى أول عمود لإنشاء المصعد الهوائى المعلق. أرسلت للقس ستيفانو ليأتى غداً.

- خيراً فعلت يا سيدى، فكرة طيبة؛ ليأتِ القس صاحب لحية العنزة وليأت جميع وجهاء القرية، نوزع شموعًا ونشعلها، هذه الأشياء

تولد انطباعًا جيدًا وتفيد العمل. لا تنظر إلى هكذا؛ فلدى إلهى الخاص وشيطانى الخاص؛ لكن بقية البشر...

ضحك؛ لم يستطع زوربا النوم فكان عقله مشتعلاً.

- قال بعد قليل، آه يا جدى! ليقدس الرب عظامك! فقد كان زنديقًا مثلى تمامًا - لكن النذل ذهب إلى الأراضى المقدسة عندما كبر سنه وصار حاجًا. يعلم الرب لمَ فعل هذا. عندما عاد إلى القرية، جاءه أحد أصدقائه وكان لصًا حقيرًا وقال له: إيه يا صاح، لمَ لم تحضر لى قطعة من الخشب المقدس من الأراضى المقدسة! - أجابه جدى الماكر، كيف لم أحضر لك؛ وهل يعقل أن أنساك! تعال فى المساء إلى منزلى وأحضر القس معك ليباركنا وسوف أعطيه لك وأحضر معك خنزيرًا مشويًا ونبيذًا ليجلب لنا الحظ السعيد!

عاد جدى إلى بيته فى المساء، قطع قطعة خشب من باب قديم فى حجم حبة أرز، ورش عليه قليلاً من الزيت وجلس ينتظر صديقه. بعد قليل، جاء الصديق والقس والخنزير. فهم القس وأقام القداس والمباركة وتسليم قطعة الخشب المقدس، ثم هموا بالخنزير المشوى. هل تصدق يا سيدى أن هذا الصديق صلى لقطعة الخشب وعلقها فى عنقه ومنذها تغير وأصبح إنسانًا صالحًا. انطلق نحو الجبل وانضم إلى الثوار وراح يحرق قرى الأتراك، ويهجم على الأعداء لا يهاب النار ولا الرصاص بشجاعة عجيبة، لمَ يخف؟ فهو يحمل الخشب المقدس الذى يحميه من الرصاص.

انفجر زوربا في الضحك.

- قال. كل شيء هو فكرة، إذا صدقتها؛ أيًا كانت، حتى لو كانت قطعة خشب من باب قديم وصارت من الخشب المقدس؛ أما إذا لم تصدقها؛ فيمكن للصليب المقدس أن يصبح قطعة خشب من باب قديم.

أينما تلمس روح زوربا تجدها مشتعلةً وتصدر شرراً.

- هل ذهبت إلى الحرب يا زوربا؟

- لا أدرى؟ أجاب متجهماً. لا أذكر؛ أى حرب تقصد؟

- أردت أن أسأل إذا كنت حاربت من أجل وطنك.

- لما لا تدعك من هذا الهراء، حماقات مضت؛ حماقات نسيت.

- هل تسمى هذا حماقات يا زوربا؟ ألا تخجل يا رجل؟ كيف تتكلم هكذا عن الوطن؟

مد زوربا عنقه ونظر إلى. كنت مستلقيًا أنا أيضًا على الفراش تحت القنديل المشتعل؛ نظر إلى طويلاً وبحدة؛ ثم أمسك شاربيه بيده وقال:

- هذا هو الهراء بعينه... لكن ماذا تنتظر من عقلية المدرسين... هذا ما يجعلنى أعتقد أن كل ما قلته لك ذهب هباءً وأنك لم تفهم منه شيئًا، وأندم عليه.

– قلت معترضًا لكنى أفهم يا زوربا أقسم لك أننى فهمت كل شىء!

– نعم، هذا ما تقوله بعقلك. تزن الأشياء وتقول هذا صحيح وهذا خطأ؛ وهذا محق وسواه غير محق. لكن فيمَ يجدى هذا؟ أنا أنظر إلى الأمام، أنظر إلى جسدك وأنت تتكلم؛ جسدك الذى يبقى صامتًا وأنت تتكلم ولا يقول شيئًا. كما لو أنه لا توجد به قطرة دم واحدة، كيف تستطيع أن تفهم؟ برأسك؟ أوف!

– لكنك لم تجبنى يا زوربا، لا تحاول المراوغة! صحت كى أثيره؛ أعتقد أنك لست وطنيًا ولا تهتم كثيرًا بالوطن.

غضب زوربا، وضرب بقبضته الحائط فاهتزت صفائح الكيروسين.

– إن الرجل الذى أمامك والذى توجه له هذا الكلام قد طرز بشعره أيقونه القديسة صوفيا وعلقها فى رقبته تعويذة. نعم، صنعتها بيدى هاتين، وبشعرى هذا عندما كان أسود كلون الغراب. كنت أدور مع بافلوس ميلاس[٢٢]، فى جبال ماقدونيا – نعم؛ أنا الذى ترى أمامك – كنت شابًا قويًا ضخمًا كالوحش، بردائى الشعبى؛ التنورة والطربوش والتعويذات الفضية والتمائم. كنت مغطى بالفولاذ والحديد، وعندما كنت أسير أرفع سحابات الغبار كما لو أن حصانًا يمر. أنظر هنا... أنظر هنا... أنظر هنا...!

---

(٢٢) بافلوس ميلاس: أحد العسكريين الوطنيين فى أواخر القرن التاسع عشر. (المترجم)

فتح قميصه وأنزل بنطاله.

- قرب المصباح من هنا! قال كأنه يصدر أمراً عسكرياً.

قربت المصباح من جسده النحيل، آثار لجروح عميقة، وحفر غائرة من الرصاص، كان جسده أشبه بالمصفاة.

- انظر هنا أيضاً!

استدار وأراني ظهره.

- أترى، من الخلف لا يوجد جرحٌ واحد... أتفهم؟ خذ هذا المصباح بعيداً عني الآن!

ارتدى قميصه وبنطاله، جلس على الفراش.

- زمجر بوحشية، هراء. ألا تخجل، متى سيصبح الإنسان إنساناً؟ نرتدي السراويل والياقات المنشاة والقبعات ونحن مازلنا بغالاً وذئاباً وثعالبَ وخنازيرَ. ونقول أن الله خلقنا على شاكلته! من نحن؟ أبصق على وجوهنا جميعاً!

صعد إلى رأس زوربا كم هائل من الذكريات المرعبة التي كانت تجعله يزداد غضباً. وبدأت تخرج من بين أسنانه المجوفة كلمات غير مفهومة. نهض وأمسك بإبريق الماء وراح يشرب ويشرب حتى هدأ.

- إذا لمست أي مكان في جسدي ستجدني أئن؛ إنني مثخن بالجراح. ماذا يعني كل هذا الهراء عن النساء؟ عندما أدركت أني رجل حقيقي،

لم ألتفت أو أهتم بالنساء. وإذا فعلت كان هذا يحدث للحظة وعلى عجل مثل الديوك، وكنت أرحل بعدها . كنت أشمئز منهن وأقول أنهن يردن أن يمتصصن قواى، اللعنة عليهن!

حملت إذن بندقيتي وخرجت إلى الشارع! انضممت إلى الثوار والفدائيين. في أحد الأيام، عند الغروب تسللت إلى إحدى القرى البلغارية في أحد الإسطبلات. وفي بيت القس البلغاري، الذي كان قاتلاً شرسًا لا يرحم. كان يخلع عباءة القس في الليل ويرتدي ملابس راعي غنم ويركب عربته ويذهب في اتجاه القرى اليونانية؛ كان يعود في الصباح يغتسل من الدماء ويذهب إلى القداس. في تلك الأيام قتل مدرسًا يونانيًا على فراشه حيث كان نائمًا . حسنًا، دخلت إسطبل القس وانتظرت. تمددت فوق الروث خلف الثيران وانتظرته. وعندما دخل ليلاً القس إلى الإسطبل ليطعم المواشي؛ نزلت فوقه وذبحته مثل الخروف. قطعت أذنيه وأخذتها؛ نعم فعلت هذا، أترى كانت لدى مجموعة من الآذان البلغارية؛ أخذت أذنيه وغادرت.

بعد أيام قليلة دخلت إلى نفس القرية في وضح النهار، تظاهرت بأنني بائع متجول؛ تركت أسلحتي في الجبل ودخلت إلى القرية أشترى ملحًا وأحذية للشباب. وكان خارج أحد البيوت خمسة أولاد حفاة يشبكون أيديهم ويتسولون. ثلاث بنات وولدان؛ أكبرهم كان يبلغ العاشرة من عمره؛ وأصغرهم كان طفلاً رضيعًا كانت تحمله البنت الكبرى وتهدهده حتى لا يبكي.

لا أدرى كيف، لكن الله أضاء بصيريتى واقتربت منهم وسألت الأطفال البلغاريين:

- أبناء من أنتم أيها الأطفال؟

- رد الولد الكبير بعد أن رفع رأسه نحوى:

- نحن أولاد القس الذى ذبح قبل الأمس بالإسطبل.

اغرورقت عيناى بالدموع وراحت الأرض تدور بى؛ اتكأت على الحائط حتى توقفت الأرض عن الدوران.

- اقتربت منهم وقلت لهم! تعالوا أيها الأولاد؛ اقتربوا .

أخرجت كيس نقودى الذى كان مليئًا بالنقود والعملات الفضية وأفرغته على الأرض.

- صحت، هيا خذوها، خذوها!

سقط الأولاد على الأرض وراحوا يجمعوا النقود والعملات الفضية بأيديهم الصغيرة.

- إنها لكم! صحت؛ خذوها!

ثم تركت لهم سلتى وبها كل ما اشتريته.

- هى لكم، خذوها!

وغادرت القرية مسرعًا، فتحت قميصى، أخرجت تعويذة القديسة صوفيا التى طرزتها بيدى، قطعتها وألقيت بها ورحت أركض.... أركض...

وما زلت أركض!

اتكأ زوربا على الحائط، التفت ونظر إلي:

- وهكذا نجوت، قال.

- نجوت من الوطن؟

- نعم، من الوطن، أجاب زوربا بصوت هادئ ونقى.

وبعد قليل قال:

- نجوت من الوطن، نجوت من الكهنة، نجوت من المال، وبدأت أفرز الأشياء. ومع الوقت أفرز الأشياء أكثر أغربلها وأصفيها كى أخفف من أعبائى. كيف أشرح لك؟ أتحرر منها وأصبح إنسانًا.

كانت عينا زوربا تتلألآن، وفمه الواسع كان يبتسم بسعادة.

بعد فترة من الصمت، راح قلبه يفيض بقوة، ولم تكن لديه القدرة على السيطرة عليه:

- ذات مرة قلت: هذا تركى أو بلغارى، هذا يونانى. لقد صنعت أشياء للوطن يا سيدى، تقشعر لها الأبدان؛ ذبحت وسرقت وحرقت قرى، خدعت نساء، خربت بيوتًا وعائلات... لماذا؟ لأنهم أتراك، بلغاريون.

اللعنة عليكم يا حثالة البشر، أقول هذا لنفسى كثيرًا فلتذهب إلى الجحيم أيها الغبى! أما الآن فقد رتبت أفكارى وأيقظت عقلى، أنظر إلى الناس وأقول: هـذا إنسان جـيد وذاك إنســان سىء. ولا يهم إذا كان بلغاريًا أو يونانيًا؛ فهو يعنى نفس الشىء بالنسبة لى؛ جيد أو سيئ، هذا ما أسأله لنفسى فقط.

وكلما كبر سنى، وأقسم بالخبز الذى آكله، سأبدأ ألا أسأل حتى هذا السؤال، وماذا يعنى وما الفائدة إذا كان جيدًا أم لا، فأنا أحزن عليهم جميعًا وتتمزق أحشائى عندما أرى إنسانًا، وإن كنتُ أتظاهر بأننى لا أهتم. نعم، أقول ها هو البائس يأكل ويشرب ويحب ويخاف، لديه رب وشيطان، وسوف يموت ويدفن فى التراب، وسيأكله الدود... آه يا إخوانى... كلنا غذاء للدود!

وإن كانت امرأة، عندها تأتينى رغبة فى البكاء. إنك تسخر منى يا سيدى لأنى أعشق النساء؛ لكن كيف لا أحبهن؟ فهن كائنات ضعيفة، ولا يعرفن ماذا يجرى لهن فى هذه الدنيا، إذا مسست ثدى إحداهن تستسلم وتفتح كل الأبواب...

«ذات يوم دخلت إلى قرية بلغارية أخرى. يونانى حقير أبلغ البلغاريين عنى فجاءوا وحاصروا البيت الذى كنت فيه. فصعدت إلى سطح المنزل ورحت أقفز فوق أسطح المنازل من سطح إلى آخر، كانت ليلة قمرية، رحت أقفز من شرفة إلى شرفة مثل قط محاولاً الهرب.

لكنهم رأوا ظلى فراحوا يتبعوننى صعدوا على الأسطح وراحوا يطلقون رصاصًا من بنادقهم. فماذا فعلت؟ سقطت فى أحد الأفنية؛ حيث كانت امرأة بلغارية تنام فى الفناء وترتدى قميص نوم، رأتنى، وقبل أن تفتح فمها وتصرخ، مددت يدى وقلت لها اصمتى! ثم أمسكت ثديها. شحب وجه المرأة وانحنت ثم قالت. ادخل، لكن بهدوء قبل أن ينتبهوا لنا...

دخلت إلى المنزل فضغطت على يدى وسألتنى: أنت يونانى؟ نعم يونانى لكن لا تسلمينى لهم. أمسكت بها من خصرها وضاجعتها وكان قلبى يرتعش من المتعة. قلت آه يا زوربا، هذه هى المرأة، هذا هو الإنسان! لا يهم إن كانت بلغارية أو يونانية أو من بلاد الماو ماو، فهى فى النهاية إنسان، إنسان، ألا تخجل من القتل؟ عليك اللعنة!»

هذا ما كنت أقوله عندما كنت معها، فى حضنها الدافئ؛ لكن لم يتركنى الوطن الملعون! رحلت فى الصباح أرتدى ملابس بلغارية محلية كانت قد أعطتها لى الأرملة البلغارية؛ أخرجتها من صندوق ملابس زوجها الراحل وقبلتنى وتوسلت إلى أن أعود مرة أخرى.

نعم، نعم، فى الليلة التالية، عدت إلى نفس القرية، وطنى، أترى وحشا كاسرا، عدت بصفيحة بنزين وأضرمت النار فى القرية بأسرها. لابد أن هذه المسكينة قد احترقت أيضًا. كان اسمها لودميلا...

تنهد زوربا؛ أشعل سيجارة، واستنشق منها نفسين، ثم ألقى بها وتابع قائلاً:

- لا تصـدق الوطن الذى يحكون عنه فى الكتب.. صـدقنى أنا؛ طالما هناك وطن، سيبقى الإنسان حيـوانًا شـرسًا ... لكن حمدًا للرب، قد نجوت، تحررت، انتهى!ماذا عنك أنت؟

لم أجـب. كل الأمـور التى أصارع أن أحلها أنا عقـدة عقـدة فى عزلتى، وأنا جالس على مقعدى، هذا الإنسـان قد حلها فى الجبـال، فى الهواء النقى وبسيفه.

أغمضت عينى محبطًا.

- هل نمت يا سيـدى؟ سـأل زوربا متـأففًا وقال؛ وأنا الأحـمق أتحدث مع نفسى!

تمدد على الفراش وهو يدمدم وبعد قليل سمعت شخيره.

لم يراودنى النوم طوال الليل؛ سمعت عندليبًا يغرد فى وحدتنا هذه، فمـلأ العـالم ألمًا مريرًا لا يحتمـل، وفجـأة أحسست بالدموع تنهمر مـن عينـى.

استيقظت عند الفجر، توقفت عند الباب أنظر إلى البحر واليابس، وخيل إلى كما لو أن العالم قد تغير أثناء الليل. كانت فى مواجهتى فوق الرمال كومة من أعشاب الشوك، كانت بالأمس باهتة اللون واليوم قد ألقت براعم صغيرة وأزهارًا بيضاء، وامتلأ الهواء برائحة أشجار الليمون

وأزهـــرت أشجـار البـرتقـــال. ســرت بضعـــة أمتـــار عــلى الأرض التى ارتدت زينتـهـا الجـديدة؛ لم أستطع أن أشـبع عينى من النظـــر إلى المعجـزة الأبـدية.

فجأة سمعت خلفى صيحة سعيدة. التفت خلفى فرأيت زوربا نصف عارٍ يقف أمام الباب ويشاهد المنظر البديع منبهراً بالربيع.

– قال منبهراً؛ ما هذه الروعة يا سيدى! أقسم لك أننى أشعر كأنى أرى العالم لأول مرة. ما هذه المعجزة يا سيدى، ومن هذا المجنون الذى يهتز هناك، ما اسمه: البحر؟ أليس كذلك، البحر؟ وهذا الذى يرتدى المريلة الخضراء المزينة بالورد؛ ما اسمه؟ الأرض؟ أى هيراكليس فعل هذا! أقسم لك يا سيدى، أن هذه هى أول مرة أرى شيئًا كهذا.

كانت عيناه قد امتلئتا بالدموع.

– قلت، هل جننت يازوربا:

– لا تسخر منى وتضحك يا سيدى! ألا ترى؟ يبدو أن ساحراً قد مر من هنا!

قفز إلى الخارج وبدأ يرقص، تدحرج على العشب مثل مُهر صغير.

أشرقتِ الشمس ومددت يدىّ لتتدفأ. أشجار منتفخة وصدور منتفخة، فتحت روحى كالشجرة، شعرت بأن روحى وجسدى مصنوعان من نفس المادة.

نهض زوربا من على العشب، وكان شَعره قد امتلأ بالطين والندى.

- هيا بسرعة يا سيدى لنرتدِ ملابسنا ونتزين؛ اليوم لدينا قداس. فالقس ووجهاء القرية سيأتون بعد قليل؛ وإذا رأونا نتدحرج على العشب، سنجلب العار على الشركة! ارتدِ حلة أنيقة وربطة عنق، وضع وجهك الجاد! فلا يهم أن يكون لديك عقل، لكن يكفى أن يكون لديك قبعة أنيقة، تفووو على هذا العالم!

ارتدينا ملابسنا وكنا جاهزين، وصل العمال، لحق بنا الوجهاء.

- صبراً يا سيدى، لا تتعجل الضحك، لا تفضحنا.

فى المقدمة كان القس ستيفانوس بلحيته القذرة وعباءة الكاهن ذات الجيوب العميقة التى تسع لكل شىء وأى شىء، وكان يلقى فيها عدته أيضًا للتعميد والزواج كلها مختلطة دون ترتيب مع الزبيب والكعك والفطير والخضراوات والكفتة والحلوى والملبس؛ وفى الليل تضع زوجته نظارتيها وتبدأ فى تفريغ جيوبه وفرز الأشياء وهى تتسلى وتقضم وتأكل منها.

خلف القس ستيفانوس، وقف الوجهاء: كوندومانوليوس صاحب المقهى، الذى يفخر بأنه يعرف العالم حيث إنه قد ذهب إلى خانيا ورأى الملك يورغيوس؛ العم أناغنوستي، بقميصه الأبيض ذى الأكمام الواسعة، كان يقف جاداً هادئًا. معلم القرية كان يبدو بعصاه منتصبًا، جاداً ورسميًا؛ والأخير بمشيته الثقيلة البطيئة كان مافروأندونى؛ كان يرتدى

قميصاً أسود ويعقد منديلاً أسودَ على رأسه ويرتدى حذاءً كريتياً أسود. حيانا بنصف ابتسامة، كان يبدو متألماً على ضياع ابنه، كان يقف على بعد أمتار منا ويعطى ظهره إلى البحر.

– قال زوربا بشكل رسمي. بسم الرب!

تقدم الموكب وتبعه الآخرون بورع دينى.

فى صدور هؤلاء القرويين استيقظت ذكريات لطقوس من عصور سحيقة؛ تسمرت عيونهم على القس، وكأنهم كانوا ينتظرونه يصارع ويطرد القوى الشريرة الخفية. منذ آلاف السنين والسحر يرفع يده ويرش الماء المقدس فى الهواء ويتمتم بكلمات غامضة لها قوة جبارة، والأرواح الشريرة الماكرة كانت تهرب، أما الأرواح الطيبة فتخرج من الماء والطين لتساعد البشر.

وصلنا إلى الحفرة التى حفرناها بجوار البحر حيث سيدق أول عمود للمصعد الهوائى المعلق؛ رفع العمال جذع شجرة صنوبر كبير وغرسوه منتصباً فى الحفرة؛ ومر القس ستيفانوس بمبخرته وهو ينظر إلى جذع الشجرة طوال الوقت وينشد تراتيله بجدية كى يطرد الأرواح: «لتقم على أرض صلبة وتكون كصخرة لا تهزها ريح ولا تجرفها مياه... آمين!»

– قال زوربا بصوت رخيم ورسم شارة الصليب. آمين!

– صاح جميع الأعيان، آمين!

- ليبارك الرب أعمالكم ويرزقكم كل الخير مثلما رزق إبراهيم وإسحق!
دعا القس ستيفانوس، ووضع زوربا في يده ورقة نقدية.

- بارك الرب فيك! دمدم القس شاكراً.

عدنا إلى الكوخ، قدم لهم زوربا النبيذ ومقبلات فترة الصيام - أخطبوطًا مشويًا، كالاماري(*)، فولاً مغمسًا وزيتونًا، ثم غادر كل الأعيان متخذين طريق الشاطئ واختفوا. وانتهى طقس السحر.

- سار كل شيء على ما يرام! قال زوربا وهو يفرك يديه.

خلع ملابسه وارتدى ملابس العمل، هيا باسم الرب!

لم يترك زوربا العمل طوال اليوم؛ كانت لديه شهوة عجيبة للعمل. كل خمسين متراً كان العمال يحفرون خنادق ويثبتون فيها أعمدة ويسحبون الأسلاك الفولاذية نحو قمة الجبل. وراح زوربا يقيس ويعد ويعطى الأوامر، لم يأكل، لم يدخن، لم يسترح طوال اليوم. وهب نفسه تمامًا للعمل.

- قال لي ذات يوم، إن أنصاف الأعمال، وأنصاف الأحاديث، وأنصاف الذنوب، وأنصاف أعمال الخير وصلت بالعالم إلى هذا الوضع الكارثي الذي هو فيه الآن. أكمل أيها الإنسان عملك حتى النهاية، لابد أن تصل حتى الطرف الأخير، اضرب ولا تخف! إن الرب يكره نصف الشيطان أكثر من الشيطان نفسه.

فى المساء، عندما انتهى من عمله، تمدد على رمال الشاطئ منهكاً.

– قال، سأنام هنا، سأنتظر الفجر حتى نستكمل العمل. سأشكل مناوبات عمل كى نعمل ليلاً.

– لكن لمَ العجلة يا زوربا؟

تردد قليلاً.

– لأننى أريد أن أرى إذا كانت زاوية الانحدار صحيحة. إذا كنت قد نجحت فى ضبطها وإلا هلكنا يا سيدى. وكلما أسرعنا لنرى النتيجة كان أفضل!

أكل على عجل وبنهم، ثم بعد قليل كان صدى شخيره يتردد على الشاطئ. بقيت ساهراً أراقب النجوم تتحرك فى السماء وتبدل مواقعها؛ كنت أرى السماء كلها تغير موقعها وتتحرك وتحركت معها قشرة جمجمة رأسى مثل قبة رصد النجوم.

«راقب النجوم فى مدارها كأنك تدور معها»... هذه الجملة التى قالها ماركوس أوريليوس كانت تملأ قلبى بالانسجام.

اليوم كان عيد الفصح وكان زوربا متأنقًا، ارتدى جوارب قرمزية اللون من مقدونيا يقول إن صديقة له من هناك قد حاكتهما له، كانت من أقاربه كما يدعى، صعد على ربوة بجوار طريق الشاطئ وأخذ يروح ويجىء واضعًا يده فوق حاجبيه السميكين وراح ينظر بعيدًا نحو القرية بقلق.

- لقد تأخرت هذه الخنزيرة... تأخرت كثيرًا هذه العجوز الشمطاء... هذه الراية المهلهلة...

فراشة خرجت من شرنقتها توا طارت وحطت على شارب زوربا؛ دغدغته فنفخ فيها وسرعان ما طارت بهدوء واختفت في الضوء.

كنا ننتظر مدام أورتانس لنحتفل بعيد الفصح معًا؛ شوينا حملاً صغيرًا؛ فرشنا ملاءة بيضاء على الرمال، لونا البيض. قلنا أنا وزوربا، ما بين جد وهزل وتأثر، هيا نعد لها استقبالاً حافلاً. على هذه الرمال؛ هذا الشاطئ المهجور كانت هذه البدينة القصيرة الحورية العجوز التى تفوح منها رائحة العطر الرخيص، تضفى علينا شيئًا من المرح والبهجة. عندما تغيب عنا كنا نفتقد رائحة الكولونيا واللون الأحمر ومشيتها وهى تتهادى كالبطة، وصوتها المتحشرج وعينيها المندهشتين الشاحبتين.

قطعنا بعض الأوراق من نبات الغار والآس وصنعنا قوس نصر كي تمر من تحته؛ وفوق القوس رشقنا أربعة أعلام - لإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا - وفوق الجميع ملاءة طويلة بأحزمة زرقاء. لم تكن لدينا مدافع، لكننا اقترضنا بندقيتين وقررنا أن نستقبلها من فوق التل عندما نراها تاتي متهادية مثل البطة أن نملأ الشاطئ بوابل من الرصاص.

أردنا أن نحتفل بها على هذا الشاطئ المهجور في هذا اليوم لنعيد لها ذكرياتها وأمجادها؛ كي تسمتع وتلهو ولو بوهم مؤقت هذه التعسة ولو للحظات بأنها عادت شابة صغيرة بشفاه وردية ونهود صلبة، وحذاء لامع وجوارب حريرية. فما حكمة أن يبعث المسيح مراراً كل عام إذا لم يكن لهذا مردود علينا؛ ويعيد الشباب والبهجة فينا أيضاً ويجعل هذه الحورية العجوز تبدو في الحادية والعشرين مجدداً؟

- بين الحين والآخر كان زوربا يدمدم وهو يرفع جوربه القرمزي الذي كان ينزلق من ساقه: لقد تأخرت هذه الخنزيرة... تأخرت كثيراً هذه العجوز الشمطاء... هذه الراية المهلهلة...

- تعال إلى هنا يا زوربا ودخن سيجارة تحت ظل شجرة الخروب؛ لن تتأخر كثيراً.

ألقى نظرة أخيرة بتلهف على الطريق المؤدي إلى القرية ثم جاء وجلس تحت شجرة الخروب؛ سينتصف النهار قريباً، الجو حار. سمعنا من بعيد دق أجراس الكنيسة سريعة سعيدة بعيد الفصح؛ كان النسيم

يأتى لنا بصوت القيثارة الكريتية؛ كانت القرية كلها تضج بالبهجة والحياة مثل خلية نحل فى الربيع.

هز زوربا رأسه:

- قال: تمر السنون، كنت أشعر فى كل عيد فصح أن روحى تبعث من جديد مع المسيح. لقد انتهى هذا! الآن فإن جسدى فقط هو الذى يبعث - لأن هذا يدعوك على شراب وهذا يدعوك على طعام والآخر يدعوك على طعام فتأكل وتأكل الطعام وتحشو بطنك ثم يتحول كل هذا إلى روث؛ لكن شيئًا منه ينجو ويتحول إلى مزاج جيد، رقص، موسيقى، مشاجرة - وهذا الشيء أسميه أنا بعثًا.

قفز واقفًا مرة أخرى، وألقى نظرة على الأفق. ثم تجهم.

- هناك طفل يجرى فى هذا الطريق، قال ثم قفز كى يلحق بالرسول.

وقف الطفل على أطراف أصابعه، وهمس شيئًا فى أذن زوربا الذى هب غاضبًا:

- قال: مريضة؟ مريضة؟ اغرب عن وجهى قبل أن أوسعك ضربًا!

التفت نحوى:

- سيدى، قال، سأذهب سريعًا إلى القرية لأرى ماذا جرى للخنزيرة... اصبر قليلاً لن أتأخر؟ هاتِ أعطنى بيضتين حمراوين لأكسرهما معها؛ لن أتأخر؟

وضع البيضتين فى جيبه، رفع جوربه وانطلق فى الطريق.

نزلت من على الربوة وتمددت على الشاطئ على الحصى البارد، هبت نسمة خفيفة، كان البحر هادئًا، زوج من النوارس كانا يهبطان ببطنيهما على الموجة الصغيرة ويرتعشان فى مرح متابعين إيقاع البحر.

كنت أتنبأ متعتهما وبهجتهما عندما يلعق الماء الفاتر بطنيهما؛ كنت أنظر إلى النورسين وأفكر: هذا هو السبيل، أن تجد الإيقاع المطلق وتتبعه بثقة.

بعد ساعة تقريبًا عاد زوربا وهو يفتل شاربيه سعيدًا.

– لقد أصاب البرد تلك المسكينة؛ لا شىء. لقد حضرت صلوات القيام كلها فى الأسبوع المقدس، وكانت تذهب إلى الكنيسة فى منتصف الليل، رغم أنها أجنبية، كانت تذهب من أجلى كما تقول. وأصابها ذلك بالبرد، لقد عالجتها بكئوس الحجامة[٢٣] وفركتها بزيت المصباح وسقيتها كأسًا من الروم. ظريفة تلك المرأة، كانت تتدغدغ من الضحك وأنا أفركها بالزيت، كانت تهدل مثل الحمامة.

جلسنا لنأكل، ملأ زوربا الكأسين وقال:

– فى صحتها! عل الشيطان يتأخر ولا يأخذ عمرها الآن، ليتأخر قليلاً.

أتبع برقة.

---

(٢٣) كئوس الحجامة: هى كئوس الهواء، طريقة علاج شعبية، توضع قطنة مشتعلة مبللة بالكحول بكأس وتكتم على الجسد لتمتص منه الرطوبة. (المترجم)

أكلنا وشربنا وظللنا صامتين لفترة من الوقت؛ حمل لنا الهواء من بعيد ألحانا من القيثـارات الكريتية أشـبـه بأزيز النحل؛ كان المسيح لازال يبعث من جديد على أسطح المنازل، وتحول خروف وكعك عيد الفصح إلى ألحان عاطفية.

أكل زوربا وشرب جيداً ووضع يده على أذنه الكبيرة:

- تمتم قائلاً...؛ إنها اللـيرة (القيثـارة الكريتية)؛ إنهم يرقصون فى القـرية!

هب واقفًا؛ لقد شبع؛ النبيذ قد صعد إلى رأسه.

- مـاذا نفـعل هنا مـثل غـرابين؟ صـاح؛ هيـا لنرقص! ألا تـأسف للحمل الذى أكلناه؟ هل تريد أن يذهب سدى؟ هيـا لنغنٍّ ونرقص! لقـد بعـث زوربـا!

- انتظر يا زوربا، هل جننت؟

- أقسم بشرفى يا سيدى؛ قل عنى ما تشاء، لكننى آسف على الحمل المشوى؛ وعلى البيض الأحمر، وكعـك عيـد الفصح، والجبن الأبيض. أقسم لك، «إذا كنت أكلت خبزاً وزيتـوناً، لكـنت قلت إنى ذاهب لأنام، ما شأنى والمرح والرقص والغناء؟ أى خير تنتظر من الخبز والزيتون؟» لكن الآن؛ حرام أن يذهب سدى طعام لذيذ كهذا، صدقنى! هيا لنحتفل يا سيـدى!

– ليست لدى رغبة اليوم، أذهب أنت وارقص عنى!

سحبنى زوربا من ذراعى ورفعنى لأعلى: لقد بعث المسيح يا بنى! لو كنت فى سنك! بحر، نساء، نبيذ، عمل وفير! لانغمست فى كل هذا؛ فى الحب والنبيذ والنساء ولن أخاف شيئًا ولا أحدًا، لا ربًا ولا شيطانًا. هذا هو الشباب!

– لابد أن الخروف هو الذى يتحدث داخلك يا زوربا، لقد توحش وصار ذئبًا!

قلت ضاحكًا.

– الخروف قد صار زوربا، زوربا هو الذى يتحدث، صدقنى! اسمع كلامى ثم سبنى فيما بعد، أنا سندباد البحر، ليس لأنى طفت حول العالم، على الإطلاق! لكن لأنى سرقت، وقتلت، وكذبت، وضاجعت الكثير من النساء، وفعلت كل الذنوب، وخالفت كل الوصايا، كم هى؟ عشرة؟ حتى لو كانت عشرين، أو خمسين، أو مائة، كنت سأنتهكها كلها، لكن لو أن هناك ربًا، لن أخاف أبدًا أن أقف غدًا أمامه. لا أعرف كيف أقول لك كى تفهمنى، لكن كل هذا الذى فعلته ليس له أى أهمية. هل يهتم الرب بديدان تافهة على الأرض ويعد عليهم ذنوبًا وحسنات كى يحاسبها؟ وإن غضب، وشتم، وتغير مزاجه لأن أحدًا ضل طريقه ونام مع دودة أنثى فى بيت جاره، أو لأنه أكل قطعة لحم فى جمعة الصيام المقدسة! تبًا لكم أيها القساوسة!

– قلت لأثيره: حسنًا يا زوربا. قد لايسألك الرب ماذا أكلت، لكن قد يسألك ماذا فعلت!

– وأنا إذن أقول لك، أنه لن يسألك عن هذا أيضًا! وكيف تعرف هذا يا زوربا يا جاهل؟ ستسألنى. أقول لك أنى متأكد، لأننى لو كان لدى ولدان أحدهما صالح مستقيم يخاف الرب؛ والآخر طالح فاسد، لص وزير نساء، سأطعمهما معًا على مائدتى؛ لكن لا أعرف ربما قلبى سيميل إلى الثانى. ربما لأنه يشبهنى؛ لكن من يقول لك أننى لا أشبه الرب أكثر من القس ستيفانو الذى يصلى ليل نهار ويجمع المال ولا يسقى الملاك؟

إن الرب عربيد يحب الملذات، يقتل، يظلم، يحب، يعمل، يصطاد الطيور المراوغة، مثلى تمامًا. يأكل ما يحلو له؛ يضاجع أى امرأة يريد. ترى امرأة جميلة طازجة تسير على الأرض ويرقص قلبك؛ وفجأة تفتح الأرض فمها وتختفى. أين تذهب؟ من أخذها؟ إذا كانت صالحة نفترض: يأخذها الرب؛ أما إذا كانت لعوبًا، نفترض: يأخذها الشيطان. لكنى أقول لك يا سيدى مرارًا وتكرارًا: إن الرب والشيطان واحد!

صمت؛ التقط زوربا عصاه ولف قبعته على طريقة المشاكسين، نظر إلى بشفقة – هكذا بدا لى – كادت شفتاه أن تتحركا كما لو أراد أن يقول لى شيئًا لكنهما أبتا؛ لم يقل زوربا شيئًا ومضى مسرعًا وهو يبرم شاربيه نحو القرية.

رأيت فى ضوء الغروب ظله العملاق فوق الحصى يتمدد وهو يهز عصاه؛ كان الشاطئ كله يستعيد حياته عندما يمر؛ مكثت لوقت ليس بالقليل أنصت إلى طرق خطوات زوربا، وشيئًا فشيئًا ابتعد واختفى.

وفجأة عندما شعرت أننى بقيت وحدى، نهضت واقفًا. لماذا؟ إلى أين؟ لم أكن أعرف؛ لم أقرر شيئًا فى قرارة نفسى؛ كأن جسدى قفز واقفًا وحده، اتخذ قراره دون أن يسألنى.

– قال، هيا بقوة كأنه يعطى أمرًا.

اتخذت الطريق نحو القرية. كنت أسير بحسم وعلى عجل؛ من وقت لآخر كنت أقف وأشم رائحة الربيع. كانت رائحته بابونج، وكلما اقتربت من البساتين كانت تأتى لى روائح أشجار الليمون والبرتقال ونبات الغار. عند الغروب بدأت نجمة المساء ترقص فى السماء مبتهجة.

«بحر، امرأة، نبيذ، وعمل شاق!» تمتمت دون أن أشعر كلمات زوربا وأنا أمشى. «بحر وامراة ونبيذ وعمل شاق! أن تنغمس فى العمل والنبيذ والحب وألا تخشى الرب ولا الشيطان... هذا هو معنى الشباب!» رحت أقولها وأعيدها فى نفسى، كما لو كنت أشجعنى وأنا أمشى.

توقفت فجأة. كأننى وصلت إلى المكان الذى قصدته. أين؟ نظرت حولى؛ إنها حديقة الأرملة. خلف سياج من القصب والصبار الحلو كان هناك صوت أنثوى عذب يغنى فى هدوء. نظرت خلفى وأمامى، لا أحد؛ اقتربت وأبعدت القصب؛ تحت شجرة البرتقال تجلس امرأة بثوب أسود، وصدر ثرى، تقطع أغصان الزهور وتغنى؛ تحت ضوء الغروب يشرق الشق بين نهديها.

اضطرب تنفسى وتسارعت ضربات قلبى. قلت فى نفسى «إنها وحش برى وهى تعرف هذا. وهى ترى الرجال مخلوقات سخيفة ضعيفة مغرورة!

إنها قوية وشرهة مثل بعض إناث الحشرات - فرس النبى، الجرادة العقربية - لا تشبع طوال الليل وتلتهم الذكور عند كل فجر...»

وكأن الأرملة أحست فجأة بنظرتى المعلقة على جسدها، توقفت فجأة عن الغناء، التفتت حولها؛ نظراتها مثل البرق، التقت عيوننا؛ شعرت بأن ركبتى تتخليان عنى - وكأنى رأيت نمرةً خلف سياج القصب.

- قالت الأرملة بصوت مخنوق. من؟

أرخت منديلها وغطت صدرها فأظلم وجهها.

حاولت المغادرة؛ لكن كلمات زوربا كانت تملأ قلبى، كن رجلاً - «بحر وامرأة ونبيذ...»

- أجبت، أنا... هل تسمحين لى بالدخول!

فور أن قلت هذه الكلمات حتى أصابنى الرعب؛ هممت مرة أخرى بالرحيل.

لكننى تمالكت نفسى؛ خجلاً من زوربا.

- من أنت؟

تقدمت خطوة بطيئة وبحذر وبصمت؛ مدت عنقها، أغمضت عينيها نصف إغماضة كى ترى بوضوح أكثر؛ تقدمت خطوة أخرى وهى منحنية، بحذر شديد وهى تثب على أطراف قدميها.

– سألت بصوت محشرج رئيس المنجم؟

– نعم.

– تعال!

كان الفجر على وشك الولوج. كان زوربا قد عاد وينتظر خارج الكوخ. كان يدخن وينظر إلى البحر ينتظرني.

رفع رأسه فجأة عندما ظهرت راح ينظر إلي. كانت فتحتا أنفه ترتعشان مثل أرنب؛ مط عنقه وأخذ نفسًا عميقًا وراح يشم. وفجأة أشرق وجهه؛ لقد شم رائحة الأرملة.

نهض ببطء؛ وابتسم وفتح ذراعيه:

– قال: تعال كى أباركك!

تمددت، أغلقت عينى، سمعت البحر يتنفس بهدوء شبه متناغم يشبه هدهدة الرضيع، بينما أنا كنت أصعد وأهبط فوقها مثل طائر نورس. وهكذا بهذه الهدهدة الرقيقة غرقت فى النوم ورأيت حلمًا: رأيت زنجية عملاقة تتربع على الأرض وبدت لى مثل سيكلوبروبان[٢٤] منحوت من الجرانيت الأسود فى معبد قديم. وكنت أدور حولها لأرى المدخل؛

(٢٤) السيكلوبروبان: حيوان أسطورى. (المترجم)

كان حجمى يصل بالكـــاد عند إصبع قدمـها؛ وفجـأة، عندما حركت كعب قدمـها، رأيت الباب الأسود مثل الكهف؛ وسمـعت صوتًا ضـخمًـا يقـول لـى:

- ادخل!

ودخلت.

استـيقظت عند الظهيـرة؛ كـانت الشـمس قـد تسللت من النافـذة وفـاضت على الفراش لتنعكس بقوة من المرآة المعلقة على الحـائط، وبدا أن الشمس ستحطمها ألف قطعة.

قفز الحلم مع العملاقة الزنجية إلى ذهنى، البحر كان يهمـهم بإغواء، أغمضتُ عينىّ ثانية وبدا لى أننى سعيد. أشعر بخفة جسدى، سعيد مثل حيوان خرج للصيد واصطاد فريسته وأكلها، وهو الآن ممدد فى الشمس يلعق فمـه. العقل، الجسد وهو، يسـتريحون فى شبع؛ تظن أن الأسئلة الأبدية التى كانت تعذبه قد وجد لها أجوبة بكل بساطة.

كل سعادة الليلة المـاضية كانت تتدفق من الأعماق، وتتفرع فتروى وتشـبع الطين الذى أنا مـصنوع منه. وكـمـا كنت نصف نائم وعينـاى مغلقتين، سمعت، أو هكذا بدا لى أن أعماقى تطقطق وتتمدد. لأول مرة فى ليلة أمس تـأكدت تمامًـا أن الروح هى الجـسـد، ربما الروح أسـرع وأكثر شفـافية وحرية؛ وكذلك الجسد هو الروح، ناعس قليلاً، منهك من كثرة الترحال، يحمل عبء إرث ثقيل يحمله؛ لكنه يستيقظ فى اللحظات العظيمة، ينطلق، يستفيق وتتحول مخالبه إلى أجنحة.

ظل ما سقط فوقى؛ فتحت عينى: كان زوربا يقف أمام الباب وينظر إلى بسعادة.

- لا تنهض يا سيدى! لا تنهض... قال لى برقة أبوية. اليوم عيد، نـم!

- شبعت من النوم، قلت ونهضت.

- سأصنع لك بيضًا مقليًا، قال زوربا مبتسما؛ إنه مغذٍ.

لم أتكلم؛ جريت نحو الشاطئ، غطست فى البحر، جففت نفسى فى الشمس. لكن كانت رائحة عذبة لا تزال فى أنفى، على شفتى، على مسام يدى. مثل ماء ورد. مثل زيت الغار الذى تدهن به نساء كريت أجسادهن.

لقد صنعت كومة من أزهار الليمون بالأمس لتذهب بها إلى المسيح فى الكنيسة حيث كان القرويون سيرقصون فى ساحة القرية تحت أشجار الحور وستكون الكنيسة هادئة خالية من الناس. الأيقونات فوق فراشها كانت متخمة بأزهار الليمون التى كانت تظهر من خلالها العذراء ذات العيون الكبيرة حنونة وحزينة.

انحنى زوربا ووضع طبق البيض بجوار فنجانى مع برتقالتين كبيرتين وقطعة من الخبز المحلى من عيد الفصح. كان يخدمنى بصمت وسعادة مثل أم تحنو على ابنها الذى عاد من الحرب. كان ينظر إلى بحنان ثم غادر:

- قال: سأذهب لأضع بعض الأعمدة.

كنت أمضغ طعامى بهدوء تحت الشمس، وأشعر بسعادة جسدية عميقة، كما لو كنت عائمًا فى بحر أخضر بارد. لم أدع عقلى يستحوذ على هذه المتعة الجسدية، ويقولبها ليصنع منها أفكارًا عقيمة، تركت جسدى كله يسعد بهذه الحالة من قمة رأسى حتى أخمص قدمىّ. مثل حيوان، رحت أنظر إلى معجزة العالم فى داخلى وحولى بتمعن وأقول فى نفسى: «كيف تكيف هذا العالم مع أرجلنا وأيدينا وبطوننا بهذا الانسجام؟» ثم أغمضت عينى مرة أخرى وصمت.

نهضت فجأة، دخلت إلى الكوخ، وأخذت مخطوطة «بوذا» وفتحتها. كنت قد أوشكت على الانتهاء منها، كان بوذا مستلقيًا تحت شجرة مزهرة، رفع يده وأمر العناصر الخمسة التى صنع منها - تراب وماء ونار وهواء وروح - أن تذوب.

لم أعد بحاجة إلى هذا الوجه من عذاباتى فقد تجاوزتها، لقد أنهيت خدمتى مع بوذا، ورفعت يدى وأمرت بوذا الذى بداخلى أن يذوب.

وبسرعة كبيرة مستخدما التعاويذ القاهرة والكلمات وأخفيت جسدى ثم روحى ثم عقلى بلا رحمة؛ كنت متعجلاً.

خربشت آخر كلماتى على الأوراق، ثم أطلقت الصيحة الأخيرة، نقشت اسمى بقلم أحمر كبير، وانتهيت.

أخذت خيطًا سميكًا، ربطت المخطوطة بقوة، وشعرت بسعادة غريبة، كما لو كنت أقيد يدى عدو لدود وقدميه بالأصفاد، أو كما كان

يربط البدائيون أحباءهم الموتى، كى لا يستطيعوا الخروج من قبورهم والتحول إلى أشباح.

بنت صغيرة حافية القدمين جرت نحوى؛ كانت ترتدى فستانًا أصفر اللون وتمسك فى يدها بيضة ملونة بالأحمر. توقفت، ثم نظرت إلى متوترة.

– حسنًا؟ سألتها باسمًا كى تتشجع؛ هل تريدين شيئًا؟

كانت تلهث وهى تتكلم:

– أرسلتنى المدام إلى هنا؛ فالمسكينة تحترق فى فراشها. هل أنت زوربا؟

– قلت، حسنًا، سآتى.

أخذت بيضة حمراء فى يدها وجرت.

نهضت، انطلقت؛ كانت جلبة القرية تقترب، أصوات نغمات من آلة الليرة الكريتية، أصوات سعيدة تحتفل، أصوات إطلاق الرصاص من بندقية وصوت رباعيات كريتية مغناة؛ عندما وصلت إلى ساحة القرية، كان الفتيان والفتيات قد تجمعوا تحت أشجار الحور المزهرة حديثًا واصطفوا للرقص. حولهم على المصاطب كان العجائز يجلسون مسندين ذقونهم على عصيهم يتابعونهم؛ خلفهم كانت النساء العجائز.

فى المنتصف كان يجلس عازف الليرة الشهير، وكان يضع وردة خلف أذنه؛ ويمسك بعصا الليرة بيمينه ويضع الليرة على ركبته اليسرى؛ كان يجرب أوتارها بحركات سريعة فتنبعث منها ألحان شجية.

- قلت وأنا أمر. المسيح قام!

- حقًا قام! أسمع هدير أصوات سعيدة من كل الحاضرين نساء ورجال.

ألقيت نظرة سريعة؛ شباب أشداء بالسراويل الكريتية ذوو خصور نحيفة، يعقدون المنديل المحلى على رؤوسهم وتتدلى على جباههم ووجوههم شراشيبه السوداء الملفوفة، البنات ربطن أوشحتهن المطرزة بالترتر على أعناقهن، وقد أخفضن أعينهن ورحن يرتعشن من الترقب والانتظار.

- لمَ لا تتفضل معنا يا رئيس؟ سمعت بعض الأصوات - لكننى كنت قد عبرتهم بالفعل.

كانت مدام أورتانس ممددة على فراشها العريض، قطعة الأثاث الوحيدة التى حفظت عهدها معها طوال هذا العمر؛ كان خداها مشتعلين من الحمى، وتسعل بشدة.

ما إن رأتنى حتى أطلقت تنهيدة شكوى:

- أين زوربا يا وصيفنا؟...

- إنه مريض؛ فى اليوم الذى مرضت فيه سقط مريضًا هو الآخر؛ يمسك بصورتك ولا يكف عن التنهد.

- أكمل... قل... دمدمت الحورية المسكينة وأغمضت عينها بسعادة.

- والآن قد أرسلني كي أرى إن كنت تحتاجين شيئًا... يقول بأنه سوف يأتي الليلة حتى لو اضطر أن يأتي زاحفًا على ركبتيه... فهو لا يطيق هذا الفراق.

- قل... تابع... أكمل...

- يقول إنه تسلم تلغرافًا من أثينا يقول إن فستان العرس قد صار جاهزاً، والأكاليل والحذاء وباقات الملبس، وقد أعدوها أيضًا للشحن، إنها في الطريق... وكذلك الشموع المطرزة بالشرائط الوردية

- قل... أكمل... تابع...

قالت، لكن كأن النعاس قد غلبها، فقد تغير إيقاع تنفسها، وبدأت بالهذيان. كانت رائحة حجرتها كولونيا ونشادر وعرق، ومن النافذة المفتوحة كانت تدخل رائحة من روث الأرانب في الفناء.

قمت، وهممت بالمغادرة، على الباب قفز ميميكو أمامي، كان يرتدي حذاء جديداً اليوم من النوع المحلي وعلى مقدمته خصلة زرقاء، وخلف أذنه غصن ريحان.

- ميميكو. قلت له: اذهب إلى القرية لتحضر طبيباً.

خلع ميميكو حذاءه الجديد، ووضعه تحت إبطه حتى لا يهترئ في الطريق.

– جِدْ طبيبًا، وأبلغه تحياتى، وأن يأتى على حصانه بسرعة، قل له إن المدام مريضة جدًا؛ لقد أصابها برد شديد المسكينة. لا تنسَ شيئًا، هيا أسرع.

– إنى ذاهب! قال وبصق فى كفيه وضربهما، لكنه لم يتحرك، نظر إلى مبتسمًا.

– هيا اذهب، أقول لك!

لكنه لم يتحرك، غمز لى بعينه مبتسمًا بمكر شديد ثم قال:

لقد أحضرت زجاجة من ماء الزهر إلى كوخك، هدية.

توقف قليلاً، انتظر حتى أسأله من الذى أرسلها، لكننى لم أقل شيئًا.

– قال وهو يكتم ضحكه. لمَ لا تسألنى من الذى أرسلها يا سيدى؟ ثم قال: لتضع منه فى رأسك، قالت حتى تصبح رائحته عطرة.

– هيا اذهب بسرعة! وأغلق فمك!

ضحك، بصق فى كفيه مرة أخرى وصاح وهو يهرول:

– هوب! هوب! قام المسيح!

ثم اختفى.

كانت احتفالية رقص عيد الفصح تحت أشجار الحور على أشدها. كان يقود الرقص فتى أسمر فى العشرين تقريباً، شعر ذقنه لم تمسسه شفرة حلاقة بعد؛ فتح قميصه فظهر شعر صدره المجعد على جلده الأسمر؛ شعر رأسه مصفف نحو الخلف، كانت قدماه تضربان الأرض بقوة كجناحين، وبين الحين والآخر كان يلقى نظرة على إحدى الفتيات فكان بياض عينيه يلمع بشكل وحشى على وجهه الذى لفحته الشمس.

كانت مشاعرى خليطًا بين السعادة والخوف. كنت عائداً من مدام أورتانس؛ كنت قد طلبت من إحدى النساء أن تقوم برعايتها قبل أن آتى إلى هنا لأشاهد الكريتيين يرقصون؛ اقتربت من العم أناغنوستى، جلست بجواره على المصطبة.

- سألته فى أذنه. من هو الشاب الذى يقود الرقص؟

ضحك العم أناغنوستى:

- كأنه رئيس الملائكة هذا الوغد، إنه يسلب الروح، قال بإعجاب. إنه سيفاكيس راعى الغنم، طوال العام يرعى الأغنام فى الجبل ويأتى فقط فى عيد الفصح ليرى الناس ويرقص.

تنهـد.

- آه لو أنى فى فتوته! تمتم؛ لو كنت أمتلك شبابه لغزوت إسطنبول!

هز الشاب رأسه؛ وأطلق صيحة عالية مثل كبش هائج:

- اضرب يا فانوريو؛ اضرب عل الموت يفارق الحياة.

الموت يموت كل لحظة ويولد من جديد كل لحظة. منذ آلاف السنين والفتيان والفتيات يرقصون تحت أشجار - الحور والسنديان والبلوط الخضراء فى الربيع وتحت أشجار النخيل المنتصبة - وسيرقصون آلاف سنين قادمة بوجوه تملؤها الرغبة. وجوه تذهب تحت الأرض، ووجوه أخرى تظهر، الوجوه تتغير كل عشرين سنة. لكن جوهر الأمر هو أن يظل الإنسان وكما هو، عاشقًا، شابًا فى العشرين، يرقص ليبقى خالدًا.

رفع الشاب يده ليبرم شاربيه، ليحكم حبكة الرقص الكريتى كجزء من الرقص - لكن لم يكن لديه شارب.

- صاح مرة أخرى؛ اضرب يا فانوريو كى لا أنفجر.

رفع يده لعازف الليرة، فعلا صوتها وتوحشت أنغامها وازدادت شجنًا فقفز الشاب فى الهواء وصفق بقدميه ثلاث مرات فى الهواء، كانت قفزته عالية جداً حتى أنه لمس بحذائه المنديل الأبيض لحارس القرية مانولاكاس الذى كان يرقص بجواره.

- برافو يا سيفاكاس! سمعت صيحات الإعجاب وارتعشت الفتيات وخفضن أبصارهن نحو الأرض.

لكن الشاب كان صامتًا، لم يتحدث لأحد، كائن برى ملتزم، كان يضع يده اليسرى على فخذه القوى ويده الأخرى فى الهواء، وثبت عينيه المتوحشتين بتواضع على الأرض.

فجأة توقف الرقص. ظهر الشماس أندروليوس، رفع يده وصرخ.

- الأرملة! الأرملة! الأرملة! كان يصرخ بهلع.

كان مانولاكاس حارس القرية أول من توقف عن الرقص وهرع. كانت الكنيسة تظهر من الساحة، ما زالت عليها الزينة بأغصان الغار؛ توقف الراقصون عن الرقص غاضبين، قامت العجائز من على المصاطب؛ مدد فانوريوس الليرة على قدميه، ونزع الوردة من خلف أذنه وشمها.

- أين يا أندروليو؟ صاح الجميع بغضب، أين؟

- إنها فى الكنيسة؛ لقد دخلت الآن الملعونة تحتضن حزمة من ورد الليمون.

- هيا نلحق بها يا رجال! صاح الحارس وكان أول الهارعين.

فى هذه اللحظة ظهرت الأرملة عند عتبة الكنيسة؛ كانت تضع منديلاً أسودَ على وجهها.

- الحقيرة! العاهرة! القاتلة! سمعت الأصوات من ساحة الرقص. وبلغت بها الجرأة أن تأتى إلى هنا، إنها عار على قريتنا!

هرول الجميع مع الحارس نحو الكنيسة، الآخرون كانوا من الأماكن العليا يقذفونها بالحجارة. أصابها حجر في كتفها. صرخت الأرملة؛ ووضعت كفيها على وجهها. انحنت وحاولت أن تحمي نفسها وتهرب. لكن الشباب كانوا قد وصلوا إلى باب الكنيسة الخارجي واستل مانولاكاس سكينه.

راحت الأرملة تتراجع نحو الخلف وهي تصرخ بصوت مكتوم، حاولت أن تحمي نفسها وتجرى لتدخل الكنيسة. لكن على باب الكنيسة كان العجوز مافروأندونى يقف صامتًا رافعًا يديه وقد سد فتحتى الباب.

قفزت الأرملة نحو اليسار وتعلقت بشجرة السرو الكبيرة فى الفناء. لكن حجراً انطلق من بعيد وقد أطلق صفيراً فضربها فى رأسها، سقط المنديل من على رأسها فارتخى شعرها على كتفيها.

– راحت تنوح وتتوسل إليهم باسم المسيح! باسم الرب! باسم الرب! وهى ما زالت متعلقة بشجرة السرو.

كانت فتيات القرية مصطفات فى الساحة ويعضضن على مناديلهن البيضاء؛ بينما العجائز وقفن عند الجدران يراقبن ويصحن:

– اقتلوها، اقتلوها!

ألقى شابان بنفسيهما عليها وأمسكا بها، تمزق ثوبها السوداء فلمع ثديها كالرخام. كانت الدماء تسيل من رأسها على جبهتها وخديها وعنقها.

- باسم الرب! باسم المسيح! ما زالت الأرملة تصرخ.

كانت دماؤها تسيل، وصدرها العارى اللامع كان يثير الشباب؛ فاستلوا الخناجر من أحزمتهم.

- صرخ مانولاكاس، انتظروا، إنها لى!

كان العجوز مافروأندونى لا يزال واقفًا عند باب الكنيسة، رفع يده فصمت الجميع.

- قال، مانولاكاس، بصوت رخيم، دم ابن عمك يصرخ؛ أرحه!

قفزت فوق السياج، الذى كنت تسلقته، رحت أهرول كى أصل إلى الكنيسة، تعرقلت قدمى بحجر فوقعت على الأرض. فى هذه اللحظة كان سيفاكيس بجوارى، انحنى وأمسكنى من قفاى كما نمسك القطط ورفعنى واقفًا، ثم قال لى:

- ماذا تفعل هنا أيها الأنيق؟ ارحل من هنا.

- ألا تشفق عليها يا سيفاكيس؟

جلجلت ضحكاته:

- وهل أنا امرأة لأشفق عليها؟ أنا رجل!

وبقفزة واحدة كان قد وصل إلى فناء الكنيسة.

وصلت خلفه مهرولاً. كان الجميع قد التفوا حول الأرملة؛ عم صمت ثقيل؛ لم يكن يسمع غير صوت لهاث الأرملة.

رسم مانولاكاس شارة الصليب، تقدم خطوة. رفع سكينه، العجائز فوق السياج كن يطلقن صيحات السعادة؛ الشابات أرخين مناديلهن ليغطين عيونهن.

خارت الأرملة عندما رأت السكين فوقها، وراحت تخور مثل بقرة. سقطت وراحت تزحف عند شجرة السرو وغاص رأسها في كتفيها. شعرها غطى الأرض، فظهر قفاها الأبيض الناصع.

– باسم الرب! صاح العجوز مافروواندوني ورسم شارة الصليب هو الآخر.

لكن في هذه اللحظة سمعنا صوتًا وحشيًا يأتي من خلفنا:

– أنزل سكينك أيها القاتل!

التفت الجميع متفاجئين؛ رفع مانولاكاس رأسه؛ فوجد زوربا يقف أمامه، راح يحرك يده بعصبية ويصرخ:

– ألا تخجلون: قرية بأكملها تريد أن تقتل امرأة! إنكم تجلبون العار على كريت كلها!

– لا شأن لك يا زوربا؛ لا تتدخل في هذا الأمر! زأر مافروأندوني من مكانه.

التفت إلى ابن أخيه وقال:

– مانولاكاس، اضرب باسم الرب والعذراء!

أمسك مانولاكاس بالأرملة، وطرحها أرضًا وداس بقدمه على بطنها ورفع السكين.

لكن زوربا لحق به وأمسك بذراع مانولاكاس، كان قد لف على قبضته منديلاً كبيرًا وراح يصارعه ليأخذ السكين من يده.

نهضت الأرملة على ركبتيها، نظرت حولها بسرعة لتجد مفرًا؛ لكن القرويين أغلقوا كل المخارج بعد أن تحلقوا حول ساحة الكنيسة ووقفوا على المقاعد، وعندما رأوها تتحرك ضيقوا الحلقة أكثر.

فى هذ الوقت كان زوربا يصارع صامتًا، بخفة وبقوة وحزم؛ أما أنا فكنت واقفًا أراقب بقلق من مكانى بالقرب من باب الكنيسة. احمر وجه مانولاكاس من شدة الغضب؛ حاول أحد الشباب أن يساعده لكن مانولاكاس التفت ونظر إليه بغضب:

- عد إلى الخلف، ابتعد! لا أحد يقترب.

ثم هجم على زوربا ثانية بقوة ونطحه مثل الثور.

عض زوربا على شفتيه وصمت؛ كان يمسك يد الحارس بقوة وراح يميل إلى اليمين وإلى اليسار ليتفادى نطحاته. اندفع مانولاكاس الذى ثار غضبه ووضع أذن زوربا بين أسنانه وراح يعضها ليقطعها. سالت دماء زوربا.

- زوربا! صحت مرعوبًا ورحت أحاول إنقاذه.

- صاح: ابتعد يا سيدى، لا تتدخل!

جمع قبضته ولكم مانولاكاس لكمة قوية تحت بطنه، عند خصيتيه. فأرخى مانولاكاس فكيه وشحب وجهه. وبدفعة واحدة طرحه زوربا أرضاً بعد أن أخذ منه السكين قذفه بعيداً فارتطم بالرخام وتهشّمت أجزاؤه.

مسح بمنديله الدماء التى كانت تسيل من أذنه ثم مسح العرق المتصبب على وجهه؛ غطت الدماء وجهه. استوى واقفًا وتطلع حوله كانت عيناه قد انتفختا وصارتا شديدتى الاحمرار؛ ثم صاح فى الأرملة:

- انهضى تعالى معى!

وشدها فى اتجاه بوابة فناء الكنيسة.

نهضت الأرملة لاهثة، استجمعت قواها ولم تكد تتقدم إلى الأمام حتى ألقى العجوز مافروأندونى بنفسه فوقها بسرعة البرق ودفعها على الأرض ولف شعرها ثلاث مرات حول ذراعه وقطع رأسها بحركة واحدة من سكينه.

- ألقى برأسها على عتبة الكنيسة وصرخ، أنا أتحمل هذا الذنب!

ورسم شارة الصليب على صدره.

التفت زوربا ورأى المنظر. نزع خصلة من شعر شاربه وتنهد بغضب. اقتربت منه أمسكته من ذراعه؛ انحنى ونظر إلى ودمعتان كبيرتان كانتا تتعلقان بعينيه.

قال بصوت مخنوق: هيا نرحل من هنا يا سيدى.

فى تلك الليلة لم يستطع زوربا أن يأكل شيئًا، كان يقول «إن حلقى مسدود ولن يبتلع شيئًا». غسل أذنه بماء بارد، بلل قطنة بالعرق وربطها، كان جالسًا على فراشه، ويضع رأسه بين يديه، وراح يفكر.

أما أنا فكنت جالسًا على الأرض، أتكئ على الحائط، وكنت أشعر بأن دموعًا ساخنة تسيل على خدى.

كان عقلى متوقفًا عن العمل تمامًا، لم أكن أفكر فى شىء، كما لو أننى غصت فى حزن طفولى عميق ورحت أبكى.

رفع زوربا رأسه للحظة، انفجر وراح يصرخ، كأنه يكمل بصوت عال ما كان يقوله لنفسه قبل قليل:

قلت لك يا سيدى، إن كل ما يجرى فى هذا العالم هو ظلم، ظلم، ظلم! وأنا لا أوافق عليه، أنا زوربا هذه الدودة البراقة! لماذا يموت الشباب والشابات ويعيش العجائز؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ لقد كان لدىَّ طفل ذيمترى الصغير، ومات وهو فى الثالثة من عمره، وأبدًا، أبدًا، لن أسامح الرب. هل تسمعنى؟ وإذا كانت لديه الشجاعة فليظهر أمامى، إذا كان ربًا بحق، لابد أن يخجل! نعم، نعم، سيخجل منى، سيخجل أن يظهر أمام هذه الدودة التى اسمها زوربا.

ارتسم على وجهه تعبير مؤلم؛ كانت الدماء تنزف مجددًا من جرحه؛ عض شفتيه حتى لا يصرخ.

– انتظر يا زوربا، قلت، تعال لأغير لك الضمادة.

غسلت أذنه بالعرق، أخذت ماء الزهر الذى أرسلته لى الأرملة، وجدته على الفراش، وغمست فيه القطن.

– ماء زهر؟ قال زوربا بعد أن استنشقه بلهفة؛ ماء زهر؟ ضع قليلاً منه على شعرى، نعم هكذا، وصب فى يدى قليلاً، صبه كله، هيا!

دبت فيه الحياة؛ نظرت إليه مندهشاً.

– قال: أشعر أننى أدخل فى حديقة الأرملة.

ودب فيه الحزن ثانية.

– ودمدم قائلاً، كم سنة، كم سنة احتاجت الأرض لتصنع جسداً كهذا! كنت تنظر إليها وتقول: «آه لو كنت فى العشرين من عمرى وينتهى كل البشر من على الأرض ولا تنجو غير هذه المرأة كنت سأنجب منها أولاداً، لا، ليس أطفالاً حقيقيين بل كنت سأنجب منها آلهة تملأ الدنيا!» والآن...

نهض واقفا؛ وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

– لا أستطيع يا سيدى! لابد ان أخرج لأتمشى، أن أصعد الجبل وأنزله الليلة مرتين أو ثلاث حتى يصيبنى الإرهاق كى يستريح عقلى... آه أيتها الأرملة، لا أحتمل، لابد أن أنشد لك مرثية.

انطلق إلى الخارج، ذهب نحو الجبل وتاه فى الظلام.

استلقيت على فراشى، أطفأت المصباح وبدأت أنقل - حسب عادتى اللا إنسانية - الواقع وأجرده من الدم والجسد والعظام وأحوله إلى فكرة مجردة وأحفظها فى القوانين الكونية، وأتوصل إلى النتيجة المرعبة أن كل ما حدث كان لابد أن يحدث.

كل ما حدث كان فى دائرة إيقاع الكون، حتى يثرى التناغم. وأصل فى النهاية إلى هذا العزاء الكريه: إنه لم يكن حتميًا فقط أن يحدث ما حدث بل كان يجب أن يحدث لأن هذا هو الصحيح.

ذبح الأرملة كان بمثابة رسالة مرعبة إلى عقلى، حيث إن كل شىء الآن فى السنوات الأخيرة، قد تحول وصار تحت سيطرة الواجب والطاعة. إن هذه الرسالة هيجت قلبى؛ فجأة هجمت عليه كل النظريات لتغلفه وتحيطه بتلك الحيل كى يصير مستكينًا بالضبط كما تغلف النحلات ذكر النحل الجائع عندما يأتى ليسرق عسلها.

وهكذا، بعد بضع ساعات، كانت الأرملة تسكن ذاكرتى، هادئة، ومبتسمة تقريبًا، فى هالة الرمز المقدس. الأرملة قد غلفها الشمع فى قلبى بالفعل، لم تعد لديها القدرة أن تنشر الاضطراب داخلى وأن تشل عقلى. هذا الحدث الرهيب قد توسع وتمدد فى مكان وزمان واسع، اتحد مع الحضارات العظيمة التى انتهت؛ الحضارات اتحدت مع قدر الأرض ومصيرها، والأرض اتحدت مع مصير الكون - وهكذا، عندما نعود إلى الأرملة، نجدها تخضع لقوانين الكون متصالحة مع قاتليها، فى هدوء وصفاء إلهيين.

عاد الزمن فى داخلى إلى جوهرة الحقيقى؛ كأن الأرملة ماتت قبل آلاف السنين، وبنات كنوسوس بشعرهن الملفوف من حضارة بحر إيجة متن صباح اليوم.

غلبنى النعاس مثل أى يوم آخر بالتأكيد لا يوجد شىء أكيد أكثر من هذا والموت، وانزلقت بهدوء فى الظلام. ولم أسمع إذا كان زوربا قد عاد أم لم يعد؛ فى الصباح وجدته فوق الجبل يصيح فى العمال ويتناقش بحدة. لم يعجبه أى شىء مما كانوا يفعلونه؛ طرد ثلاثة من العمال الذين اعترضوا على أسلوبه، أخذ هو بنفسه الفأس وراح يفتح طريقًا بين تلال التراب والعشب والصخور كى تدق الأعمدة. صعد إلى الجبال ووجد بعض الحطابين يقطعون أشجار الصنوبر، صرخ فيهم؛ فضحك أحدهم وتمتم شيئًا، فهجم عليه زوربا ووقع فوقه.

فى الليل نزل من على الجبل منهك القوى، بثياب مهلهلة، وجلس بجانبى على الشاطئ. كان يفتح فمه بصعوبة؛ وعندما كان ينطق بشىء كان يتحدث عن الأخشاب والأسلاك وأنفاق الفحم، مثل رجل أعمال رأسمالى طماع كان يتعجل قدر ما يستطيع أن يدمّر هذا المكان ليربح منه أكبر قدر من المال ويرحل.

فى لحظة وفى حالة العزاء التى وصلت إليها، رحت أقول شيئًا عن الأرملة، فإذا بزوربا يمد يده الكبيرة ويغلق فمى.

– قال بصوت مخنوق. اسكت!

أغلقت فمى فى خجل. هذا هو الإنسان الحقيقى، قلت فى نفسى، خجلت من ألم زوربا وحزنه. إنسان يجرى فى عروقه دم ساخن وعظامه صلبة، عندما يتألم ويحزن يطلق دموعًا غزيرة وحقيقية، وعندما يفرح لا يأخذ فرحته ويمررها من فلاتر الميتافيزيقا العقيمة.

مرت ثلاثة أيام. لم يرفع زوربا رأسه عن العمل، لم يأكل، لم يشرب، كاد يذوب من فرط العمل.

فى ليلة قلت له أن السيدة بوبولينا طريحة فراش المرض، ولم يأت الطبيب، إنها تهذى وتردد اسمه.

عصر قبضة يده.

- قال: حسنًا.

فى اليوم التالى ذهب إلى القرية وعاد سريعًا.

- هل رأيتها؟ سألته، كيف حالها؟

قطب زوربا حاجبيه.

- لا تعانى من شىء، قال؛ انها تحتضر.

وذهب بسرعة نحو الجبل.

فى نفس الليلة، ودون أن يأكل شيئًا، أخذ عصاه، وخرج.

- إلى أين يا زوربا؟ سألته. هل أنت ذاهب إلى القرية؟

- لا؛ سأتمشى، لن أتأخر.

ذهب نحو القرية بخطوات سريعة واثقة.

كنت متعبًا، تمددت؛ راح عقلي يطوف بالعالم، فأيقظ ذكريات ومرارات، كان عقلي يرفرف بعيدًا في أفكار بعيدة وجاء وجلس فوق زوربا.

«ماذا لو صادف مانولاكاس في طريقه، رحت أفكر، سيهجم عليه الكريتي الغاضب ليقتله. كل هذه الأيام كنت أسمع أنه أغلق على نفسه ويبكي طوال الوقت من الخجل ولا يريد أن يظهر في القرية ويهدد طوال الوقت أنه إذا أمسك بزوربا، سيقطعه إربا. وبالأمس عند منتصف الليل، أحد العمال رآه يحوم حول الكوخ مسلحًا.

لو تقابلا الليلة، ستحدث جريمة...»

قمت مفزوعًا، ارتديت ملابسي وانطلقت بسرعة ناحية القرية. كانت الليلة رطبة ولطيفة، وفاحت في الهواء رائحة البنفسج البري. بعد قليل استطعت أن أميز زوربا في الظلام كان يسير على مهل كأنه متعب. كان يتوقف بين الحين والآخر ينظر إلى النجوم، ينصت قليلاً؛ ثم يسير، كنت أسمع صوت عصاه تضرب الحجارة.

اقترب من حديقة الأرملة؛ انتشرت في الهواء رائحة زهر الليمون ونبات العسل المتسلق؛ وفجأة في تلك اللحظة من فوق أشجار البرتقال راح العندليب يصدح، ويغني بصوت حزين في الظلام، كان صوته يملأ القلوب بالحزن، فوقف زوربا مذهولاً من فرط العذوبة.

وفجأة تحرك قصب السياج وأصدر صوتًا من أثر احتكاكها بأوراقها الحادة كالفولاذ.

– يا وصيفي، سُمع صوت أجش، أيها العجوز الأخرق لقد وجدتك!

تجمدت في مكاني؛ فقد أدركت لمن يكون الصوت.

تقدم زوربا خطوة ورفع عصاه ثم توقف. كنت أرى بوضوح تحت ضوء النجوم كل حركاته.

– صاح زوربا وهو يمط رقبته. من أنت؟

– هذا أنا، مانولاكاس.

– اذهب من هنا، امض في طريقك!

– لماذا، هل تخجل يا زوربا؟

– لا أخجل منك يا مانولاكاس، اذهب من هنا قلت لك. أنت رجل قوي وضخم الجثة؛ لكن الحظ لم يحالفك، تعلم هذا؟

– حظ أعمى أو حظ بصير، قال مانولاكاس وكنت أسمع صوت أسنانه وهي تكز، أنا أريد فقط أن أغسل عاري والليلة. هل لديك سكين؟

– لا، أجاب زوربا؛ لا أحمل سوى عصا.

– اذهب وأحضر سكينك؛ سأنتظرك هنا. اذهب!

لم يتحرك زوربا.

- هل أنت خائف؟ قال صوت مانولاكاس بسخرية. اذهب أقول لك!

- لأفعل ماذا يا مانولاكاس، ماذا أفعل بالسكين؟ قال زوربا وقد بدأ يستشيط غضبه؛ ماذا أفعل بالسكين؟ أ تتذكر عند الكنيسة، أظنك تتذكر، كان لديك سكين وأنا لم يكن لدى؛ لكن أظن أننى أبليت بلاءً حسناً.

زمجر مانولاكاس غاضباً.

- أتسخر منى؟ لقد اخترت لحظة خاطئة لتفعل هذا، فأنا لدى سلاح وأنت ليس لديك، هيا أحضر سكينك أيها المقدونى وتعال لنتقاتلْ!

- ألقِ بسكينك وأنا سألقى بعصاى وتعال لنتقاتل! صرخ زوربا وكان صوته يرتعش من الغضب.

هيا أيها الحقير!

شمر زوربا ساعديه، ألقى بعصاه وسمعت صوتها تسقط على سياج القصب.

- ألقِ بالسكين! سمعت صوت زوربا يقول مرة أخرى.

اقتربت على أطراف أصابعي؛ لمحتُ بريق السكين وهو يسقط على القصب.

- هيا! صرخا وقفزا فى الهواء ليلتحما ببعضهما.

لكن قبل أن يحدث هذا قفزت بينهما.

– صحت. توقفا! تعال إلى هنا يامانولاكاس، وأنت يا زوربا؛ ألا تخجلان!

اقتربا منى ببطء؛ أمسكت باليد اليمنى لكل منهما.

– تصافحا؛ أنتما رجلان طيبان وشجاعان، تصالحا!

– لقد جلب لى العار... قال مانولاكاس، محاولاً أن يسحب يده.

– وهل يجلب لك العار بهذه السهولة يا قبطان مانولاكاس! قلت. القرية كلها تتحدث عن شجاعتك؛ لا تنظر إلى ما حدث قبل الأمس عند الكنيسة؛ كانت ساعة نحس، وما حدث قد حدث، انتهى! ثم لا تنسَ أن زوربا مقدونى غريب، وهذا عار كبير علينا نحن الكريتيين أن نرفع يداً بالعدوان على غريب فى أرضنا... هيا، مد يدك، هذا هو النبل وهذه هى الشجاعة، هيا، لنذهب ونحتسِ بعض النبيذ، لنشوِ عرقًا من السجق – لتتوطد صداقتنا يا قبطان مانولاكاس!

أمسكت مانولاكاس من خصره، أزحته قليلاً وهمست فى أذنه:

– إنه رجل عجوز، ولا يصح لشاب فى حجمك وشجاعتك أن يتشاجر معه!

هدأ مانولاكاس:

– حسنًا، لكن من أجلك فقط!

تقدم خطوة ناحية زوربا ثم مد يده بتململ:

– هيا يا زوربا، هيا يا بن العم، لقد انتهى الأمر، دعنا ننسه؛ أعطنى يدك!

- قال زوربا: لكنك قد أكلت أذنى، حلال عليك؛ وهذه يدى!

تصافح الرجلان، كان تصافحهما طويلاً وقويًا؛ كانا يعصران كفيهما بقوة وينظر كل منهما إلى الآخر بتوحش. خفت أن يتشاجرا مجدداً.

- قال زوربا: إن قبضتك قوية، أنت شاب قوى يامانولاكاس! لكن حاول أن تشد يدك أقوى من هذا، إن كنت تستطيع!

- كفى، صحت؛ هيا لنبلل صداقتنا بالنبيذ!

دخلت بينهما، كان زوربا على يمينى ومانولاكاس على يسارى، وسرنا نحو شاطئنا.

- سيكون الحصاد جيداً هذا العام... قلت كى أغير الموضوع؛ لقد كان المطر وفيراً.

لكن لم يجب أى منهما؛ كان الغيظ ما زال يملأ صدريهما. كانت كل آمالى معقودة على النبيذ؛ وصلنا إلى كوخنا.

- قلت: مرحبًا يا قبطان مانولاكاس فى كوخنا الفقير! اشوِ لنا السجق وقدمه لنا.

جلس مانولاكاس خارج الكوخ على أحد الصخور. أشعل زوربا الفرن، قام بشوى السجق، وملأ الكئوس الثلاثة حتى آخرها.

- نخبكما! قلت وأنا أرفع الكأس الممتلئة؛ فى صحتك يا قبطان مانولاكاس! فى صحتك يا زوربا! وطرقنا الكئوس!

صب مانولاكاس بعض النبيذ على الأرض وقال بصوت رسمى:

- ليسل دمى مثل هذا النبيذ إذا رفعت يدى عليك مرة أخرى!- ثم قال زوربا: وهكذا يسيل دمى أنا أيضًا وهو يصب بعض القطرات على الأرض، إذا لم أكن قد نسيت بالفعل أذنى التى أكلتها يا مانولاكاس!

عند الفجر استيقظ زوربا وجلس على فراشه وأيقظني:

- هل أنت نائم يا سيدى؟

- ماذا جرى يا زوربا؟

- لقد رأيت حلماً؛ حلماً غريباً؛ أعتقد أننا على وشك سفر واسمع لتضحك وكان، طبقاً للحلم، هنا فى الميناء مركب كبير مثل مدينة، وكان يصفر قبل رحيله، وأنا كنت أجرى من القرية لألحق به؛ وكنت أمسك ببغاء في يدى. وصلت وتسلقت المركب، وجاء القبطان وصاح: «تذكرة». «كم ثمنها؟» سألته وأنا أخرج من جيبى حفنة نقود.

«ألف دراخمة يا للهول. - لمَ لا تكون ثمانمئة دراخمة - لا، ألف دراخمة.. - ليس معى سوى ثمانمئة، خذها! - بل ألف ولا أقل! وإلا، اخرج من هنا بسرعة!» غضبت جداً وقلت له: «اسمع أيها القبطان، خذ ما لدى الآن وإلا سأستيقظ من نومى ولن تأخذ حتى هذا المبلغ!»

انفجر زوربا فى الضحك:

- آه، أى آلة هو الإنسان! تضع فيها خبزاً ونبيذاً ولفتًا وتخرج لك تنهدات وتأوهات وضحك وأحلام، ومصنع! فى رءوسنا، أعتقد أنه آلة عرض سينمائى كالتى يحكون عنها.

قفز زوربا من فراشه:

- قال بقلق: لكن لماذا الببغاء؟ ماذا يعنى الببغاء الذى كنت أحمله معى فى السفر؟ أوووخ، أخشى أن....

لم يكد ينتهى من كلمته؛ إلا وجاء رسول قصير بدين بشعر أحمر يشبه الشيطان، دخل علينا وهو يلهث.

- بحق الرب! إن المدام المسكينة تصيح لكى تحضروا لها الطبيب! تقول بأنها تحتضر، ستموت المسكينة، وتقول إن ضميرك سيعذبك.

شعرت بخجل شديد؛ ففى هذا الارتباك الذى حط علينا مؤخراً، قد نسينا تماماً صديقتنا العجوز.

- إن المسكينة تتألم، تابع القصير ذو الشعر الأحمر، إنها تسعل سعالاً شديداً تهتز معه كل القرية. إن سعالها أشبه بنهيق الحمار.

- صحت بالرجل: اخرس ولا تهزأ منها.

أمسكت بورقة وكتبت عليها رسالة:

- خذ هذه الرسالة إلى الطبيب ولا تعُد إلا بعد أن تراه قد امتطى فرسه؛ أتسمع؟ اذهب الآن.

أخذ الرسالة ودسها فى حزامه وانطلق.

كان زوربا قد نهض وارتدى ملابسه بسرعة فى صمت شديد.

- قلت له: انتظر، سآتى معك.

- قال وهو يتحرك نحو طريق القرية. أنا متعجل جداً.

بعد دقائق قليلة انطلقت أنا فى نفس الطريق.

حديقة الأرملة تبدو مهجورة؛ كان ميميكو جالسًا على باب بيتها متكوراً منهاراً مثل كلب ضرب بقسوة. نقص وزنه بشدة وقد تحلقت عيناه وغارتا نحو الداخل بشدة، التفت ورآنى ثم أمسك بحجر.

- سألته وأنا أسرق نظرة متلهفة نحو الحديقة. ماذا تفعل هنا يا ميميكو؟

شعرت بذراعين قويين يطوقان عنقى... ورائحة أزهار الليمون وزيت الغار. لم نتحدث؛ رأيت عينيها السوداوين المتقدتين فى ضوء الفجر؛ وأسنانها الحادة التى كانت تفركها بورق الجوز تتلألأ فى بياضها.

- لمَ تسألنى؟ صاح ميميكو؛ هيا اذهب إلى عملك!

- هل تريد سيجارة؟

- لا، لقد امتنعت عن التدخين. راح يقول لاهثًا وهو يبحث عن كلماته بصعوبه، كلكم، كلكم، جميع الناس..... خنازير... حمقى... كذابون... قتلة! قال كأنه وجد الكلمة التى كان يبحث عنها وهو ينهض ويضرب كلتا كفيه:

- قتلة! قتلة! قتلة! راح يصيح ثم يضحك بعصبية.

كاد قلبى يعتصر ألمًا لما رأيته هكذا.

- دمدمت وأنا أرحل بخطوات سريعة. أنت على حق يا ميميكو، أنت على حق!

على مشارف القرية كان العم أناغنوستى منحنيًا على عصاه، ينظر بتفحص إلى الفراشات الصفراء التى تحوم فوق العشب الربيعى والآن وقد كبر سنه ولا تأكله الهموم من أجل الحقول، والنساء والأولاد، ولديه الوقت أن يتأمل العالم وفجأة رأى ظلى على الأرض فرفع رأسه:

- سألنى: إلى أين أنت ذاهب فى باكرًا هكذا؟

لكنه لابد أنه قد رأى ملامح القلق على وجهى، ودون أن ينتظر إجابتى قال:

- هيا يا بنى أسرع؛ ربما تلحق أن تراها حية... آه، يا للمسكينة!

كان فراشها الذى أهلكته كثرة الاستخدام، أكثر الأشياء إخلاصًا لها فى حياتها، القابع فى منتصف الغرفة يكاد يغطى كل مساحتها. فوق رأسها انحنى كاتم أسرارها الخلوص، بسترته الخضراء وتاجه الأصفر وبعينيه المستديرتين الفطنتين، شاردًا وقلقًا والببغاء راح ينظر إلى سيدته ولا يستطيع أن يصرخ؛ ويلتفت لينظر إليها وهى تكتوى على فراشها تحتضر وهو غير قادر على الصراخ ويميل برأسه الذى يشبه رأس إنسان وينصت.

لا، لا، هذه التنهدات والتأوهات ليس مصدرها متعة ممارسة الحب، فتلك يعرفها جيداً، إنها تشبه المداعبات وأنين اليمام الرقيق... أما العرق الذى يسيل بارداً على وجه سيدته وشعرها المنفوش الملتصق على خديها، وهذه التشنجات الغريبة على الفراش كان الببغاء يراها لأول مرة... كان يريد أن يصيح: «كانافارو! كانافارو» لكن صوته لم يستطع عبور حنجرته المخنوقة.

كانت السيدة البائسة تئن فى فراشها، ذراعاها المتهدلان لم يتوقفا عن رفع الملاءات من على جسدها، كانت تشعر بالاختناق. كان وجهها عارياً من الطلاء، منتفخاً، وتفوح منها رائحة عرق كريهة ورائحة لحم بدأ فى التعفن. فحذاؤها المهترئ كان يظهر من تحت الفراش ويكاد قلبك يعتصر ألماً وأنت تشاهد زوج الأحذية المهترئ هذا أكثر من رؤية السيدة التى تملكه.

كان زوربا يجلس بجوار وسادة المريضة ولا يستطيع أن يرفع عينه عن حذائها المهترئ؛ كان يعض على شفتيه محاولاً أن يقاوم البكاء وعندما دخلت الغرفة وقفت خلفه لكنه لم يشعر بى.

كانت المسكينة تنتفض محاولة أن تتنفس وتكاد تختنق فأخذ زوربا قبعة كبيرة مزدانة بالورود الصناعية كانت معلقة فى مسمار على الحائط وراح يحرك الهواء أمام وجهها بسرعة؛ كانت يده تتحرك بشكل أخرق كما لو كان يهوّى فحماً مشتعلاً.

فتحت عينها مرعوبةً؛ نظرت حولها؛ كان العالم يبدو شاحبًا لها، فلم تتعرف على أحد؛ ولا حتى زوربا وهو يمسك بقبعتها المزدانة بالورود.

كانت لا ترى شيئًا حولها سوى الظلام وأبخرة زرقاء تصعد من الأرض وتأخذ أشكالاً متعددة، تارة أفواه تزمجر وتارة مخالب تقترب منها وتارة أجنحة سوداء.

غرزت البائسة أظافرها في وسادتها المتسخة المبقعة من فرط البكاء واللعاب والعرق وصاحت:

لا أريد أن أموت! لا أريد!

لكن نادبتي القرية سمعتا بالخبر وجاءتا؛ تسللتا إلى داخل الحجرة وجلستا على الأرض مستندتين بظهريهما على الحائط.

رآهما الببغاء وغضب، فمد عنقه وراح يصرخ: «كاناف...» لكن زوربا مد يده بسرعة بغضب داخل القفص وأخرس الببغاء.

سُمع صياح المسكينة مرة أخرى:

- لا أريد أن أموت! لا أريد.

ظهر شابان أسمران عند الباب ونظرا إلى المريضة وأشار كل منهما إلى الآخر بسعادة ثم اختفيا.

وفجأة سمعنا من الخارج أصوات رفرفة مرعوبة كما لو أن أحداً كان يطارد الدجاج ليمسك به.

الندابة الأولى، العجوز مالاماتينا، التفتت إلى رفيقتها وقالت:

- هل رأيتهما يا عمة لينيو، رأيت؟ إنهما متعجلان، سيقومان بخنق الدجاجات وتمزيقها.

لقد تجمع كل رعاع القرية استعداداً لنهب البيت!

التفتت نحو فراش المريضة:

هيا موتى بسرعة، دمدمت فى أعماقها، موتى بسرعة لكى نستطيع أن نغنم شيئًا من هذا البيت!

- أقــول لك الحقيقة بحق الرب، قــالت العمة لينيــو، وهى تضم فمها الخالى من الأسنان، الحقيقة يا سيدة مالاماتينا، إنهم سيفعلون الصــواب...

اخطف لتأكل واسرق ما تحتاج إليه، هكذا كانت أمى تقول لى. هيا نردد رثاءنا نحن حتى نلحق بحفنة من الفتات، لنخطف حصتنا، ولو لفافة خيطان إذا لحقنا؛ كى نبارك روحها وليس لديها لا كلاب ولا أولاد، من سيأكل هذا الدجاج والأرانب؟ من سيشرب كل هذا النبيذ؟ من سيرث كل هذا الصوف والأمشاط والحلوى؟ آه، يا سيدة مالاماتينا، ليسامحنى الرب؛ فكم أرغب أن أهجم الآن لآخذ هذه الأشياء الآن!

- انتظرى يا عزيزتى، لا تتعجلى، قــالت الســيدة مالاماتينا وقد شدت على ذراع رفيقتها؛ لقد خطرت ببالى فكــرة لابد أن أقولها لك، لكن انتظرى حتى تفيض روحها أولاً!

في هذا الوقت كانت المسكينة مدام أورتانس تبحث تحت وسادتها عن شيء، وكأنها تريد شيئًا. شدت من صندوقها بعد أن شعرت بالخطر صليبًا ذهبيًا مشغولاً على عظم لامع ووضعته تحت رأسها. كانت قد نسيته لسنوات طويلة محشورًا بين القمصان وخرقها المخملية البالية، كان في قاع الصندوق. وكأن الرب هو عقار يأخذه المرء عندما يمرض مرضًا شديدًا؛ عندما نعيش ونأكل ونشرب ونكون بصحة جيدة؛ لا نحتاج هذا العقار.

وجدت الصليب المشغول بعد أن نبشت الصندوق وألصقته على صدرها المبلل بالعرق.

- وراحت تردد بصوت خافت: يا إلهي... يا إلهي بحب وحنان وتقبل الصليب - عاشقها الأخير.

كان كلامها خليطًا بين اللغة اليونانية والفرنسية، لكنه كان مفعمًا بالحب والرقة. وشعر الببغاء أن نبرة صوتها قد تغيرت، فتذكر سهرات وليالي طويلة مضت فقفز من فرط فرحته:

- كانافارو! كانافارو! كان صوته قد تحشرج مثل صوت قرصان يصيح تحت لفح الشمس.

لم ينهض زوربا هذه المرة كي يكتم صوته، وكان ينظر بعطف إلى المرأة وهي تبكي وتقبل المسيح المصلوب ويفيض وجهها بعذوبة رغم الآلام.

فتح الباب ودخل العم أناغنوستى بحركة بهلوانية وهو يحمل قبعته في يده واقترب من المريضة وانحنى، ثم قال لها بندم:

- اغفرى لى يا مدام، سامحينى ليغفر لك الرب. اغفرى لى إذا كنت يومًا تحدثت إليك بشكل غير لائق، نحن بشر ونخطئ، سامحينى!

لكن المدام الآن كانت مستلقية فى هدوء، غارقة فى سكينة لا توصف، ولم تسمع العجوز أناغنوستى ولقد محيت كل عذاباتها، العجز والفقر، كل سخرية البشر ومرارة الوحدة، والأمسيات الحزينة أمام باب بيتها وهى تغسل الجوارب، وهى الباريسية المدللة المغوية التى كانت تلعب بقوى العالم الأربع على ركبتيها!

البحر عميق الزرقة، الأمواج يعلوها الزبد، السفن الحديدية تتهادى راقصة على سطح البحر، أشكال وألوان من الأعلام التى ترفرف على صواريها. الطيور والأسماك تشوى عليها وتأتى الفواكه مثلجة فى أطباق كريستالية، وتنطلق سدادات زجاجات الشمبانيا حتى السقوف الحديدية.

لحى سوداء وكستنائية ورمادية وشقراء، روائح أربعة أنواع مختلفة من العطور، عطر البنفسج، المسك، العنبر والكولونيا، تغلق أبواب الكبائن الحديدية وتشد الستائر السميكة وتضاء المصابيح الكهربية ومدام أورتانس تغمض عينيها على كل حياتها وعذاباتها.

آه! يا إلهى، هل كانت لحظات أم لم تكن...

تتنقل من ركبة إلى أخرى، تعانق سترات مطرزة بالذهب، وتحشر أصابعها فى لحى كثيفة حريرية. ماذا كانت أسماؤهم؟ لا تذكر، لا هى تذكر ولا حتى الببغاء؛ لا يذكر سوى كانافارو، لأنه كان أكثرهم كرمًا، وكان الاسم الوحيد الذى يستطيع نطقه؛ كل الأسماء الأخرى كانت صعبة ومعقدة، وهكذا نسيت وضاعت.

أخذت مدام أورتانس نفسًا عميقًا واحتضنت الصليب الذهبى بعنف وحماس.:

- راحت تدمدم بهذيان وهى تضمه إلى صدرها المتعرق المترهل. كانافارو... كانافارو يا حبيبى...

- إنها لا تدرك ما تقول، قالت العمة لينيو بصوت خافت.

لابد أنها رأت ملاكها وخافت... هيا نحل مناديلنا ونقترب.

- ألا تخافين من الرب، قالت السيدة مالاماتينا. هل سنندب عليها وهى حية:

- قالت العمة لينيو متذمرة، ألا ترين صندوق ملابسها والمحل فى الخارج والدجاج والأرانب التى فى الفناء، وتقولين انتظرى حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة، لا أقول لك إن من سيتحرك أولاً سيأخذ كل شىء!

قالت، ثم نهضت واقفة، وسارت الأخرى خلفها غاضبة. حلتا منديلى رأسيهما، حلتا العقد الأخيرة فى شعريهما الأبيض، ووقفتا على جانبى السرير. وراحت العمة لينيو تصيح نادبة بصوت ثاقب رفيع بعد أن أعطت إشارة البدء: بيييييييييييييييييييى

هب زوربا وأمسك بالعجوزتين من شعريهما وألقى بهما إلى الخارج:

- اخرسا أيتها البومتان العفنتان! صاح فيهما؛ إنها ما زالت حية، اذهبا إلى الجحيم!

- أيها العجوز الأحمق! صاحت السيدة مالاماتنيا وهى تعقد منديل رأسها. من أين جاءنا هذا العجوز المتطفل!

سمعت مدام أورتانس القبطانة العجوز هذه الصيحة المدوية، واختفت نظرتها الوجيعة، غرقت الفرقاطة والمشويات والشمبانيا واللحى المعطرة وسقطت ثانية على فراش الموت العفن، هنا على حافة العالم الأخيرة. حاولت أن تنهض كأنها تحاول الهروب، لكنها سقطت مرة أخرى وراحت تصيح بصوت خافت:

لا أريد أن أموت... لا أريد...

انحنى زوربا فوقها، ووضع يده على جبهتها المتقدة، وأبعد الشعر الملتصق عن وجهها، اغرورقت عيناه الكبيرتان.

- اهدئى يا سيدتى، تمتم؛ أنا هنا، زوربا، لا تخافى!

وفجأة عادت الرؤية من جديد مثل فراشة عملاقة وغطت الفراش بأكمله.

أمسكت المحتضرة يد زوربا، ومدت ذراعها ببطء ولفته حول عنقه بعد أن انحنى؛ وراحت شفتاها ترتعشان:

- كانافارو... كانافارو....

تدحرج تمثال المسيح من على الوسادة وسقط على الأرض فتهشم؛ وسمع صوت رجالي من الفناء.

- هيا ضع الدجاجة أقول لك، إن الماء يغلي!

فك زوربا ذراع مدام أورتانس من حول رقبته. نهض واقفًا؛ كان وجهه شاحبا. مسح عينيه بظهر كفه حيث كانت دموعه تسيل؛ ونظر إلى المريضة فلم ير شيئًا؛ فمسح عينيه مرة ثانية ورآها تهز قدميها المتورمتين وتلوى فمها واهتزت مرة ثم أخرى، وانزلقت الملاءات وبدت نصف عارية، كان العرق يغطي جسدها المنتفخ المتورم، وبدا لون جلدها شاحبًا.

أطلقت صرخة مثل طير يذبح؛ ثم ثبتت تمامًا، وبقيت عيناها الزجاجيتان مفتوحتين مرعوبتين.

قفز الببغاء إلى الطابق السفلي في قفصه وتشبث بقضبان القفص راح ينظر إلى زوربا الذي مد يده فوق السيدة وأغلق عينيها برقة لا توصف...

- هيا بسرعة يا أولاد، لقد فاضت روحها! صاحت النادبتان، واندفعتا نحو الفراش.

أطلقتا صيحة طويلة وراحتا تهزان جسدها من أعلى إلى الأمام والخلف، ضمتا قبضتيهما وأخذتا تضربان صدريهما؛ وهكذا شيئًا فشيئًا وفى هذا الطقس الجنائزى البليد حلت عليهما حالة الدوار والمرارة السحيقة، كسرتا قشرة الجوز وبدأتا أناشيد الرثاء:

-لا ينبغى ولا يليق بك أن يصبح فراشك فى بطن الأرض.....

خرج زوربا إلى الفناء؛ سيطر عليه البكاء لكن الخجل منعه من أن يبكى أمام النساء. أذكر أنه قال لى ذات مرة: «لا أخجل أن أبكى أمام الرجال، فنحن الرجال نفهم بعضنا، لكن إنه من العار أن تظهر دموعك أمام النساء؛ فلابد أن نبدو دائمًا شجعانًا؛ لأننا إذا بدأنا البكاء أمامهن، ماذا سيحدث لهن هؤلاء المسكينات؟ سيهلك العالم»

غسلوها بالنبيذ، فتحت العجوز صندوق الملابس وألبستها ملابس نظيفة، وألقت عليها زجاجة كولونيا أخذتها من الصندوق أيضًا؛ جاء ذباب الموت من البساتين المجاورة ووضع بيضه على خياشيمها وفى جوانب عينيها وعلى أطراف أصابعها.

بدأ الغروب يخيم على المكان. كانت السماء ناحية الغرب تبدو لطيفة، لون بنفسجى قاتم فوق السحب المحمرة محلاة بالذهب عند أطرافها كانت تغير من أشكالها بين الحين والآخر فتارة تأخذ شكل السفن، وتارة شكل البجع، وتارة شكل وحوش قطنية وخرق من حرير.

ومن خلال قضبان القصب فى الفناء كان يبدو البحر يهدر بعيداً وتتلاطم أمواجه متلألئة.

زوج من الغربان المكتنزة طارا من فوق شجرة تين وحطا على أرضية الفناء؛ غضب زوربا فأخذ حجراً وألقاه عليهما ليبعدهما.

فى الركن الآخر من الفناء تجمع رعاع القرية وقد أعدوا وليمة ضخمة. وضعوا فى الخارج مائدة المطبخ، بحثوا ووجدوا الخبز والأطباق والسكاكين والملاعق، أحضروا من القبو قنينة نبيذ كبيرة، طهوا ثلاث دجاجات، وراحوا الآن يأكلون بتلذذ ويشربون ويقرعون كئوسهم فى سعادة.

– ليغفر لها الرب! وليذب كل ما فعلت من ذنوب فى رحمة الرب!

– ويجعل كل عشاقها ملائكة يحملون روحها.

– قال مانولاكاس: انظر إلى العجوز زوربا، إنه يطارد الغربان! لقد صار أرملَ المسكين،

دعنا نناديه ليشرب على روح المرحومة! يا زوربا، تعال إلى هنا يا بن بلدتنا!

التفت زوربا. مائدة معدة، البخار يتصاعد من الدجاج المطهو، النبيذ فى الكؤوس، شباب قوى لفحته الشمس، بالمناديل الكريتية معقودة على رءوسهم، جالسين مستمتعين ممتلئين بالحيوية والشباب.

«زوربا، زوربا، همهم، تماسك يا رجل؛ إن الشدائد للرجال»

اقترب، شرب كأساً من النبيذ ثم اثنين فثلاثة كلاً على دفعة واحدة؛ أكل قطعة دجاج، كانوا يتحدثون إليه وهو لا يرد، كان يأكل ويشرب بنهم على عجل يشرب الكأس جرعة واحدة ويأكل لقمات كبيرة، صامتاً تماماً. لف وجهه نحو الغرفة حيث مرضت وكانت تحترق من الحمى ثم تخشبت وماتت فيها صديقته العجوز وهو يسمع التراتيل الجنائزية التى كانت تنبعث من النافذة المفتوحة ومن وقت لآخر كان يتوقف صوت النحيب والتراتيل ويسمع صوت عراك وفتح وغلق دواليب وأصوات خطوات تجرى بسرعة كما لو كانوا فى معركة؛ ثم تبدأ أصوات الندب والنحيب والتراتيل الجنائزية من جديد، رتيبة، حزينة ناعمة مثل طنين النحل.

كانت النادبتان تجريان فى أرجاء غرفة الميتة وتنحبان وتبحثان بجنون؛ فتحتا دولاباً صغيراً ووجدتا خمس أو ست ملاعق وقليلاً من السكر وصفيحة بن، وصندوقاً من الحلوى، والعمة لينيو اندفعت وخطفت الحلوى والبن، والعجوز مالاماتينا خطفت السكر والملاعق؛ اندفعت وخطفت قطعتين من الحلوى وحشرتهما فى فمها، وبدأت أناشيد النواح تخرج من فمها مكتومة ومخنوقة من خلال الحلوى:

- فلتسقط الزهور فوقك والتفاح تحت قدميك.....

دخلت امرأتان عجوزان أخريان إلى الغرفة، هجمتا على الصندوق ودستا يديهما داخله، خطفتا بعض المناديل ومنشفتين أو ثلاثة؛ ثم دستاها فى صدورهن، التفتتا نحو الميتة ورسمتا شارة الصليب.

رأت السيدة مالاماتينا العجوزتين تنهبان الصندوق فاستشاطت غضباً.

– أكملي أنت في التراتيل، وسألحقك بعد قليل! صاحت في العمة لينيو، ودست رأسها في الصندوق.

خرق من الساتان، روب بنفسجي باهت اللون، قمصان حمراء مهترئة، مروحة يد مكسورة، مظلة حمراء صغيرة، وفي القاع قبعة أدميرال مثلثة؛ كانت هدية منذ زمن بعيد. كانت ترتديها عندما تبقى وحيدة أحياناً وتتطلع إلى نفسها في المرآة بجدية وتؤدي التحية العسكرية.

اقترب أحد من الباب؛ انسحبت النساء العجائز، وراحت العمة لينيو تضرب صدرها وتصيح:

– ... لتكن أكاليل القرنفل ملفوفة حول عنقك.....

دخل زوربا؛ نظر إلى المرأة الميتة هامدة ساكنة في صفاء، شاحبة اللون يملؤها الذباب، وذراعاها متصلبان على صدرها وشريط بنفسجي حول عنقها.

«راح يفكر، حفنة من التراب، تجوع وتضحك وتضاجع! كتلة من الطين تبكي! والآن أي شيطان يأتي بنا إلى الحياة وأي شيطان يأخذنا منها؟»

بصق على الأرض؛ ثم جلس. لقد أكل وشرب وعادت إليه قواه.

في الخارج، في الفناء كان الشباب يستعدون للرقص؛ لقد جاء فانوريوس عازف الليرة، أزاحوا المائدة وصفائح الكيروسين وحوض الحمام وسلة الغسيل كي يفسحوا مكانًا للرقص؛ وبدأوا يرقصون.

وصل أعيان القرية، العم أناغنوستي بعصاه الطويلة المدببة وقميصه الأبيض ذي الأكمام الواسعة؛ كوندومانوليو البدين القذر؛ المدرس وهو يضع محبرة في حزامه وريشة خلف أذنه. لم يأت العجوز مافروأندوني؛ لقد هرب إلى الجبل.

– سعدت برؤيتكم يا شباب! قال العم أناغنوستي وهو يشير بيديه محييًا الجميع. جميل أنكم تستمتعون بوقتكم! تأكلون وتشربون، بارك فيكم الرب، لكن لا ترفعوا أصواتكم؛ لابد أن تخجلوا فإن الميت يسمع يا شباب!

راح كوندومانوليو يشرح:

– جئنا لنجرد ممتلكات المرحومة ونوزعها على فقراء القرية ولقد أكلتم وشربتم ولكن يكفي هذا! لا تهدموا المكان على أركانه وتجردوه من محتوياته! قال وهو يلوح بعصاه مهددًا.

خلف الثلاث أعيان ظهرت حوالي عشر من النساء حافيات وعاريات الرأس بشعور شعثاء وملابس مهلهلة وكل منهن تحمل كيسًا فارغًا تحت إبطها وسلة على ظهرها. اقتربن خلسة، خطوة خطوة وبصمت.

العم أناغنوستى التفت ورآهن واستشاط غضبه:

- أيتها الغجريات، صاح فيهن! ماذا تفعلن هنا يا جالبات النحس؟ إننا هنا نجرد كل شيء ونكتبه على الورق ثم بعد ذلك سنوزعه بالترتيب والعدل على الفقراء. هيا، ارجعن من حيث أتيتن، هيا، قبل أن أرفع عصاى وأنهال عليكن ضربًا!

نزع المدرس الحبارة من حزامه، فرد صفحة من الورق السميك واتجه نحو الدكان ليبدأ الجرد من هناك.

لكن فى هذه اللحظة سمع ضجيجًا هائلاً وصوت طرق صفائح وقدور وأدوات مطبخ وأصوات أكواب وفناجين تكسر، وكان كل هذا الضجيج يأتى من المطبخ.

هرع العم اناغنوستى وهو يهز عصاه. لكن فور أن وصل إلى هناك! عجائز ورجال وأطفال كانوا يهرولون من الباب ويقفزون من النافذة ومن فوق السياج ويحملون ما يستطيعون حمله وخطفه: مقلاة وقدور ووسائد وأرانب... البعض كان يخلع الأبواب والنوافذ ويحملها على كتفيه.

ميميكو أيضًا قد أخذ زوجًا من أحذية المرحومة وربطهما برباط وعلقها فى عنقه - تشعر وكأنه حمل المدام على عنقه وهرول، وقد بقى منها الحذاء فقط....

قطب المدرس حاجبيه وأعاد المحبرة إلى حزامه، طوى الورقة التى أخرجها دون أن ينبس بكلمة، ولملم كبرياءه المجروحة وخرج عبر الباب مغادراً.

العم أناغنوستى المسكين؛ راح يصرخ ويتوسل ويرفع عصاه:

- عار عليكم أيها الناس، إن الميت يسمع!

- هل أذهب وأجلب القس؟ قال ميميكو.

- أى قس أيها الأحمق؟ أجاب كوندومانوليوس غاضباً. إنها كانت أجنبية، ليست على ملتنا، ألم ترها كيف كانت ترسم شارة الصليب على صدرها؟ بالأصابع الأربع الكافرة! هيا نواريها فى التراب حتى لا تتعفن جثتها وتصيب القرية بالطاعون!

- لقد بدأت الديدان تظهر على جسدها، أقسم بالصليب! قال ميميكو وهو يرسم شارة الصليب.

العم أناغنوستى هز رأسه الصغير:

- وما الغريب فى هذا أيها الأحمق: ألا تعرف أن رأس الإنسان مملوء بالديدان منذ اليوم الذى يولد فيه، لكننا لا نراها؛ لكن الديدان عندما تشعر أن الجسد بدأ يتعفن، تخرج من ثقوبها - بيضاء بيضاء، مثل الجبن!

بدأت النجوم الأولى تظهر فى الهواء وترتعش مثل أجراس فضية؛ وراحت الأجراس تهتز وتقرع فى السماء.

نزع زوربا قفص الببغاء من فوق فراش المرحومة والطير اليتيم تكور في ركن في القفص؛ راح ينظر ويتطلع دون أن يفهم ماذا يجرى؛ وضع رأسه بين ريشه وانكمش.

ما إن حمل زوربا القفص حتى نهض الببغاء وراح يصيح، لكن زوربا مد يده ليسكته:

– قال له بدلال: اسكت، اسكت؛ تعال معى.

انحنى زوربا، نظر إلى الجسد الميت؛ ظل ينظر إليه بعضاً من الوقت، اختنق حلقه؛ راح ينحنى فوقها ويقبلها لكنه تماسك.

– همهم: الوداع.

أخذ القفص وخرج إلى الفناء ورأيته بطرف عينى واقتربت منه:

– قال لى بصوت خفيض وهو يمسك بذراعى. هيا بنا نغادر...

كان يبدو هادئًا ولكن شفتيه كانتا ترتعشان.

– هذا مصيرنا جميعًا... قلت، كى أواسيه.

انتظر يا زوربا، الآن يحملونها؛ انتظر لنرى... هل تحتمل؟

– أحتمل... أجاب مختنقًا.

وضع القفص على الأرض وعقد ذراعيه.

خرج من غرفة المرحومة العم أناغنوستى وكوندومانوليو بلا غطاء رأس وهم يرسمون شارة الصليب.

خلفهم كان أربعة شباب من الراقصين، وأعواد الزهور ما زالت خلف آذانهم، يبدون فى مزاج رائق، نصف ثملين، كانوا يحملون الباب الخارجى للمنزل من زواياه الأربع وفوقه كانت الجثة ممددة وخلفهم كان عازف الليرة حاملاً آلته بيده، وحوالى عشرة رجال فى مزاج رائع، كانوا لا يزالون يمضغون شيئًا فى أفواههم، وحوالى خمس أو ست نساء، كل منهن كانت تحمل قدور طهى أو مقاعد!

خرج ميميكو أخيراً، بالحذاء المهترئ معلقًا حول عنقه.

- قتلة! قتلة! قتلة! راح يصيح ويضحك.

هب نسيم ساخن، وبدأ البحر يصخب ويهدر؛ رفع عازف الليرة قوسه وصوته العذب الدافئ المرح انتشر فى الليلة الدافئة:

أيتها الشمس لمَ تتعجلين الغروب...

- هيا بنا! قال زوربا؛ لقد انتهى كل شىء.

ســرنا صامتين فى شوارع القرية الضيقة. كانت البيوت سوداء من الظلام، من وقت لآخر كنا نسمع كلبًا ينبح، ثورًا يخور. وراحت الريح تحمل لنا من بعيد مع الهواء الساخن مثل أمواج لعوب أنغام الليرة.

خرجنا من القرية وأخذنا الطريق نحو الشاطئ.

– قال زوربا، كى يقطع هذا الصمت المميت، ما هذه الريح؟ هل هى الريح الجنوبية؟

لكن زوربا كان يسير فى المقدمة يحمل قفص الببغاء كأنه يحمل فانوسًا فلم أجبه.

عندما وصلنا إلى شاطئنا، التفت إلى زوربا:

– هل أنت جائع؟ سألنى.

– لا، لست جائعًا يا زوربا.

– هل بك نعاس؟

– لا.

– ولا أنا. دعنا نجلس على الحصى؛ أريد أن أسألك شيئًا.

كنا متعبين، لكن لم تكن لدينا رغبة فى النوم. لم تكن لدينا رغبة أن نضيع مرارة هذا اليوم؛ النوم كان يبدو لنا هروبًا فى ساعة خطر؛ فكنا نخجل أن ننام.

جلسنا بالقرب من البحر؛ وضع زوربا القفص بين ركبتيه وظل لوقت طويل صامتًا.

ظهرت مجموعة من النجوم فوق الجبل، وحش ضخم بذيل حلزونى، وبين الحين والآخر كانت نجمة تنفصل عن هذا الجسد.

نظر زوربا إلى النجوم، وفمه مفتوح من الدهشة كأنه يراها لأول مرة.

- ماذا يجرى هناك! هممم.

بعد قليل اتخذ القرار وتكلم:

- أتستطيع أن تخبرنى يا سيدى؟ قال، وكان صوته يبدو رسميًا عميقًا فى هذه الليلة الحارة، أيمكنك أن تقول لى ماذا يعنى كل هذا؟ من الذى صنعه؟ لماذا صنعه؟ وفوق كل هذا، (كان صوته يزداد غضبًا ورعبا) لماذا نموت؟

- لا أدرى يا زوربا! أجبت، وخجلت كأننى سئلت عن أبسط الأشياء، وأكثرها أهمية، ولم أستطع لها إجابة.

- قال زوربا وقد جحظت عيناه. لا تعرف!

كانت قد جحظت عيناه فى ليلة أخرى عندما قلت له أننى لا أعرف أن أرقص.

صمت قليلاً ثم انفجر:

- إذن ما هى كل هذه الأكوام من الأوراق التى تقرؤها؟ لماذا تقرأ؟ إذا كانت الكتب والأوراق لا تقول هذا، فماذا تقول؟ وما الفائدة منها؟

- الكتب تحكى عن حزن وحيرة الإنسان الذى لا يستطيع أن يجيب عما تسأله يا زوربا، أجبته.

- وماذا أفعل بالحزن والحيرة؟ قال زوربا وهو يضرب الحصى بقدمه.

انتفض الببغاء فوراً، سمع الأصوات وراح يصيح:

- كانافارو! كانافارو! وكأنه يطلب المساعدة.

- قال له زوربا وضرب على القفص بيده. اخرس أنت أيضاً!

التفت نحوى مرة أخرى.

- أريد أن تقول لى من أين أتينا وإلى أين سنذهب. بربك كل هذه السنوات ذبلت فوق حكم سليمان وعصرت ثلاثة آلاف طن من الأوراق! بماذا خرجت من كل هذا؟

كان صوت زوربا محملاً بالألم وكانت أنفاسه تتقطع وهو يتكلم: آه لو كان بمقدورى أن أعطيه إجابة!

شعرت فى أعماقى أن السمو الذى يمكن أن يصل إليه الإنسان ليس هو المعرفة أو الفضيلة، ولا الخير أو النصر؛ لكنه شىء آخر أسمى، أكثر بطولة ويأسًا: الرعب والرهبة المقدسة وما هو أبعد من الرهبة المقدسة؟ عقل الإنسان لا يستطيع أن يصل إليها.

- قال زوربا بقلق. لا تُجب؟

جربت أن أجعل رفيقى يفهم ما هى الرهبة المقدسة:

- نحن ديدان صغيرة متناهية الصغر يا زوربا، أجبت، فوق ورقة شجر عملاقة. هذه الورقة هى الأرض؛ والأوراق الأخرى هى النجوم التى تراها تتحرك فى الليل ونزحف فوق هذه الورقة ونتفحصها بلهفة؛ نشمها ولها رائحة طيبة أو عفنة؛ نتذوقها؛ تؤكل؛ نضربها ويصدر منها صوت وتصرخ مثل شىء حى.

بعض الناس الذين لديهم الجرأة يصلون حتى حافة هذه الورقة؛ وعند حافتها ننحنى بآذان منصتة وعيون مفتوحة ونتطلع إلى أسفل نحو الفوضى، وتقشعر أبداننا.

نخمن كم أن الهاوية تحتنا مخيفة ونسمع من بعيد صوت الحفيف الذى يصدر من أوراق الشجرة العملاقة الأخرى ونشعر بالرحيق يداهمنا من جذر الشجرة وتنتشى قلوبنا وتحيا. وهكذا عندما ننحنى نحو الهوة نرتعد خوفًا. ومن تلك اللحظة يبدأ....

توقفت. أردت أن أقول: «فى تلك اللحظة يبدأ الشعر» لكن زوربا لن يفهمنى؛ فصمت.

– سأل زوربا بلهفة. لماذا توقفت؟ ماذا يبدأ؟

– .... يبدأ الخطر الكبير يا زوربا، قلت. البعض يصاب بالدوار ويهذى، والبعض يخاف ويصارع كى يجد إجابة تقوى قلبه ويقولون: «إله»؛ آخرون ينظرون عند حافة الورقة بهدوء وشجاعة ويقولون: «هذا يعجبنى».

فكر زوربا لبعض من الوقت؛ كان يحاول أن يفهم.

– قال أخيراً، أنظر فى كل لحظة إلى الموت؛ أنظر إليه ولا أخاف؛ لكن لم أقل أبداً، أبداً: هذا يعجبنى، أو أحبه. لا، لا أحبه ولا يعجبنى على الإطلاق! أنا لست حراً. لا أوافق!

صمت، لكن بسرعة صاح مرة أخرى:

– لا، لن أمد يد الموت إلى عنقى وأقول لها: «هيا، اذبحينى مثل الخروف، فأنا أريد أن أذهب إلى الجنة !»

بقيت صامتاً؛ ثم التفت ونظر إلى غاضباً.

– أنا لست حراً؟ صاح مرة أخرى.

لم أتكلم.

قل «نعم» عند الحاجة لتحول المحتوم إلى إرادة حرة - ربما هذا هو الطريق الإنسانى الوحيد للنجاة.

كنت أعرف هذا ولذلك لم أتكلم.

رأى زوربا أنه لم يعد لدى شىء لأقوله، فأخذ القفص ببطء، كى لا يوقظ الببغاء، وضعه بجوار رأسه وتمدد.

- طابت ليلتك يا سيدى، قال: كفى.

لم أستطع النوم ولم تكن لى رغبة فيه ولم أكن أفكر بشىء؛ كنت أشعر فقط أن فى هذه الليالى الحارة شيئًا، أو أحدًا ما ينضج بداخلى. كنت أرى وأعيش هذه المعجزة: أن أتغير. إنه ما يحدث دومًا فى قاع أنفسنا المظلم، يحدث الآن بوضوح، أمامى ويبدو مكشوفًا للغاية. كنت متقوقعًا على حافة البحر أراقب المعجزة.

بهت ضوء النجوم، أضاءت السماء، وفوق هذا الضوء ارتسمت مبتهجة الجبال والأشجار وطيور النورس وبزغ الفجر.

مرت عدة أيام؛ ارتفعت عيدان المحاصيل ومالت رؤوسها من ثقل الثمار؛ زيز الحصاد راح يحوم فوق أشجار الزيتون وينشر فى الهواء، راحت الحشرات تتلألأ فى الضوء وكان البخار يتصاعد من البحر.

تحرك زوربا فى صمت نحو الجبل فجراً، لقد كان تركيب المصعد الهوائى المعلق قد شارف على الانتهاء وتم تثبيت الأعمدة وشد الأسلاك الفولاذية وتركيب البكرات، وكان زوربا يعود من العمل ليلا منهكًا؛ يوقد النار ويطهو الطعام، ونأكل وكنا نتحاشى أن نوقظ التساؤلات الشيطانية فى داخلنا، ونتجنب الحديث فى أمور مثل الحب والموت والخوف.

لم نثر أبداً أى حديث حول الأرملة ولا عن مدام أورتانس، ولا حتى عن الرب. كنا ننظر بصمت إلى البحر.

ذات صباح، استيقظت واغتسلت؛ وكما لو أن كل العالم استيقظ وراح يتلألأ كعالم جديد؛ أخذت الطريق نحو القرية؛ على يسارى البحر هادئ ولونه قاتم؛ وعلى يمينى الحقول الذهبية وقد انتصبت عيدان القمح فيها ومررت على شجرة التين النبيلة، مليئة بالأوراق الخضراء وثمار التين الصغيرة ورحت أمر على عجل دون أن ألتفت نحو حديقة الأرملة، دخلت إلى القرية ورأيت الفندق الصغير الذى تيتم وصار مهجوراً؛ عارية غرفه من الأبواب والنوافذ والكلاب تمرح فى الفناء والغرف خاوية وقذرة. وفى غرفة المرحومة لا يوجد شىء، ولم يعد هناك فراش ولا صندوق ولا مقاعد؛ لقد نهبوا كل شىء، ولم يبق سوى خرقة مهلهلة فى أحد الأركان، وفردة من حذاء منزلى أحمر مهترئ، وما زالت تحتفظ بقالب قدم المدام بإخلاص؛ فردة الحذاء هذه كانت أكثر رحمة من قلوب البشر، فلم تنس حبيبها، تلك القدم المعذبة.

تأخرت في العودة، وكان زوربا قد أشعل الموقد ويستعد للطهي؛ وعندما رفع رأسه ورآني فهم على الفور أين كنت؛ فقطب حاجبيه. وبعد أيام عديدة، فتح قلبه مرة أخرى؛ وتكلم:

– قال وكأنه يريد أن يبرر نفسه: عندما أتألم يا سيدي؛ في كل مرة ينشطر قلبي؛ لقد أصبح قلبي مثخنًا بالجراح؛ لقد زاد الجراح وزاد على الألم ولم أعد أحتمل.

– لقد نسيت بوبولينا بسرعة يا زوربا، قلت بنبرة صوت حادة دون أن أقصد.

تضايق زوربا ورفع صوته:

– طريق جديد، صاح، خطط جديدة، لقد أقلعت عن تذكر الماضي، وعن سؤال السماء؛ ماذا يجري الآن، هذه هي اللحظة، هذا ما يعنيني. أقول: «ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ – إني نائم. – إذن نم جيدًا! – ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ – أعانق امرأة. – إذن احتضنها بقوة يا زوربا.– انس كل شيء، لا يوجد شيء في هذا العالم سوى أنت وهذه اللحظة، هيا!»

– عندما كانت تعيش بوبولينا، لم يشعرها أيّ كانافارو بالسعادة مثلما فعل زوربا العجوز. ستسأل لماذا؟ لأن كل الكانافاروهات الذين كانوا يقبلونها، في نفس اللحظة التي يقبلونها كانوا يفكرون في أساطيلهم وممالكهم ونياشينهم ونسائهم؛ لكن أنا؛ كنت أنسى كل شيء،

وتلك الحمقاء كانت تفهم هذا وتشعر به ولا توجد سعادة فى الحياة للمرأة أكثر من هذه! المرأة الحقيقية لابد أن تعرف أنها تستمتع أكثر بالسعادة التى تعطيها وليس بالسعادة التى تأخذها من الرجل.

انحنى ووضع الحطب فى النار؛ وقال بعد قليل:

- بعد غد سنفتتح المصعد الهوائى المعلق؛ أشعر أننى لا أطأ الأرض بقدمى، أشعر كأنى صرت هوائيًا، وأن أكتافى معلقة ببكرات!

- أتذكر يا زوربا الطعم الذى ألقيته إلى فى المقهى فى ميناء بريوس؟ إنك تصنع أفضل حساء فى العالم - وكانت الصدفة العجيبة - أن هذا هو طعامى المفضل؛ كيف عرفت هذا؟؟؟

هز زوربا رأسه:

- وأنى لى أن أعرف يا سيدى؟ هذا ما جاء فى رأسى حين رأيتك تجلس هادئًا منزويًا فى ركن المقهى وترتعش منحنيًا فوق كتابك - لا أدرى، ربما افترضت أنك تحب الحساء. لا أدرى هذا ما خطر على بالى.

صمت فجأة وراح يطرق السمع.

- انتظر، قال؛ يبدو أن أحدهم قادم!

صوت خطوات متعجلة ولهاث عميق لشخص يجرى وفجأة على ضوء النار المرتعش قفز أمامنا راهب بعباءته السوداء وبلا غطاء رأس، وبلحية نصف محروقة ونصف شارب. كانت رائحته كيروسين.

– مرحبًا بالأب زكريا! صاح زوربا! مرحبًا بالأب يوسف. لماذا تبدو فى هذه الحالة الرثة؟

سقط الراهب على الأرض بجوار النار؛ كان فكاه يصطفقان.

انحنى زوربا وغمز له بعينه.

– نعم، أجاب الراهب.

قفز زوربا فى الهواء فرحًا.

– أحسنت أيها الراهب! الآن ستذهب إلى الجنة، لكن هناك أيضًا ستحمل صفيحة من الكيروسين.

– آمين! همهم الراهب ورسم شارة الصليب.

– كيف حدث؟ متى؟ هيا احكِ لنا!

– لقد رأيت الملاك ميخائيل يا أخ كانافارو؛ وأعطانى الأمر: كنت فى المطبخ أنظف فاصوليا؛ كنت وحدى تمامًا، كان الباب مغلقًا، الكهنة يصلون صلوات المساء، والهدوء يخيم على المكان. رحت أنصت إلى الطيور التى تشبه الملائكة. كنت هادئًا تمامًا، فقد جهزت كل شىء وكنت قد ابتعت صفيحة من الكيروسين وخبأتها فى الكنيسة الصغيرة فى المقابر، تحت المذبح، حتى يباركها الملاك ميخائيل...

حسنًا، بينما كنت أنظف الفاصولياء وكانت فكرة الجنة تسيطر على عقلى: «يا إلهى أدخلنى الجنة، حتى لو ستجعلنى أنظف الخضراوات

فى مطابخ الجنة للأبد!» فى هذا كنت أفكر والدموع تسيل من عينى. وفجأة إذا بى أسمع صوت رفرفة أجنحة؛ فهمت، خفضت رأسى. وسمعت عندئذ صوتًا يجلجل: «يا زكريا، ارفع عينيك ولا تخف!» لكنى كنت أرتعش وسقطت على الأرض. «ارفع عينيك يا زكريا!» سمعت نفس الصوت مرة أخرى. رفعت عينى: قد فتح الباب، والملاك ميخائيل يقف عنده بالضبط كما هو مرسوم على بوابة محراب الدير: بأجنحة سوداء، وصندل أحمر، وخوذة ذهبية. لكنه لم يكن يحمل سيفًا، كان يحمل شعلة متقدة: «أهلاً يا زكريا ومد يده إلىّ شعرت أن يدى تحترق. لكن الملاك اختفى؛ رأيت فقط من الباب خطًا من النار فى السماء، كأن نجمًا سقط.

مسح الراهب العرق من على وجهه؛ صار وجهه شاحبًا. وراحت أسنانه تصطك كما لو أن حمى أصابته.

– قال زوربا: حسنًا، تمالك نفسك يا زكريا؛ أكمل أيها الراهب!

– فى تلك اللحظة كان الرهبان يخرجون من صلواتهم المسائية ويدخلون حجرة الطعام. ركلنى بقدمه رئيس الدير وهو يمر كما لو كنت كلبًا وضحك الرهبان، وأنا؛ لم أنطق بكلمة وكانت رائحة الهواء تعبق، ويأثر مرور الملاك؛ لكن أحدًا لم يشعر بها. جلسوا فى حجرة الطعام، «ألن تأكل يا زكريا؟ سألنى مسئول الطعام فى الدير» لم أجبه. «إنه يشبع من خبز الملائكة!» قال نوميتايوس اللوطى؛ ضحك الرهبان مرة أخرى. فنهضت من على المائدة وذهبت نحو المقابر؛ نزلت على ركبتى أمام الملاك فشعرت بثقل قدمه وهى تدوس على رقبتى ومرت الساعات كالبرق؛

هكذا تمر الساعات والقرون فى الجنة وعند منتصف الليل، خيم الهدوء، ونام الرهبان، وقفت ورسمت شارة الصليب وقبلت قدم الملاك. «لتكن مشيئتك!» قلت وأخذت صفيحة الكيروسين وفتحتها وكنت قد حشوت عباءتى بالخرق، وخرجت.

كان الظلام حالكًا ولم يظهر القمر بعد وكان الدير مظلمًا كالجحيم. ودخلت إلى الفناء وصعدت الدرج ووصلت حتى القاعة الرئيسية؛ سكبت الكيروسين على الباب والنوافذ والجدران وجريت نحو غرفة نوميتيوس وبدأت من هناك أسكب على الغرف فى الرواق الكبير - كما أخبرتنى. ثم دخلت إلى الكنيسة وأخذت شمعةً وأشعلتها من قنديل المسيح وأشعلت النار...

صمت الراهب وهو يلهث؛ كانت عيناه مليئتين باللهب.

- حمداً للرب، زأر ورسم شارة الصليب على صدره؛ فليتمجد الرب! فجأة اندلعت النيران فى الدير كله. وصحت بصوت عال «إلى نار الجحيم!» ورحت أجرى وجريت بأقصى سرعتى فسمعت صوت الأجراس تدق، والرهبان يصيحون، وأنا أجرى أجرى...

عندما طلع النهار. اختبأت فى الغابة وكنت أرتعش وعندما أشرقت الشمس وسمعت الرهبان يهرولون فى الغابة وينادوننى؛ لكن الرب ألقى على عيونهم غشاوة ولم يرنى أحد منهم. عند الغروب سمعت صوتًا يقول لى: «انزل نحو الشاطئ وارحل! فقلت: أيها الملاك، وجهنى».

صــرخت ورحت أجــرى فى الطريق ولم أكن أعــرف إلى أين أنا ذاهب، ولكن المــلاك كان يوجـهنى؛ تارة بومـيض، وتارة على شـكل طائر أسـود على الأشـجـار، وتارة على شكل درب هابط من الجبل. وأنا كنت أجرى خلفه بثقة وإيمان، إن رحمته كبيرة! إلى أن وجدتك يا كانافارو ونجوت.

لم يتكلم زوربا؛ لكن على وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة شيطانية وصلت من فمه حتى أذنيه الكبيرتين المشعرتين.

كان الطعام جاهزًا فأنزل القدر من على النار.

- سأله زوربا: ما طعام الملائكة يا زكريا؟

- الروح، أجاب الراهب وهو يرسم شارة الصليب.

- الروح، أى الريح بمعنى آخر أى؛ لا تشبع، هيا أيها المسيحى لتأكل خبزا وحساء السمك لتستعيد قواك؛ لقد أنجزت عملك على أحسن وجه، هيا لتأكل!

- قال الراهب: لست جائعًا.

- إن زكريا لا يشعر بالجوع، لكن ماذا عن يوسف؟ ألا يشعر هو أيضًا بالجوع:

- يوسف، قــال الراهب ببــطء، كما لو اكتشف ســرًا خـطـيرًا، لقد احترق يوسف اللعين، حمدًا للرب!

– احترق! صاح زوربا ضاحكًا. كيف؟ متى؟ هل رأيته؟

– لقد احترق يا أخ كانافارو في اللحظة التي أشعلت فيها الشمعة من قنديل المسيح. رأيته، بعيني هاتين وهو يخرج من فمي، مثل شريط أسود بأحرف من نار؛ سقطت على شعلة الشمعة ثم تقوقعت مثل ثعبان وصارت رمادًا. لقد انزاح من على قلبي حمل ثقيل، حمدًا للرب. أظن أنني في الجنة بالفعل.

نهض من مكانه بجوار النار حيث كان قابعًا متقوقعًا.

– سأذهب لأنام على الشاطئ؛ عندي أمر بذلك.

ذهب نحو الشاطئ واختفى في ظلام الليل.

– ستحمل ذنبه في عنقك يا زوربا، قلت؛ إذا وجده الرهبان، سيهلك.

– لن يجدوه، لا تكل همًا يا سيدي؛ فأنا أعرف هذه الألاعيب جيدًا وغدًا في الصباح الباكر سأحلق له لحيته وأعطيه ملابس أخرى مما يلبسها البشر وسألقي به في أي سفينة مبحرة. لا تقلق يا سيدي. فهذا أمر تافه... هل الحساء جيد؟ كل طعام البشر بشهية ولا تقلق.

– أرأيت؟ مات الشيطان الذي كان بداخله. والآن أفرغ نفسه منه؛ صار فارغًا! انتهى المسكين، لقد صار مثل الآخرين.

فكر للحظة ثم قال فجأة:

– هل تظن يا سيدي أن هذا الشيطان كان...

– بالتأكيد، أجبت. لقد سيطرت عليه فكرة حرق الدير؛ حرقه وهدأ. هذه الفكرة هي التي كانت ترغب في أن تأكل اللحم وتحتسي النبيذ وأن تتحول وتنضج لتصبح فعلاً، زكريا الآخر، لم تكن لديه حاجة للنبيذ واللحم؛ فهو كان يتحول وينضج بالصيام.

قلب زوربا الأمر في رأسه مراراً وتكراراً.

– آه؛ أظن أنك على حق يا سيدي، قال؛ أظن أن بداخلي أنا أيضًا خمسة أو ستة شياطين!

– كلنا لدينا يا زوربا، لا تخف. وكلما زاد عدد الشياطين بداخلنا كان هذا أفضل. لكن بشرط هام؛ أن يكون لهم هدف واحد وإن أرادوا أن يصلوا إليه من طرق مختلفة.

هذه الكلمات أصابت زوربا بالاضطراب، فوضع رأسه بين ركبتيه وراح يفكر.

– أي هدف؟ سأل أخيراً وهو يرفع عينه.

– لا أدري يا زوربا، إنك تسألني سؤالاً صعبًا، ماذا أقول لك؟

– اشرح لي بكلمات بسيطة كي أفهم؛ فأنا تركت كل شياطيني حرة ترتع وتفعل ما تشاء، وتسلك أي طريق شاءت ولهذا يقول البعض أني أحمق وآخرون يقولون عني أمين أو مجنون والبعض الآخر يصفني بأنني حكيم مثل سليمان، وأنا كل هذا وربما أكثر من هذا ولكن هذه سَلَطَة روسية؛ اشرح لي إذن إن استطعت؛ أي هدف؟ أي غاية؟

– أظن يا زوربا، لكنى ربما أكون مخطئًا، أن البشر ثلاثة أنواع: هناك نوع من البشر غايتهم أن يعيشوا، أو كما يقولون يقضون حياتهم؛ يأكلون ويشربون ويضاجعون ويجمعون المال ويبحثون عن المجد... ثم هناك نوع آخر غايتهم ليست حياتهم هم، بل حيوات الآخرين؛ يشعرون أن كل البشر واحد ويكافحون كى يبصروهم وينيروا دربهم ويحبوهم بقدر ما يستطيعون. وهناك النوع الأخير من البشر وغايتهم هى أن يعيشوا حياة الكون؛ كل الكون بما فيه من بشر وحيوانات ونباتات ونجوم، وكلنا فى النهاية شىء واحد، مصنوعون من مادة واحدة والكل يكافح فى هذا الصراع المرعب؛ أى صراع؟ أن نصل بهذه المادة وننضج بها لتصبح روحًا.

حك زوربا رأسه:

– أنا رجل غليظ الرأس بطىء الفهم، فلا أفهم هذه الأشياء بسهولة....

آه يا سيدى، آه لو كنت تستطيع أن تشرح لى هذه الأمور بالرقص!

عضضت على شفتى يائسًا؛ كم كنت أتمنى لو كنت أستطيع أن أرقص كل هذه الأفكار والتأملات البائسة!

أو لو كنت تستطيع يا سيدى أن تقول لى كل هذه الأفكار على شكل حكايات – كما كان يفعل حسين أغا – هذا الرجل كان جارًا لى من الأتراك؛

عجوزًا جداً وفقيراً جداً وليس متزوجًا فلا زوجة له ولا أولاد وكانت ملابسه بالية لكن نظيفة؛ كان يغسلها بنفسه ويطهو وينظف، وعند الغروب في بيته كان يجلس في الفناء مع جدتي والنساء العجائز من جيرانه ويحيك الجوارب.

حسين أغا كان رجلا فاضلاً مثل قديس؛ ذات يوم وضعني على ركبتيه ووضع يده على رأسي كأنه يباركني:

يا أليكسيس، قال لي، سأقول لك سراً؛ أنت صغير ولن تفهمه؛ لكن عندما تكبر ستفهمه. اسمع يا بني: إن طبقات السماء السبع وكذلك طبقات الأرض السبع لا تتسع للرب؛ لكن قلب الإنسان يتسع له. لهذا، انتبه يا أليكسيس يا بني، بارك الله فيك، ألا تجرح قلب إنسان أبدًا!

كنت أسمع زوربا في صمت. كم أتمنى لو أن لدى المقدرة ألا أفتح فمي إلا عندما تصل الفكرة المجردة إلى أعلى قمة لها وعندما تصبح حكاية! كل هذا لا يقدر عليه سوى شاعر كبير، أو شعب بعد قرون عديدة من الحرث الصامت.

وقف زوربا.

– سأذهب لأرى رفيقنا قاذف النار. سآخذ له لحافًا أغطيه به كي لا يصاب بالبرد. سآخذ معي مقصاً، سنحتاجه.

ضحك.

– قال: عندما سيصبح البشر بشراً؛ اسماً على مسمى، سيكون لزكريا مكانٌ بجوار العصافير!

أخذ البطانية والمقص واتجه نحو الشاطئ وقد ظهر القمر غير مكتمل، فألقى بضوء باهت وحزين على الأرض.

وحيد، بجوار النار والمدفأة ورحت أزن كلمات زوربا – مليئة بجوهر وطين الإنسان ورائحته وثقله – كلماته تصعد من أحشائه وتحتفظ دوماً بدفء الإنسان الداخلي. كلماتي كانت ورقية، تنزل من الرأس ملطخة فقط ببقعة من الدم؛ وإن كانت لها قيمة، فهذه القيمة تكتسبها من بقعة الدم هذه.

استلقيت على بطني ورحت أقلب الجمر، لكن زوربا دخل فجأة مذهولاً وذراعاه يتأرجحان بجواره.

– قال: يا سيدى، لا تفزع...

نهضت واقفاً.

– الراهب مات.

– مات؟!

– وجدته مستلقياً فوق صخرة، تحت ضوء القمر، ركعت ورحت أقص له لحيته وشاربه. وهو رغم ذلك لم يتحرك أبداً؛ فأخذت أحف من شعره؛ لابد أننى قصصت نصف رطل من الشعر. إلى أن تملكنى الضحك!

«رحت أناديه، يا سنيور زكريا، ثم هززته، هيا قم لترَ معجزة العذراء!» لكنه لم يتحرك وهززته مرة أخرى، لا شيء! لا يمكن أن يكون قد مات هذا البائس؟! فكرت وفتحت عباءته، عريت صدره، وضعت يدى على قلبه لأسمع دقاته؛ لا شيء! هدوء تام. لم تعد الآلة تعمل.

أذهل الموت زوربا للحظة، لكنه سرعان ما استعاد حيويته وذاب الذهول فى الهواء.

– الآن ماذا سنفعل يا سيدى؟ أنا أقول أن نحرقه. من قتل بالكيروسين، يقتل بالكيروسين. ألا يوجد فى الإنجيل شىء كهذا إن عباءته مشبعة بالكيروسين والقذارة، سيشتعل مثل دمية يهوذا فى الخميس المقدس.

– قلت منزعجًا: افعل ما شئت.

وغرق زوربا فى التفكير.

– هذا شىء مزعج، قال زوربا، مزعج للغاية... إذا أحرقته عباءته ستصبح كالشعلة، لكنه نحيف هذا البائس؛ جلد على عظم، سيتأخر كثيراً حتى يصير رماداً؛ ليس به شحوم على الإطلاق كى يساعد النار على الاشتعال...

هز رأسه.

– لو أن هناك ربًا، قال، لكان سيتوقع ما سيحدث له وكان صنعه بدينًا، وكسا جسده بشحومات كثيرة، لو كان هذا، لأنقذنا الآن!

– لا تخلط الأمور يا زوربا؛ أقول لك وافعل ما تشاء، لكن افعله بسرعة.

– الأفضل أن تخرج معجزة من كل هذا وأن يعتقد الرهبان أن الرب صار حلاقًا ثم قتله، لأنه حرق الدير...

حك رأسه مرة أخرى.

– لكن أية معجزة؟ أى معجزة؟ ما الحل الآن؛ ماذا أنت فاعل يا زوربا.....

أوشك القمر الصغير على الغروب؛ لقد نزل فى الأفق ولامس خط اتحاد البحر مع السماء. كان لونه ذهبيًا مائل للحمرة مثل نحاس يحترق.

كنت منهكًا، تمددت وعندما استيقظت فى الصباح، رأيت زوربا يجلس بجوارى ويصنع القهوة.

كان لونه شاحبًا؛ وعيناه منتفختان محمرتان جداً من السهر. لكن شفتيه الغليظتين كانتا تبتسمان فى مكر.

– لم أنم يا سيدى طوال الليل؛ كنت أعمل.

– أى عمل يا وغد؟

– كنت أصنع المعجزة.

ضحك. ووضع إصبعه فى فمه.

– لن أخبرك! غداً افتتاح المصعد الهوائى المعلق؛ سيأتى القساوسة السمان ليباركوا؛ وعندها سوف تسمع عن المعجزة الجديدة للعذراء المنتقمة، جلّت فى عظمتها.

صب لى القهوة.

– أنا أصلح أن أكون رئيس دير يا صاح، قال. إذا فتحت ديراً، أراهنك أننى سوف أغلق جميع الأديرة وآخذ كل زبائنهم وأحتكر السوق. أتريد دموعًا؟ إسفنجة مبللة وكل الأيقونات ستبكى وتدمع؛ أتريد رعداً؟ سأضع آلةً تحت المذبح تصدر هديراً؛ أتريد أشباحًا؟ طوال الليل سأجعل اثنين من الرهبان المخلصين يحلقون فوق أسطح الدير وفوقهما الملاءات. وسوف أجمع كل العرجان والمكفوفين والمقعدين من كل قرية ليؤكدوا أنهم قد شفوا ويقفزون من الفرح ليرقصوا...

لا تضحك يا سيدى! كان أحد أعمامى قد وجد بغلاً عجوزاً على وشك الموت؛ تركوه فى العراء ليموت. أخذه عمى، كان يخرج به للمرعى كل صباح ويعود به إلى البيت فى المساء.

«ماذا تفعل بهذا البغل العجوز يا عم خارالامبو، كان يقول له القرويون، إنه مصنع للروث!» كان عمى يجيبهم. أنا سأفتح ديراً يا سيدى، وسيكون مصنعاً للمعجزات.

عشية الأول من مايو ستبقى محفورة فى ذاكرتى طيلة حياتى. المصعد الهوائى المعلق كان جاهزاً، الأعمدة والأسلاك الفولاذية والبكرات تلمع تحت شمس الصباح وأكوام من جذوع أشجار الصنوبر عند قمة الجبل والعمال كانوا ينتظرون أن يعلقوها على السلك ويطلقوها لتتدحرج إلى الشاطئ.

علم يونانى كبير كان يرفرف عند قمة الجبل وآخر عن سفحه قريباً من الشاطئ. فى فناء الكوخ، أعد زوربا برميلاً من النبيذ وكان أحد العمال يشوى خروفًا سمينًا على السفود ليقدم مع النبيذ إلى المدعوين الذين سيأتون للتهنئة بالافتتاح وتمنى الازدهار.

وضع زوربا قفص الببغاء خارج الكوخ وثبته على صخرة عالية بالقرب من أحد الأعمدة.

– كما لو أنى أرى سيدته، همهم وهو ينظر برقة إلى الببغاء وأخرج من جيبه حفنة من الفستق وراح يطعمه.

كان زوربا يرتدى أفضل ما لديه، قميصاً أبيض مفتوحاً وفوقه سترة رمادية وبنطالاً أخضر وحذاءً جديداً ذا حواف مطاطية؛ بدأت الصبغة تبهت على شواربه فوضع عليها الزيوت المعطرة.

ومثـل نبيل عظيـم راح يسـتقبل النبلاء من الأعيان ويشـرح لهم كيف سيعمل المصعد الهوائى المعلق وكيف سيجلب أرباحًا طائلة للقرية، وكيف ألهمته العذراء المقدسة لينفذه بهذه الدقة.

- وأخذ زوربا يشـرح: هذا المشروع، هو مشروع عظيم؛ فلابد أن تجد الزاوية الصحيحة والانحدار الصحيح - إنها عملية علمية معقدة! لقد أخذ منى الأمر شهوراً طوالاً وأنا أحاول أن أصل إلى نتيجة. فكما يبدو أن عقل الإنسان يعجز أمام الأعمال العظيمة، فهى تحتاج إلى إلهام إلهى، ورأتنى العذراء فى هذه المحنة العصيبة وأسفت لحالى: آه كم أنت مسكين يا زوربا؛ قالت، كم هو إنسان طيب، فهو يريد الخير لهذه القرية، سوف أساعده. وها هى المعجزة!

صمت زوربا ورسم شارة الصليب ثلاث مرات.

- يا لها من معجزة! ذات ليلة جاءتنى فى المنام امرأة تتشح بالسواد وكانت العذراء، قدس الله مقامها، قدس الله مقامها! وكانت تمسك فى يدها نموذجًا مصغرًا جدًا للمصعد الهوائى المعلق «وقالت، يا زوربا، أحضرت لك التصميم من السماء؛ ها هو، وها هى زاوية الانحدار، حلت عليك بركاتى!» قالت؛ واختفت؛ وثبت من فراشى، وركضتُ إلى حيث كنت أجرى تجاربى - وماذا رأيت؟ لقد صار الحبل فى مستوى الانحدار الصحيح وتفوح منه رائحة البخور؛ بالتأكيد قد لمسته يد مريم العذراء المقدسة!

فتح كوندومانوليو فمه ليسأل، لكنّ أربعة رهبان يمتطون البغال ظهروا عند الدرب الحجرى؛ كان أمامهم راهب يهرول ويحمل صليبًا خشبيًا على كتفه. كان يصيح؛ دون أن نميز ما كان يقوله صائحًا.

سُمِعَت تراتيل، كان الرهبان يحركون أيديهم، يرسمون شارة الصليب، والحجارة تحت حوافر بغالهم تقدح شررًا.

وصل الراهب الذى كان يسير على قدميه والعرق يتصبب منه؛ رفع الصليب عاليًا وصاح:

- أيها المسيحيون، المعجزة! أيها المسيحيون، المعجزة! لقد أحضر الرهبان العذراء... اركعوا واتلوا الصلوات!

هرول القرويون متأثرين - أعيانًا وعمالاً - تحلقوا حول الرهبان ورسموا شارة الصليب وكنت أقف على مقربة؛ نظر إلى زوربا وكانت عيناه تشع بريقًا.

- اقترب يا سيدى، قال لى، اقترب لتسمع معجزة القديسة العذراء.

اسمعوا أيها المسيحيون. معجزة إلهية! اسمعوا أيها المسيحيون. لقد سيطر الشيطان على روح زكريا الملعون وجعله ليلة أمس يسكب الكيروسين ويشعل الحريق فى الدير، رأينا النيران تشتعل فى طرقات الدير والغرف فى منتصف الليل. قرعنا الأجراس، صرخنا: «أيتها العذراء المنتقمة ساعدينا!» وجرينا بجرات المياه نحاول إخماد النار، مجد الرب العذراء المقدسة!

ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة حيث أيقونتها الخارقة وركعنا: «أيتها العذراء المنتقمة، دعونا، ارفعي رمحك واضربي المجرم!» تجمعنا في الفناء واكتشفنا غياب زكريا، يهوذا. «هو الذي أحرقنا، نعم هو!» رحنا نبحث عنه طوال اليوم ولم نجده؛ بحثنا طوال الليل ولم نجده، واليوم عند الفجر ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة؛ وماذا رأينا أيها المسيحيون؟ معجزة إلهية! كان زكريا مستلقٍ تحت قدمي العذراء جثة هامدة؛ وعلى طرف رمح العذراء بقعة دم كبيرة.

– ارحمنا أيها الرب! الرحمة أيها الرب! همهم القرويون وجثوا راكعين يتلون الصلوات.

– ثم الأكثر رعبًا تابع الراهب قائلاً وهو يبلع لعابه وعندما انحنينا لنرفع المجرم الملعون، تسمرنا في أماكننا وأفواهنا فاغرة: لقد قصت العذراء شعره وشواربه ولحيته – مثل كاهن أجنبي!

التفت بسرعة نحو زوربا محاولاً أن أكتم ضحكي:

– آه أيها الوغد، قلت له بصوت خفيض.

لكن زوربا راح ينظر إلى الراهب بعينين جاحظتين ورسم شارة الصليب أكثر من مرة بقنوت.

– قال مهمهمًا: عظيم أنت، عظيم أنت أيها الرب، كم هي عظيمة كل أعمالك ومعجزاتك.

في هذه اللحظة وصل الرهبان، ترجلوا من على بغالهم والراهب المضيف كان يحمل الأيقونة الخارقة بين يديه ووقف على صخرة وجرى الجميع وراحوا يركعون أمام الأيقونة وفي الخلف كان ذيوماتيوس السمين يحمل صينية يجمع التبرعات ويرش ماء الزهر على جباه القرويين؛ وحوله ثلاثة رهبان واقفين يعقدون أيديهم المشعرة على بطونهم وراحوا يرتلون وهم يتصببون عرقًا.

– سندور على قرى كريت، قال ذيوميتيوس السمين كي يصلي المؤمنون ويتبرعون بما تلهمهم به العذراء... لابد أن نجمع المال لنعيد بناء الدير المقدس...

– غمغم زوربا: المحتالون! سيربحون من وراء كل هذا.

اقترب من رئيس الدير:

– أبانا، بعد إذن قداستك، قال، كل شيء جاهز لندشن مشروعنا؛ هلا باركته؟!

صارت السماء عمودية، واشتدت الحرارة، ولم تكن هناك نسمة هواء.

وقف الكهنة حول العمود الأول الذي يرتفع عليه العلم اليوناني؛ جففوا عرقهم بأكمامهم الواسعة وبدأوا بإنشاد تراتيل المباركة «أساس البناء»:

«أبانا الذي في السماء، إلهنا، لتقم هذه الآلة على أسس متينة، لا تهزها رياح ولا تجرفها مياه...».

وراحوا يرشون الماء المقدس من الإناء النحاسى على الأعمدة والأسلاك والبكرات وعلى زوربا ثم أنا وبعد ذلك على القرويين والعمال والبحر.

بعد ذلك رفعوا الأيقونة كما لو كانت سيدة مريضة ووضعوها على صخرة عالية بجوار البيغاء ووقفوا حولها ليشاهدوا الافتتاح بإعجاب. فى الناحية الأخرى وقف الآخرون وفى المنتصف كنت أنا وزوربا؛ تنحيت جانبًا بجوار البحر وانتظرت.

كانت التجربة ستنفذ بثلاثة جذوع من أشجار الصنوبر فقط تبركًا بالثالوث المقدس؛ لكن احتفاءً بالعذراء المنتقمة وتمجيدًا لها، وضعوا جذعًا رابعًا.

الجميع رسموا شارة الصليب؛ الرهبان والقرويون والعمال:

- باسم الرب والعذراء! تمتموا.

وبقفزة واحدة كان زوربا عند العمود الأول وشد الحبل وارتفع العلم؛ كانت تلك هى الإشارة التى ينتظرها العمال فوق الجبل وتراجعنا كلنا ورفعنا أبصارنا نحو قمة الجبل.

- صاح رئيس الدير. باسم الرب!

الذى حدث بعد ذلك لا يوصف؛ حلت الكارثة كالرعد، ونجونا بأعجوبة. اهتز الخط الهوائى بأكمله؛ الجذع الذى وضعه العمال على

السلك الفولاذى راح يهبط بسرعة خرافية، قدح الشرر وتطاير فى الهواء، وفى لحظات معدودات وصل إلى أسفل ولم يتبق منه سوى قطعة خشب محروقة.

نظر إلى زوربا مثل كلب مضروب يملؤه الخزى؛ تراجع الرهبان والقرويون، والبغال المقيدة كانت تحاول المشى وتركل ذيوماتيس السمين فسقط على الأرض:

- ارحمنى يا إلهى! غمغم مرعوباً.

رفع زوربا يده.

- لم يحدث شىء، قال، هكذا عادةً مع أول جذع فقط؛ الآن ستعمل الآلة بشكل جيد؛ انظروا!

رفع العلم، أعطى الإشارة وابتعد مهرولاً.

- وباسم الابن! صاح مرة أخرى رئيس الدير بصوت مرتعش.

انطلق الجذع الثانى؛ اهتزت الأعمدة وانطلق الخشب، وراح يتراقص مثل دولفين، كاد أن يسقط فوقنا لكنه لم يصل أبداً، لقد تهشم وانتثرت أجزاؤه عند الجبل.

- اللعنة على هذا! همهم زوربا وهو يعض على شاربيه؛ زاوية الانحدار ليست صحيحة.

قفز غاضبًا نحو العمود وأنزل العلم وأعطى الإشارة مرة أخرى؛ راح الرهبان خلف البغال يرسمون شارة الصليب؛ وكان القرويون يقفون في وضعية الاستعداد للهرب.

– قال رئيس الدير لاهثًا وهو يلملم عباءته. وباسم الروح القدس!

الجذع الثالث كان جذع شجرة صنوبر ضخم؛ وفور انطلاقه أصدر هديرًا هائلاً.

– صاح زوربا وهو يهرب. انبطحوا أيها الناس!

انكبّ الرهبان على بطونهم، والقرويون هرولوا هاربين.

طار جذع الشجرة بسرعة خارقة من فوق الأسلاك، أصدر شرارًا، لكن قبل أن نتمكن من رؤيته، كان قد طار من الجبل نحو الشاطئ وقفز في البحر بعيدًا مخلفًا رغوة هائلة، وأعمدة كثيرة مالت وترنحت؛ وقطعت البغال الحبال وهربت.

– هذا لا شيء! لم يحدث شيء! أخذ زوربا يصيح غاضبا؛ الآن ستنضبط الآلة، هيا!

رفع العلم مرة أخرى؛ كنت تشعر بمدى إحباطه ومدى تعجله ليرى نهاية كل هذا.

– وباسم العذراء المنتقمة، قال رئيس الدير متلعثمًا وهو يختبئ خلف الصخرة.

انزلق الجذع الرابع؛ سُمع صوت انكسار مدوٍّ! ثم سُمع مرة ثانية! وبعدها انهارت كل الأعمدة الواحد تلو الآخر مثل أوراق اللعب.

- ليرحمنا الرب! ليرحمنا الرب! صاح القرويون والعمال والرهبان وهم يهمون بالهرب.

جرحت شظية فخد ذيوماتيس، وشظية أخرى كادت أن تفقأ عين رئيس الدير واختفى القرويون، ولم يبقَ سوى أيقونة العذراء منتصبة فوق الصخرة بالرمح فى يدها تنظر بحدة نحو البشر، وبجوارها الببغاء المسكين، يرتعش وقد انتفش ريشه الأخضر.

أخذ الرهبان أيقونة العذراء ورفعوا ذيوماتيس الذى كان يئن من الألم، وجمعوا بغالهم، وامتطوها مغادرين، أما العمال الذين كانوا يشوون الخروف على السفود فقد فروا وتركوا اللحم يحترق.

- سيتفحم الخروف! صاح زوربا وجرى ليُقلبَه.

جلست بجواره، الآن لم يبقَ أحد على الشاطئ، فقد كنا وحدنا تماماً. التفت ونظر إلى بتردد وريبة... لم يكن يعلم ماهو وقع الكارثة على، إلى أين ستأخذه هذه المغامرة؟ انحنى ثانية فوق الخروف، أخذ السكين، وقطع قطعة من اللحم وتذوقها، رفع الخروف من على النار ووضعه أمامه.

- قال: طيب. لذيذ يا سيدى! هل تريد قطعة؟

- أحضر النبيذ والخبز، لقد جعت.

قفز زوربا بسرعة ودحرج برميل النبيذ بجوار الخروف، وأحضر رغيف خبز كبير وكأسين، وأخذ كل منا سكينًا، وقطعنا شريحتين من اللحم والخبز ورحنا نأكل ونأكل بنهم.

- قال زوربا: أرأيت كم هو لذيذ يا سيدى؟ شهى. فالمرعى هنا جيد ولا يجعل الغنم مليئة بالدهون، عندما تأكل الحيوانات عشبًا جافًا يصير لحمها شهيًا. لم آكل لحمًا شهيًا كهذا فى حياتى إلاَّ مرةً واحدة. كان ذلك فى زمن كنت أحمل فيه أيقونة القديسة صوفيا التى غزلتها بشعرى حجابًا... كان ذلك منذ زمن بعيد!

- أكمل، قل!

- إنها حكايات قديمة يا سيدى! نعرات يونانية مجنونة!

- تابع يا زوربا، فأنا تعجبنى هذه الحكايات!

- حسنًا، كان البلغاريون قد حاصرونا، وقد حل الليل، كنا نراهم حولنا على الجبال يشعلون النار ويطرقون الطبول ويصرخون كالذئاب لإرهابنا وكان عددهم حوالى ثلاثمائة؛ وكنا ثمانية وعشرين، والقبطان روفاس - رحمه الله، إذا كان قد مات! - قائدنا.

- يا زوربا، قال لى، ضع الخروف على السفود!

- سيصبح شهيًا جدًا يا قبطان، قلت إذا شويناه فى الحفرة.

- افعل ما تشاء؛ لكن بسرعة؛ فقد أصابنا الجوع!

حفرنا حفرة ووضعت الخروف وفوقه الكثير من الفحم، وأخرجنا الخبز من حقائبنا، وجلسنا فى دائرة.

- قال القائد روفاس: ربما تكون هذه وجبتنا الأخيرة؛ هل ثمة من هو خائف؟

ضحكنا كلنا؛ فلم يكن بمقدور أحد أن يجيب. وجئنا بالنبيذ.

- نخبك أيها القائد؛ لتكن طلقاتنا صائبة!

شربنا كأسًا تلو أخرى، أخرجنا الخروف ولم آكل فى حياتى أطيب منه، وما زلت أتذكره ويسيل لعابى، كان اللحم طريًا يذوب فى الفم! ارتمينا عليه جائعين والتهمناه.

- قال القائد: لم أذق فى حياتى لحمًا أطيب منه! ليكن الرب معنا!

ثم شرب كأسه جرعة واحدة، ولم يكن يشرب أبدًا. وقال:

- غنوا، أغنية جبلية كالتى يغنيها لصوص الجبال! احذروا. فهؤلاء على الجبال يصيحون مثل الذئاب، أما نحن فسوف نغنى كالبشر. هيا....

شربنا بسرعة؛ واشتعل الغناء؛ وراح الصدى يرن فى الوديان:

«لقد شبت يا أولاد... أربعون عامًا لصًا فى كل واد»

ليعد علينا بالخير هذا الضحك يا شباب، قال القائد، هيا يا أليكسيس؛ ألقِ نظرة على هذا الخروف... ماذا يقول لنا؟

رحت أكشط بالسكين ظهر الخروف، حتى لامست النار.

- لا أرى شيئًا يا قائد؛ لا أرى موتًا وسننجو هذه المرة أيضًا على ما أظن.

- ليسمع منك الرب؛ قال أحد الشباب الذى كان قد تزوج حديثًا؛ علّنى أتمكن من أن أنجب ولدًا، ثم أتبع؛ فليكن ما يكون!

قطع زوربا قطعة لحم من جانب الخروف:

- إن هذا الخروف طيب أيضًا وشهى، قال، لا يختلف كثيرًا عن ذاك.

- صب لنا النبيذ يا زوربا لنشرب كأسينا جرعة واحدة!

قرعنا كأسينا، شربنا. كان نبيذًا كريتيًا من معصر شهير، قاتمًا مثل دماء الخيل؛ تشربه وتشعر كأنك تشرب دماء الأرض وتشفى. وتتدفق من عروقك القوة ومن قلبك الخير؛ إذا كنت جبانًا تصبح شجاعًا، إذا كنت شجاعًا تصير وحشًا! تنسى تفاهات الدنيا، وتكسر كل الحواجز، تتحد مع البشر والحيوانات والرب وتصبحون واحدًا.

- هيا نكشط نحن أيضًا ظهر الخروف كى نرى حظنا، قال. هيا، اكشط النبوءات يا زوربا!

أخذ يقطع شرائح اللحم من حول ظهر الخروف، نظفه جيدًا بسكينه، وضعه نحو الضوء وراح ينظر بعناية.

– كل خير، قال؛ سنعيش ألف سنة يا سيدى؛ لدينا قلوب قوية.

انحنى ثانية وراح ينظر:

– إنى أرى سَفراً، قال؛ رحلة طويلة؛ وفى آخر الرحلة بيت كبير بأبواب كثيرة. ربما مدينة، يا سيدى؛ أو ربما دير وسأكون أنا البواب كما قلنا.

– صب النبيذ يا زوربا ودعك من النبوءات. سأقول لك أنا ما هو البيت ذو الأبواب الكثيرة؛ إنها الأرض التى بها شواهد القبور الكثيرة؛ هذه هى نهاية الرحلة؛ نخبكَ أيها الوغد!

– نخبكَ يا سيدى! إن الحظ أعمى كما يقولون؛ لا يدرى أين يذهب، يتعثر بالمارة؛ وعندما يصطدم بأحد؛ يصفونه محظوظاً. ليذهب إلى الجحيم هذا الحظ؛ لا نريد حظًا كهذا يا سيدى!

شربنا وأكلنا حتى تركنا الخروف عظامًا، بدا العالم خفيفًا، والبحر يضحك، والأرض تهتز مثل السفينة، زوج من النوارس يسير فوق حصى الشاطئ وراحا يتحاوران كالبشر.

وقفت.

– هيا يا زوربا، صحت، علمنى كيف أرقص!

انتفض زوربا وقد أشرق وجهه.

– هيا يا زوربا، غير حياتى هيا!

- سأعلمك أولاً رقصة الزيبكيكو؛ إنها رقصة رجولية وحشية. كان يرقصها الثوار قبل المعارك.

خلع حذاءه، ونزع جوربه القرمزى، بقى بقميصه؛ لكنه كان يختنق؛ فخلعه وألقاه جانبًا.

- انظر إلى قدمى يا سيدى وانتبه!

مد قدمك، المس الأرض بخفة، مد القدم الأخرى، هزها بقوة، بخطوات مبتهجة، تسمع صدى الأرض.

أمسك بكتفى:

- هيا يا رجل، الآن نحن معًا!

رحنا نرقص؛ كان زوربا يصحح خطواتى، كان جادًا وصبورًا، يفعل هذا برقة ومودة؛ كنت أتشجع، شعرت بأن قدمىَّ الثقيلتين قد أنبتتا أجنحة.

- مرحى أيها التلميذ النجيب! كم أنت رائع، صاح زوربا وهو يصفق بإيقاع حتى تنتظم خطواتى. أحسنت يا رجل! إلى الجحيم الأموال والمتاع! إلى الجحيم الأرباح والمصالح. هيا يا صاح؛ أنت الآن ترقص وتتعلم لغتى، كم لدينا الكثير ليحكِ كل منا للآخر!

رحت أدور بقدمىَّ الحافيتين على الحصى وأضرب يدىَّ مصفقًا.

أريد أن أقول لك شيئًا يا سيدى، لم أحبب رجلاً فى حياتى مثلما أحببتك أنت، أريد أن أقول لك الكثير من الأشياء لكن لسانى يعجز ولا يطاوعنى وسأقول ما أريد أن أقوله لك راقصًا! ابتعد قليلاً حتى لا أدوس عليك! هيا! هوب! هوب!

راح يقفز فى الهواء، قدماه ويداه صاروا أجنحة، واقفًا كان يهجم على الأرض، هكذا كما كنت أراه فى عمق السماء والبحر، كان يبدو لى مثل ملاك عجوز ثائر. فرقص زوربا هذا كان نوعًا آخرَ من التحدى، العناد والتمرد. كما لو أنه يصرخ: «ماذا تستطيع أن تفعل بى أيها الرب الجبار؟ لا شىء، لا تستطيع أن تفعل شيئًا لى؛ يمكنك أن تقتلنى فقط. اقتلنى إذن، فأنا لا أهتم؛ افعل ما يحلو لك، فلقد قلت ما أريده؛ تمكنت من أن أرقص، والآن، لست بحاجة إليك!»

كنت أشاهد زوربا وهو يرقص وأشعر للمرة الأولى بتمرد الإنسان، وقدرته فى أن يتحدى ثقل المادة، وقانون الجانبية، هذه اللعنة البدائية. أعجبت بقوة احتماله وذكائه وكبريائه؛ كانت خطواته العنيفة الفنية الذكية تكتب على الرمال قصة الإنسانية الشيطانية.

توقف وتأمل ركام المصعد الهوائى المعلق المنهار أكوامًا متفرقة؛ كانت الشمس تميل نحو الغروب، والظلال تستطيل، وجحظت عينا زوربا، كأنه تذكر فجأة شيئًا. فالتفت ونظر نحوى؛ ووضع كفه على فمه فى حركة من حركاته المألوفة.

– آآه يا سيدى! قال، هل رأيت الشرر الذى كان يصدر من هذا الشىء الملعون؟

انفجرنا معًا فى الضحك. ألقى زوربا بنفسه فوقى وعانقنى وقبلنى.

– لا أصدق أنك تضحك؟ قال لى برقة؛ أنت تضحك يا سيدى؟ هنأك الرب يا صاح!

رحنا نصيح من الضحك ونتصارع فوق حصى الشاطئ لفترة طويلة؛ وفجأة سقطنا وتمددنا على صخور الشاطئ ونمنا متعانقين.

استيقظت عند الفجر، وبدأت أسير بسرعة على الشاطئ نحو القرية، حيث كان قلبى يرفرف من السعادة.

نادرًا ما شعرت بسعادة كهذه فى حياتى فلم تكن مجرد سعادة، بل كانت شيئًا أسمى، إحساسًا غير طبيعى، وكنت فى مزاج رائق ورائع بلا سبب، وليس فقط بلا سبب بل على العكس، فقد خسرت كل ما أملك – العمال والمصعد الهوائى المعلق والعربات وكنا قد بنينا ميناءً صغيرًا للنقل؛ لكن الآن؛ لم يعد لدينا ما نشحنه أو ننقله؛ ضاع كل شىء.

ومع هذا كان ينتابنى إحساس رائع بالخلاص وكأننى اكتشفت داخل جمجمة الحاجة القاسية، فى ركن صغير، الحرية تلهو وتلعب وأنا ألهو وألعب معها.

عندما تفشل كل محاولاتنا، وأية سعادة يمكن أن تختبر الروح لترى إذا كان لديها احتمال أو بها قيمة! يظـن المـرء أن العــدو غير مرئى، أو شديد البأس – يسميه البعض الرب والبعض الآخر يسميه الشيطان – يهجم ليسقطنا ولكننا نصمد وننتصر وعندما نبدو من الخارج مهزومين هزيمة نكراء فالرجل الحقيقى يشعر بسعادة لا توصف عندما تتحول الهزيمة الخارجية إلى شىء سامٍ وهناء صعب المنال.

أذكر زوربا ذات ليلة قال لى:

– كنت فوق قمة أحد الجبال الثلجية فى مقدونيا وهب هواء شديد راح يهز الكوخ الصغير الذى كنت أحتمى به وكاد ينهار. لكننى كنت قد ثبت دعائمه وقويتها، وكنت أجلس وحيداً أمام المدفأة وأضحك وأسخر من الريح وأصيح فيها: «لن تدخلى خيمتى، لن أفتح لكِ الباب، لن تطفئى نار مدفأتى، لن تهزمينى!»

هذه الكلمات التى قالها زوربا قد قوت روحى: فهمت كيف ينبغى أن يتصرف المرء وماذا يقول فى ساعة الضرورة.

كنت أسير على الشاطئ بسرعة، أتحدث مع عدوى الخفى وأصيح فيه: «لن تدخــل روحى، لن أفتــح لك البــاب، لن تطفــأ نــار مدفــأتى، لن تهـزمنى!»

لم تكن الشمس قد اعتلت الجبل بعد، وكانت الألوان تتغير فى سماء البحر: أزرق وأخضر وورد ولؤلؤى، وفى أشجار الزيتون البعيدة كانت الطيور الصغيرة تستيقظ وتبدأ التغريد.

رحت أمشى على حافة الماء كى أودع هذا الشاطئ المهجور وأن أحدد فى عقلى ما الذى أريد أن أحمله معى وأنا أغادر؟

لقد قضيت أوقاتًا سعيدة على هذا الشاطئ، والحياة مع زوربا قد وسعت قلبى وبعض كلماته أثرت عقلى ومنحته الصفاء، فهو يعطى حلولاً بسيطة لهموم محيّرة بداخلى وهذا الرجل بغريزته المعصومة من الخطأ، وعينه النسرية البدائية، كان يختصر طرقًا كثيرة ويصل من أبسط طريق، بدون مجهود ويصل إلى قمة المحاولة - بلا محاولة؛ إلى الحقيقة.

صحبة من النساء والرجال مروا بسلال مليئة بالطعام والخضراوات، كانوا فى طريقهم إلى البساتين ليحتفلوا بأول أيام شهر مايو؛ صوت بنت صغيرة صعد مثل النافورة يغنى: فتاة صغيرة بصدر ناهدٍ، عبرت مهرولة من أمامى وهى تلهث وصعدت على صخرة عالية لتنجو؛ حيث يطاردها رجل بلحية سوداء بدا شاحبًا وغاضبًا.

- انزلى... انزلى... كان يصيح فيها وقد تحشرج صوته.

لكن البنت بخديها المتقدين، رفعت ذراعيها ووضعتها خلف رأسها وراحت تغنى وهى تهز جسدها بلطف:

- قلها لى بلطف، قلها لى بدلال،

قل لى لا تحبنى، لكن أنا لا يهمنى...

- انزلى... انزلى... صاح الرجل ذو اللحية السوداء وكان صوته يتوسل تارة ويهدد تارة أخرى.

وفجأة، وثب وأمسكها من قدمها بقوة، وكأن البنت كانت تنتظر هذا لتنفجر فى البكاء.

عبرتها سريعًا، كل هذه الأشواق كانت تسمم قلبى؛ حضرت إلى ذهنى الحورية العجوز؛ بدينة، وتفوح منها رائحة العطر بحياتها المشبعة بالقبل والعشاق، وقد أصابها البرد فى ليلة وها هى الآن تتوارى تحت أرضٍ ابتلعتها؛ لابد أن تكون قد انتفخت وتعفنت، وصارت طعامًا للديدان...

نفضت رأسى مذعورًا فأحيانًا تصبح الأرض شفافة، ونرى بوضوح الصانع الكبير، الدودة الكبيرة تعمل ليل نهار بدأب فى ورشة تحت التراب؛ لكن سرعان ما نشيح بأبصارنا عنه، لأن الإنسان يستطيع تحمل أى شىء ما عدا هذه الدودة الكبيرة.

عند مدخل القرية قابلت ساعى البريد، الذى كان يهم بنفخ البوق.

– نادى علىّ، وصلكَ خطاب يا سيدى! وأعطانى مظروفًا أزرق اللون.

قفزت فرحًا؛ فقد تعرفت على الخط الأنيق؛ أسرعت نحو القرية، دخلت بستان الزيتون وفتحت الخطاب بتلهف وكان الخطاب قصيرًا، فقراته فى نفس واحد.

«دخلنا حدود جورجيا، نجونا من خطر الأكراد، كل شىء على ما يرام، بدأت أعتقد الآن أننى أعرف معنى السعادة لأول مرة والآن فقط

أدركت لماذا أحيا، فقد أدركت معنى القول المسيحى المأثور: السعادة تعنى أن تؤدى واجبك. وكلما كان واجبك صعباً ازدادت سعادتك...

بعد أيام قليلة، هذه الأرواح اليونانية المشرفة على الموت ستتواجد فى باطوم، تلقيت اليوم برقيةً تقول: "لقد ظهرت المراكب الأولى!"

آلاف من اليونانيين المجتهدين الأذكياء وزوجاتهم البدينات وأطفالهم، سينقلون إلى مقدونيا وثراكى(٢٥). سوف نضخ دمًا جديداً متعافيًا فى شرايين اليونان.

أخفيت الرسالة وأسرعت بخطاى، وكنت أنا أيضًا أشعر بالسعادة. رحت أسير حتى الدرب العلوى المؤدى للجبل، وكنت أفرك فى يدى عوداً من نبات الزعتر، واقترب وقت الظهيرة، وكان ظلى قاتمًا تحت قدمى، راح صقرٌ يحوم فى السماء، وكان جناحاه يتحركان بسرعة شديدة مما يجعل الناظر يتخيلهما ثابتين لا يخفقان؛ طائر الحجل سمع خطواتى فارتجف وطار من فوق الشجيرات ورنّت رفرفة جناحيه فى السماء.

كنت سعيداً؛ لو كان بمقدورى، لغنيت حتى أنفس عما يجيش فى صدرى؛ رحت أطلق الصيحات فقط. «ماذا بك؟ قلت لنفسى بسخرية؛

---

(٢٥) ثراكي: مدينة فى شمال شرق اليونان، ويقطنها بعض اليونانيين الناطقين بالتركية أيضًا. (المترجم)

لم أعهدكَ وطنياً؛ هل تحب صديقك؟ اهدأ، ألا تخجل؟» لكن أحداً لم يجبنى؛ وأكملت طريقى نحو الجبل وأنا أصيح. سمعت أجراس قطيع من الماعز سودَ وبنية ورمادية كانت العنزاتُ تتلألأ فى عَرقها؛ وقد كان الكبش فى المقدمة بعنق متصلبة؛ وقد ملأت رائحته الهواء.

– انتظر لتشرب قليلاً من الحليب وتروى عطشك! صاح الراعى ناحيتى وهو يقفز من فوق الصخور مقترباً منى.

– أنا مشغول! قلت له. كما لو أنّى سأقطع سيل سعادتى حين أقف وأتكلم.

– لا تقبل الحليب! قال الراعى منزعجاً؛ حظًا سعيداً إذن!

وضع أصابعه فى فمه وأطلق صافرة ثم توارى وقطيع الماعز خلف الصخور.

وصلت بعد قليل إلى قمة الجبل؛ وكأن هذه القمة كانت مطلبى، فهدأت.

تمددت تحت ظل صخرة ونظرت إلى الحقول والبحر؛ رحت أتنفس بعمق، وكانت رائحة الهواء مريمية وزعتر.

قمت وجمعت ملء ذراعى مريمية وجعلت منها وسادة ثم تمددت؛ كنت متعباً، فأغمضت عينىّ.

للحظة راح عقلى يسرح فى المرتفعات العالية المغطاة بالجليد، حاولت أن أتخيل هذا القطيع من البشر والماشية يتجه نحو الشمال ويتقدمهم صديقى ولكن تشوش ذهنى بسرعة وسيطر على النعاس.

حاولت أن أقاوم النوم ففتحت عينى، وكان الغراب قد حطَّ أمامى على الصخرة، عند حافة الجبل؛ جناحاه الأسودان المائلان إلى الزرقة كانا يتلألآن تحت أشعة الشمس، وكنت أرى منقاره الأصفر بوضوح. انزعجت، بدا لى أنه نذير شؤمٍ فرميته بحجرٍ؛ فتح الغراب جناحيه ببطء.. بهدوء، وطار.

أغمضتُ عينى غير قادر على مقاومة النوم، لقد غلبنى النوم.

لم أنم سوى دقائق معدودات، عندما سمعت صوتًا عاليًا فقمت مفزوعًا؛ راح الغراب يحوم فوق رأسى ثم رحل وجلست على الصخرة أرتعشُ؛ رأيت حلماً كالنبوءة.. مزق عقلى.

رأيت، أننى كنت فى أثينا أصعد شارع إرمو(٢٦) وحيداً. الشارع خاوٍ والشمس حارقة، المحلات مغلقة، لا أحد. وفجأة، وأنا أعبر شارع كابنيكارياس، رأيت من ميدان سينداغما(٢٧) صديقى يهرول شاحبًا خلف

---

(٢٦) شارع إرمو: أحد الشوارع الرئيسية فى وسط العاصمة اليونانية أثينا. (المترجم)
(٢٧) ميدان سينداغما: من أهم الميادين فى وسط العاصمة اليونانية أثينا. (المترجم)

رجل طويل يسير بخطى عملاقة. كان صديقى يرتدى زيًا دبلوماسيًا، رآنى وصاح بى وهو يلهث من بعيد:

«يا معلمى، كيف حالك؟ لم أرك منذ سنوات؛ تعال الليلة لنتحدث.»

«أين؟» صحت أنا بصوت عال، إذ كان بعيداً عنى ولابد أن أصيح بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعنى.

«فى ميدان أمونيا[٢٨] فى المساء، عند الساعة السادسة. فى مقهى: "صنبور الجنة"».

«حسنًا سأكون هناك، أجبته.»

«هكذا تقول، قال بشكوى، لكنك لن تأتى.»

«سآتى بالتأكيد! صحت؛ أعطنى يدك!»

«أنا فى عجلة من أمرى.»

«لماذا أنت متعجل؟ أعطنى يدك!»

مد يده؛ وفجأة انفصلت يده عن كتفه وطارت فى الهواء وأمسكت بيدى.

فزعت من برودة يده، صرخت وقمت من نومى فزعاً.

---

(٢٨) ميدان أمونيا: من أهم الميادين فى وسط العاصمة اليونانية أثينا. (المترجم)

ما زال الغراب يحوم فوق رأسي؛ كانت شفتاى تقطران سماً.

التفتُّ نحو الشرق، ثبت عيني في الهواء، كما لو كنت أريد أن أثقب المدى وأرى شيئًا؛ كنت متيقنًا أن صديقي في خطر. صحت باسمه عاليًا ثلاث مرات:

– ستافروذاكي! ستافروذاكي! ستافروذاكي!

وكأني كنت أريد أن أمنحه الشجاعة؛ لكن صوتي تشتت في الهواء على بعد أمتار قليلة أمامي.

رحت أهبط الدرب نحو سفح الجبل، وكنت أتدحرج تقريبًا وأهبط مسرعًا، وكنت أحاول أن أنهك جسدي كي أحول مجرى الألم من روحي إلى جسدي. ولكن الشر كان يلعب بعقلي الذي كان يصارع كل تلك الرسائل الغامضة التي تستطيع أحيانًا أن تخترق الجسد وتعبر من خلاله إلى الروح وتملؤها رعبًا، بيقين بدائي، أكثر عمقًا من المنطق وأكثر حيوية. ونفس الخاصية ستكون بالتأكيد عند بعض الحيوانات؛ الخراف والفئران قبل الزلازل. استيقظت في داخلي روح الإنسان البدائي، الذي كان ملتصقًا بالأرض ويشعر بالحقيقة على التو دون أي تدخل من المنطق.

– إنه في خطر... إنه في خطر... همهمت؛ سوف يموت... من الممكن ألا يعرف حتى الآن؛ لكن أنا أعرف بالتأكيد.

نزلت الجبل مهرولاً، تعرقلت بالحصى فسقطت ومعى تدحرج سيل من الحصى. يداى وقدماى دامية، وقميصى ممزق.

- سوف يموت.... سوف يموت.... كنت أقول وفى حلقى غصة.

يبنى الإنسان التعس حول روحه سياجًا يظنه منيعًا ويلتجئ إليه ويظنُّ بأنه يرتب حياته وأمنه وأنظمته الجسدية والروحانية هناك حيث كل الأشياء تتبعُ روتينًا مقدَّسًا، ضمن منظومة من القوانين البسيطة والفاعلة وفى هذا المكان الغامض المحصّن تتحكم اليقينات وتزحف بثقة كما تفعل أم أربعة وأربعين. فيما العدو البغيض، العدو الأوحد الذى لم يتغير منذ آلاف السنين: اليقين الأعظم. وهذا اليقين انقضَّ من فوق الأسوار وهاجم روحى.

عندما وصلت إلى شاطئنا، وكأننى وصلت إلى خط دفاعى الثانى، وقفت ألتقط أنفاسى وأستجمع قواى.

«قلت لنفسى: إن كل هذه الأشياء هى وليدة قلقنا الداخلى، وتأخذ فى نومنا شكلا رمزيًا مبهرًا. نخلقها نحن بأنفسنا؛ لا تأتى إلينا من بعيد أو من مكان غريب؛ هى ليست رسائل تأتينا من جهة خفية غامضة ظلامية؛ نحن نملكها، دون أى قوة أو تدخل خارجى فروحنا لا تستقبل الأشياء، بل هى المصدر والمرسل؛ لا يجب أن نخاف»

هدأت؛ رتب المنطق الأمور داخل قلبى بعد هذه الرسالة الظلامية؛ قصقصت ريش الخفاش الأحمق وطردته بعد أن حولته إلى فأر، ثم هدأت.

عندما وصلت إلى الكوخ، ابتسمت سذاجتى وخجلت من أن عقلى ينتابه الذعر بهذه السرعة والسهولة؛ عدت بسلام إلى طريق الروتين المقدس، شعرت بالجوع والعطش والإرهاق وكانت الجروح التى أصابتنى من أثر السقوط على الحصى تؤلمنى ألمًا لاذعًا؛ لكننى رغم كل هذا كنت أشعر بالسكينة: العدو الغادر الذى قفز فوق أسوار الروح تم صده والتغلب عليه عند خط المقاومة الثانى للروح.

انتهى كل شيء وجمع زوربا كل الأسلاك والمعدات والعربات والحديد والخشب وكومها على الشاطئ إلى أن تأتي مركب تحملها.

- إنها هدية لك يا زوربا، قلت؛ كلها لك، حظًا طيبًا!

ابتلع زوربا ريقه كأنه يحاول أن يتماسك كي لا يبكي، ثم همهم.

- هل سنفترق يا سيدى؟ إلى أين ستذهب؟

- سأسافر إلى الخارج؛ فالعنزة التى بداخلى تنتظرها أوراق كثيرة لتأكل.

- ألم تتعلم شيئًا يا سيدى؟

- تعلمت يا زوربا، والفضل لك؛ لكن على أن أكمل طريقى؛ سأفعل مع الكتب ما فعلته أنت مع فاكهة الكرز؛ سآكل الكثير من الورق، حتى أشعر برغبة فى التقيؤ كلما رأيت كتابًا، وهكذا سأنجو منها.

- وماذا سأفعل أنا دون رفيق يا سيدى؟

- لا تحزن يا زوربا، سنلتقى مرة أخرى، من يدرى؟ فإن قوة الإنسان عظيمة، وعندما سنتقابل لننفذ مخططنا: سنبنى الدير كما نريده نحن،

بلا إله ولا شيطان، لكن به بشر أحرار، وستجلس أنت يا زوربا على البوابة، ستحمل المفاتيح مثل القديس بطرس، ستفتحه وتغلقه...

كان زوربا جالسًا على الأرض ويتكئ بظهره على جدار الكوخ، كان يملأ كأسه كلما فرغت، يشرب ولا يتكلم.

خيم الليل، أنهينا طعامنا ورحنا نثرثر ونشرب؛ سنفترق غداً - سأذهب غداً إلى المدينة.

- نعم.... نعم... قال زوربا وهو يشد شاربيه ويشرب من كأسه.

سماء الصيف فوقنا كانت مليئة بالنجوم؛ الليل فوقنا يومض؛ قلوبنا كانت تريد الصراخ لكنها متماسكة.

«قلت لنفسي: ودع كل شيء، انظر إلى زوربا واملأ عينيك جيداً، فلن تراه بعد ذلك أبدًا»

شعرت برغبة فى أن أرتمى بين ذراعيه وأجهش فى البكاء لكنى خجلت من فعل هذا؛ حاولت أن أضحك لأخفى تأثرى ولكن لم أستطع؛ غصة فى حلقى منعتنى من ذلك.

نظرت إلى زوربا يمط عنقه الرفيعة ويشرب بصمت؛ نظرت إليه وفكرت كم أن تلك الحياة فى الحقيقة لغز محير وغامض، وكيف يلتقى الناس ثم يفترقون مثل أوراق شجر تذروها ريح ماطرة؛ وكيف تحاول بعينيك أن تحافظ على ملامح وجه شخص تحب لكن عبثًا تحاول فبعد سنوات قليلة لا تذكر إن كانت عيناه زرقاوين أم سوداوين...

«صرخت فى أعماقى، لابد أن روح الإنسان مصنوعة من برونز قاسٍ أو من الفولاذ الصلب، لا الهواء!»

كان زوربا يشرب النبيذ ويحمل رأسه الغليظ منتصباً فوق كتفيه، ثابتًا. كأنه ينصت إلى خطوات تقترب أو تبتعد فى أعماقه البعيدة....

– فيمَ تفكر يا زوربا؟

– فيمَ أفكر يا سيدى؟ لا شىء. لا شىء أقول لك:

– نخبك يا سيدى!

قرعنا كأسينا. فهم كل منا أننا لن نستطع مقاومة الحزن أكثر من هذا. كان لابد أن نجهش فى البكاء أو نهم بالرقص حتى الثمالة.

– لما لا تعزف السانتورى يا زوربا! قلت مقترحاً.

– السانتورى؛ ألم نقل يا سيدى قبل ذلك أن السانتورى يحتاج إلى قلب كبير، سأعزف بعد شهر أو شهرين أو سنتين، لا أدرى؟ وسوف أغنى حينها أن اثنين من الرفاق يفترقان إلى الأبد.

– إلى الأبد! صرخت فى أعماقى مرعوباً.

قلت لنفسى ورحت أردد هذه الكلمة التى لا شفاء منها فى أعماقى لكن لم تكن لدى الشجاعة أن أسمعها بأذنى؛ أصابنى الذعر.

– إلى الأبد! قالها زوربا مجدداً، وهو يبتلع ريقه بصعوبة. إلى الأبد. ما تقوله لى أننا سنلتقى مرة أخرى ونبنى ذلك الدير، كأنك تواسى

شخصًا مريضًا على فراش الموت حتى تخلص روحه... أنا لا أقبل هذا الكلام! لا أحب أن أسمعه! هل نحن نساء كى نحتاج العزاء والمواساة؟ لا أريد هذا الكلام. نعم، إلى الأبد إذن!

– يمكن أن أبقى... قلت، مذعوراً من هذه الرقة الوحشية لزوربا. يمكن أن آتى معك؛ أنا حر!

هز زوربا رأسه:

– لا، أنت لست حرًا، قال: الحبل الذى يربطك هو فقط طويل بعض الشىء؛ ربما أكثر طولاً من حبال الآخرين، تروح وتجىءُ وتظن نفسك حرًا؛ لكن هذا الحبل لابد أن يقطع، وإذا لم تقطع هذا الحبل....

– سأقطعه يومًا ما، قلت بإصرار، لأن كلمات زوربا هذه لمست جرحًا مفتوحًا وعميقًا فى داخلى وأوجعتنى كثيرًا.

– صعب يا سيدى، صعب جدًا. الحياة تحتاج إلى الجنون؛ أتسمعنى، جنون؟ أن تغامر بكل شىء! لكن أنت لديك عقل وهذا العقل سيهلكك يومًا ما. العقل مثل البقال، يمسك دفتر حسابات، يكتب الوارد والخارج، أعطيت كذا وأخذت كذا، هذه هى الأرباح وتلك هى الخسارة. هو مرتب ومنظم، يحسب كل شىء ويتملكه الحذر دائمًا. لا يقطع الحبل أبدًا، لا! بل يحكم قبضته فى يده حتى لا يفلت منه، فلو أفلت منه؛ هلك المسكين! إنه شىء أشبه بشراب البابونج المهدئ، وشراب الروم الذى يجعلك تقلب العالم رأسًا على عقب!

– اعذرنى يا سيدى، فأنا قروى؛ الكلام يلتصق على أسنانى كما يلتصق الطين فى الحذاء؛ لا أستطيع أن أزين كلامى وأتحدث بطريقة مهذبة؛ لا أستطيع؛ لكنك تفهمنى.

أفرغ كأسه ونظر إلى.

– تفهمنى! صاح، كما لو أن غضبًا مفاجئًا قد تملكه؛ إنك تفهمنى وهذا ما يعذبك! فلو لم تكن تفهمنى لبدت عليك السعادة. ماذا ينقصك؟ أنت شاب، لديك مال، لديك عقل، صحتك جيدة، أنت إنسان طيب، لا ينقصك شىء بحق الشيطان! لكن شيئًا واحد ينقصك كما قلنا؛ الجنون. وهذا الشىء حين يغيب من المرء يا سيدى...

هززت رأسى، وصمت مجدداً.

كنت على وشك أن أجهش بالبكاء؛ كل ما قاله زوربا كان صحيحًا... عندما كنت صبيًا، كنت أشعر فى داخلى بطاقة ورغبات مجنونة تفوق طاقة البشر، كنت أجلس وحدى وأتنهد غضبًا وأشعر بأن هذا العالم لا يتسع لى.

لكن شيئًا فشيئًا وبعد سنوات قليلة، ازددت حكمةً؛ وصرت أضع الحدود وأفرق بين المتاح والمستحيل، الإنسانى والإلهى، كنت أمسك جيداً بطائرتى الورقية حتى لا ينفلت خيطها من يدى.

شهاب كبير سقط ورسم خطًا كبيراً فى السماء، وقفز زوربا من مكانه وجحظت عيناه وراح ينظر إليه مذعوراً، كأنها المرة الأولى فى حياته التى يرى فيها شهابًا يسقط من السماء.

- أرايت النجم؟ قال لى.

- نعم.

صمتنا.

لكن فجأة رفع زوربا عنقه النحيلة ونفخ صدره وأطلق صرخة يائسة وحشية، وفجأة تحولت هذه الصرخة البدائية إلى كلام بشرى باللغة التركية وبدأ يصعد من أعماق زوربا هذا اللحن القاسى المليء بالأشواق والمرارة والوحدة وكسر قلب الأرض، وسال سم الشرق العذب، وتعفنت بداخلى كل الخلايا التى كانت تمنحنى الفضيلة والأمل:

– Iki kiklik bir trpede otiyor

Otmede, kiklik, bemin dertim yetiyor,

aman, aman

صحراء، الرمل الناعم الممتد، الهواء يرتعش ورديًا، أزرق وأصفر، خداك تحركا، وأطلق صوت الروح صيحة مدوية ويفرح بأن أحداً لم يجب. صحراء... صحراء... والعيون تمتلئ بالدموع.

- طائرا الحجل على التل صدح.

لا تصدح أيها الطائر، فيكفينى شوقى وآلامى، أمان، أمان، أمان!

صمت زوربا ومسح العرق من على جبهته بإصبعه ونفضه على الأرض. ثم أطرق ينظر إلى الأرض.

– سألت بعد وقت ليس بالقليل. ما هذه الأغنية يا زوربا؟

– إنها أغنية راعى الجِمال. ويغنيها وهو فى الصحراء. لم أكن أتذكرها ولا غنيتها لسنوات طويلة. والآن....

كان صوته جافًا وقد تحشرج حلقه.

– قال: حان الوقت كى تنام يا سيدى، لابد أن تستيقظ مبكرًا غدًا حتى تذهب إلى المدينة لتستقل المركب. طابت ليلتك!

– لا أشعر بالنعاس، أجبت؛ سأبقى ساهراً. إنها ليلتنا الأخيرة معًا.

– ولأنها كذلك؛ لابد أن ننتهى منها بسرعة، صاح زوربا وقلب كأسه الفارغة – كإشارة بأنه توقف عن الشراب. هكذا، كما يفعل الرجال ويتوقفون عن التدخين والنبيذ والميسر؛ بشجاعة.

أبى كان رجلاً شجاعًا؛ لا تنظر إلى أنا؛ فأنا لا أساوى نفخة فيه ولا أكاد أكون شعرة عشب تصل حد كعبه وكان مثل الإغريق كما يقولون؛ كان يصافحك ويكاد يهشم عظام كفك. فأنا أتحدث كالبشر بين الحين والآخر أما أبى فكان يزأر ويصهل ويغنى؛ نادرًا ما كانت تخرج منه كلمة طيبة مثل البشر الطبيعيين.

كانت به جميع العيوب وامتنع عنها كلها مثل قطع السيف. كان يدخن مثل مدخنة؛ وذات صباح استيقظ وذهب ليحرث حقله،

وعندما وصل إلى الجسر وضع يده فى حزامه بتلهف ليخرج كيس التبغ ليلف سيجارة قبل أن يبدأ العمل. أخرج الكيس وكان فارغًا، إذ نسى أن يملأه قبل أن يغادر المنزل.

غضب وزمجر، وفجأة التفت وبدأ يجرى نحو القرية، فقد كان الدخان يسيطر على مزاجه. لكن فجأة وهو يجرى - إن الإنسان حقًا لغز غامض - توقف وخجل من نفسه، أخرج الكيس الفارغ ووضعه بين أسنانه ومزقه بعصبية شديدة وراح يسب:

- حماقة، قذارة، عاهرة!

ومنذ تلك اللحظة لم يدخن سيجارة فى حياته.

«هكذا يفعل الرجال يا سيدى؛ طابت ليلتك»

نهض، ومشى نحو الشاطئ ولم يلتفت إلى الخلف، وصل إلى الشاطئ وتاه منى فى الظلام.

لم أره بعد ذلك أبدًا، جاء المكارى فى الصباح، امتطيت البغل وغادرت. أعتقد وربما أكون مخطئًا أنه كان مختبئًا فى مكان ما؛ لكنه لم يأتِ كيما نتبادل كلمات الوداع المعتادة، وحتى لا تذرف عيوننا الدموع ونلوح بالأيادى والمناديل ونتبادل القسم والوعود.

تم فراقنا كقطع السيف.

تسلمت برقيَّةً فى المدينة؛ نظرت إليها لوقت طويل، كانت يدى ترتعش. كنت أعرف ما بداخلها؛ رأيت بيقين مذعور كم عدد الكلمات التى به وكم عدد الحروف.

تملكتنى رغبة فى أن أمزقه؛ لماذا أقرؤه إذا كنت أعرف ما به؟ لكن يا ويلنا! ليس لدينا يقين بما تمليه علينا أرواحنا، إنه العقل - البقال -، يسخر منها كما نسخر من الساحرات العجائز. فتحت البرقية، كان من تفليذا؛ كانت الحروف ترتعش أمام عينى، لم أعد أميز؛ لكن شيئًا فشيئًا بدأت الحروف تثبت أمامى، وقرأت:

«فى مساء الأمس وبعد إصابته المفاجئة بالتهاب رئوى، مات ستافروذاكيس».

مرت خمس سنوات، خمس سنوات طوال، عصيبة، انطلق فيها الزمن وراحت الحدود والبلدان ترقص، تتمدد وتتكمش مثل آلة الأكورديون. فى لحظة افترقنا أنا وزوربا وجرفتنا العاصفة، وباعدت بيننا كانت الكوارث والجوع ومن وقت لآخر كنت أتلقى منه بطاقة قصيرة.

مرة من جبل أثوس - أرسل لى بطاقة عليها صورة العذراء حارسة البوابات بعينيها المتألمتين وفكها الصلب، المفعم بالإصرار والإرادة؛ وكتب لى بقلمه الغليظ الذى كان يشق الورق: «لا يوجد عمل هنا يا سيدى؛ هنا الرهبان يدقون حدوات للبراغيث؛ سأغادر!» وبعد أيام قليلة:

تلقيت منه بطاقة أخرى. «لا أستطيع أن أعود إلى الدير، فأنا أحمل الببغاء في يدى مثل مهرج؛ لقد أهديته إلى كاهن يهوى الطيور ولديه شحرور علمه التراتيل ذلك الأحمق، سيعلم الببغاء المسكين كيف ينشد التراتيل هو الآخر... كم رأى هذا المسكين في حياته، الآن سيصبح الببغاء قساً! أتمنى لك التوفيق.»

توقيع - الأب أليكسيس الوحيد.

بعد ستة أو سبعة أشهر؛ وصلتنى بطاقة أخرى من رومانيا عليها صورة امرأة بدينة:

«ما زلت على قيد الحياة، أكل مماليجا وأشرب البيرة، أعمل في حقول النفط، فأر ينقب عن الزيت. لكن يوجد هنا بغزارة كل ماتشتهى الأنفس؛ إنها جنة للعجائز الحمقى مثلى؛ تفهمنى يا سيدى؛ الحياة عاهرة والرب مقدس. تحياتى وقبلاتى.

أليكسيس زوربيسكو - فأر البترول.

مر عامان وإذا بى أتلقى بطاقة جديدة من صربيا الآن: «ما زلت على قيد الحياة، البرد هنا قارس بشكل شيطانى، واضطررت للزواج؛ انظر إلى خلف البطاقة إلى وجهها؛ قطعة فنية أنثوية. بطنها منتفخ قليلاً لأنها تعد لى زوربا الصغير. وأنا أرتدى الحلة التى أهديتنى إياها، خاتم العرس الذى ترتديه هو خاتم بوبولينا المسكينة - قدس الرب عظامها (ليس مستحيلاً)! هذه اسمها ليوبا. السترة التى أرتديها هى من فرو الثعالب،

كانت مهر زوجتى؛ أهدتنى خنزيرة وسبعة خنازير صغار، أمور عجيبة. هى أرملة ولديها ولدان من زوجها الأول. وجدت هنا منجم ماغنيسيوم فى أحد الجبال، تورطت مجدداً مع رجل أعمال رأسمالى، أعيش حياة رغدة مثل الوجهاء. تحياتى وقبلاتى...

أليكسيس زوربوفيتش

على ظهر البطاقة كانت صورة زوربا ممتلئًا بعض الشىء يبدو فى هيئة رائعة كعريس يرتدى قبعة من الفرو ويمسك بعصاه مفتخراً ويرتدى سترة طويلة على أحدث طراز. والحسناء الصربية متعلقة فى ذراعة لا تبدو أكبر من ٢٥ عامًا، فرس برية وشقية بصدر ممتلئ، ترتدى حذاء بعنق طويل. ومكتوب تحتها بخط زوربا السميك المعقوف: «أنا زوربا وهذه القضية اللامنتهية، المرأة؛ والآن اسمها ليوبا.»

كل هذه السنوات كنت أسافر إلى الخارج. كان لدى أنا أيضًا قضيتى اللامنتهية؛ لكن لم يكن لها لا صدر ممتلئ ولا معطف لتعطينى ولا خنازير. وذات يوم فى برلين، وصلتنى برقية تقول:

«وجدت حجارة خضراء بديعة؛ تعال فى الحال. زوربا»

لم تكن لدى الشجاعة أن أترك كل شىء وأفعل ولو لمرة فى حياتى فعلاً واحداً مجنونًا.

منذ ذلك الحين لم يكتب لى مرة أخرى؛ دخلنا فى أحداث اضطرابات عالمية، كان العالم ينهار مثل رجل ثمل، صار الحب والمعنى فى هذه الأيام شيئًا مهملاً.

كنت أتحدث كثيراً مع أصدقائى وأتذكر هذه الروح العظيمة؛ كنا نفخر ونعجب بثقة وكبرياء الرجل غير المتعلم، فهو شىء بعيد عن الإدراك الذهنى وهو قمة روحية تحتاج منا سنوات كثيرة وجهداً عظيماً كى نصل إليها، بكلمات بسيطة كان يصل إلى الحقيقة والحكمة، وكنا نقول: «إن زوربا هو روح عظيمة»؛ أو كنا نقول: «إنه مجنون».

كان الوقت يمر هكذا عذبًا ومريراً من الذكريات، وظل الصديق الآخر الذى سقط ومات عندما كنت على الشاطئ الكريتى، فى الفترة التى كنت فيها مع زوربا، كان يثقل روحى ولا يتركنى - لأننى أبداً لم أتركه.

لم أكن أتحدث عن هذا الظل لأحد؛ كان قمة الحوار الذى أمارسه مع القمة الأخرى التى اعتدت أن أتصالح فيها مع الموت؛ كان جسراً سريًا لى نحو العالم الآخر، وعندما تمر هذه الروح الميتة، كنت أشعر كم هى منهكة وشاحبة ولم تكن لديها قدرة على التحدث ولم تكن لديها قوة كى تصافح يدى.

أحيانًا أفكر بقلق - ربما لم يلحق صديقى أن ينقل جسده كلية من على الأرض وربما ما زال يحاول أن ينقذ روحه فى اللحظة الحاسمة من رعب الموت فتبعثرت روحه فى الهواء. ربما، كنت أفكر، أنّه يواجه خطر الفناء، لأنه لم يكن لديه الوقت الكافى كى يخلد ما يمكنه تخليده من العالم الفانى.

لكنه فجأة يصبح قويًا - هو أم أنا الذى أذكره على هذه الطريقة؟ - ويأتى قويًا متجدداً، وأكاد أسمع خطواته على الدرج.

منذ وقت ليس ببعيد، انطلقت فى رحلة نحو جبال إنغادين المكسوة بالجليد، حيث أمضينا أنا وصديقى وامرأة كنا نحبها أيامًا جميلة هناك.

كنت مستلقيًا على الفراش، فى نفس الفندق الذى أقمنا فيه آنذاك. كنت نائمًا والقمر ينساب من النافذة، أحسست بروح الجبال النائمة وأشجار الصنوبر المغطاة بالجليد والليل الأزرق العميق.

شعرت فى الجبل بفرحة ونشوة لا توصفان؛ وكأن النوم بحر عميق هادئ شفاف، وأنا مستلق فى أعماقه ثابتًا وسعيداً؛ وكانت حساسيتى عالية حيث إننى كنت أشعر أن أى مركب يمر على سطح الماء سوف يجرح جسدى.

وفجأة يسقط هذا الظل فوقى؛ أدركت من هو، وسمعت صوته يقول لى لائمًا:

«هل أنت نائم؟»

أجبته بنفس النبرة:

«لقد تأخرت كثيراً؛ مرت شهور ولم أسمع هذا الصوت... أين كنت؟»

«أنا دائمًا معك، لكنك تنسى. ليست لدى القوة دائمًا كى أنادى وأصرخ، لكنك تريد أن تهجرنى. إن القمر جميل، والأشجار المكسوة بالجليد جميلة، إن الحياة رائعة فى العالم العلوى - لكن لا تنسانى».

«لم أنسك قط، تعرف هذا. فى الأيام الأولى كنت مغادراً إلى الخارج، رحت أدور فى جبال وعرة، تعب جسدى، كنت أسهر كثيراً وأبكيك كثيراً. لقد كتبت أشعاراً، حتى لا يخنقنى الألم؛ لكن الأشعار والأغانى التى كتبتها كانت سيئة، ولم تأخذ عنى الألم الذى أتنشقه. كانت إحداها هكذا:

رأيتك تسير بجوار الموت فأعجبتنى
خفتكما وأنتما تصعدان الدرب البعيد
مثل رفيقين يستقيظان سوياً ويغادران...

والأخرى لم أنتهِ منها، ورحت أغنى بصوت عال:
«تماسك يا صاحبى الحبيب ولا تتعجل الفراق!»

ابتسم بمرارة؛ مال واقترب من وجهى فذعرت عندما رأيت شحوبه.

نظر إلى طويلاً، لم يتكلم، ومحجرا عينيه كانا فارغين؛ لم تكن بهما عينان؛ فقط كرتان من التراب.

«بمَ تفكر؟ همهمت؛ لمَ لا تتكلم؟»

جاء صوته مرة أخرى مثل تنهيدة بعيدة:

«آه، ماذا بقى من روح لم يكن العالم يتسع لها! بعض أبيات ناقصة ومبعثرة لأحد آخر، لم تكتمل حتى لتصبح رباعية! أروح وأجىء فوق الأرض، أدور على أحبائى، لكن قلوبهم قد أوصدت. من أين أدخل؟ كيف أعود إلى الحياة؟ أدور مثل كلب حول بيت سيده الذى أغلقت أبوابه... آه، لو كنت أستطيع ان أعيش حراً، ولا أضطر لأن أتعلق مثل الغريق بدفء أجسادكم!»

تدفقت الدموع من محجريه، فتحول التراب فيهما إلى طين.

لكن بعد قليل علا صوته:

«إن أكبر سعادة أعطيتنى إياها، قال، كانت يوم عيدى ميلادى حين كنا فى زيورخ، أتذكر؟ تحدثت عنى. أتذكر؟ كانت روح أخرى معنا ذلك اليوم...»

«نعم، أتذكر، أجبت؛ كانت تلك المرأة التى كنا نناديها سيدتنا...»

صمتنا. كم قرن منذ ذلك اليوم مضى! كنا نجلس على المائدة فى الدفء فيما الثلج يسقط فى الخارج، كنا ثلاثة من الأصدقاء الأحباء، قلت يومها مديحاً فى صديقى.

«بمَ تفكر يا معلمى؟» سألنى قال صديقى بسخرية.

«بالكثير من الأشياء...»

«أنا، أذكر كلماتك الأخيرة؛ رفعت كأسك وقلت: "ياسيدتى، عندما كان ستافروذاكيس طفلاً وكان جده يضعه على ركبته وعلى الركبة الأخرى كان يحمل ليرة كريتية ويعزف أغانى الرجولة؛ لنشرب الليلة نخبه: ليجعلك القدر تجلس دائماً فى أحضان الرب للأبد!"

«يبدو أن الرب استجاب لدعوتك بسرعة يا معلمى»

«لا يهم، قلت. الحب ينتصر على الموت دائماً»

ابتسم بمرارة، ولم يتكلم؛ شعرت أن جسده يتحلل؛ دخل الموت حياتى بوجه شخص محبوب، مثل صديق جاء ليصحبنا وجلس ينتظرنا عند الزاوية، حتى ننتهى من عملنا، ولا يتعجل. وراح بهدوء يشعر ويدرك معنى الموت.

يتسلل الموت إلى حياتنا مثل رائحة تصيبنا بالدوار؛ غالبا عندما تجلس وحيداً فى ليلة قمرية ويخيم الصمت العميق وتشعر بجسدك مرهقًا وخفيفًا ولا يكون حاجزًا أمام الروح، وتستغرق فى النوم. عندها، وفى لحظة يصبح العازل بين الحياة والموت شفافًا وترى ما يحدث خلفه، ما يحدث تحت التراب.

فى لحظة خفيفة كهذه، هنا فى عزلتى، ظهر لى زوربا فى منامى. لا أذكر كيف كانت هيئته أو ماذا قال لى، أو لماذا أتى؛ لكن عندما استيقظت،

كـان قلبى يدق بسـرعـة؛ وفـجــأة، دون أن أعـرف السـبب، اغـرورقت عينـاى بالدمـوع.

شعرت بوحشة كبيرة - لا لم تكن وحشة، أو افتقاداً أو احتياجاً - لكن سيطرت على عقلى فكرة أن أعيد ترتيب الحياة التى عشناها معًا أنا وزوربا على الشاطئ الكريتى، رحت أضغط على ذاكرتى حتى تتذكر وتستعيد وتستجمع كل كلمات زوربا وحواراتنا المبعثرة، صوته وحركاته، وإيماءاته وضحكه، بكائه ورقصه - لكى أنقذها من النسيان.

كانت رغبتى هذه قوية، حتى أنى خفت أن يكون هذا علامة ما من مكان ما على الأرض، وأن يكون زوربا يرسلها لى وهو يحتضر؛ كنت أشعر أن روحى متحدة مع روحه، وكان يبدو لى مستحيلاً أن تموت إحداهما دون أن ترتجف الأخرى أو تصرخ.

ترددت للحظة كى أستجمع آثار زوربا فى ذاكرتى وأترجمها إلى كلمات. واعترانى خوف مرتبك؛ قلت: «ربما إذا فعلت هذا سيعنى أن زوربا حقًا فى خطر؛ سوف أقاوم هذه اليد التى تدفع يدى للكتابة».

قاومت يومين، ثلاثة أيام، أسبوعًا. دفعت نفسى لكتابات أخرى، ذهبت فى رحلة، قرأت؛ كنت أفعل كل هذه الحيل حتى أخدع هذا الحضور الخفى.

لكن عقلى كله كان منصبًا ومركزًا وقلقًا بشدة على زوربا.

كنت أجلس ذات يوم على سطح منزلى على شاطئ جزيرة إيجينه(٢٩)

فى الظهيرة، كانت الشمس قوية، كنت أنظر إلى أطراف سالامينا العارية.

وفجأة ودون أن يكون هذا الشىء فى عقلى، سحبت ورقة وتمددت على أرضية السطح الحجرية الملتهبة ورحت أكتب عن زوربا.

كنت أكتب بلهفة وعجل ورحت أسترجع الماضى بلا صبر، محاولاً أن أتذكر كل شىء عن زوربا. وكأنى كنت مسئولاً عن إنقاذ هذه الحياة والتفاصيل حتى لا تضيع ورحت أكتب ليل نهار لأبث الحياة فى صورة صديقى العجوز.

كنت أكتب مثل السحرة فى القبائل البدائية فى إفريقيا، الذين يرسمون على جدران الكهوف حيوات أسلافهم كما يرونها فى أحلامهم، ويصارعون حتى يرسموها بكل تفاصيلها وبأقصى صدق ممكن، كى تستطيع الروح أن تتعرف على الجسد حينما تعود مرة أخرى.

انتهيت من كتابة هذه التدوينات فى أسابيع قليلة.

فى اليوم الذى أنهيت فيه الكتابة كنت جالسًا فى شرفتى عند الغروب أنظر إلى البحر؛ أحمل المخطوطة المنتهية على ركبتى. كنت أشعر بالسعادة وكأنى نفضت حملاً من على كاهلى؛ مثل إحساس امرأة ولدت بعد حمل طويل، والآن تحمل مولودها الجديد بين أحضانها.

---

(٢٩) جزيرة إيجينه: إحدى الجزر اليونانية القريبة من العاصمة أثينا. (المترجم)

وعندما غربت الشمس، صعدت على سطح المنزل، جاءت سولا الفتاة التى تجلب لى البريد من المدينة؛ فتاة مكتنزة حافية مفعمة بالحيوية. تركت لى حزمة الخطابات وغادرت مهرولة. فهمت. أو هكذا بدا لى أننى أدركت؛ لأننى عندما فتحت الرسائل وقرأت لم أقفز من مكانى أو أصرخ، لم أتفاجأ. كنت متأكداً. كنت أعرف جيداً أننى فى اللحظة التى أنظر بها إلى الشمس وهى تغرب حاملاً على ركبتى هذه المخطوطة وقد صارت منتهية، سوف أتسلم هذا الخطاب.

بهدوء ودون بكاء، قرأته؛ كان مرسلاً من قرية ما بالقرب من سكوبيا فى صربيا، مكتوباً بلغة ألمانية ركيكة، وترجمته:

«أنا مدرس القرية وأكتب لك كى أنقل لك هذا الخبر الحزين، إن أليكسيس زوربا الذى كان يمتلك منجم معادن هنا، مات يوم الأحد الماضى فى السادسة مساءً. وقال وهو يحتضر:

"تعال هنا أيها المدرس، قال لى، لدى صديق فى اليونان؛ إن مت اكتب له أننى مت وأننى فى لحظاتى الأخيرة كنت فى كامل قواى العقلية، وكنت أذكره. وأننى لم أندم على أى شىء فعلته. ليكن بخير ولينتبه لنفسه وأنه قد حان الوقت أن يعيش حياته... وإذا جاء أى كاهن ليأخذ اعترافاتى ويمنحنى السر الإلهى المقدس، قل له أن يذهب إلى الجحيم، وأن يترك لى لعناته! لقد فعلت الكثير والكثير فى حياتى ولكننى أشعر أننى لم أفعل شيئًا؛ بشر مثلى كان يجب أن يعيش ألف سنة. طابت ليلتك!"

كانت هذه كلماته الأخيرة؛ ثم اعتدل على وسادته وألقى بالملاءات وحاول النهوض فركضنا كى نمسك به، أنا وزوجته ليوبا وبعض الجيران الأشداء لكنه دفعنا بعيداً ونزل من على الفراش وذهب نحو النافذة. وأمسك بجدار النافذة ونظر نحو الجبال، وجحظت عيناه وبدأ يضحك ثم يصهل مثل الحصان وكان واقفاً وأظافره متشبثة بالنافذة، جاءه الموت.

نادتنى زوجته ليوبا وأمرتنى أن أكتب لك بأنها ترسل إليك بالتحيات وتخبرك بأنه كان يحدثها كثيراً عن نبلك وأن الراحل أوصاها أن تعطيك السانتورى إذا مات، كى تتذكره.

تطلب منك الأرملة إذا ما صادفت قريتنا فى طريقك يومًا أن تأتى وتقضى الليلة فى ضيافتها وتأخذ السانتورى معك حين تغادر».

(النهاية)

المؤلف فى سطور :

نيكوس كازانتزاكيس

- يعتبر من أهم وأشهر كتّاب اليونان فى العصر الحديث على المستوى العالمى، بل ويعد من أهم الكتّاب على مستوى العالم.

- ولد فى جزيرة كريت فى عام ١٨٨٣ حيث أمضى طفولته، كان والده الكابتن ميخائيل (أو ميخاليس) كما يقول اليونانيون، أحد المناضلين ضد الاحتلال التركى؛ ورغم أنه لم يكن متعلمًا فإنه أصر أن يكمل ابنه تعليمه.

- فحصل الابن على شهادة الدكتوراه فى الحقوق من مدرسة أثينا للقانون، ودرس الفلسفة فى باريس. كان من هواة البحث والسفر، ومن أشد المتأثرين بكل من نيتشه وبوذا . ويتهم بأنه دائم الانتقاد للأديان، لكنه كان ينتقد استخدام الدين غطاءً للتهرب من المسئولية والعمل الفعال.

- انضمّ فى عام ١٩١٢ إلى صفوف الجيش اليونانى فى حرب البلقان ثم فى عام ١٩١٩ عين مديرًا عامًا فى وزارة الشئون

الاجتماعية وكان مسئولاً عن تأمين الغذاء والعودة لحوالى ١٥ ألف يونانى من القوقاز إلى اليونان.

- عين وزيراً فى عام ١٩٤٥ ثم مديراً فى اليونيسكو ١٩٤٦، حيث كان يعمل على ترجمة الأعمال الكلاسيكية العالمية لتعزيز جسور الثقافة بين الحضارات وبخاصة بين الشرق والغرب. ثم استقال وتفرغ للكتابة فيما بعد. تعتبر أعماله شاهداً على أفكاره وسيرة حياته الشخصية بشكل ما.

- تنوعت أعماله بين الشعر والرواية وأدب الرحلات والكتابات الفلسفية.

من أهم أعماله:

- رياضات روحية.
- الثعبان والزنبقة.
- الحرية والموت.
- الكابتن ميخاليس.
- أليكيس زوربا، سيرته وحياته.
- الإغواء الأخير للمسيح.
- تقرير إلى جريكو.

- الأوديسية التكميلية، ملحمة من آلاف الأدبيات وقد بدأها الكاتب من حيث انتهى هوميروس. ويعد هذا العمل كنزًا فى الأسلوب والمفردات اللغوية، كما أنه يظهر مدى عمق ثقافة الكاتب.

- رشح لنيل جائزة نوبل فى عام ١٩٥٦ لكن فاز بها ألبير كامو بفارق صوت واحد.

- مُنح جائزة لينين فى عام ١٩٥٧ وهو العام الذى توفى فيه عن عمر يناهز الـ٧٥ عامًا.

- لم تقبل الكنيسة الأرثوذكسية تشييعه ودفنه فى أثينا وفق عقيدتها، فدفن فى جزيرة كريت مسقط رأسه، وكتب على مقبرته بناءً على طلبه... (لا آمل فى شىء، لا أخشى شيئًا، أنا حر).

- هناك متحف فى جزيرة كريت يحمل اسمه وبه متعلقاته الشخصية وأول نسخ من صدرات مؤلفاته.



فلسفة الكتب
2021

المترجم فى سطور :

خالد رءوف

- مواليد الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.
- درس الآثار اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية وجامعة أثينا.
- درس اللغة اليونانية فى جامعة أثينا وحصل على دبلوم الترجمة من نفس الجامعة وكذلك دبلوم فى الترجمة من مدرسة الاتحاد الهلينى الأميركى.
- درس اللغة الإيطالية فى مدرسة KAPATO، وحصل على شهادة فى اللغة الإيطالية معتمدة من جامعة روما.
- حصل على إجازة الماجستير والدكتوراه بمرتبة الشرف من جامعة شيكاغو فى تاريخ الفن الكلاسيكى (اليوناني/ الرومانى).
- ترجم من الإنجليزية إلى اليونانية (الحب الأول) لصمويل بيكيت، والتى قام بعد ذلك بإعدادها للمسرح الشاعر اليونانى ثانوس ستاثوبولوس - ثم ترجمها من اليونانية إلى العربية لفرقة ART SYNDYCATE، والتى شاركت بها الفرقة فى مهرجان المسرح التجريبى فى عام ٢٠٠٤.

- ترجم من الإنجليـزية إلى العـربيـة مـسـرحـيـة تينيـسى ويليـام (الحيوانات الزجاجية) لفرقة المدينة للفنون الأدائية والرقمية.

- ترجم بعض قصائد لـ"أونجاريتى" من الإيطالية إلى العربية.

- ترجم بعض القصـائد للشـاعـر اليـونانى نيكوس كـافـاذياس من اليونانية إلى العربية.

- نشـرت له مـجـموعـة من القـصـائد باليـونانيـة فى بعض الجـرائد اليونانية وبعض المجلات المتخصصة.

- ترجم مختارات شعرية للشاعر اليونانى الكبير يانيس ريتسوس من اليـونانيـة إلى العـربيـة، صـــدرت عن دار جـدار للثـقــافـة والنـشـــر.

التصحيح اللغـوى: عبد المجيد البطاوى
الإشـراف الفنـى: حـسـن كـامـل

لو كان مفروضًا علينا فى العالم أن نختار مرشدًا روحيًا كما يسميه الهنود، أو قسًا حكيمًا عجوزًا كما يسميه الرهبان فى جبل أثوس، فمن المؤكد أننى كنت سأختار زوربا.

هذا الرجل لديه كل ما يحتاجه أى شخص مثقف كى ينجو؛ العين البرية التى ترصد غذاءها بحدة، والإبداع، والبساطة المتجددة كل صباح بأن يرى كل شىء لأول مرة، ويمنح العناصر اليومية الأبدية عذرية خاصة ـ الهواء، والبحر، والنور، والمرأة، والخبز؛ يقين الكف وطزاجة القلب، الشجاعة فى أن يسخر من ذاته وروحه، كان لديه قوة أخرى أقوى وأرقى من الروح، وأخيرًا ضحك صاخب يأتى من نبع عميق، أعمق من أحشاء الإنسان، ضحك ينفجر فى صدر زوربا العجوز فى اللحظات الحرجة فيشفى ويحرر كل الآلام، كما كان يفجر ويستطيع أن يهدم، بل كان يهدم كل عائق ـ الأخلاق، والدين، والوطن ـ هذه الأشياء التى كان الإنسان الجبان يمارسها بدأب كى يعبر درب حياته الآمنة كالأعرج.

ترجمة جديدة لرائعة كازانتزاكيس عن اليونانية مباشرة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح